

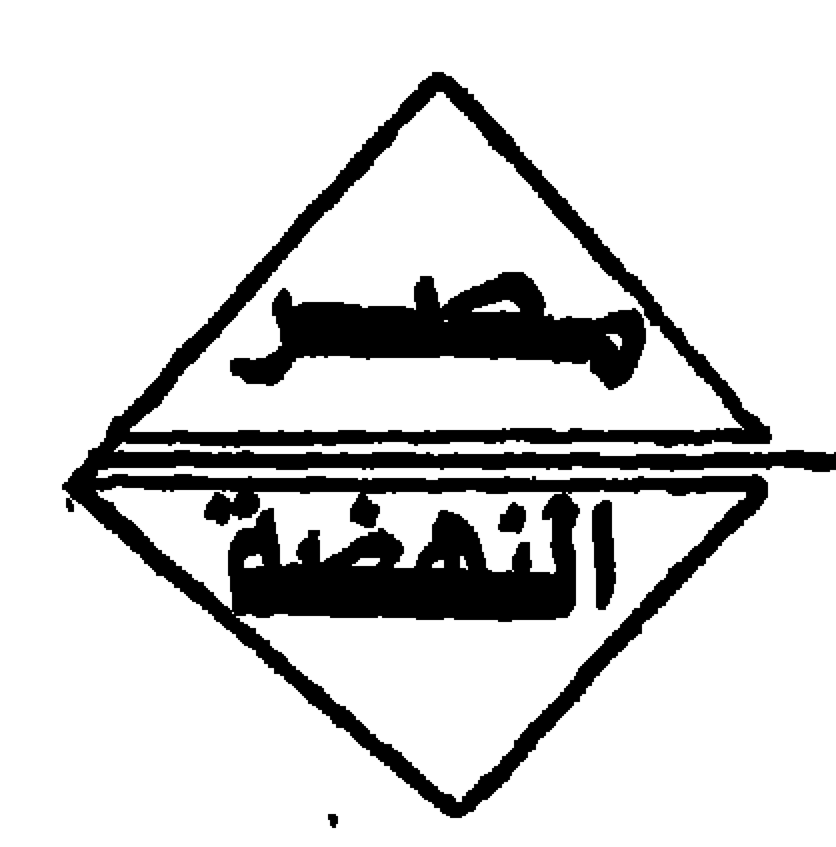




مصر في كتابات الرحالة الفرنسيين في القرن التاسع عشر

د . إلهام محمد على ذهنى





مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر

إشراف: أ.د. يونان لبيب رزق

مدير التحرير: خلف عبد العظيم الميرى

مصر

في كتابات الرحالة الفرنسيين في القرن التاسع عشر

١٨٠٥ – ١٨٧٩

د. إلهام محمد علي ذهني

تقــــديم

بهذا العمل تستكمل الدكتورة الهـام محمد ذهنى ثلاثيتها عن « مصر فى كتابات الرحالة الفرنسيين » فيما سجلته فى مستهل مقدمتها لهذه الدراســة ، كان من نصيب « مصر النهضــة » الجزءين الأول الذى صــدر فى عددها السادس عشر ، والجزء الأخير الصادر فى هذا الكتاب .

ومع أن كتابات عديدة صدرت عن « مصر فى عيون الأوربيين » فان عملا ينصب على شعب من هؤلاء ، هو الشعب الفرنسى ، ويمتد لأربعة قرون ، يكون مصدرا لتفرد هذه الثلاثية .

وتؤكد قراءة الأعمال الثلاثة التى عكفت الدكتورة الهام على انجازها أن طبيعية الرحالة الفرنسيين الذين قدموا الى مصر قد اختلفوا من مرحلة الى أخرى تبعا لحركة الامتداد الفرنسى الى الخارج وتأثرا بوضعية مصر فى كل مرحلة .

من ثم لم تكن ثمــة غرابة أن يكون الرحــالة الفرنسيون فى الجزء الأول من الثلاثية ، خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر ،

من الحجاج الذين استكملوا زياراتهم الدينية فى فلسطين بمزارات أخرى فى مصر ؛ الأمر الذى انعكس بشكل واضح على المناطق التى عنى هؤلاء بزيارتها ، وبالتالى وصفها فى كتاباتهم .

الجزء الثانى من الثلاثية الذى تناول رحالة القرن الثامن عشر والتى وصفتهم الدكتورة الهـام بالجواسيس بحكم كتاباتهم التى مهدت فى نهاية الأمر لارسـال حمـلة نابليون بونابرت فى أواخر القرن والتى كانت جزءا من المـادة التى استعان بها واضـعو السفر الشهير « وصف مصر » انما تنبىء بالتغير الذى حـدث فى التوجه الفرنسى نحو مصر .. التوجه الذى غلب عليه الطـابع الاستعمارى ، والذى لم يمض وقت طويل حتى عبر عنه فى « حملة الشرق » المعروفة .

آخر الأجزاء الذى يضمه هـذا الكتاب يشير الى مزيد من المتغيرات فلم يأت هؤلاء متلصصـين يسجلوا مشـاهداتهم ، بل قدموا فى سياق علاقة متشعبة أصبحت تربط الأمتين الفرنسـية والمصريـة .

أتوا فى سياق بناء الدولة الحديثة التى شرع محمد على فى اقامتها والتى كان للفرنسيين النصيب الأوفى فى بنائها .

وأتوا فى سياق عملية التغريب الواسعة التى تمت فى عصر اسماعيل والتى تشكلت معها بيئة مناسـبة للاقامة والتنقل ورصد الملاحظات .. وهى ملاحظات أثرت هذا العمل الذى وضعته الدكتورة الهام بدءا من الأحوال السياسـية ومرورا بالأوضـاع الاقتصادية والاجتماعية ، وانتهاء بتقديم وصف تفصيلى للمدن المصرية خلال ذلك القرن .

واتوا اخيرا فى سياق اهتمامات جديدة تحولت الى عمليات بحث واسـعة خاصـة فى ميـدان المصريات Egyptology حيث انعقد للفرنسيين مجـال الريادة سـواء من كشوفهم خلال فترة الحملة او من توصـل احد علمـائهم الى فك رموز اللغـة المصرية القديمة ، وكان له نصيب ضمن صفوف الرحالة الذين رصدتهم الباحثة فى عصر محمد على .

وفى تقديرنا أن نشر هـذا العمل سوف يجد صدا طيبـا بحكم المسح الشامل الذى يتسم به مما ينبىء عن الجهد الكبير الذى بذلته صاحبته لانجازه .

وعلى الله قصـد السبيل ؟

مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر

مقدمة

تعتبر هذه الدراسة متممة لدراستين سابقتين نشرت الدراسة الأولى فى سلسلة « مصر النهضة » بعنوان « مصر فى كتابات الرحالة الفرنسيين فى القرنين السادس عشر والسابع عشر » ونشرت الثانية فى سلسلة « تاريخ المصريين » بعنوان « مصر فى كتابات الرحالة والقناصل الفرنسيين فى القرن الثامن عشر » .

تتناول هذه الدراسة « مصر فى كتابات الرحالة الفرنسيين فى القرن التاسع عشر » من عام ١٨٠٥ حتى عام ١٨٧٩ اى منذ تولى محمد على السلطة فى البلاد وحتى نهاية عصر الخديوى اسماعيل . وقد آثرت تخصيص دراسة منفصلة لكتابات الرحالة فى القرن التاسع عشر عمن سبقوهم من الرحالة لعدة أسباب منها تشابه كتابات الرحالة الفرنسيين فى القرنين السادس عشر والسابع عشر فقد زار العديد منهم مصر من أجل زيارة المزارات المسيحية فيها ، خاصة سانت كترين ، أو صحراء سيناء ، والأديرة

القبطية فى وادى النطرون ولذلك جاءت رحلاتهم سريعة اقتصرت على مدن مصر السفلى ، وينبغى علينا الا نغفل ان اهتمامهم بمصر خلال تلك الفترة جاء باعتبارها جزءا من الامبراطورية العثمانية ولم يكن اهتماما بمصر لذاتها .

أما رحالة القرن الثامن عشر فقد اختلفت كتابتهم عمن سبقوهم فقد جابوا مدن مصر وتوغلوا فى صعيدها ، ولم تكن زيارتهم قصيرة وسريعة وانما مكث البعض منهم عدة سنوات فيها ، فجاءت كتاباتهم عنها أعمق بكثير ، كذلك شهد هذا القرن مجىء مجموعة من الرحالة يمكن أن نطلق عليهم « الرحالة الجواسيس » منهم « البارون دى توت » و « فولنى » و « أوليفيه » اهتموا بدراسة أحوال مصر السياسية والاقتصادية والعسكرية تمهيدا لغزوها كذلك شهد هذا القرن ظهور كتابات متخصصة للقناصل الفرنسيين العاملين فى مصر نخص بالذكر منهم « ميليه » و « مور » .

ويمكننا القول أن أنجاز الحملة الفرنسية « وصف مصر » انما هو حصيلة جهد تم على مر ثلاثة قرون فكتابات هؤلاء الرحالة كانت ركيزة عمل الحملة والتى جاءت الى مصر وهى مزودة بفكرة مسبقة عن أحوالها السياسية والاقتصادية والاجتماعية .

وقد يتساءل البعض اذا كان علماء الحملة قد قدموا وصفا دقيقا لمصر فى عملهم الموسوعى الضخم فما الجديد الذى اضافه رحالة القرن التاسع عشر ؟

سنجد الاجابة هى أن هؤلاء الرحالة اضافوا الجديد بالفعل فى مختلف المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية . وذلك لأن أحوال مصر السياسية تغيرت واختلفت فى القرن التاسع عشر

بتولي محمد على وأسرته السلطة فى البلاد فجذبت الأسرة الحاكمة الجديدة الانتباه وجذبت توسعات محمد على وخلفائه ومشروعات التحديث والتطوير أنظار الرحالة الفرنسيين بشكل لم يسبق له مثيل من قبل . ويكفى أن نعرف بأن عدد الرحالة بلغ حتى عهد اسماعيل حوالى خمسين منهم ثلاثون فقط فى عهد محمد على . وينبغى الا يغيب عن ذهننا أنه مما ساعد على تدفق هؤلاء الرحالة قوة العلاقات المصرية الفرنسية خلال تلك الفترة خاصة وانها بلغت الذروة فى عهد « لويس فيليب » وحكومة « تيير » حتى ان اسم مصر ومحمد على أصبح يتردد فى فرنسا وأوربا ، وخلع الفرنسيون عليه الألقاب لارضاء غروره مثل « نابليون مصر » ، « الاسكندر الأكبر » . كذلك بلغ هذا التقارب الذروة بنجاح « دى لسبس » فى اتمام مشروعه الاستعمارى الكبير الا وهو حفر قناة السويس .

هذا وقد اثارت كتابات رحالة القرن التاسع عشر عن مصر حماس الفرنسيين وألهبت خيالهم عنها خاصة بعد ظهور العديد من الأعمال الأدبية كان أصحابها من الرحالة الذين زاروا مصر فتأثرت كتاباتهم بها مثل شاتوريان ، وأدمون أو ، وتيوفيل جوتييه ، وغيرهم . كذلك ظهرت مؤلفات بل مجلدات لرحالة من الاثريين وعلماء الآثار فتنت العقول فى فرنسا خاصة مؤلفات شامبيليون ، ونستور لوت ، وبريس دافين وأمبير وماربيت وغيرهم .

ورغم ظهور مؤلف « ادوارد وليم لين » « عادات المصريين المحدثين وتقاليدهم » الا أن كتابات الرحالة الفرنسيين عن أحوال مصر الاجتماعية اثارت الانتباه خاصة مؤلفات بريس دافين أو ادريس أفندى وجيرار دى نرفال كذلك زار مصر مجموعة

من الرسامين نخص بالذكر منهم نرسيس برشار أحدثت رسوماتهم الدقيقة عن مصر بآثارها الفرعونية القديمة وآثارها الاسلامية دويا كبيرا

ولأول مرة يقابلنا فى القرن التاسع عشر ظاهرة تسجيل مجموعة من النساء لملاحظاتهم عن مصر مثل مدام أولمب ولويز كوليه وراشيل ، ولكن للأسف الشديد لم ترق كتاباتهم الى مستوى الرحالة من الذكور فقد حوت العديد من المبالغات والروايات المشكوك فيها .

ولا جدال أن كشف وفك رموز حجر رشيد ومعرفة أسرار اللغة الهيروغيفية قد ساهم الى حد كبير فى تدفق مجموعة من الرحالة المتخصصين فى الآثار فجاءوا الى مصر وهم مزودون بالعلم والمعرفة واستطاعوا تدوين مشاهداتهم عن الآثار المصرية كما قاموا بعمليات تنقيب عنها واسعة المدى . واعتقد أنهم تفوقوا على علماء الحملة الفرنسية فى هذا المجال لأنهم صححوا كثيرا من المعلومات التى أوردها علماء الحملة كذلك كشفوا عن العديد من الآثار وشهدت مصر تنافسا كبيرا بين علماء الآثار الفرنسيين وغيرهم من الجنسيات الأخرى .

قدم الرحالة الفرنسيون وصفا عن أحوال مصر السياسية والاقتصادية والاجتماعية وكذلك سجلوا مشاهداتهم عن مدن مصر . هذا وقد خلت كتابات الرحالة فى القرن التاسع عشر من عبارات طالما كرزها رحالة القرن الثامن عشر مثل « غزو مصر » « تحويلها الى مستعمرة » ولكن ظهرت عبارات اخرى بديلة أخطر بكثير مثل « فرنسة مصر » « اقامة مستعمرة فرنسية بلا نفقات » « فرض نفوذنا الحضارى » و « الغزو الفكرى لمصر » .

وقد توقفت بهذه الدراسة عند عام ١٨٧٩ أى عند نهاية فترة حكم اسماعيل وذلك لأن مصر دخلت مرحلة جديدة من تاريخها السياسى بمجيء الاحتلال البريطانى عام ١٨٨٢ كذلك قلت أعداد الرحالة بمؤلفاتهم الدقيقة ليس بعد عصر اسماعيل فحسب بل منذ افتتاح قناة السويس ومولد السياحة المصرية ، فلم نعد نسمع عن مثل هذه الأعداد الضخمة من الرحالة، ولم نجد مثل هذه المؤلفات بل المجلدات عن مصر وان كان هذا لا يعنى انعدام المؤلفات عنها .

وقد اعتمدت فى هذه الدراسة على مؤلفات الرحالة الأصلية والتى وجدت صعوبة كبيرة وانا الهث وراءها ولا أنكر أن مكتبة الأمير ابراهيم حلمى والمهداه لجامعة القاهرة قدمت لى الكثير من العون خاصة مؤلفات الاثريين من الرحالة .

وقد حرصت على الاطلاع على ما كتبه الرحالة الأوربيون الذين زاروا مصر فى القرن التاسع عشر خاصة البريطانيين فوجدت أن الفرنسيين أدق فقد كانوا سلسلة متعددة الحلقات يتمم كل منها الآخر ، فلا نجد هذه الأعداد من الرحالة لدى أى دولة أوروبية أخرى سوى فرنسا ، كما أن رسوماتهم كانت أفضل بكثير من غيرهم من الرحالة وفى الحقيقة لقد حافظ الفرنسيون على هذا السبق والتفوق فى القرن التاسع عشر كما حافظوا عليه من قبل فى القرون السابقة .

والله ولى التوفيق ؟

المؤلفة

الفصـــل الأول

العلاقــات المصريــة الفرنســية

١٨٠٥ ـ ١٨٧٩

- تزايــد الاهتمــام الفرنسى بمصر فى عهــد محمــد على ١٨٠٥ ـ ١٨٤٨ ٠
- العلاقات المصرية الفرنسية من ١٨٤٩ ـ حتى ١٨٧٩ ٠

تزايد الاهتمام الفرنسى بمصر فى عهد محمـد عـلى (١٨٠٥ ـ ١٨٤٨)

اهتمت فرنسا اهتماما كبيرا بالشرق خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر ، فمن الناحية السياسية شهد القرن السادس عشر حدثا هاما الا وهو تحـالف أسرة الفالوا Valois الفرنسية مع السلطان سليمان القانونى ، خاصة ابان فترة الحروب الايطالية(١) . فقد انتهجت فرنسا خلال هذه الفترة سياسة جديدة وغريبة على المجتمع الأوروبى ، الا وهى الاتصال بل والتعـاون مع الدولة العثمانيـة المسلمة وعقد الاتفاقات معها لمؤازرتها فى نزاعها مع الدول الأوروبية فى ايطاليا ، ورغم معارضة أوروبا والبابوية لهذا التعـاون الذى وصفوه بأنه « موقف مزرى ووصمة عار فى جبين فرنسا » ثم توجت هذه الاتصالات بحصول فرنسا على امتيازات لرعاياها فى الشرق(٢) .

كذلك شهد القرن السابع عشر اتجاها فرنسيا قويا نحو الشرق تمثل فى اهتمام وزراء فرنسا خاصة كولبير Colbert فى مد النفوذ التجارى الفرنسى حتى الشرق الأقصى ، كذلك شهدت هذه الفترة شغفا فرنسيا للتعرف على امبراطوريات الشرق العظيمة ، خاصة الامبراطورية العثمانية ، والفارسية والمغولية ، والصينية ، فترجم دى رييه De Ryer القرآن الكريم وتم ارسال البعثات الى الشرق لشراء المخطوطات النادرة ، كما تأسست فى فرنسا فى عام ١٦٩٧ المكتبة الشرقية ، والحق بكلية فرنسا كراسى للغات الشرقية خاصة العربية والتركية والفارسية ، كما اهتم كولبير بتأسيس مدرسة أطفال اللغة فى بيرا وازمير لتخريج كوادر من المترجمين للعمل فى اسكالات الشرق فتم الاتفاق مع الآباء الكابوسين فى بيرا على ارسال الأطفال الى الأديرة لتعلم اللغات الشرقية(٣) .

ويمكننا القول أن الاهتمام الفرنسى بمصر خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر جاء نتيجة اهتمامها بالشرق بصفة عامة واهتمامها بالدولة العثمانية بصفة خاصة والولايات التابعة لها . أما فى القرن الثامن عشر فقد اختلف الوضع فقد لفتت مصر لذاتها الاهتمام والانتباه الفرنسى الذى تبلور وتحقق بمجيء الحملة الفرنسية على مصر عام ١٧٩٨ .

ولم تكن فكرة غزو مصر والاستيلاء عليها وليدة القرن الثامن عشر فقد روج الكثيرون لهذه الفكرة ففى القرن السابع عشر دعا الأب كوبان Coppin لغزو مصر ، ونشر كتابه عن الحروب الصليبية حرض فيه العالم المسيحى لغزوها مذكرا الأوروبيين بأمجاد جود فرى بويون وغيره ، كذلك نادى باتحاد أوروبا ضد الدولة العثمانية ، ثم تجددت الفكرة فى عهد لويس

الرابع عشر Louis XIV اذ عرض عليه الفيلسوف الألمانى ليبينيه Leibnitz مشروعا لغزو مصر عام ١٦٧٥ موضحا فوائده خاصة أنه سيمكن فرنسا من احتكار تجارة الهند ، وحاول ليبينيه اثارة حماس « لويس الرابع عشر » فأكد له أن غزو مصر سيمكنه من القضاء على منافسه هولندا للتجارة الفرنسية ، ومن بسط النفوذ الفرنسى فى الشرق .. كما نادى بفكرة غزو مصر سفراء فرنسا فى الاستانة نخص بالذكر منهم دنيس دى هاى Denis De Haye والماركيز دى نوانتيل De Nointel وجيراردان Girardin ثم أثيرت الفكرة فى عهد لويس السادس عشر ووجدت عدة تقارير فى المكتبة الوطنية بباريس تشير الى ضرورة غزو مصر(٤) .

هذا وقد ساعدت أحوال فرنسا الداخلية على نمو هذه الفكرة خاصة بعد هزيمتها فى حرب السنوات السبع وفقدانها لمتلكاتها فى الهند والعالم الجديد فطالب الدوق دى شوازيل De Choiseul فى عام ١٧٦٦ بغزو مصر لكى تكون بديلا عن « أمريكا الضائعة » و « الهند » وفى عامى ١٧٧٧ و ١٧٧٨ قدم السفير الفرنسى فى الاستانة سان بريبه Saint Briest عدة تقارير تضمنت أن الغزو لمصر يمكن تحقيقه بسهولة . كما قدم البارون ولدنيه Waldner أثناء حرب الاستقلال الأمريكية عام ١٧٨٢ مشروعا للاستيلاء على مصر واستبعاد تجارة بريطانيا من البحر الأحمر والهند(٥) .

ولا جدال انه على الرغم من كل هذه الكتابات والتقارير التى دعا أصحابها الى غزو مصر ، الا أن اهتمام الحكومة الفرنسية قبيل نشوب الثورة الفرنسية كان منصبا على تتبع النشاط البريطانى فى الشرق بدليل انه عندما تكونت لجنة برئاسة

ترجو Turgot وزير البحرية لوضع الخطط ضد التواجد البريطاني في الشرق ، وضعت اللجنة خطة تلخصت في ضرورة ارسال حملة بحرية حول رأس الرجاء الصالح لمهاجمة المستعمرات البريطانية فى الهند ، ولم تحاول اللجنة في توصياتها أن تطالب باحتلال أية ولاية عثمانية ، أو باستخدام طريق عبر مصر ، أو الشرق الأوسط وانما اكتفت بالتوصية باستخدام طريق رأس الرجاء الصالح للوصول الى الهند وضرب بريطانيا في مقتل . ولكن بعد نشوب الثورة الفرنسية تغيرت خطط فرنسا فى هذا الشأن وعهدت حكومة الادارة الى نابليون بونابرت بتنفيذ فكرة الغزو عام ١٧٩٨(٦) .

ورغم فشل الحملة الفرنسية على مصر الا ان الأخيرة ظلت تشغل أذهان الساسة الفرنسيين ، وقد اتيح لهم تقوية الصلات بها عندما تغيرت الظروف السياسية فى مصر بتولى محمد على السلطة فى البلاد فشهدت مصر تحولا خطيرا فى تاريخها السياسى وفى علاقاتها الدولية خاصة مع فرنسا التى حرصت على تدعيم نفوذها بشتى الوسائل وفى مختلف المجالات كما سنوضح .

تقلد محمد على ولاية الحكم فى مصر بارادة زعماء الشعب ونزولا على رأيهم فى مايو عام ١٨٠٥ ، وكانت الفرصة مواتية له لتحقيق آماله وطموحاته فالمماليك ضعف نفوذهم والقوة العثمانية تلاشت والوالى العثمانى خسرو باشا سجن فى القلعة وليس ثمة قوة حربية تذكر فى البلاد سوى الجنود الالبانيين التابعين له(٧) . ورغم ذلك لم ترسخ أقدامه فى الحكم بمجرد مبايعته أو صدور الفرمان المؤذن بتوليته . وذلك لأن الدسائس كانت تحيط به من كل جانب ، كما اتخذت بريطانيا موقفا عدائيا منه فى بادىء الأمر ، فأخذت تسعى بمختلف الوسائل لترد

السلطة الى محمد بك الألفي حليفها وعمل ميست Misset القنصل البريطـانى فى مصر على امداد المماليك بالمعونة ، وأكد لهم عدم تخلى بريطانيـا عنهم(٨) فقد كان ميست يؤمن بنفس آراء العسكريين البريطانيين والتى تتلخص فى ضرورة انهاء النزاع من الباب العالى والمماليك من أجل اعادة الأوضاع الى ما كانت عليه قبل مجىء الحملة الفرنسية ، فيمكن لبريطانيا أن تحتفظ بصداقة الباب العالى وتمنع فرنسا من أن يكون لها انصـار فى مصر ، ولكن الأمور كانت قد تطورت بعد الضربة التى حلت بالمماليك فى مصر نتيجة لحروبهم مع القوات الفرنسية ابان الحملة واصبح الباب العالى يفضل عودة سلطته المباشرة الى مصر دون اشراك المماليك فيها كما كان قد بدأ فى نفس الوقت فى عمليـة انشاء القوات العثمانية المسلحة على النظم الحديثة الأوروبية(٩) .

اصطدم القنصل البريطانى مع محمد على ونظر اليه على انه من انصار فرنسا ولذلك امتلأت تقاريره بالانتقاد الصـارم له ، بل كان من أنصـار حرمان محمد على من السـلطة فى منطقـة الاسكندرية والسواحل والاكتفاء بسيطرته على المناطق الداخلية فى البلاد حتى لا يتمكن من الاتصال بطريق مباشر بالدول الأجنبية، فراى بقاء حكم الاسكندرية ورشيد ودمياط فى أيدى الباب العالى مباشرة ، أو فى أيدى القبطان باشا تمهيدا لاعادة احتلال السواحل المصرية من جانب بريطانيا ، ثم احتلال مصر باكملها ، وظل ميست محافظا على اتصالاته بقوات الألفى فى محـاولة منه للاتفاق مع الباب العالى للعفو عن المماليك واعادتهم الى السـلطة ، واخـذ يشرف بنفسه على امداد الألفى بالأسلحة وبعدد من المـالطيين ورغم محـاولات محمد على لاستمالة ميست الا أنه أستمر على موقفه حتى مجىء حملة فريزر(١٠) .

أما فرنسا فقد اتخذت جانب الحذر عندما تولى محمد على الحكم وعندما عين ماثيو دى لسبس Mathieu De Desseps قنصلا فى الاسكندرية عام ١٨٠٣ كانت التعليمات التى صدرت اليه أن يتخذ الحذر فى علاقاته مع الفريقين العثمانيين والمماليك ، وان يكتفى بمراقبة الأحداث فى مصر أى أن سياسة فرنسا قبيل تولى محمد على الحكم كانت سلبية ، فلم تحاول التدخل فى الصراع الدائر بين الأطراف المختلفة وفضلت الانتظار حتى انتهاء الفوضى وفترة الحروب الأهلية بينما سعى محمد على للتقرب من فرنسا فكتب الى القنصل الفرنسى فى ١١ مارس ١٨٠٤ « اتمنى توطيد علاقتى الأخوية فى المستقبل » ولكن فى تلك الفترة الحرجة لم يثق دلسبس فى قدرات محمد على فكتب الى تاليران Tallyrand عام ١٨٠٤ « ان مصلحته هى المحرك الأساسى لاتصالاته بى »(١١) .

ولكن يمكننا القول بأنه اذا كانت فرنسا لم تحاول مساعدة محمد على لتولى الحكم الا انها لم تقف ضده . ولكن عندما تولى الحكم بدأ مانجان Mengin الوكيل الفرنسى فى التقرب منه وأطلعه على دسائس الألفى وحذره بأنه صنيعة للبريطانيين(١٢) .

ثم بدأ دروفتى Drovetti القنصل الفرنسى الجديد فى التقرب من محمد على ، ولذلك اتهمه الكثيرون بأن سياسته كانت معادية للنفوذ البريطانى لأنه كان من المؤيدين لمحمد على ولكن فى الحقيقة أن سياسة دورفتى كانت تتمشى مع سياسة الحكومة الفرنسية فى أوروبا واذا كان انشغال بونابرت بحروبه فى القارة الأوروبية قد أدى الى عدم متابعة الأوضاع فى مصر ، الا أن هذا لم يمنع دروفتى بحكم منصبه من متابعة ورصد الأحداث بها ، فقد كان يخشى دوما قيام اتصالات بريطانية روسية

مع المماليك ، كذلك كان يخشى تزايد نفوذ محمد بك الألفى ولذلك سعى دروفتى لاتخاذ سياسة تتسم بالايجابية تجاه محمد على لأنه اعتبره « الضمان الوحيد ضد الأوضاع البريطانية فى مصر »(١٣) .

هذا وقد تخوف ميست من تقرب دروفتى من محمد على فحاول الدس بينهما فكتب الى محمد على فى ١٤ ابريل ١٨٠٦ موضحا « أن رغبة الحكومة الانجليزية هى أن تتمتع مصر بسلطة مطلقة حتى يتسنى لنا الدفاع عن البلاد لأنه اذا استولى الفرنسيون عليها استطاع هؤلاء فى سنوات قليلة اعداد الحملات وارسالها عند ممتلكات انجلترا فى الهند(١٤).

ولكن الصلات كانت قد توثقت بالفعل بين دروفتى ومحمد على وقد لاحظ ذلك الأديب والرحالة الفرنسى شاتوبريان Chateaubriand عندما زار مصر فى مطلع القرن التاسع عشر فكتب « أن مصر اليوم تبدلت انها بملابس وهيئة تركية ، ولكنها تنظر الينا بعطف وحب طالبة من فرنسا العون لاعادة ترتيب البيت »(١٥) .

ثم ساءت العلاقات بين محمد على وبريطانيا بمجىء حملة فريزر ولكن بعد جلاء الحملة حرصت بريطانيا على تغيير سياستها وتنمية علاقاتها مع محمد على ، لأن المصالح البريطانية كانت أساسا جديدا لعلاقة الصداقة النامية بين الطرفين ولاشك أن نمو هذه الصداقة كان كفيلا باثارة غضب الفرنسيين الذين تشككوا فى وجود ملاحق سرية لاتفاقية جلاء الانجليز عن الاسكندرية بل تخوفوا من وجود تحالف بين محمد على وانجلترا وكان هذا امرا طبيعيا نتيجة للصراع الدولى الموجود منذ سنوات بين الدولتين(١٦) .

وجدير بالذكر انه قد تزايدت أهميـة الموانى المصريـة أثناء حروب نابليون فى روسـيا وذلك بالنسـبة لتحركات الأسـاطيل وتموينها ولذلك اعاد بونابرت الاهتمام بمصر من جديد ، بينمـا كان محمد على حريصا على استمرار هـذه الصلات فسمح للسفن الفرنسية بالحضـور الى مينـاء دمياط بدلا من الاسكندرية حتى تكون بعيدة عن انظار السفن البريطانية التى تتولى مراقبة ومطاردة السفن الفرنسية فى البحر المتوسط(١٧) .

ولم يكتف نابليون خلال تلك الفترة باستخدام الموانى المصرية لتموين سـفنه ، بل بدأ يفـكر من جديد فى غز مصر فارسـل البعثات اليها ، ولعل أهمها بعثة الكولونيل بوتـان Boutin وكان الغرض منها كتابة تقارير عن الأوضاع الاقتصادية والعسكرية لمصر وشمال افريقيا ، وعندما لمس دروفتى قلق محمد علي من هذه البعثة خاصـة بعد وصـول معلومات اليه تفيد احتمـال تعرض مصر لغزو فرنسى جديد حرص على ابعاد الشـكوك عنه وملازمته خلال تلك الفترة وفى الوقت نفسه كتب دروفتى الى الحكومة الفرنسية عن رغبة محمد على وميله للاستقلال عن الدولة العثمانية خاصـة وانه قد صرح له بطموحاته فى المنطقة موضحا مدى الخسائر التى تعود على مصر من مشاركتها للدولة العثمانية فى حروبها وطلب مساعدة الحكومة الفرنسية ، ولكن دروفتى كان حريصا على عدم التورط بأية وعود واكتفى باحتفاظه بصـلاته الوطيدة معه(١٨) .

وبعودة أسرة البوربون الى الحكم انشغلت فرنسا بمشـاكلها الداخلية ولكن اتفقت مصالحها مع محمد على فقد ادركت مدى قوته فعملت على التقرب منه ومساعدته بخبرتها الفنيـة فى كافة المجالات يتضح لنا ذلك مما كتبه القنصل الفرنسى فى عـام ١٨٣٠

« ليس فقط نظمنا وأساليبنا هي المتبعة في التدريب العسكرى، وطريقتنا لعمل الحسابات وتنظيمنا العسكرى ، كل هذا متبع في مصر ، ان الفرنسية قد بلغت درجة عالية في أعمال ترسانة الاسكندرية ويقال الآن تأسس في مصر وبدون تعب مصاريف ونفقات مستعمرة فرنسية جميلة »(١٩) .

كذلك وطدت فرنسا علاقاتها التجارية مع مصر وازدادت حركة التبادل التجارى ، فقد ارادت فرنسا الافادة من موقع مصر الاستراتيجى الهام في ملتقى ثلاث قارات . وفي عام ١٨٣٣ كتب البارون روسان Roussin « يبدو أن محمد على يريد أن يجعل من مصر مركزا لامبراطورية جديدة ومستودعا تجاريا »(٢٠) .

ورغم قوة العلاقات بين الطرفين الا أن فرنسا شأنها شأن اية دولة أوروبية كانت حريصة على مصالحها في المقام الأول حتى ولو كان ذلك على حساب اصدقائها . فعندما أرادت بريطانيا الغاء نظام الاحتكار عملت على الضغط على الدولة العثمانية فامتثل السلطان العثمانى وقبل الغاء هذا النظام وكان هدف بريطانيا هو تحطيم أكبر مصادر ايراد محمد على وذلك للاقلال من قوته البحرية التي تمثل تهديدا مستمرا للدولة العثمانية . فتم توقيع معاهدة بلطةليمان والتى نتج عنها الغاء الاحتكار في عام ١٨٣٨ فسعت فرنسا بدورها لتوقيع معاهدة مماثلة في ٢٥ نوفمبر عام ١٨٣٨ وقعها البارون روسان ومحمد نورى أفندى وكان الغرض منها تسهيل التبادل التجارى بين البلدين والحفاظ على الامتيازات التى يتمتع بها الرعايا الفرنسيون(٢١) .

اما عن موقف فرنسامن حروب وتوسعات محمد على في الخارج سنجد انها شاركت مع غيرها من الدول الأوروبية في

ارسال الأساطيل الى مياه اليونان لمنع السفن المصرية والعثمانية من الوصول الى شـواطىء اليونان فارسلت سبع سفن بقيـادة الاميرال رينى Reigny وشاركت السفن الفرنسية فى تحطيم الأسطول المصرى فى نافارين عـام ١٨٢٧ ، كما ساهم الرأى العام الفرنسى فى الدفاع عن الثورة اليونانيـة ونهض أقطـاب الشعر والأدباء أمثال فيكتور هيجو Victor Hugot وشاتوريان بريون الراى العام الأوروبى لنجدة ثوار اليونان(٢٢) .

وجدير بالذكر ان الراى العام الفرنسى اختلف موقفـه من حروب محمد على وتوسعاته الخارجية عن موقفه ازاء المسـألة اليونانية فقد أضفى الفرنسيون عليه الصفات النابوليونية ، وكان نواب البرلمـان والصحف الفرنسية يرحبون بانتصـارات مصر وتوسعات محمد على ويرون أن تحول فرنسا عن مساندة مصر يعنى فقدانها لمكانتها المتصـاعدة ، ويعنى ايضا اذلالا بريطانيـا جديدا لفرنسـا(٢٣) .

هذا وقد أدرك الفرنسيون أطماع محمد على فى سورية منذ فترة طويلة ولمسها دروفتى وكتب فى عام ١٨١١ الى حكومته بأن « محمد على يطمع فى ولاية سورية وقد قال لى يوما انه لا يستبعد أن ينالها مقابل مبلغ من المـال سبعة أو ثمانية ملايين قرش يدفعها لخزانة السلطان وقد أخذت فكرة الاستقلال تزداد رسوخا عنده منذ انتصاره على أعدائه وقمعه فتنة الجند وتخلصة من الارتباكات المـالية » وعندما وجه محمد على قواتـه الى الحجـاز تخوف دروفتى أن يكون هدفها هو سورية فكتب « ان جميع الاستعدادات التى يعدها الباشا تدل على أن الحملة سـوف تخترق الصحراء وتصل منها الى سورية ولاتزال غايتها الحقيقية سرا مكتوما فى ضميره وخطته فى هذا الصدد لم تتغير »(٢٤) .

والحقيقة أن حكومة لويس فيليب Louis Philippe ارادت تقديم المساعدات الى مصر بسبب سياستها فى البحر المتوسط خالصة بعد احتلال الجزائر فى عهد شارل العاشر ولذلك وقفت الى جانب مصر فى المسألة السورية للحفاظ على تواجدها فى مصر وقد أعطت السياسة الفرنسية للرأى العام الفرنسي والرأى العام البرلمانى دورا أساسيا فى هذه المسألة فأراد الجميع مساعدة محمد على ولأن التراجع عن مساعدته يهدد التواجد الفرنسى ، كذلك كانت فرنسا فى حاجة الى القطن المصرى اللازم للصناعة وقد أدت هذه الاعتبارات الى تدخل لويس فيليب شخصيا فاسند رئاسة الوزارة الى أدولف تيير Thiers الذى مثل اليمين المتطرف بالنسبة لفرنسا وكان له موقفه الواضح والصريح بالنسبة لسياسة فرنسا فى البحر المتوسط وأراد أن تكون سيدة هذا البحر لتقف أمام عدوتها التقليدية بريطانيا(٢٥) .

ولكن دخول القوات المصرية سورية أدى الى تخوف السلطان العثمانى من اقتراب هذه القوات من العاصمة ، واستغلت روسيا الموقف فأوفدت الجنرال مورافيف Mourawief الى السلطان محمود ليعرض عليه استعداد بلاده للدفاع عن الدولة العثمانية مما أدى الى انزعاج بريطانيا وفرنسا ولذلك أسرعت الأخيرة باستغلال علاقاتها الودية مع مصر لاقناع محمد على بتسوية الخلاف بينه وبين السلطان وأخذت الى الاستانة الاميرال روسان سفير لها ليسعى فى انهاء الخلاف بين الجانبين ويمنع التدخل الروسى ، كما أرسل روسان الى محمد على الا يشتط فى مطالبه حقنا للدماء وبذلت فرنسا جهدها لحسم الخلاف وتم توقيع اتفاقية كوتاهية فى عام ١٨٣٣ وبمقتضى هذا الاتفاق ثبت محمد على حكمه فى مصر وكريت والحجاز وسورية واقليم ادنه(٢٦) .

غير أن الأوضاع لم تستقر فى بلاد الشام خاصة بعد انتصار القوات المصرية فىمعركة نزيب عام ١٨٣٩ على القوات العثمانية ولكن هذا النصر احرج الحكومة الفرنسية وذلك لعدة اعتبارات منها تأييد حكومة تيير لمحمد على وترحيب الرأى العام الفرنسي الذى رأى ان معركة مصر ضد الدولة العثمانية انما هى فى الواقع اضعاف للاطماع البريطانية فى الشرق الأوسط وفى الوقت نفسه تخوفت حكومة تيير من نمو النفوذ المصرى خاصة وأن هدف حكومته هو العمل على توطيد النفوذ الفرنسى فى البحر المتوسط وتحويله الى بحيرة فرنسية أضف الى ذلك أن تأييد فرنسا لحملات محمد على فى الجزيرة العربية والاحساء أدى الى تخوف بريطانيا من احياء مشروع بونابرت بغزو الهند عن طريق مصر(٢٧) .

وكان من الطبيعى الا تقف الدول الأوربية مكتوفة الأيدى أمام تصاعد نفوذ محمد على ، وكانت فرنسا تأمل أن تصل الى التوفيق بين وجهتي نظر مصر وتركيا فى الوقت نفسه رفضت محاولات التوسط التى قامت بها بريطانيا فعندما عرض بلمرستون حلا وسطا للتوفيق بين مصر والدولة العثمانية باعطاء محمد على الحكم وراثيا فى مصر وولاية عكا ما عدا مدينة عكا ذاتها أى جنوبي سورية ، رفضت فرنسا « وكان هذا خطأ منها » تحملت مصر عواقبه ـ على حد قول الرافعى ـ وكان تيير متمسكا بوجهة نظر فرنسا من المسألة المصرية فى ضم سورية الى مصر وسعى لانهاء هذه المسألة بالإتفاق بين الباب العالى ومحمد على ، ولما علم بلمرستون Palmerston وزير الخارجية البريطانى عمل على اخماد هذه المساعى وعارضها بالتفاوض مع الدول الأخرى روسيا والنمسا وروسيا وتركيا فكانت النتيجة معاهدة لندن عام ١٨٤٠ التى فوجئت بها فرنسا ، واعتبر تيير

ذلك تحديا له وتوترت العلاقات بين فرنسا وبريطانيا ولكن فرنسا رات التريث وعدم خوض غمار حرب أوروبية جديدة ومنحت المعاهدة محمد على الحكم وراثى أى استقلال مصر الداخلى التام مع ارجاع حدودها الأصلية قبل حروبها الأخيرة وحرمانها حكم الجزيرة العربيـــة وسورية وكريت واقليم ادنه وتخويل محمد على مدة حياته حكم سورية الجنوبية فلما رفض محمد على شروط المعاهدة تحالفت الدول الأوروبية ضده واستولى الحلفـــاء على الثغور السورية(٢٨) .

ورغم تحذيرات تيير للدول الأربع المتحالفة من استخدام القوة ضد مصر وانطلاق الصحف الفرنسية المتعطشـة لمجد فرنسا فيما وراء البحـــار فالهبت حماس الراى العام بمقالاتها عن قدرة فرنسا للتصـــدى للحكومات الأوروبية المستبدة(٢٩) رغم أن تيير أرسل بعثة ولاوسكى Walawski الى محمد على لتشجيعه على المقاومة وطلب الوساطة والحماية من فرنسا الا أن لوى فيليب بدأ فى اتخاذ سياســـة مغايرة عن سياســـة تيير وكان مستعدا لأن يوقف تيير قبل ان تصـــل الأزمة الى ذروتها(٣٠) لأن فرنسا لم تكن مستعدة لمحاربة الدول الأوروبية دفعة واحدة من أجل محمد على وهو ما أدركته بريطانيا تماما ــ ثم تغير الموقف تماما بتقديم تيير لاستقالته وتعيين جيزو Guizot فى الوزارة .

ويعلق الرافعى « وهكذا انسحبت فرنسا من الميدان بعد أن ورطت مصر فى مقاومة قرار الدول الأوروبية وأن فرنسا هى التى اغرت محمد على بالسلوك المتشدد»(٣١) .

هذا وقد انتقد جيزو سياسة بلاده السابقة فكتب « ظهرت وتجلت الأخطـــاء التى ارتكبتها السياســـة الفرنسية منذ ظهور المســـألة المصرية ولم نجد فى ظرف من الظروف أو فى حـــالة من

الحالات موقفا معيبا الا واتخذت فيه فرنسا موقفا يتسم بالتخبط » ويعلق أيضا « كنا موزعين بين العاطفة والعقل فنحن جعلنا مسألة محمد على مسألتنا دون أن نتبين لذلك حدودا فلم ننظر اليه نظرة صادقة ففى ابان المفاوضات صممنا على أن نعطى له التوصية وتناسينا أن المزاحمين العديدين لا يسمحون بأن يكون لنا التفوق فى مصر وسورية(٣٢) .

على ان محمد على استمر فى علاقته مع فرنسا بعد تسوية عام ١٨٤١ فقد خشى من تدخل بريطانيا فى شئون البلاد ولذلك تعاون مع الحكومة الفرنسية فى تحصين السواحل المصرية الواقعة على البحر المتوسط كما زاد اعداد جيشه فوق الحد الذى سمحت به التسوية وذلك حتى لا تحاول الدولة العثمانية الغاء الامتيازات التى حصلت عليها مصر ، ولكى يؤكد استقلاله الداخلى استولى على المواصلات البرية والنيلية التابعة للبريطانيين ، ووضعها تحت الادارة المصرية(٣٣) .

ويمكننا القول أن محمد على فى أواخر أيامه أدرك بعد تجاربه الطويلة مع فرنسا أن لا جدوى من الاعتماد عليها أو على أى دولة أخرى وأن النفوذ التركى أسهل فى المقاومة فحول سياسته ، وحسن علاقاته مع السلطان وأصبح هذا الاتجاه هو حجر الزاوية فى سياسته بعد عام ١٨٤١ فزار الاستانة عام ١٨٤٦ ليثبت ولاءه للسلطان(٣٤) .

لا نستطيع أن نتحدث عن علاقة محمد على بفرنسا الا ونذكر محاولات السان سيمون(٣٥) فى مصر للتقرب من محمد على فقد سعى زعيمهم بروسبيه انفانتن Prosper Enfantin الى حفر قناة تربط بين البحرين المتوسط والأحمر وذلك من أجل

تقدم التجارة وربط شعوب العالم بعضها ببعض وقد أخذ أعضاء السان سيمون منذ عام ۱۸۳۱ فى نشر عدة مقالات نادت بالاتحاد بين العالمين الشرقى والغربى وكان هدفهم الرئيسى أيضا نشر النفوذ الفرنسي فى مصر بمشروعات متنوعة تعود عليها وعلى العالم كله بالفائدة وحفر قناة تربط أوروبا بالهند . وتستفيد منها مصر عندما تصبح ممرا لتجارة العالم ، كما تستفيد أوروبا نتيجة اقترابها من أسواق الشرق واراد السان سيمونيون اتخاذ مصر مسرحا لنشاطهم من جهة وميدانا لمد النفوذ الفرنسى من جهة أخرى ، خاصة وأنه يوجد فى مصر عدد من الفرنسيين على راس المؤسسات التعليمية والصناعية والعسكرية ، واعتقدوا انه بمعاونة الشباب المصرى سوف يتمكنوا من تنفيذ المشروعات ، ورأى انشاء مجمع علمى مصرى وكانت الفكرة التى سيطرت على ذهن انفتان هى غزو مصر اقتصاديا واجتماعيا عن طريق المشروعات التى يعمل الفرنسيون على انجازها(٣٦) .

وصل انفتان مصر فى عام ۱۸۳۳ ووجد التشجيع والترحيب من القنصل الفرنسى ميمو Mimaut وكان محمد على غير ميال لاقامتهم فى مصر بعد أن طردوا من فرنسا لغرابة مبادئهم خاصة وان الدولة العثمانية أبعدتهم ولما كان الهدف الرئيسى للسان سيمون هو شق قناة بين البحرين فقد حرصوا على اثبات حسن نواياهم لمحمد على فشاركوا فى مشروعات أخرى لاثبات مقدرتهم (٣٧) .

والحقيقة أن محمد على كان يعارض مشروع حفر قناة السويس كما عارض مشروع السكة الحديد ، وركز اهتمامه على مشروع القناطر الخيرية ، وكان سبب رفضه تخوفه من اطماع

الدول الأوروبية ، وقد أعرب عن ذلك بعبارته الشهيرة « لا أريد أن أفتح على مصر بسفوراً آخرا »(٣٨) .

وبينما يعرض السان سيمون مشروعهم لحفر قناة نجد أن الرأى العام فى أوروبا يؤيدهم فى هذا المشروع فكتب بلزاك Belzac فى عام ١٨٣٧ « اذا أدركت فرنسا وروسيا الدور الذى يمكن أن يلعبه كل من البحر الأسود والبحر الأبيض فسيأتى يوم يعبر فيه الطريق الى آسيا من ناحية مصر أو من ناحية الفرات فتموت انجلترا وتدفن الى الأبد كما قتلت البندقية ظهر طريق رأس الرجاء الصالح »(٣٩) .

ولم يكتف انفنتان بتعضيد الصحف الفرنسية بل نجده يؤسس فى باريس جمعية قناة السويس عام ١٨٤١(٤٠) ثم قام بتجميع الدراسات المختلفة عن القناة فى ثلاث شعب بريطانية(٤١) وفرنسية ونمساوية(٤٢) ولكن سرعان ما انسحب أعضا الشعبة الانجليزية وسارت هذه الشعبة مع الدبلوماسية الانجليزية ونجحت فيما بعد فى التركيز على مشروع سكة حديد الاسكندرية القاهرة الذى تم تنفيذه فى عهد عباس . وبقيام ثورة ١٨٤٨ تفككت الشعبة الفرنسية وعمل بعض أعضائها فى خدمة الحكومة المصرية وانقطعت صلاتهم بزملائهم(٤٣) .

هذا وقد أفاد دى لسبس فيما بعد من كل الوثائق الخاصة بالمشروع وأفاد من الدراسات المختلفة التى تمت ، وما أن علم بوفاة عباس وتولى سعيد باشا السلطة حتى أسرع بالمجىء الى مصر لتنفيذ المشروع(٤٤) .

واخيرا اذا كان السان سيمون قد فشلوا فى تنفيذ مشروع قناة السويس الا انهم كان لهم فى مصر نشاطهم التعليمى فقد

اقترح انشاء مدرســة للهندسة فى القناطر عام ١٨٣٤ وسرعان ما ضمت الى المهندسخانة عام ١٨٣٦ فى بولاق ، كما اقترح انشاء مجلس للتعليم ولجنــة استشارية للعلوم والفنون وهو ما نفذه محمد على بالفعل فقــام بتأليف مجلس عــام للنظــر فى تنظيم المــدارس(٤٥) .

يتضح لنا مما سبق حرص فرنسا على تقوية علاقتها بمصر فى مختلف المجالات وقد عبر الساســة والكتــاب الفرنسيون عن استحســانهم لنمو وتصــاعد هــذه العلاقــات فرددوا شــعارات وعبارات مثل « الفرنسة » و « تكوين مستعمرة بلا نفقات فى مصر » و « مد نفوذنا الحضارى » وحلت هــذه العبارات محل العبارات السابقة التى رددت فى القرن الثامن عشر والتى تلخصت فى هدف واحد وفكرة واحدة الا وهى « غزو مصر » .

العلاقات المصريـة الفرنسية
من ١٨٤٩ حتى ١٨٧٩

بتولى عباس الحكم وكانت البلاد فى مسيس الحاجـة الى فترة طويلة من الهـدوء والاستقرار ، تصفى ما أثارته حروب محمد على من اضطراب في حياة البلاد الاقتصادية والاجتماعية .

واعتقد عباس أن خطة محمد على وابراهيم باشا الخارجيـة فى الاعتماد على فرنسا قد كلفت مصر الكثير ولذلك ابتعد عنهـا وتقرب من بريطانيـا واعتمـد عليهـا فى تحقيـق مشروعاتـه السياسية(٤٦) .

وجاءت صفحة عباس لدى أكثر الكتاب والمؤرخين صفحـة سوداء خاصة الفرنسيين بل نجد أن الرافعي أيضـا يعتبر عهده عهد « رجعية ففيه وقفت حركة التقدم والنهضـة التى ظهرت فى حكم محمد علي » ويصفه بأنه كان قبل لايته للحكم وبعد أن تولاه خاليا من المزايا والصفات التى تجعل منه ملكا عظيما يضطلع بأعباء الحكم فسلك بالبلاد سبيل التقدم والنهضـة ، ولم تكن

له ميزة تلفت النظر سوى انه حفيد رجل عظيم اسس ملكا كبيرا فصار اليه هذا الملك دون أن تؤول اليه مواهب مؤسسه ، شانه شأن الوارث لتركة ضخمة جمعها مورثة بكفاءته وحسن تدابيره وتركها لمن هو خلو من المواهب والمزايا »(٤٧) .

كذلك نلمس الغلو فى انتقاد عباس من قبل المؤرخين الفرنسيين فيذكر « هانوتو » بأنه يتصف بكراهيته الشديدة للأوروبيين والحضارة الغربية ولا يهمه مدى ما حققته من تقدم كذلك كان يكره التطور والتغيير واكد « أنه لم يكن يحمل قوة اسلافه ليستمر الحكم » وقد عبر عن كراهيته للأوروبيين بقوله « لقد كان جدى يعتقد أنه حاكم مطلق ولكنه كان يتصف بهذه الصفة معنا فقط نحن أطفاله وخدمه وفى حقيقة الأمر لقد كان عبدا للقناصل(٤٨) أما كوشرى فلم يجد فى عباس سوى « حاكم شرقى طاغ مستبد »(٤٩) .

ولم يكتف نقاد عباس باتهامه بتدمير كل ما انجزه محمد على وانما أيضا اتهموه بالتنكيل بمعارضيه « فاذا ارتاب فى شخص نفاه أو وضعه فى الخانكة »(٥٠) .

والحقيقة أن هذا الهجوم على عباس كان بسبب استبعاده الفرنسيين من خدمته ، على عكس ما فعله محمد على الذى كان يستعين بذوى العلم والخبرة من الفرنسيين فى معظم مشروعات الدولة . ولكن عباس أقصى معظم هؤلاء الخبراء فتضاءل النفوذ الفرنسى فى عهده ولم يعد الى الظهور الا فى عهد سعيد باشا . ولمس من خلال كتابات هانوتو بالأشياء الشديدة تجاه عباس بسبب سياسته تجاه الفرنسيين فكتب « لقد استغنى عن خدمته رجال عظام امثال سليمان باشا وكلوت بك واغلقت مدرسة الطب البيطرى» .

كما يرى هانوتو بأنه فى عهد عباس لم تتم أى انجــازات ضخمـــة أو عظيمـــة « باستثناء بناء القصـــور فى المنــاطق المنعزلة»(٥١) .

هذا فى الوقت الذى استبعد فيه عباس الفرنسيين تقرب منه القنصل البريطانى موراى Murray ووثق صــلاته معه لخدمة مصلحة بلاده ، فقد اقنع عباس بتنفيذ العديد من المشروعات فى مصر والتى كان الغرض منها خدمة المصـــالح البريطانية فى المقام الأول . فقد اقنع عباس باصلاح الطريق بين الســويس والقاهرة ورصفه بالحجارة فجعله معبدا تسير فيه العربات بسهولة وكان غرض موارى هو تسهيل سبل المواصلات البرية الى الهند عن طريق مصر وسرعــة نقل البريد البريطــانى والسياح بين الهند وبريطانيا ، هــذا فى الوقت الذى عارضت فيه بريطانيا شق قناة بحرية فى مصر جندت امكانياتها لتنفيذ مشروع الســكة الحديد بين الاسكندرية والسويس وذلك لتسهيل الاتصال بين انجلترا والهند عبر مصر(٥٢) .

وكان من المتوقع أن يثير مشروع سكة جديد الاسكندرية ــ السويس مخاوف الساسة الفرنسيين فحذر القناصل الفرنسيون حكومة بلادهم من استفحال النفوذ البريطــانى فى البلاد واكدوا أن عباس يسعى لضرب النفوذ الفرنسى فى مصر(٥٣) .

وقد اعترض القناصل الفرنسيون على مشروع سكة حديد الاسكندرية ــ السويس « خاصــة وأن المشرف هو ستفنسون المهندس البريطــانى وعبر القنصل الفرنسى لموارى عن ذلك بقوله « ان جميع المشروعات التى تمت فى عهد محمد على كانت بأيدى فرنسية ، كمــا انها تمت بعد موافقة البــاب العــالى عليها ،

أما مشروع السكة الحديد فقد تم الاتفاق عليه قبل الحصول على موافقة الباب العالى ، كما ان فوائد المشروع ستعود على بريطانيا فقط وتخدم مصالحها فى الهند »(٥٤) وتلخصت تقارير القناصل الفرنسيين فى الاعتراض على المشروع والدس له من قبل السفراء الفرنسيين فى الاستانة حتى انه وصف بأنه «مشروع شيطانى » لابد من وقفه(٥٥) .

وجدير بالذكر أن الأب انفنتان تخوف من مجيء استفنسون الى مصر خاصة وانه كان عضوا فى جمعية دراسات قناة السويس فأرسل الى زميله دوفور فيرونس عضو جمعية الدراسات فى ليبزج فى ١٢ مايو ١٨٥٢ يوضح السبب الحقيقى لمجيء ستفنسون الى مصر « انه يعمل على تنفيذ مشروع الخط الحديدى والقضاء على مشروع القناة ، اى انه يعمل ضد ما اتفقنا عليه وعندما انشأنا جمعية دراسات قناة السويس التى كان عضوا فيها »(٥٦) .

ورغم اعتراض الباب العالى على المشروع فى بداية الأمر الا أن عباس تلقى موافقة السلطات عليه فى اكتوبر عام ١٨٥١ بشرط الا تفرض ضرائب جديدة أو تعقد قروض أجنبية أو يسخر الأهالى فى انشاء الخط(٥٧) .

وكانت مكافأة بريطانيا لعباس هى الوقوف معه ومساندته التنظيمات فقد طالب الباب العالى عباس بتطبيق برنامج التنظيمات اى الاصلاحات التى أعلن عنها السلطان فى خط شريف جلخانه والذى احتوى على عدة مبادىء منها تأمين رعايا الدولة على حياتهم وشرفهم وأملاكهم والغاء نظام الالتزام ومحاكمة الأشخاص المتهمين بجرائم محاكمة عادلة علنية وتساوى جميع الجنسيات

أيا كانت ديانتهم فى تطبيق هـذه القوانين ، وتركز الخـلاف بين عباس والدولة العثمانية فى سحب « حق الحيـاة والموت » اى الاعـدام من الوالى فرفض عبـاس تنفيـذ ذلك الا اذا عدلت التنظيمات بما يلاءم مركز مصر وعادات أهلها ، واعتمد عبـاس فى مقاومة التنظيمات على أن هـذا المبـدأ لم يطبق سـوى فى البوسنة وكردستان وأن محاولة تطبيقه فى دمشـق وحلب قد أدى الى سفك الدماء وطالب بحق القصاص من أجل المحافظـة على الأمن والنظام فى مصر(٥٨) .

وقد لعب مرى القنصل البريطانى دورا هاما فى اقناع بلاده بضرورة الوقوف الى جانب عباس فى مسألة التنظيمات ، وذلك من أجل تنفيذ مشروع الخط الحديدى والوقوف فى وجـه النفوذ الفرنسى فأبدى انزعاجه من الجولات التى كان يقوم بها سليمان باشا فى الدلتا لتفقد التحصينات وتعزيزها(٤٩) وأخيرا تم حل مسألة التنظيمات وارسل الباب العـالى فؤاد أفندى الى مصر مزودا بتعليمات الى الوالى وقد وافق فؤاد أن يمنح عباس حق الموت والحياة لمدة ثمان سنوات ثم الاتفاق على سـبع سنوات ووافق عباس أن يرسـل الى الاستانة كل الاجراءات المتعلقة بقضـايا الاعـدام(٦٠) .

وبينما ازدادت صلات عباس ببريطانيا استمر على ابتعاده عن فرنسا وأصر على رفض مشروع قناة السويس ورغم الفشـل المؤقت الذى منيت به جهود جمعيـة دراسات قنـاة السـويس وتعطيل تنفيذ مشروعهم لتوصيل البحرين الا أن اليأس لم يتسرب الى نفوسـهم ولم يفقدوا الأمـل فى انه قـد يأتى الوقت الذى يستطيعون فيه تنفيذ المشروع ، واتخذت مساعيهم فى هذه الفترة صورا شتى ولكنهـا جميعا كانت ذات طابع دبلوماسى واستمر

الأب انفنتان يعمل جاهدا مستعينا بمراسلاته من أجل الابقـاء على الصلات التى تربط بين الأعضاء البارزين فى الجمعية فى مختلف الأقطار الأوروبية مع استمرار التفـكير عن أفضـل السبل التى تضمن تحقيق حلمهم الكبير وتنفيذ المشروع وانتهز انفنتـان فرصة اتفـاق انجلترا والولايات المتحـدة فى ابريل ١٨٥٠ بخصـوص المواصلات عبر برزخ بنما واسرع محـاولا عقد اتفاق بين بريطانيا وفرنسا والنمسا لتوصيل البحرين وتوحيد جهود الدول الثـلاث لارغام الباب العالى على ذلك طالب أيضا بانضمام روسـيا الى المشروع ١٨٥٣ ولكن لم يكتب النجاح لهذه الفكرة (٦١) .

ونتيجة لتقارب عباس وبريطانيـا واصراره على اسـتبعاد النفوذ الفرنسى ظهرت فى فرنسا فكرة تدعو لعزله فأخذ السفراء الفرنسيون يدرسون لدى الباب العالى ولكن السـفير البريطـانى « ستراتفورد كاننج » تصـدى لهذه المحاولات وكتب محذرا الى بلمر ستون موضحا خطورة تنفيذها خاصـة وأن عباس يراعى مصالح بريطانيا اكثر من اى حاكم آخر فى مصر ، كما انه حريص على استبعاد النفوذ الفرنسى وأن عزله يعتبر عملا عدائيا ضـد بريطانيا « فلابد من الابقاء عليه على الرغم من أخطائه »(٦٢) .

وقد أصدرت الحكومة البريطانية أوامرها الى سـفيرها فى استانبول بضرورة مساندة عباس فى دوائر القصر السلطانى والباب العالى ، وحرص عباس فى الوقت نفسه على اطـلاع موارى على محاولات فرنسا فى التقرب منه ، فأطلعه على رسـالة أرسلها لويس نابلبون رئيس الجمهوريـة الفرنسية أبدى فيها استعداده لمساندة الوالى فى استانبول فيما لو أعاد وضـع فرنسـا الى ما كانت عليه قبل توليه الحكم حين كانت كل المناصب الهامـة فى أيدى الفرنسيين وحين كانت شئون مصر تدار فى باريس(٦٣) .

وجدت فرنسا انه لا أمل فى زعزعة عباس عن موقفه استمر هجوم السفراء الفرنسيين عليه فى الاستانة خاصة وأن فرنسا كانت تستند فى مصر الى الحزب الفرنسى أى الى أمراء الأسرة الحاكمة المعروفين بأبناء فرنسا ومن التفوا حولهم فكان أولئك يشدون ازر الأتراك الساخطين الذين سبق أن فصلوا من خدمة الحكومة(٦٤) .

ولكن عباس لم يكن يهتم بآراء الأوربيين فيه وقد برر عزلته بقوله « لست تاجرا ولن يفيدنى هؤلاء السادة فاذا ما شغلوا بتجارتهم فلن اطلب منهم ما يتعدى ذلك واذا ما اعتدى عليهم أحد تاوفر لهم حمايتى وسأمنحهم مساندة خاصة اذا ما احتاجوا اليها ولا أود كما كان الحال فى أيام جدى أن يكون قصرى بمثابة مقهى يفد اليه الناس الذين ليس لديهم ما يشغلهم لكى يتجاذبوا أطراف الحديث »(٦٥) .

وبنشوب الحرب الروسية التركية عادت العلاقات بين عباس والباب العالى الى ما كانت عليه من قبل فأبدى عباس استعداده لاظهار ولائه للسلطان عبد المجيد بوضع قوة برية وبحرية تحت تصرفه وامده عباس بحملة مؤلفة من عشرين الف مقاتل بقيادة سليم باشا فتحى اتجهت الى الاستانة وقاتلت مع القوات العثمانية واستطاعت القوات المصرية صد هجمات الروس فى عام ١٨٥٤(٦٦)، كما ادت هذه الحرب الى وقف المنافسة الفرنسية البريطانية مؤقتا فى الشرق الأدنى ومصر كما حدث تقارب بين عباس والدولة العثمانية فخطب ابنة السلطات عبد المجيد لابنه الهامى ، وطلب من الباب العالى أن يمنحه لقب العزيز واتسعت آماله فى تعديل نظام وراثة الحكم فى مصر لمصلحة ابنه الهامى(٦٧) .

وجدير بالذكر ان العلاقات الفرنسية المصرية قد بدأت فى التحسن منذ تولى نابليون الثالث الحكم فى فرنسا وتأسيس الامبراطورية الثانية ، وعمل ساباتيه Sabatier والقنصل الفرنسي فى مصر على التقرب من عباس وذكره بجهود الفرنسيين فى البلاد ، وحاول اقناعه أن بريطانيا لا تريد سوى مصالحها فى مصر ولكن عباس أكد له أنه لن ينسى موقف فرنسا معه أثناء مسالة التنظيمات وانها لم تحاول مساندته فأخبره ساباتيه بضرورة نسيان الماضى واقامة علاقات ودية جديدة خاصة وأن الامبراطور الفرنسي حريص على الصداقة بين البلدين . هذا وقد تخوف القنصل البريطانى فى مصر من تعدد اللقاءات بين عباس والفرنسيين وقد طمأنه عباس بقوله « أنا ناضج بدرجة كافية لكى اعرف مصالحى وأعلم أن فرنسا تريد موطىء قدم لها فى مصر ولكننى اطمئنك لن اتبع خطى جدى اننى انظر الى بريطانيا على أنها الحليف والصديق »(٦٨) .

وكان ساباتيه مكلفا من قبل نابليون الثالث بتحسين العلاقات بين البلدين وبتجنب اية مضايقات مع عباس يتضح ذلك من التعليمات التى صدرت اليه « اننا نعرف أن الباشا يميل الى بريطانيا ولو أراد مد الخط من القاهرة الى السويس فلن نعترض لاننا ايضا سنستفيد ، كل ما نريده هو صداقته مع فرنسا »(٦٩) .

ولا جدال أن أحوال فرنسا الداخلية المضطربة قد لعبت دورا هاما فى علاقاتها مع عباس فقد واكب فترة حكمه قيام ثورة ١٨٤٨ ثم اعلان الجمهورية ثم قيام الامبراطورية الثانية وتولى نابليون الثالث السلطة فى البلاد الذى اتبع سياسة نسيطة تجاه الشرق بصفة عامة ومصر بصفة خاصة .

بتولى سعيد باشا الحكم فى مصر عام ١٨٥٤ فتح أبواب البلاد للفرنسيين الذين اعتبرهم أولى بالرعايا نتيجة لاستبعاد عباس باشا لهم ، وقد ساعد على تدفق الفرنسيين على مصر قيام سعيد بسلسلة من الأصلاحات أهمها الغاء الرسوم الجمركية الداخلية وبذلك تحققت حرية التجارة ولم تعد توجد عوائق تعترض التجار الذين يتجرون فى الداخل مع المنتجين المحليين ولكن هذا الالغاء كانت له نتائجه السلبية أيضا فقد أفسح المجال أمام المغامرين الأجانب وسعى الأوروبيون الذين نالوا حظوة الوالى الى الحصول على الامتيازات كما تدخل القناصل الأجانب فى شئون البلاد وحقق الكثيرون منهم أرباحا عن طريق استغلال مناصبهم بأساليب غير شريفة ، وقد لعب هؤلاء القناصل دورا كبيرا فى فتح أبواب مصر للرأسمالية الغربية النامية ولهجرة الأوروبيين الى البلاد(٧٠) فازدادت البيوت التجارية فى عهده الذى يعتبر العهد الذهبى للتجار الأوروبيين ، وقد شهدت هذه الفترة نشاطا ملحوظا من التجار الفرنسيين نخص بالذكر منهم باسترى الذى كان بمثابة الأب الروحى للتجار الفرنسيين ، كما سيطرت شركة اخوان باسترى على الملاحة فى موانى البحر الأحمر والمتوسط(٧١) .

هذا وقد بلغ التقارب المصرى الفرنسى ذروته عندما منح سعيد امتياز قناة السويس لصديقه فرديناند دى لسبس الذى الذى قدر ان يخرج مشروع توصيل البحرين على يديه ، ولا جدال أن علاقاته مع السان سيمون وجمعية دراسات قناة السويس قد أفادته فى الاطلاع على الجهود والبحوث الفنية التى قام بها مهندسو الجمعية من أجل اتمام المشروع(٧٢) ثم ما لبث دى لسبس بعد ان حصل على امتياز المشروع ان انشق عن السان سيمونيين بل واخذ فى الدس بينهم وكبار الشخصيات فى فرنسا حتى

يخلو له الطريق(٧٣) لخدمة أهدافه وقد عبر عن ذلك فى رسالة أرسلها الى مدام دى لامال « اننى اعترف بأن ما إطمح اليه هو أن أنسج وحدى خيوط هذا المشروع وبالاختصار لا أرغب فى أن اقبل شرطا من أحد بل غرضى أن أملى على غيرى شروطى جميعا »(٧٤) .

وقد أفاد دى لسبس من صلاته الوطيدة مع سعيد ولذلك أسرع بالمجيء الى مصر عندما علم بوفاة عباس ، ولم تمض أيام قليلة حتى منحه سعيد امتياز تأسيس شركة عامة لحفر قناة السويس واستثمارها لمدة ٩٩ سنة ابتداء من تاريخ فتح القناة للملاحة وعرف هذا العقد بالامتياز الأول تميزا له عن الامتياز الثانى فى ٥ يناير ١٨٥٦(٧٥) .

وعهد سعيد باشا الى لينان بك وموجل بك مساعدة دى لسبس فتم الاتفاق على طريقة تنفيذ المشروع وهى أن تنشأ القناة مستقيمة فى أضيق نقطة فى البرزخ بين موقع بيلوز(٧٦) على البحر المتوسط والسويس على البحر الأحمر ثم تشكلت لجنة دولية من المهندسين الفنيين لدراسة المشروع فوافقت على المقترحات السابقة ثم منح دى لسبس الامتياز الثانى الذى ضمن شروطا تتسم بالتساهل والاسراف فقد منح الشركة مزايا جعلها تشارك الحكومة المصرية فى حقوق ملكيتها العامة وسيادتها وملكها مرافق ومنافع عامة ليس للأفراد من أهل البلاد حتى تملكها وهكذا جعل الشركة دولة داخل دولة(٧٧) .

وكان من الطبيعى أن تعمل بريطانيا على مقاومة المشروع فحاولت عرقلته عن طريق تحريض الباب العالى على رفض التصديق عليه ، غير أن كل هذه المساعى باءت بالفشل ، وفى

٥ نوفمبر ١٨٥٨ عرض دى لسبس اسهم الشركة للاكتتاب العام فى فرنسا وغيرها من البلدان فلقيت قبولا عظيمـا وغطت اسـهم الاكتتاب العام عدة مرات فتألقت الشركة فى ديسمبر ١٨٥٨ وبدأ العمل فى حفر القناة فى ٢٥ ابريل ١٨٥٩(٧٨) .

ظلت بريطانيا تعارض مشروع القناة واتخذت من استخدام السخرة فى حفر القناة ذريعة لشن سلسلة من الحمـلات على المشروع فنشرت جريدة التايمز فى عدد يونيو ١٨٦١ مقالا لمراسلها فى الاسكندرية جاء فيه « ان الحـكومة المصرية لا تصـدر أوامر مكتوبة بخصوص الحصول على العمال الى مديرى الأقاليم وبهذه الروح نفسها لا يصدر المحافظون والمديرون الى العمد ورجـال الادارة أوامر مكتوبة لجمع العمال ، وفى نفس الوقت تعلن الحكومة المصريـة على الملأ أنها اذنت لدى لسبس فى جمع العمـال وفق الطريقة الحرة وهى تقصد بذلك تضليل الرأى العام من ناحيـة ولتأخذ لنفسها الحيطة اذا ما تدخلت تركيا أو اية حكومة أخرى فى هذا الموضـوع علينا أن نعد أنفسنا لتلقى أنباء من باريس بأن الفلاحين يهجرون قراهم وزراعاتهم من أجل العمل فى حفر الأرض ونقل الرمال فى برزخ السـويس وهذه جزية فرضتها الشركة على البـلاد »(٧٩) .

ولا جدال أن مشروع القنـاة قد جلب الضرر على البـلاد فقد فتح ابوابها على مصراعيها للأوروبيين وعرفت مصر الارتباكات المـالية والتدخل الأوروبى كمـا أن انشاء القناة على يد شركة أجنبية فتح ثغرة ثانية للتدخل الأجنبى وكان الضرر أخف وطـأة لو فتحتها مصر بنفسها ولحسابها ، كما أن سعيد أسرف فى منح الشركة امتيازات وحقوقا جعلتها شريكة مصر فى سيادتها وجعلت منها حكومة ، ولم تستفد مصر من اقتصاديات القناة بل على العكس

اضرتها اقتصاديا في تلك الفترة لأن طريق التجارة بين أوروبا والشرق تحول من داخل مصر الي القناة المائية التي أصبحت ملكا لشركة أوروبية فخسرت مصر الأرباح التي كانت تعود عليها من مرور المتاجر في وسيط الدلتا بطريق النيل او السكك الحديدية المصرية وانتقلت هذه الأرباح الى شركة القناة على الرغم من مضار المشروع « فان مصر انفقت عليه الكثير من الأموال بذلت في اسهم اكتتبت فيها واملاك تنازلت عنها واعمال قامت وتعويضات ادتها للشركة وقد خسرت هذه الملايين في وقت كانت أحوج ما تكون اليها ولانقاذ مشروع كان شؤما عليها من كل الوجوه »(٨٠) .

وفى عهد سعيد بلغ النفوذ الفرنسي الذروة ، فنشط الفرنسيون في مختلف المجالات وتغلغلوا في الادارات ، وادخلت النظم الفرنسية في الادارة ، ووضع شرط انه لابد ان يكون رئيس كل إدارة ملما باللغة الفرنسية الى جانب العربية ، وشجع سعيد على انتشار وتعميم اللغة الفرنسية ، فوافق على افتتاح العديد من المدارس الفرنسية الكاثوليكية ومدارس الراهبات ، وقدم التسهيلات لمدارس اليسيه وراهبات المعونة الدائمة وللعازاريين(٨١) كذلك شجع عمليات التنقيب عن الآثار ومنح الاثريين الفرنسيين كافة التسهيلات وأسند الى ماريت Mariette مهمة الاشراف على الآثار ، كذلك ساهم الفرنسيون في عهده فى تأسيس الشركات فى مصر فحصل كوردييه Cordier على امتياز تأسيس شركة لتزويد الاسكندرية بالمياه النقية ، وعندما تأسست الشركة المصرية للملاحة التجارية كان معظم مؤسسيها من الأجانب ، وقد لعبت هذه الشركة دورا في نقل البضائع من داخل مصر الي الاسكندرية بواسطة الخط الحديدي من جهة وترعة المحمودية من جهة اخرى فأصبحت الاسكندرية بوابة مصر على أوروبا والسويس بوابتها مع الشرق الأقصى(٨٢) .

ولانتعاش ميناء السويس عهد سعيد الي دوسان Dussan بالقيام بعدة عمليات لتوسعة الميناء وانشاء حوض عائم لاصلاح السفن وقد عملت الشركة على انشاء ميناءين احداهما للبواخر الحربية والثانى للسفن التجارية كما قامت بانشاء حاجز من الأحجار لصد الأمواج على الميناءين وفيه بوغاز لمرور السفن ثم بدأت فى بناء الحوض العائم فى عهد اسماعيل(٨٣) .

وعندما تأسست الشركة المجيدية برئاسة مصطفى باشا فاضل كانت بواخرها تقوم بالملاحة فى البحر الأحمر والمحيط الهندى والخليج العربى وبين السويس والحجاز وكان امتيازها ثلاثين عاما فضمت عدد من الفرنسيين فى مجلس ادارتها نذكر منهم التاجر الفرنسى باستري وادوارد درافيو Darvieux وكانت الشركة المجيدية امتدادا للشركة الفرنسية الميساجر امبريال واصبح ادوارد دارفيو من الشخصيات البارزة فى عهد سعيد ، فكان المتصرف الأول فى شئون الشركة فهو الذى يتولى الاتصالات الداخلية مع أعضاء الادارة والمولين وممثلى مارسيليا ، كذلك قام دارفيو بدور هام فى مجال التعاقدعلى صفقات السفن من الأجانب وعمل على تقوية صلات الشركة بالشركات الفرنسية .

وهكذا يتضح لنا أن الفرنسيين فى عهد سعيد تغلغلوا فساهموا بنشاط ملحوظ فى كافة المجالات حتى عندما شرع سعيد فى انشاء مدينة بورسعيد عام ١٨٥٩ حرص على أن تكون على النمط الأوروبى وتمت عمليات البناء باشراف دى لسبس وموجيل ولينات(٨٤) .

تولى اسماعيل حكم البلاد فى عام ١٨٦٣ ، ورغم انه اجتهد منذ بداية حكمه على توسيع نطاق استقلال مصر وكسب اكثر

ما يمكن من الحقوق والمزايا من الحكومة العثمانية حتى يصل بالبلاد الى الاستقلال العام وبينما هو يعمل على تحرير البلاد من بقايا السيادة العثمانية اذ هو لا يحمى مصر من التغلغل الأجنبى المالى والسياسى فسياسته التى اتسمت بالتساهل مع الدول الأوروبية أوقعت مصر تحت رحمة هذه الدول التى لم تهتم الا بمصالحها(٨٥) .

وقد بدأ اسماعيل حكمه بالتودد الى السلطان عبد العزيز فزار الاستانة لتقديم فروض الولاء والطاعة ، كما دعا السلطان لزيارة مصر وسعى اسماعيل الى تغيير نظام توارث الحكم فى مصر على أن يؤول الى اكبر أنجاله وبذل الرشاوى والهدايا فى الاستانة حتى حصل على فرمان مايو ١٨٦٦ ثم فرمان يونيو١٨٦٧ الذى منحه لقب خديوى بعد أن كان واليا ثم توج اسماعيل جهوده فحصل على ما عرف بالفرمان الجامع فى يونيه ١٨٧٣ الذى ثبت المزايا الواردة فى الفرمانات القديمة والحديثة(٨٦) .

ولو تتبعنا موقف فرنسا من تعديل نظام وراثة الحكم فى مصر سنجد بأنها كانت حريصة على تدعيم نفوذها فى المقام الأول وأعرب المسئولون فى الخارجية الفرنسية بأن بلادهم لا تمانع من تعديل نظام وراثة الحكم ولكن بشرط موافقة السلطان العثمانى وعندما حصل اسماعيل على الفرمان الجامع أعرب فوجيه Vogüé السفير الفرنسى فى الاستانة فى ١٨ يونيه عن المزايا التى حصلت عليها مصر من هذا الفرمان فذكر « أن مركز الثقل فى الشرق قد انتقل من شواطىء البوسفور الى شواطىء قناة السويس » ثم أرسل نابليون الثالث مبعوثه جازو Gazaux لتهنية الخديوى(٨٧) .

وكانت السنوات الأولى من حكم اسماعيل هى الفترة التى اخذ فيها النفوذ الأجنبى يتغلغل فى البلاد ماليـا واقتصـاديا ثم انقلب هـذا النفوذ فى أواخر عهده الى سيطرة مالية وسياسـية شديدة وكان لفرنسا فى بادىء الأمر نفوذ أدبى كبير على اسماعيل وهذا يرجع الى تربيته الفرنسية والسنوات التى قضـاها فى باريس واتصـاله بالفرنسيين وميلـه الى تقليدهم واقتبـاس أساليبهم ، أضف الى ذلك قوة العلاقة بينه وبين نابليون الثالث واعجابه الشديد به ومحاكاته فى مظاهر الأبهة والعظمة التى أحاط نفسه بها ويتضح لنا مبلغ النفوذ الفرنسى فى أنه لمـا قام الخلاف بين اسماعيل وشركة قنـاة السويس فى أوائل عهده ارتضى نابليون الثـالث لحسـم الخـلاف ورضى أن يكون حـكما بينه وبين الشركة(٨٨) .

وعندما كانت الحكومة المصرية على شفا الافلاس فى عام ١٨٧٥ بسبب تراكم الديون اضطرت الى بيع أسهم قناة السويس الى بريطانيا وكانت هـذه الصفقة تمثل فوزا عظيمـا للسياسـة البريطانيـة ويرجع هـذا الفوز الى التلكؤ الذى بدا من المـاليين الفرنسـيين فى الشراء فقد اختلفوا فى أن تكون الصفقـة شراء أو قرضا وكان لابد من تضامن عدة ماليين لتقديم مبلغ المـائة مليون من الفرنكات وكان اختلافهم عقبة عطلت المفاوضات التى تولاهـا دارفيو أحد رجال المـال ، وقد قامت الحكومة المصرية ببيع نصف أسهم الشركة الى بريطـانيا لعدة أسباب منها أن فرنسـا كانت ما تزال تعانى من نفقات الحرب السبعينية فكان من المستحيل أن تدعم مصر ماليا ، كذلك اعتقد اسماعيل أن بريطانيـا ليس لها أطماع فى ممتلكات الدولة العثمانية وانها حريصـة على وحـدة هذه الدولة . هـذا وقد عارضت فرنسا الصفقة ولكنها فى الوقت نفسـه كانت عـاجزة عن اقراض اسـماعيل بالمـال المطلوب

واستطلعت الخارجية الفرنسية رأى بريطانيا فى شراء الماليين الفرنسيين للأسهم ، ولكنها وجدت معارضة شديدة من جانبهم وذلك لأن المساهمين الفرنسيين كان لهم أكثر من نصف رأسمال الشركة ولا يحق لفرنسا أن تمتلك أكثر من ذلك(٨٩) أضف الى ذلك اضطراب أحوال فرنسا الداخلية خلال تلك الفترة فقد انهارت الامبراطورية الثانية بعد الحرب الفرنسية البروسية وكانت الجمهورية الثالثة التى جاءت فى أعقابها تحاول اصلاح أحوال البلاد بينما انقسم الرأى العام والصحافة الفرنسية الى فريقين فريق يرى ضرورة الانتقام من المانيا لاستعادة الزاس واللورين ورد كرامة وشرف فرنسا وتجنيد موارد الأمة لهذا الغرض وفريق آخر يرى تأجيل عملية الانتقام واسترداد الالزاس واللورين وتحويل أنظار الشعب الفرنسى نحو التوسع فيما وراء البحار والعمل على انشاء امبراطورية استعمارية كبيرة تعيد لفرنسا مجدها القديم(٩٠) .

ولما ساءت حالة مصر المالية رأى اسماعيل أن بيوت المال الأوروبية قد تزعزعت ثقتها فى كفاءة الحكومة المصرية ومقدرتها على الوفاء أراد أن يقدم لها برهانا على أن مصر مازالت رغم الديون الباهظة قادرة على السداد فابتكر وسيلة ظن انها تصل به الى هذا الهدف فعرض على بريطانيا ايفاء موظف مالى كفء يدرس حالة الحكومة المالية وكان تقدير اسماعيل أن هذه البعثة ستكون تحت تأثيره ولا تلبث أن تقدم تقريرا بأن حالة الخزانة المصرية حسنة تسمح بالثقة بها لاقناع البيوت المالية الأوروبية باقراضه من جديد واتجه الى الحكومة البريطانية فأرسلت له بعثة كيف Cave عام ١٨٧٥ وجاءت البعثة الى مصر ، ولكنها وضعت تقريرا عن مالية البلاد لم ينل رضاء اسماعيل أشارت الى اسراف الخديوى والى سوء أحوال مصر

المالية واقترحت كشرط ضرورى للاصلاح أن تخضع مالية مصر للمشورة الأوروبية وأن تنشىء الحكومة مصلحة للرقابة على ماليتها برئاسة شخص ذى ثقة واشارت تلميحا أن يكون انجليزيا وكان من الطبيعى أن يكون رد الفعل الفرنسى عنيفا فقد أدركت نوايا بريطانيا وبانها لا تريد التدخل المالى فقط وانما السياسى أيضا وعملت الحكومة الفرنسية على معارضة الفكرة وأرسلت فيليه Villet ليعاون اسماعيل على تنظيم ماليته وكان يهدف ان لا تنفرد الحكومة الانجليزية بالتدخل فى شئون مصر(٩٢) .

وفى الحقيقة أن البعثة وجدت معارضة من نوبار باشا الذى عارض الرقابة البريطانية على مصر وسانده فى ذلك الرأى السفير الفرنسى فى الاستانة كما أرسلت فرنسا القنصل الفرنسى العام السابق فى مصر وهو أوتريه Outré مندوبا لها لاثارة شكوك اسماعيل حول النوايا البريطانية فى مصر . فقام بواجبه خير قيام غير ان ارسال فيليه الى مصر اثار أيضا بريطانيا فهددت بنشر تقرير كيف عن مالية ومركز مصر المالى(٩٣) .

هذا وقد شعر الخديوى بالارتباك المالى واضطر للاستجابة لمطالب وكلاء الدائنين وأصدر مرسوما فى ٢ مايو ١٨٧٦ بانشاء صندوق الدين وكانت مهمته أن يكون خزانة فرعية للخزانة العامة تتسلم المبالغ المخصصة للديون من المصالح المالية فكان أول هيئة رسمية انشئت لغرض التدخل الأجنبى فى شئون مصر والسيطرة الأوروبية عليها فكان ذلك الصندوق بمثابة حكومة أجنبية داخل الحكومة لها سلفة واختصاصات واسعة(٩٤) وقد مثل صندوق الدين نجاحا للسياسة الفرنسية فى مواجهة السياسة البريطانية فعلى الرغم من ان بريطانيا لم توافق على

انشائه ودعت للبحث عن تسوية أفضل الا أن انشاء الصندوق حسم الصراع الدبلوماسي الذى نشأ بين مندوبى الدول الأوروبية فى مصر فيما بينهم من ناحية وبين اسماعيل ، وقد تبين من دراسة مواد مرسوم انشاء الصندوق انه كان يمثل انتقاصا لسلطة اسماعيل اذا كانت ادارة الصندوق فى يد مندوبين أجانب تنتدبهم دولهم ويعينهم الخديوى وعلق دى فريسنيه Freycinet فى كتابه « المسألة المصرية » على هذا الوضع بأنه « أول اعتداء علنى على سلطة الخديوى لأنه مكن الدائنين من أن يكونوا سلطة على الحكومة المصرية »(٩٥) .

وفى ١٨ نوفمبر ١٨٧٦ اصدر الخديوى مرسوما بفرض نظام الرقابة الثنائية على المالية المصرية بمعنى أن يتولى مراقبان الايرادات العامة للحكومة ويسمى الأول مفتش الايرادات والثانى لمراقبة المصروفات ويسمى مفتش الحسابات والدين العمومى وتختار الحكومتان البريطانية والفرنسية الرقيبين المذكورين وبذلك تجاهلت فرنسا أحوال الشعب المصرى لصالح الدائنين الأجانب

وعندما تدهورت الأوضاع المالية فى مصر لعبت فرنسا دورا فى عزل اسماعيل وعينت تريكو Tricot المعروف بكراهيته الشديدة لاسماعيل قنصلا عاما فى مصر وضغطت على السلطان العثمانى لعزله متناسية صداقته الطويلة معها وايثاره مصالحها على مصالح بلاده(٩٦) .

ولعل أصدق ما كتب عن اسماعيل ما ذكره جابرييل شارم فى جريدة العالمين(٩٧) فى ١٥ أغسطس ١٨٧٥ « كان اسماعيل يغترف المال من الخزانة العامة بكلتا يديه لا ليرضى أهواءه الشخصية فحسب بل ليسد نهم الطامعين الملتفين حوله فكم من الفرنسيين والايطاليين والانجليز كانوا تعساء فى بلادهم ثم نالوا

بعد أن هبطوا مصر الرخاء والنعيم لقد كان الخديوى مستعداً على الدوام ان يهبهم المراكز القصور والمنح أو يعهد اليهم بالتوصيات على التوريدات وما كان أشد دهشة السياح اذ يرون فى القاهرة أو فى الاسكندرية جماعة من الأوروبيين ليس لهم من المزايا الا مظهر الرجل الانيق يقومون بمهمة الموردين لنائب الملك (الخديوى) ويربحون من هذه التجارة أرباحا باهظة لا يتصورها العقل فليس ثمة وسيلة لجمع الثروة الطائلة أسهل من الحصول على عطاء تأثيث احدى السرايات أو توريد بعض الصور أو التحف والطرف وكم من أناس جاءوا من أوروبا مثقلين بالديون فما كادوا يستقرون فى القاهرة ويأوون الى احدى قاعات الانتظار فى سراى عابدين حتى صاروا طفرة من أصحاب الملايين(٩٨) .

هذا وقد بلغ النفوذ الفرنسى الذروة فى عهد اسماعيل ففى مجال التعليم انتشر استخدام اللغة الفرنسية وطفت أعمال الترجمة وكان مهمتها ترجمة القانون الفرنسى فعمل على انشاء قلم الترجمة بديوان المدارس وجعل على راسها رفاعه الطهطاوى وافتتحت المدرسة المصرية فى باريس فى عام ١٨٧٠ وتم انشاء العديد من المدارس كان معظم المديرين فيها من الفرنسيين كما حدث فى مدرسة الطب والحقوق وأسند ادارة الأخيرة الى أحد المشرعين الفرنسيين وهو فيدال باشا الذى استمر فى منصبه أربعة وعشرين عاما وفى عام ١٨٦٧ افتتحت مدرسة الفنون والمصانع التىاسندت مهمة ادارتها الى جينيون بك Guignon كما تم التوسع فى انشاء المدارس الأجنبية خاصة مدارس الجزويت وراهبات الراعى الصالح ومنح هذه المدارس العديد من الامتيازات فى شكل أراض أو هبات مالية ففى عهده حصل العازاريون على أراضى خاصة بهم وفى عام١٨٦٩ تم انشاء مدرسة الراعى الصالح فى شبرا على أرض قدمها اسماعيل كما أسسوا من قبل مدرسة فى بولاق عام ١٨٦٥ واخرى فى السويس(٩٩) .

وفى مجال الآثار استعان بماريت فى متحف بولاق وعينه فى عام ١٨٧٩ مديرا عاما للمتاحف وظل فى خدمة الحكومة المصرية حتى عام ١٨٨١ وفى مجال النحت والفن أسند مهمة نحت التماثيل ووضعها فى الميادين العامة الى كولادييه(١٠٠).

ولم يقتصر استخدام الفرنسيين على أعمال العمران والفنون وانما استعان بهم اسماعيل لتدريب الجيش وعنى بنهضة التعليم الحربى فانشأ المدارس الحربية على أرقى طراز حديث واختار لها أكفأ المدرسين والضباط من الفرنسيين كما اهتم بارسال البعثات الى فرنسا لدراسة النظم العسكرية الفرنسية(١٠١) .

هذا وقد بلغ التقارب الفرنسى ذروته بزيارة اسماعيل لفرنسا واشتراك مصر فى معرض باريس الدولى عام ١٨٦٧ وقامت لجنة برئاسة نوبار باشا بالاعداد لاشراك مصر فى المعرض نظير أن يظهر اسماعيل بمظهر الحاكم المستقل ثم جاء حفل افتتاح قناة السويس عام ١٨٦٩ ورغم أن مثلت فيه معظم الدول الا ان الوفد الفرنسى كان له وضع خاص فكان أكبر الوفود عددا اذ ضم اعدادا كبيرة من العلماء والأطباء ورجال الصحافة والرحالة(١٠٢) . وقد وصف « كاريه البعثة العلمية الثانية الى مصر بعد البعثة الأولى التى جاءت اليها أثناء الحملة الفرنسية ، لقد سجلت فرنسا مجدها وفخرها بافتتاح القناة ودعمت هيبتها على ضفاف النيل»(١٠٣) .

وأخيرا ينبغى لنا ان نذكر أن التاثير الفرنسى لم يمتد الى مختلف مجالات الادارة فقط وانما تأثر به طبقة الموسرين والحكام المصريين فكانت هذه الطبقة تتفرنس على مر الزمن وكان الساسة الفرنسيون يمنون انفسهم فى بسط الحماية الفرنسية على مصر يوما عن طريق التدخل السلمى . ولكن انجلترا كانت تراقب الموقف فى مصر فعملت على التصدى للنفوذ الفرنسى فيها(١٠٤).

هوامش الفصـل الأول

(١) ١٤٩٤ - ١٥٥٩ .

(٢) الهام ذهنى : مصر فى كتابـات الرحـالة الفرنسيين فى القرنين السادس عشر والسابع عشر . القاهرة ١٩٩١ ص ٢٨ .

(٣) المرجع السابق ص ٥١ .

(٤) Clement, R : Les Français d'Egypte au XVII et XVIII Siecles Paris 1960 P. 2 66

(٥) الهام ذهنى : مصر فى كتابات الرحالة والقناصل الفرنسيين فى القرن الثامن عشر . القاهرة ١٩٩٢ ص ٤٠ - ص ٤٦ .

(٦) عبد العزيز نوار : مصر والعراق . دراسـة فى تاريخ العلاقات بينهما حتى نشوب الحرب العالمية الأولى . القاهرة ١٩٦٨ ص ٨٠ .

(٧) عبد الرحمن الرافعى : تاريخ الحركة القومية وتطور نظـام الحكم فى مصر القاهرة ١٩٨١ جـ ٢ ص ٣٢٦ . الطبعة الرابعة .

(٨) عبد الرحمن الرافعى : عصر محمد على ١٨٠٥ ، القـاهرة ١٩٨٢ ص ٢٧ .

(٩) جـلال يحيى : مصر الحديثة ١٨٠٥ - ١٨٤٠ ص ١١٥ - ص ١٠٦ .

(١٠) المرجع السابق ص ١٠٧ - ص ١٠٨ .

(١١) عبد الفاضل الصافى : العلاقات الاقتصادية المصرية الفرنسية فى عهد محمد على حتى ١٨٤٠ رسـالة ماجستير غير منشورة كليـة الآداب جامعـة القاهرة ١٩٨٨ ص ٧٩ .

(١٢) المرجع السابق ص ٨٣ .

(١٣) جـلال يحيى : المرجع السابق ص ١١٠ - ١١٢ .

(١٤) عبد الفاضل : المرجع السابق ص ٢٧ .

(١٥) Carré, Jean Marie : Voyageurs et ecrivains Français en Egypte. Le Caire 1960 tome 1. P. 165.

(١٦) جلال يحيى : المرجع السابق ص ٢٠٤ .

(١٧) المرجع السابق ص ٢١٠ .

(١٨) Driault, E · Mohamed Aly et Napoleon (1807 ... 1814). Le Caire 1925 PP. 9 — 10.

(١٩) الصافى : المرجع السابق ص ٩٣ .

(٢٠) المرجع السابق ص١٠٦ .

(٢١) هيلين آن ريفلين : الاقتصاد والادارة فى مصر فى مستهل القرن التاسع عشر ترجمة أحمد عبد الرحيم مصطفى ، مصطفى حسين القاهرة ١٩٦٨ ص ٢٦٨ .

(٢٢) عبد الرحمن الرافعى : المرجع السابق عصر محمد على ص ٢٠٤ ، ص ٢٠٨ .

(٢٣) عبد العزيز نوار : التاريخ الحديث أوروبا من الثورة الفرنسية حتى الحرب الفرنسية البروسية ١٧٨٩ - ١٨٧١ القاهرة ١٩٨٥ ص ٢٥٦ .

(٢٤) عبد الرحمن الرافعى : المرجع السابق عصر محمد على ص ٢١٧ .

(٢٥) Renouvin, Pierre : Histoire des Relations niternationales 1815 — 1872. Paris 1954 PP. 120 — 124.

(٢٦) عبد الرحمن الرافعى : المرجع السابق عصر محمد على ص ٢٥٣ ، ص ٢٥٥ .

(٢٧) عبد العزيز نوار : المرجع السابق التاريخ الحديث ص ٢٥٧ .

(٢٨) عبد الرحمن الرافعى : المرجع السابق عصر محمد على ص ٢٨٠ ، ص ٢٩٨ .

(٢٩) عبد العزيز نوار : المرجع السابق التاريخ الحديث ص ٢٦٠ .

(٣٠) Renouvin, Pierre : Op. Cit., P .126.

(٣١) عبد الرحمن الرافعى : المرجع السابق محمد على ص ٣٠٠ .

(٣٢) Renouvin, P : Op. Cit., P. 126

(٣٣) أحمد عبد الرحيم مصطفى : عصر حككيان : القاهرة ١٩٩٠ ص ١٢ .

(٣٤) أحمد عبد الرحيم مصطفى : علاقات مصر بتركيا فى عهد الخديوى اسماعيل ١٨٦٣ ـ ١٨٧٩ ، القاهرة ١٩٦١ ص ٦ ، ص ٧ .

(٣٥) هم أصحاب المذهب الاشتراكى الذى نشأ فى فرنسا خلال الربع الأول من القرن ١٩ على يد الكونت كلود هنرى دى سان سيمون . سافر الى امريكا ١٧٧٨ وساهم فى حرب الاستقلال ، ثم طاف بأقطار امريكا الجنوبية وعرض على حاكمها حفر قناة ما بين المحيطين الاطلنطى والهادى فلم يجد تشجيعا من حاكم المكسيك ثم عاد الى فرنسا ومنها سافر الى اسبانيا ١٨٧٨ ثم عاد الى فرنسا مرة ثانية ١٧٩٠ حيث تنازل عن لقب الكونت أمام الفلاحين ثم وثق صلاته بكبار الشخصيات وأصدر جريدة شهيرة ١٨١٦ باسم الصناعة لنشر البحوث العلمية وفى عام ١٨١٩ أصدر جريدة السياسة ثم ألف كتابه المسيحية الجديدة وفى عام ١٨٢٥ توفى . وهو يعد مؤسس الاشتراكية الفرنسية وبعد وفاته تولى بروسبير زعامة السان سيمون : محمود منسى : قناة السويس بين أتباع السان سيمون وفردناند دى لسبس القاهرة ١٩٧١ ص ١٠ .

(٣٦) المرجع السابق ص ١٩ ، ص ٢٣ .

(٣٧) المرجع السابق ص ٥٧ .

(٣٨) مصطفى الحفناوى : قناة السويس ومشكلاتها المعاصرة القاهرة ١٩٥٣ ط ١ ص ٧٢ .

(٣٩) المرجع السابق ص ٨٩ .

(٤٠) تأسست جمعية دراسات قناة السويس بفضل انفتان فضمت عدد من الشخصيات آمنوا بفكرة وصل البحرين ولم تضم الجمعية شخصيات فرنسية فحسب وانما بعض الشخصيات الأوروبية تعبيرا عن اشتراك أوروبا كلها فى المشروع .

(٤١) تألفت الشعبة البريطانية برئاسة المهندس ستفنسون الذى قام بدراسات عن ميناء السويس .

(٤٢) تألفت الشعبة النمساوية برئاسة نجريللى ومعه مجموعة من الفرنسيين قامت بدراسات عن شواطىء البحر المتوسط وعلى طول الخليج البيلوزى ولم تحضر المجموعة الانجليزية للعمل لأنها وجدت فى سجلات البحرية البريطانية دراسات كافية . أما المجموعة الفرنسية فلقيت العون من لينان دى بلفون . وقد قدمت مجموعة « تالابو » معلومات هامة عن تساوى مستوى البحرين .

(٤٣) محمود منسى : المرجع السابق ص ٩٩ ، ص ١١٤ .

(٤٤) Brehier, Louis : L'Egypte de 1798 à 1900 Paris 1900 P. 160.

(٤٥) محمود منسى : المرجع السابق ص ٦٤ .

(٤٦) أحمد عزت عبد الكريم : تاريخ التعليم فى مصر من نهاية حكم محمد على الى اوائل حكم توفيق عصر عباس وسعيد . القاهرة ١٩٤٥ جـ ١ ص ٦ ، ص ٧ .

(٤٧) عبد الرحمن الرافعى : عصر اسماعيل القاهرة ١٩٨٢ ط ١ ص ٢٣ .

(٤٨) Hanotaux, Gabriel : Histoire de La Nation Egyptienne. L'Egypte de 1801 à 1882. Paris 1936 t 6. PP. 242 — 243.

(٤٩) Cocheries, Jules : Situation international de L'Egypte et du Soudan. Paris 1903 P. 36

(٥٠) De Vaujany, H. : Histoire de L'Egypte Le Caire 1885. P. 389.

(٥١) Hanotaux, G : Op. Cit., P. 244.

(٥٢) أمين سامى : تقويم النيل عصر عباس حلمى باشا الأول ومحمد سعيد باشا . القاهرة ١٩٣٦ المجلد الأول جـ ٣ ص ٧١ .

(٥٣) Hanotaux, G. : Op. Cit., PP. 246 — 248

(٥٤) Foreign Office 78/842. Murray to Viscount Palmerston. Alexandria August 2, 1851 No. 20 Confidential.

(٥٥) F.O. 78/875. Stratford Canning to Murray therapia.. June 4, 1851.

(٥٦) محمود منسى : المرجع السابق ص ١٥٠ .

(٥٧) المرجع السابق ص ١٥٢ .

(٥٨) أحمد عبد الرحيم مصطفى : المرجع السابق علاقات مصر ص ٨٨ ، ص ١٠ .

(٥٩) أحمد عبد الرحيم : المرجع السابق حككيان ص ١٦ ، ص ١٧ .

(٦٠) محمود منسى : المرجع السابق ص ١٤٩ .

(٦١) المرجع السابق ص ١٥٥ ـ ص ١٥٧ .

(٦٢) F.O. 78/816. Stratford Canning to Palemerston. October 21, 1850 Confidential No. 275.

(٦٣) احمد عبد الرحيم : المرجع السابق حككيان ص ٢٢ .

(٦٤) المرجع السابق ص ١٠٣ .

(٦٥) عبد الرحمن الرافعى : المرجع السابق حككيان ص ١١ .

(٦٦) احمد عبد الرحيم : المرجع السابق حككيان ص ٢٢ .

(٦٧) المرجع السابق .

(٦٨) F.O. 78/966. Payet to the Earl of Malmesburg Cairo 2 January, 1853 Confidential No. 2.

(٦٩) Ibid Payet to Malmesburg. January 3, 1853

(٧٠) احمد عبدالرحيم : المرجع السابق عصر حككيان ص ٦٣ .

(٧١) المرجع السابق ص ٦٥ .

(٧٢) مصطفى الحفناوى : المرجع السابق ص ١١٤ .

(٧٣) حمـاه .

(٧٤) محمود منسى : المرجع السابق ص ١٦١ .

(٧٥) المرجع السابق ص ١٩٧ .

(٧٦) بورسعيد الحاليـة .

(٧٧) المرجع السابق ص ٦٧ .

(٧٨) المرجع السابق ص ٦٧ .

(٧٩) عبد العزيز الشناوى : السخرة فى حفـر قنـاة السـويس القاهرة ١٩٦٦ ص ١٠٨ .

(٨٠) عبد الرحمن الرافعى : المرجع السابق عصر اسماعيل ص ٥٥٠ .

(٨١) المرجع السابق ص ٤٩ .

(٨٢) فاطمة علم الدين : تطور النقل والمواصـلات الداخليـة فى عهد الاحتلال البريطانى ١٨٨٢ ـ ١٩١٤ القاهرة ١٩٨٩ .

(٨٣) Hanotaux : Op. Cit., PP. 260 — 268.

(٨٤) Ibid P. 270.

(٨٥) عبد الرحمن الرافعى : المرجع السابق عصر اسماعيل ص ٧٧.

(٨٦) المرجع السابق ص ٨٠ .

(٨٧) أسماء الكحيل : العلاقات المصرية الفرنسية ١٨٥٤ ـ ١٩٠٤ رسالة ماجستير غير منشورة جامعة الأزهر . كلية الدراسات الانسانية ١٩٨٧ ص ١٢١ ـ ص ١٣٧ .

(٨٨) عبد الرحمن الرافعى : المرجع السابق عصر اسماعيل ص ٨٩ .

(٨٩) أسماء الكحيل : المرجع السابق ص ١٤٠ ـ ص ١٥٣ .

(٩٠) عبد العزيز نوار : المرجع السابق التاريخ الحديث ص ٢٦٠ .

(٩١) أسماء الكحيل : المرجع السابق ص ١٥٣ .

(٩٢) المرجع السابق ص ١٥٤ .

(٩٣) تيودور رولتين : تاريخ المسألة المصرية . ترجمة عبد الحميد العبادى ومحمد بدران ص ٣١ .

(٩٤) المرجع السابق ص ٣١ ، ص ٣٢ .

(٩٥) أسماء الكحيل : المرجع السابق ص ١٦٤ ، ص ١٦٥ .

(٩٦) المرجع السابق ص ١٨٩ .

(٩٧) Revue des deux Mondes

(٩٨) عبد الرحمن الرافعى : المرجع السابق عصر اسماعيل ص ٥٧ .

(٩٩) اسماء الكحيل : المرجع السابق ص ٤٠ .

(١٠٠) المرجع السابق ص ٤٠ ، ص ٤٤ .

(١٠١) عبد الرحمن الرافعى : المرجع السابق عصر اسماعيل ص ٤٩ .

(١٠٢) Carré, J.M. : Op. Cit., t 2 PP. 205 — 206

(١٠٣) Ibid PP. 337 — 340.

(١٠٤) تيودور روتستين : المرجع السابق ص ٢٥ .

الفصل الثاني

تعريف بالرحالة الفرنسيين

- الرحالة الفرنسيون فى عهد محمد على .
- الرحالة الفرنسيون منذ عهد عباس باشا حتى نهاية عصر اسماعيل .

الرحالة الفرنسيون فى عهد محمد على

تزايد شغف الفرنسيين نحو الشرق منذ القرنين السادس عشر والسابع عشر ، وحرص الرحالة الفرنسيون على تعريف أبناء بلدهم بامبراطوريات الشرق العظيمة فى ذلك الوقت ، خاصة الامبراطورية العثمانية ، والفارسية والصينية والهندية . وجاء الاهتمام بمصر خلال تلك الفترة باعتبارها جزءا من الامبراطورية العثمانية .

وجاءت كتابات هؤلاء الرحالة عن الشرق ومصر بعد انقطاع طويل عن هذه المناطق ، فتم تداول كتاباتهم من قصر الى قصر ، ومن كنيسة الى كنيسة ، واستقبل الفرنسيون هذه الكتابات بشغف وحماس شديد .

ويلاحظ أن الرحالة الفرنسيين قد تنوعت وظائفهم فى تلك الفترة فنجد من منهم رجال الدين مثل جريفان افاجار Greffin Affagart ، وفيلامون Villamont ، وكوبان Chesnau ومنهم الساسة والسفراء مثل جان تينو

Jean Thenaud ، وشسنو Chesnau ، وفرمنال Fermanel ، ومنهم الطبيب ، والفيزيائى . والجغرافى مثل بيلون Belon ، ومونكونى Moncony ، وتيفيه Thevet . وقد اقتصر وصف هؤلاء على مدن مصر السفلى واهم المزارات المسيحية فيها ، ولم يحاولوا التعمق فى صعيد مصر . هذا وقد حوت كتاباتهم على العديد من المبالغات ، كذلك نقل البعض منهم ملاحظات وآراء سترابون Strabon وهيرودوت Herodote كما اتسمت كتاباتهم بالسرعة فجاءت فى صورة جمل قصيرة جافة(١) .

أما رحالة القرن الثامن عشر فلم تقتصر زيارتهم لمصر على المزارات المسيحية فقط وانما جابوا مدن مصر وتوغلوا فى صعيدها

وصحرائها ولم تكن زيارتهم قصيرة وسريعة وانما مكث البعض منهم عدة سنوات ، فجاءت كتاباتهم عن مصر أعمق بكثير عمن سبقوهم . كذلك يقابلنا فى القرن الثامن عشر ظاهرة تسجيل القناصل وتدوينهم لمشاهداتهم فى مصر فدون ميليه Maillet ملاحظاته والتى نشرت باسم « وصف مصر » ولم يكتف الرحالة والقناصل بتدوين ملاحظاتهم عن أحوال مصر السياسية والاقتصادية ، وانما اهتموا بوصف مدن مصر خاصة مصر العليا ، فتعمقوا فى جنوب الوادى حتى وصلوا الى مناطق لم يصلها فرنسى من قبل . ولذلك فاننا لا نتعجب من العمل الضخم الذى انجزته الحملة الفرنسية الا وهو وصف مصر فما كان لهذا العمل أن يتم لولا وجود أساس قوى ومتين استند عليه علماء الحملة فانجاز الحملة فى ثلاثة أعوام انما هو حصيلة جهد تم على مر ثلاثة قرون ، وان كانت كتابات الرحالة والقناصل فى القرن الثامن عشر هى أساس وركيزة عمل الحملة(٢) .

هذا وقد تنوعت وظائف هؤلاء الرحالة ففى النصف الأول من القرن الثامن عشر سنجد أن معظم الرحالة كانوا من رجال الدين المسيحى الذى وكلت اليهم حكومة بلادهم نشر المذهب الكاثوليكى مثل بول لوكا Paul Lucas والأب كلود سيكار Claude Sicard والأب دورفال D'Orvalle ، والراهب كلود لويس فورمون Claude Louis Fourmont أما فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر وحتى مجىء الحملة الفرنسية ، فقد تميزت هذه الفترة بظهور كتابات علمية دقيقة أطلق عليها كاريه « التحقيقات العلمية عن مصر » فكانت هذه الكتابات نواة « المجتمع العلمى المصرى » ففى النصف الثانى من القرن الثامن عشر لم تعد مصر مجهولة أو غامضة ، أو ماهولة بالسكان المتوحشين ، والحيوانات المتوحشة أو الأفاعى الساحرة، وانما درس هؤلاء الرحالة أوضاع مصر الحقيقية ونخص منهم بالذكر سافارى Savary الذى وضع مؤلفا عن مصر من ثلاثة اجزاء نال به شهرة واسعة ، كذلك العالم الطبيعى سونينى دى مانكور Sonnini De Manancours ويعتبر عمله مكملا لعمل سافارى وفولنى Volney الذى وضع كتابا عن مصر وسورية وزوده بالخرائط(٣) .

وهكذا فيلاحظ أن كتابات رحالة القرن الثامن عشر ، أسهمت فى تعريف القارىء الفرنسى بحضارة مصر ، واصبح الرأى العام الفرنسى شغوفا بالتعرف عليها ، ولذلك أيد الجميع حملة بونابرت على مصر ، تلك الحملة التى صورت فى فرنسا وكان الغرض الرئيسى منها هو اكتشاف الحضارة المصرية التى طالما قرأ عنها الفرنسيون من خلال كتابات الرحالة . لقد وصفت مصر بالفعل قبل مجىء الحملة ولكننا لا نستطيع أن ننكر أن وصف علماء الحملة جاء أدق وأعمق وعلى أسس علمية متينة(٤) .

أما فى القرن التاسع عشر فقد شهدت مصر تدفق أعـداد كبيرة من الرحـالة الفرنسيين ، بلغ عددهم حتى عهد الخـديوى اسماعيل حوالى خمسين رحـالة . ويمـكن تعليل تزايد أعداد الرحالة خلال تلك الفترة رغم نشر انجاز الحملة العظيم « وصف مصر » الى عدة عوامل منها أن مصر لفتت الأنظار وجذبت الانتباه بآثارها العظيمة ومعابدها الضخمة فشغف الفرنسيون بها للتعرف على تلك الحضـارة العملاقـة . ولا جدال أن فك رموز اللغـة الهيروغليفية قد ساهم بدور كبير فى مجىء أعداد كبيرة من الأثريين اليها لينهلوا من المعرفة ، ليقرأوا بحمـاس النقوش والكتابات القديمة ، ويفخروا بفك رموزها وبمقدرتهم على الكشف والتنقيب، كذلك لفتت الحضـارة الاسلامية والعمائر الضخمة أنظار الرحالة خاصة من درس منهم اللغة العربيـة وكانت له اهتماماته الشرقية ولذلك نلمس من كتابات الرحالة فى القرن التاسع عشر تركيزا كبيرا على الآثار القديمـة والاسـلامية ، كذلك لفتت الحيـاة الاجتماعية انتباه الرحالة ، فتغلغلوا بين طبقات الشعب المختلفة أضف الى ذلك تغيير نظـام الحكم فى مصر فى القرن التاسع عشر وتولية محمد على وخلفائه من بعده ادارة البـلاد . حقيقة أن مصر كانت فى تلك الفترة مازالت تابعة للدولة العثمانية ولكنهـا تبعية اسـمية ، فولاة مصر كان لهم استقلالهم الداخلى الى حد كبير ، وقد أعجب الرحـالة بعمليات التحديث والتطوير التى تمت فى عهد محمد على وخلفائه وانجازاتهم العظيمة التى شدت الانتباه خاصـة القناطر الخيرية ومشروعات السكك الحديدية ومشروع قناة السويس . ولا نغفل أيضـا تصاعد وتزايد أواصر الروابط بين فرنسا ومصر خلال تلك الفترة حتى ان اسم محمد على أصبح يتردد فى أوروبا مما لفت الأنظار وشـد الانتباه لزيارة مصر ،

ولذلك لا نتعجب عندما يتضح لنا أنه من بين أعداد الرحالة الخمسين الذين توافدوا على مصر حتى عهد الخديوى اسماعيل نجد ما يقرب من ثلاثين قد زاروا مصر فى فترة حكم محمد على .

هذا وقد تعددت وتنوعت وظائف الرحالة الفرنسيين فى القرن التاسع عشر فمنهم الأثريون وعلماء الآثار نخص بالذكر منهم شامبيليون Champollion ، وريفو Rifaud ، ونستور لوت Nestor L'hôte ، وبريس دافين ، ومنهم العلماء ونخص منهم أمبير Ampert ، ومنهم الأدباء أمثال شاتوبريان Chateaubriand ، وجوتيه Gauthier ، وآدمون أبو Edmond About ومنهم القادة والضباط العسكريين أمثال المارشال مارمون Marmont ، كذلك مؤرخ الحروب الصليبية الشهير ميشو Michaud ومنهم أصحاب الدعوات الانسانية مثل بروسبير انفنتان Prosper Enfantin ، وشولشيه Scholcher وكان الأخير من دعاة القضاء على تجارة الرقيق وطالب بضرورة مكافحتها، كذلك زار مصر مجموعة من الرسامين أبرزت رسوماتهم عظمة الحضارة المصرية القديمة والحضارة الاسلامية وبهروا أوروبا بتلك الرسومات عن المعابد والأهرامات والمساجد والحمامات والمشاريع العمرانية الحديثة ، فجاء عملهم متمما لرسومات فنانى الحملة الفرنسية فجذبت رسوماتهم الانتباه ، كما جذبت لوحات فيفان دينون Vivant Denon المصاحب للحملة الفرنسية من قبل انتباه واعجاب فرنسا وأوربا .

واذا استعرضنا أسماء الرحالة الفرنسيين الذين زاروا مصر فى القرن التاسع عشر سنجد على رأسهم :

١ ـ فرانسو رينيه دى شاتوبريان
François René De Chateaubriand

من أوائل الرحالة الذين زاروا مصر ورغم أنه يعتبر من أهم ادباء فرنسا الا أن كتاباته عن الشرق بصفة عامة ومصر بصفة خاصة اتسمت بالتعصب الشديد ، زار شوتوبريان العديد من البلدان فسافر الى أمريكا ، ثم عاد الى فرنسا وعاصر أحداث الثورة الفرنسية ، ثم مكث فى بريطانيا فترة ونشر كتابه فى عام ١٧٩٧ عن الثورات(٥) عالج فيه أسباب الثورات المختلفة . وبعد عودته الى فرنسا وجد أن المذهب الكاثوليكى قد استعاد نشاطه بعد الثورة الفرنسية فنشر كتابا فى عام ١٨٠٢ بعنوان « عبقرية المسيحية »(٦) دافع فيه عن هذا دفاعا كبيرا . وفى عام ١٨٠٣ عينه بونابرت سكرتيرا فى سفارة روما ، ثم أرسله تاليران وزير الخارجية فى بعثة دبلوماسية الى الاستانة ، فزار مصر وبلاد الشام . ووصل الى الاسكندرية فى ٢٠ أكتوبر عام ١٨٠٦ ، حيث كانت الحروب الأهلية مازالت دائرة فى البلاد ، هذا وقد قابل شاتوبريان أثناء زيارته لمصر العديد من الشخصيات على رأسها القنصل الفرنسى « دروفتى » الذى أحسن استقباله ، كما قابل فى بولاق « مانجان » صاحب المؤلف الشهير عن « مصر فى عهد محمد على »(٧) والذى رافقه فى جولاته للمناطق الأثرية والمزارات المسيحية ولكن شاتوبريان لم يهتم بالآثار المصرية وانما ركز اهتمامه وكتاباته عن الفرنسيين المتخلفين من قوات الحملة الفرنسية والذين فضلوا البقاء فى مصر ورفضوا العودة الى فرنسا(٨) .

هذا وقد نتج عن زيارة شاتوبريان الى الاستانة أن ألف كتابا نشره فى عام ١٨٠٩ باسم الشهداء(٩) سجل فيه مشاهداته عن التواجد العثمانى فى اليونان ، وغلب على أسلوب المؤلف

التعصب ضد الاسلام فنسب اليه كل مزاعم الأوروبيين عما فعله العثمانيون فى اليونان بل غالى فى حقده فذكر « ان الاسلام هو جلاد اليونان » . ويبدو جهل شاتوبريان بالأحداث التاريخية فنراه يسجل فى كتابه بأن الحروب الصليبية انما هى رد فعل لوصول عمر بن الخطاب الى أوروبا وقد تعرض كتابه للنقد فى فرنسا وتصدى له كثيرون واتهموه بالافتقار الى الموضوعية والجهل بالأديان بل وصفوا كتاباته بأنها اسفاف وحقد(١٠) .

أما مؤلفه الذى سجل فيه أخبار رحلته عن مصر والقدس والشام ، فقد نشرت فى عام ١٨١١ بعنوان « رحلة من باريس الى بيت المقدس»(١١) وقد ضم الكتاب ثلاثة أجزاء وصف فيها كندا ولويزيا وفلوريدا وأنهار المسيسبى . ثم تابع نهج العنصريين فى كتاباته فكتب عن القدس التى لم يمكث فيها سوى ثلاثة ايام ثلاثمائة صفحة . أما مصر فلم يتحدث عنها الا فى اربعين صفحة من بين صفحات كتابه التى بلغت الف صفحة ، وقد علل هو بنفسه سبب عدم كتابته بافاضة عن مصر للقنصل الفرنسى دروفتى « أن كتابات ورحلات فولنى وسيكار ونوردن وبوكوك وشو ونيبور ورسومات رينون والأعمال العظيمة التى قدمها علماء الحملة الفرنسية تعتبر عملا متكاملا عن مصر فما الذى تبقى لى لأكتب عنه » ولكن فى حقيقة الأمر غلب على شاتوبريان روح التعصب فى كتاباته عن مصر ، فعندما زار الأهرام فى الجيزة كتب عن هرم خوفو انه ليس « سوى مقبرة وكومة من الأحجار والهياكل » ولذلك فهو من وجهة نظره لا يستحق المشاهدة(١٢) .

هذا وعندما عاد شاتوبريان الى فرنسا انعش ذكرياته عن مصر فوضع مؤلفا عنها فى عام ١٨٣٩ بعنوان Memoire D'outre tombe (١٣) تحدث فيه عن طفولته ومستقبله السياسى . ومن الطريف أن الطاهى المصاحب له فى

رحلتــه الى الشرق ويدعى جوليــان Julien وضــع بدوره مؤلفا(١٤) عن رحلته الى الشرق بصحبة سيده(١٥) .

وجدير بالذكر أن فترة زيارة شاتوبريان لمصر ، جاءت مواكبة لزيارة « على بك العباسى » أو دومنيجو باديا لبلخ « الاسـبانى الأصل والذى أوفده بونابرت فى مهمة رسمية الى الشرق ، بهدف الاتصال بالمسلمين والتعرف على أحوالهم وأهم القوى السياســية فى الجزيرة العربيـــة وقـــد ادعى « دومنيو » بأن اســمه هو « على بك » وانه آخر ســلالة العباسيين ، واستطاع زيــارة الجزيرة العربية والحجاز الا أن السلطات السعودية قامت بطرده فعاد الى فرنسا ، ونشر مخطوطه من الاسبانية الى الفرنســية ثم حاول العودة الى الشرق مرة ثانية ولكنه توفى فى دمشــق عام ١٨١٨ . وقيل أن السلطات البريطانية دست له الســم لأنها أعتبرته جاسوســا فرنســيا وهناك من ينفى عنه صفة التجسس ويؤكد أنه أحد موظفى البحرية الفرنسية أرســل لتدوين بعض الملاحظات عن منطقة البحر الأحمر .

والذى يهمنا من رحلة على بك العباسى انه زار مصر بالفعل وسجل مشاهداته عن الفترة الحرجة التى تولى فيها محمد على الحــكم(١٦) .

٢ ــ الكولونيل بوتــان Le Colonel Boutin (١٨١١)

فى عام ١٨١١ وصل الكولونيل بوتان الى مصر مندوبا عن الحكومة الفرنسية ليحمل للفرنسيين نبــأ مولد ابن الامبراطور نابليون ، فسافر الى الجزائر ومنها الى مصر ، حيث تقــابل مع القنصل الفرنسى دروفتى الذى صحبه لزيارة مصر العليــا . وقد أثارت هــذه الجولات القنصــل البريطــانى ميست فكتب الى

المسئولين البريطانيين معربا عن مخاوفه « لقد مكث دروفتى فى مصر تسعة أعوام ، ولم يفكر خلالها فى زيارة مصر العليا والآن يتجول فى البلاد مصطحبا معه المبعوث الفرنسى » . هـذا وقد منح محمد على دروفتى والكولونيل بوتان فرمانا بحرية التجول فى البلاد ، فزار وادى الملوك والقرنة ثم عاد الى القاهرة فى عام ١٨١٢ ومعه كمية من المخطوطات والآثار . وبعد اقصاء نابليون عن الحكم وعودة أسرة البوربون استمر برتان فى العمل فى أبحاثه وفى التنقيب عن الآثار وقام بعدة بعثات فى طيبة وحمل معه الى الاسكندرية مجموعة كبيرة من الميداليات وأوراق البردى والتماثيل. ولم يكتف بوتان بالتجول فى مصر العليا وانما زار أسوان ومنها اتجه عبر الصحراء الى البحر الأحمر وسافر من القصير الى ينبع والحجاز وعدن ، ثم عاد الى السويس ومنها الى صحراء سيناء حيث زار دير سانت كاترين ، كما لفتت واحة سيوه انتباهه فقام بجولة فيها . وفى عام ١٨١٥ عاد الى سورية حيث قتل فيها بعد أن اعترضه بعض قطاع الطرق(١٧) .

والحقيقة ان جولات بوتان فى مصر وهو يذرع البلاد طولا وعرضا قد اقلقت ميست القنصل البريطانى بدرجة كبيرة ، فلم يكتفى بابلاغ المسئولين فى بلاده عنه ، وانما عمل على الدس له لدى محمد على واثارته ضده فأخذ يؤكد له أن هذه الجولات ليست من أجل زيارة الآثار والتعرف عليها ، وانما هدف بوتان الحقيقى هو اثارة المماليك الفارين فى مصر العليا ضده(١٨) .

وقد سجل اخبار رحلة بوتان فيما بعد أوريان بعنوان « رحلات الكولونيل بوتان السياسية »(١٩) . ويمكننا القول أن هذه الرحلات كان لها هدف سياسى بالفعل ، فقد كلف بونابرت بوتان بالالتقاء بالمبعوث الفرنسى سبستيانى Sebastiani

فى الاستانة ، وكان هدفه الرئيسى هو معرفة الأوضاع السياسية والعسكرية والاقتصادية فى الشرق للافادة منها اذا ما فكر فى غزو مصر مرة ثانية(٢٠) .

٣ ـ امبراوز فيرمان ديدو Ambroise Firmin Didot (١٨١٦):

كان يعمل ناشرا ارتبط مع الدوق دى ريشيليو فى سفارة الى الأستانة ، فانتهز هذه الفرصة لزيارة اسكالات الشرق ، فزار مصر لمدة ثلاثة أسابيع فى سبتمبر عام ١٨١٦ تجول فى مصر السفلى فزار رشيد والاسكندرية ودمياط حيث قابل فى الأخيرة التاجر السورى باسيلى فخر الذى كان يرعى المصالح الفرنسية فى هذه المدينة فأحسن استقباله ، وتوطدت أواصر الصداقة بينهما ، كذلك تعرف فى القاهرة على القنصل البريطانى صولت Sault والذى ابدى استعداده لمرافقته فى جولة فى مصر العليا ، ولكن « ديدو خشى من اصابته بالحمى والامراض » كذلك أراد العودة سريعا الى فرنسا للاطمئنان على اسرته ولذلك اكتفى بزيارة مدن مصر السفلى فقط ونشر رحلته فى باريس(٢١) عام ١٨٢٧ هذا وتعتبر رحلته أقل أهمية من رحلة فوربان ، وذلك لأنه لم يتجول كثيرا فى مدن مصر(٢٢) .

٤ ـ الكونت فوربان Forbin (١٨١٧) :

كان رساما(٢٣) عقد كاريه مقارنة بينه وبين رسام الحملة الفرنسية الشهير « فيفان دينون » وقد احتفظ متحف اللوفر برسومات فوربان عن مصر . زار اليونان وآسيا الصغرى وفلسطين ثم مر على مصر فى أواخر ديسمبر عام ١٨١٧ وعبر الساحل الممتد ما بين غزة ودمياط واجتاز صحراء العريش ، ومستنقعات بحيرة المنزلة ، وكان مكلفا بشراء الآثار لمتحف اللوفر وللويس الثامن عشر ، الذى أهداه مؤلفه بعد ذلك ، ولذلك يمكننا

أن نعتبر رحلته شبه رسمية بتكليف من لويس الثامن عشر ولكن فوربان كانت له رغبة شخصية فى زيارة الشرف ، وقد راودته هذه الأمنية طويلا ، فزار القاهرة وتجول بين المساجد ، وزار الحمامات العامة وأسواق العبيد ، حيث اشترى جارية قوقازية بمبلغ ستمائة قرش ، وكان بصحبته أحد المماليك من الفرنسيين المتخلفين من قوات الحملة ، وفى يناير ١٨١٨ بدأ فوربان جولاته فى مدن مصر العليا حيث زار المنيا وشاهد مصانع السكر بها والتى كان يعمل فيها الفرنسيون ثم زار منفلوط وطهطا حيث قابل فى الأخيرة بعض الرهبان الايطاليين ثم زار ابيدوس والأقصر ، وخلال جولاته كان يحمل قلمه ليرسم الصور المختلفة التى يراها وفى الأقصر قابل الرحالة الفرنسى الشهير كايو وكان يقوم ببعثة استكشافية فى البحر الأحمر للبحث عن مناجم الزمرد بتكليف من محمد على ، ثم اتجه فوربان الى أسوان حيث شاهد الانجليز يتجولون فى مراكب فاخرة مفروشة بأحسن الأثاث يصطحبون معهم الخدم والطهاة بينما هو يعانى من الحرارة الشديدة التى اضطرته للعودة الى القاهرة ومنها الى الاسكندرية حيث قابل محمد على الذى أحسن استقباله(٢٤) .

وقد وضع فوربان مؤلفه عن مصر بعنوان رحلة الى الشرق(١٥) وقد أحدثت رسوماته ضجة كبيرة فى فرنسا وتنقل فى العديد من الوظائف حتى عين مديرا عاما للمتاحف فى فرنسا(٢٦) .

٥ ـ فردريك كايو(٢٧) Frederic Caillaud (١٨١٥) :

كان شغوفا بالآثار المصرية ولذلك وصف فى فرنسا بأنه مجمع علمى مصغر ، وذلك بسبب ملاحظاته الدقيقة جاء الى مصر عام ١٨٨٥ ومكث فيها ثلاث سنوات زار خلالها العديد من

المناطق (٢٨) وكانت له اكتشافاته فى صحراء ليبيا (الصحراء الغربية) ، وفى سنار ، وفى أعالى النيل ، وقد توثقت الصلات بينه وبين محمد على فكلفه فى عام ١٩١٥ باكتشاف جبال البحر الأحمر الغنية بمناجم الزمرد فقام بعدة جولات وبعثات فى الصحراء الشرقية وفى الصحراء الغربية ، ثم توغل جنوبا حتى وادى حلفا ، ووصل الى مناطق لم يصل اليها براون ولا بونسيه فى القرن الثامن عشر ، ثم حاول الوصول الى أبى سمبل عام ١٨١٦ اى قبل عام من وصول بلزونى Belzoni (٢٩) اليها ، ولكن دروفتى رفض السماح له باكمال البعثة ، ثم عاد كايو الى فرنسا عام ١٩١٩ ومعه معلومات غزيرة عن المنطقة الواقعة جنوب الشلال الأول ، الى جانب مجموعة من الرسومات والمخطوطات كان لها اثر كبير فى فرنسا ثم نشر أخبار رحلته فور وصوله(٣٠) .

هذا وقد أفاد شامبليون من المعلومات التى نشرها كايو خاصة عن طيبه والمناطق المجاورة لها ، وبعد عودة كايو الى فرنسا كلف بمهمة أخرى فعاد فى عام ١٨١٩ ثم رافق محمد على فى بعثته الى واحة سيوه . وفى عام ١٨٢٠ رافق القوات المصرية الزاحفة على السودان فوصل معها الى اقليم دنقلة عام ١٨٢١ ثم توغل معها الى سنار ثم دارفور غربا وقد سجل أخبار رحلته الى السودان فى عام ١٨٢٦(٣١) وخلال الفترة من ١٨٢٣ الى ١٨٢٧ نشر كايو وصفا للمعابد الرئيسية فى النوبة فجذب انتباه شامبيليون الذى عكف على دراسة الخراطيش والأحجار التى جاء بها كايو(٣٢) .

٦ ـ دى مونتوليه De Montulié (١٨١٨) :

فارس حصل على وسام الشرف عام ١٨١٨ زار مصر خلال عامى ١٨١٩ ، ١٨٢٠ ثم نشر رحلته فى عام ١٨٢١(٣٣) . وكان

الفرنسي الوحيد الذى رافق المكتشف الايطالى بلزونى أثناء اكتشافه لمعبد سيتى الأول وقد قام « دى مونتوليه » بعدة جولات فى صعيد مصر وتوغل حتى وصل أسوان(٣٤) .

٧ ـ الكونت دى مارسيلوس De Marcellus (١٨٢٠) :

زار مصر فى عام ١٨٢٠ ولكنه لم يكتب كثيرا عنها فى كتابه ذكريات عن الشرق(٣٥)الذى نشر فى عام ١٨٦١ فلم يذكرها سوى فى ستين صفحة وما كتبه يعتبر أقل بكثير مما سجله فوربان أو فيفان دينون ويتضح من مؤلفه ثقافته الواسعة اذ يحوى اشارات الى راسين وهيرودوت وثيوقريط وهوميروس . وكان مارسيليوس يعمل فى السلك الدبلوماسي ثم جاء الى مصر فى زيارة لمحمد على فوصل الاسكندرية ومنها اتجه الى القاهرة عبر قناة المحمودية فشعر بالأسف لأحوال وأوضاع الفلاحين المصريين ولكنه فى كتابه اقتبس كثيرا من عبارات شاتوبريان خاصة عندما يتحدث عن غروب الشمس وهو يمر على صفحة النيل . وفى القاهرة قابل دى مارسيلوس نائب القنصل الفرنسي دى شرفيل De Cherville وجذبته شخصية الكولونيل سيف فزار بصحبته ضواحى القاهرة . ثم قام بجولة فى الجيزة وسقاره ، على أن أهم ما لفت نظره واسترعى انتباهه هو حفل ختان احد أبناء محمد على فقدم وصفا لاحتفالات القاهرة ـ ثم أكمل مارسيلوس جولته فى المطرية وشبرا وقبل رحيله أهداه محمد على مسدسا مطعما بالذهب(٣٦) .

٨ ـ البارون رونوار دى بوسيير Renouard De Bussieres

زار مصر فى مهمة دلوماسية ونشر رحلته عن مصر فى عام ١٨٢٩ بعنوان « رسائل عن الشرق »(٣٧) وزود مؤلفه

بأطلس كبير وعدة رسـوملت ، والكتاب خير شاهد على رحـلات الفرنسيين فى جنوب مصر كذلك جهود الرحالة الايطـالى بلزونى فى مجال الآثار ويحتوى على رسومات تصور بلزونى وهو يعمل فى التنقيب عن الآثار أمام معبد رمسيس الثانى ، كذلك فيه سجل لرحلات شامبليون فى مصر(٣٨) .

٩ ـ ريفـو Rifaud :

زار مصر ومكث فيها أربعة عشر عاما ركز اهتمامه فى الآثار عمـل مع دروفتى فى الأقصر واطـلق عليـه محمـد على لقب « أبو انتيك » أى المهتم بالآثار القديمة ، وقد نجح فى اكتشـاف بعض المعابد الملحقة بالكرنك والتى لم يلحظهـا علمـاء الحملـة الفرنسية كما قدم عدة رسومات تصور مصر القديمة والحديثة . هـذا وقد أفاد شامبليون من كتابات(٣٩) ورسومات ريفو وان كانت كتابات شامبليون تتسم بالدقة وذلك نظرا لثقافته العلميـة ودراسته للغة الهيروغليفية بينما كان ريفو يفتقر الى الدراسـة العلميـة(٤٠) .

١٠ ـ شـامبيليون Jean François Champollion

ولـد جان فرانسو شـامبيليون فى فيجـاك Figeac فى ٢٣ ديسمبر ١٧٩٠ ، وقد اظهر اهتماما كبير بالحضارة المصرية القديمة شجعه على ذلك المنـاخ الذى عاش فيه فى فرنسـا خلال تلك الفترة فقد جذبت مصر بحضـاراتها القديمة انتباه الرأى العام الفرنسى ومنذ عام ١٧٩٩ تأسس المجمع العلمى المصرى الذى يعد أول مؤسسة علميـة حديثة فى مصر وقد ساعد على ذلك وصول آخر انباء الأعمـال والاكتشافات الى أوروبا بسرعة كبيرة وتعزيز الاهتمام بالحضارة المصرية القديمة(٤١) .

ولا جدال أن المجمع العلمى ضم صفوة المثقفين المشهورين نذكر منهم برتوليه Bretholet ، والمستشرق فنتور دى بار ادى Venture De Paradis ، وعالم الحيوان جيوفرى سان هيلار Geoffrey Saint Hilaire ، والعـالم الشـهير مـونج Monge والرســام فيفان دينون . وعلى مدى ثلاثة أعوام اجرت البعثة عددا مذهلا من الأبحـاث الفنية ودونت نتائجهـا وصف مصر ، وكان احد الثمار الهامة اكتشـاف حجر رشـيد عام ١٧٩٩ الذى رفض علمـاء الحملة تسليمه الى الانجليز أثناء جلاء القوات الفرنسية عن مصر بل هددوا بحرقه وصرح جيوفرى سانت هيلار « لولانا نحن الفرنسيين لاستعصى عليكم أنتم وذويكم فهم هـذا الحجر وسندمر كل ما فى حوزتنا من وثائق وسنذورها فى الصحراء الليبيــة ونلقى بها فى أعماق البحر وسنحرق كافــة الثروات بدلا من أن نسلمها لكم كما تشتهون » واضطر المسئولون الانجليز الى التراجع ، وهــذه الحادثة انما تدل على مدى اهتمام علماء الحملة بنتائج أبحاثهم وكل ما توصلوا اليه(٤٢) .

عكف شامبيليون على دراســة اللغات الشرقيــة المعروفــة ومنها القبطية لاقتناعه باحتوائها على الاصطلاحات التعبيرية التى كان يستخدمها المصريون القدماء ثم تقدم وهو فى سن السابعة عشر الى جمعيــة الفنون أو العلوم فى جرينبول ذهب فيها أن اللغــة القبطية هى لغة المصريين القــدماء ، وعندما بلغ سن الواحــدة والعشرين عين مدرسا فى كلية الآداب ونشر كتابه فى عام ١٨٠٩ عن « مصر فى أيام الفراعنة »(٤٣) .

ثم اضطر شــامبيليون الى الاعتزال فى بلدة فيجيــان بين عامى ١٨١٦ و ١٨١٨ بسبب الظروف السياسية التى تمر بهــا فرنسا ، خاصــة وأنه ساند بونابرت أثناء حكم المــائة يوم ،

مما آثار عليه غضب السلطات الحاكمة ، ولكنه أفاد من هذه الفترة وانكب على جميع العناصر اللازمة لدراسة الحضارة الفرعونية ، وقد سمح له الفحص الدقيق لحجر رشيد الذى يمثل مرسوما كهنوتيا تمجيدا لبطليموس الخامس عن طريق تميزه وعزله لأسماء الأشخاص التى وردت به سمح له بوضع أسس راسخة للانطلاق فى فك طلاسم اللغة اليروغليفية(٤٤) .

وجدير بالذكر أنه فى الوقت الذى عكف فيه شامبيليون على الدراسة كان المكتشف الايطالى بلزونى قد نجح فى عام ١٨١٧ فى اكتشاف مقبرة « سيتى الأول » ونجح فى اعداد نموذج لتلك المقبرة شاهدها آلاف من الفرنسيين ، كذلك تم فى تلك الفترة ترجمة مؤلف بلزونى عن مصر والنوبة(٤٥) من الانجليزية الى الفرنسية مما آثار حماس شامبيليون ويمكننا مقارنة شهرة بلزونى عند اكتشافه لمقبرة سيتى الأول بشهرة اللورد كارنافون Carnavone مكتشف مقبرة توت عنخ آمون ، وكذلك شهرة هوارد كارتر Carter فأفاد شامبيليون من ذلك فائدة كبيرة(٤٦) .

هذ وقد جرت عدة محاولات للتعرف على أسرار اللغة الهيروغليفية قبل شامبيليون خاصة من الطبيب والفيزيائى توماس يونج الذى نشر فى عام ١٨١٨ أربع صفحات مترجمة عن حجر رشيد فى دقة كبيرة مطابقة للنصين الهيروغليفى والديموطيقى للنص اليونانى ، وهو أول صاحب محاولة تجريبية تعتمد على الملاحظة والمقارنة ولكن دون أن يكون وراءها المنهج العلمى الراسخ الذى انتهجه شامبيليون(٤٧) .

هذا وقد هاجم علماء الحملة الفرنسية وعلى رأسهم جومار شامبيليون حتى أن أكاديمية العلوم والفنون رفضت فى بداية

الأمر استقباله فى ساحتها ، وشنت الصحافة حربا عليـه ، بحجة أنه مؤيد لبونابرت ، ودس له جومار لدى لويس الثامن عشر كما حرص على التقليـل من الصفة التى كنى بها وهى « المصرى » ولقب جومار نفسـه « المصرى الحقيقى » ، كذلك لقبت الصحف توماس يونج « المصرى بالجوار » ولكن شامبيليون لم يهتم بهـذه الحرب وانكب على دراسته ونظريته(٤٨) .

وفى ١٧ سـبتمبر ١٨٢٢ ألقى شـامبيليون محـاضرة فى أكاديمية العلوم والفنون عن اللغة المصرية القديمة ، وفى عام ١٨٢٤ توجه الى ايطاليا لدراسـة المجموعات الأثرية المصرية التى يوجد بها متحف مدينة تورينو ، ثم عين فى عام ١٨٢٦ أمينا لمتحف اللوفر قبل أن يتمكن بصعوبة بالغة من تكوين بعثة للتوجه الى « بلاد الفراعنـة »(٤٩) .

وقد أفاد شامبيليون من فترة اقامتـه فى تورينو اذ اتقن قراءة الكتابات الهيراطيقية والديموطيقيـة وأعاد ترتيب قائمـة الفراعنـة وتسلسلهم الزمنى وجمـع المعلومات الخاصـة بعلم الجغرافية والديانة واقتنع بمبدأ جديد وهو استقلال الفن المصرى عن الفن اليونانى وشرح نتائج دراسته فى رسالتين نشرهما(٥٠) .

وبعد عودة شامبيليون الى فرنسا خفت حدة الهجوم عليـه فكتب مذكرة فى عام ١٨٢٧ الى الملك شارل العاشر يلتمس أن تبعث به الحكومة الفرنسية الى مصر لكى يحقق العمل الذى كان يتوق الى انجازه وأشار الى أن « أعضاء لجنة العلوم والفنون والرحالة الذين مضـوا فى أثرهم كانوا يعتقدون باستحالة الوصـول الى فض أسرار الرموز الهيروغليفيـة المسهبة والكتابـات المقدسـة مكتفيين بتحديد المكان الذى تشغله الى جانب المشـاهد المصورة

التى نقلوها فى حين أن الاستنساخ الدقيق لهذه المناظر الرائعة بكل ما تحمله من نقوش الكتابة الهيروغليفية يحمل فى طياته قيمة ثمينة وذلك أن هذه المشاهد يكشف كل واحد منها سر الآخر وهو ما يحقق الآمال العريضة التى تعقدها عليها علوم التاريخ »(٥١).

وقد وافق الملك على سفر شامبيليون وكلفه بشراء مجموعة الآثار المصرية التى عرضها للبيع القنصل البريطانى سولت فى مصر ، وتم نقلها باريس بمتحف اللوفر لقسم الآثار المصرية وخلال رحلة شامبليبون الثانية الى ايطاليا علم بتعيينه عام ١٨٢٧ مديرا لقسم الآثار المصرية فى متحف اللوفر ، ثم انشغل حتى عام ١٨٢٨ فى اعداد القسم وترتيب عرض مجموعة آثار سولت ومجموعة ثانية كان قد جمعها دروفتى(٥٢) .

ثم اوفد شامبيليون فى بعثة الى مصر عام ١٨٢٨ فوصل الاسكندرية فى ١٨ أغسطس وتحقق حلمه فى زيارة مصر وكلفه شامبيليون بنقل احدى مسلتى الأقصر الى فرنسا ووضع الخطة التى تم نقلها وفى بلد القرنة عاش شامبيليون على الضفة الغربية فى كوخ من اللبن سماه « القصر » وعاش فترة فى مقبرة رمسيس الرابع ، وعانى من دسائس دروفتى الذى عمل على تأليب مساعديه كما حث جومار الملك على وقف صرف المبالغ المخصصة للحفائر ، ولكن شامبيليون استمر فى جهوده ونجح فى اضافة اقليم جديد الى علم المصريات وهو النوبة ، وكان أول من قام بدراسة جادة للمعابد المشيدة على ضفتى النيل من الشلالين الأول والثانى ، كما قدم لمحمد على مذكرة عن مجموعات معمارية ضخمة طالب بالمحافظة عليها خاصة الشيخ عبادة والأشمونين وغيرها ، كما طالب بوضع اللوائح لتنظيم أعمال التنقيب وهو ما تحقق بالفعل فيما بعد على يد ابن أخيه « ماريت » بعد انشاء مصلحة

الآثار ، وظل شامبيليون يعمل بجد واخلاص حتى بعد عودته الى فرنسا ولكن توفى فى عام ١٨٣٢ على أثر نزيف فى المخ وهو لايزال فى الثانية والأربعين من عمره(٥٣) .

وعلى الرغم من جهود شامبيليون ينبغى علينا الا نغفل أنه وقع فى عدة أخطاء وذلك لأن علم التنقيب كان لايزال فى المهد فهو لم يميز هوية الملكة حتشبسوت فى نقوش الدير البحرى بسبب طمس تحتمس الثالث لها ولكنه صحح اسم مقبرة أوسيماندس الذى اطلقته لجنة المجمع العلمى وسماها باسمها الحقيقى الرامسيوم وقدم وصفا تفصيليا عن النقوش التاريخية فيها(٥٤) ولكن يكفى شامبيليون انه نجح فى حل اللغز المستحكم واعادة وضع واحدة من أعظم الحضارات العريقة فى النسق التاريخى والمكانة التى تستحقها وابتكر فضلا عن ذلك علم الآثار المصرية وارسى دعائمه على اسس علمية(٥٥) .

هذا وقد صور شامبيليون فى رسائله الى اخيه مدى المصاعب التى اعترضته فقد كان يعانى من مرض النقوش ولكنه كان يأمل فى أن ينجح طقس افريقيا الحار فى القضاء عليه ، كذلك صور فى رسائله قدرته وصموده فى تحمل طقس مصر العليا الحار « اننى أقاوم الحر كما لو كنت مولودا فى هذا البلد لدرجة أن الأوروبيين يرون أن ملامحى تشبه ملامح الأقباط تماما زد على ذلك شاربى الأسود المهيب الذى يضفى على وجهى طابعا شرقيا لا بأس به و فضلا عن ذلك فقد تطبعت بالعادات والتقاليد المصرية وأخذت احتسى الكثير من القهوة وادخن النرجيلة ثلاث مرات يوميا »(٥٦) .

وشكى شامبيليون من محاربة الأوروبيين له منذ وصوله الى الاسكندرية فقال « كان مقدرا لى أن أرى مصرى الحبيبة هذا

العام بالرغم من تكتل الفيوم السياسية فى سماء الشرق والتى تدفعها رياح شمالية وخاصة رياح غربية يستعصى علينا أن ندرك لها اتجاها . واذا حق لى ان استطلع المستقبل استنادا الى تجارب الماضى فاننى اعتقد أن المتاعب والعقبات لن تأتى من طرف المسلمين وانما سيتسبب فيها جميع الأوروبيين أى المسيحيون وهم فى مصر كما فى سائر بلاد المشرق من أحط الناس »(٥٧) .

وبفضل شامبيليون لم تعد آثار مصر بكماء خرساء اذ جعل الأحجار العريقة تتكلم ويذكر كاريه « اينما على الضفة اليسرى أو على الضفة اليمنى للنيل متسلحا بمفتاحه الذى يحل ألغاز الماضى ويبدد خفاياه كان يبدد ظلمات الجهل ويفجر من حلكة الماضى ليل آلاف السنين وجوها جديدة وفراعنة منتصبين فوق عجلات حربية أسرى عبرانيين وسوريين ونوبيين مقيدين فى الاغلال . كما يبعث نبض الحياة فى النصوص المدونة على أسوار المعابد وجدران السراديب المنحوته فى أمشاء الجبل »(٥٨) .

وأخيرا لقد ترك شامبيلبون عدة مؤلفات هامة عن مصر والحضارة المصرية خلدت اسمه(٥٩) .

١١ ـ بريس دافين Prisses D'Avennes (ادريس افندى) :

ولد فى اقليم الفلاندر فى فرنسا ، وهو ينتمى لأسرة انجليزية الأصل هاجرت الى فرنسا ، فرارا من جور الملك شارل الثانى واسم بريس دافين تحرف للاسم الانجليزى Price of Aven وقد عمل والده مفتشا للغابات فى عهد تاليران ، وقد تعلم بريس فى مدرسة الفنون بشالون ، وحصل على اجادة الهندسة المعمارية عام ١٨٢٥ وهو فى التاسعة عشر من عمره(٦٠) .

وقد دفع حماس بريس للتطوع والقتال فى صفوف ثوار المورة ، كما سافر الى الهند حيث عمل سكرتيرا لحاكمها ، ثم اتجه الى فلسطين ، وعندما علم بحاجة محمد على الى الاخصائيين الأوروبيين لتنظيم الجيش والمدارس ، وتنفيذ مشروعات الرى والزراعة ، والتحق بخدمة الباشا عام ١٨٢٩ فعينهمهندسا للرى ثم أستاذا للطبوغرافية فى مدرسة أركان الحرب بالخانكة وفى الوقت نفسه مربيا لأبناء ابراهيم ، وفى تلك الفترة قدم بريس دافين الى محمد على « مذكرة فى أهم الأعمال التى يمكن تنفيذها فى الدلتا » ومن بينها حفر ترعة تمتد من الاسكندرية الى القاهرة، وانشاء جسر معلق على النيل بين جزيرة الروضة وحدائق ابراهيم ، ثم قدم بعد ذلك مذكرة فى « تجفيف بحيرات مصر السفلى وزراعتها »(٦١) .

وعندما انتشر الطاعون فى مصر عام ١٨٣١ خالط بريس دافين المصابين حتى كاد أن يهلك وفهم نفوس المصريين ، ولمس تحت الاسمال التى ألقاها عليهم الحاضر تلك الصفات الكريمة التى سجلتها حضارتهم من قديم وأقبل عليهم فى شغف فتعمق فى مجمعهم ودرس تفاصيل حياتهم(٦٢) واعتنق الاسلام وتحول اسمه من بريس الى « ادريس أفندى » وما لبث أن قدم استقالته لمحمد على ليتفرغ لدراسة المجتمع المصرى(٦٣) .

أخذ « ادريس أفندى » ينتقل بين الفلاحين من الدلتا الى الصعيد ، ومنها حتى النوبة ، وفى عام ١٨٣٨ استقر فى الأقصر موجها جهوده فيها ، وفى طيبه تعرض للاضطهاد من ناظرها بسبب خلاف بينهما فأمر بضربه بالعصى ثم أطلق سراحه بعد أن ظل فى السجن أربعة أيام(٦٤) ولكن هذا الحادث لم يؤثر فى عزيمته ومضى فى تأليف الأبحاث فى الفترة الممتدة من ١٨٣٩ حتى ١٨٤٣

تلك الأبحـاث التى كان لها نتائج هامة اذ حفظت كثير من آثـار الأقصر من الفناء ، فقد منع اقامة معمل للبارود فى معبد الكرنك كذلك منع العمـال من اقتطاع أعمدة حورس لاقامة هـذا العمل ونبه المسئولين فى العاصمة بضرورة المحافظة على الآثار المصرية ، وقد كتب بريس دافين فى عام ١٨٤٠ الى الأثرى البريطانى ويلكنسون بانه يعمل على « حماية الآثار المصرية من تلك الأعمـال المدمرة » . هذا وقد كشف بريس فى معبد خوفو عن اثنى عشرة غرفة ، كما كشف عن بردية كتبت باللغة الهيراطيقية فنسبت عليه وعرفت باسم بردية بريس دافين ، كذلك نجح فى نقل رسومات عن غرفة الملوك الشهيرة فى الكرنك وهى من أهم آثار تحتمس الثالث ففصل أحجارها وحملها الى باريس حيث حفظت بمتحف اللوفر . وقد قـامت بينـه وبين الاثرى الألمـانى لبسيوس Lepsius منافسة شديدة فى مجـال التنقيب عن الآثار وقد قـام الأخـبر بنقل مقبرة سيتى الأول بوادى الملوك الى برلين(٦٥) .

وفى عام ١٨٤٤ عاد ادريس أفندى الى باريس ومكث فيها حتى عام ١٨٥٨ ثم عاد الى مصر ثانيا فى عهد سعيد باشا ، وأخذ يتجول فى البـلاد مسجلا مشاهداته ، ومصـورا للآثار والمعالم الهامة بالآلة الفوتوغرافية ، أو راسما اياهـا بقلمه وألوانه وجمع معلومات ثمينة من كل ما يتعلق بمصر جغرافيا وبشريا وتاريخيا وفنيا واجتماعيا وهى المـادة التى استقى منها فيما بعد كتبـه عن الآثار المصرية بل أخذ ينشرها فى الصحف حتى يعرف العـالم بمصـر(٦٦) .

ومن أشهر مؤلفات ادريس أفندى عن مصر كتاب عن الآثار المصرية(٦٧) الذى يضـم نحو خمسين لوحة وهو يعتبر مكمـلا لكتاب شامبيليون عن آثار مصر والنوبة ، كذلك من « تاريخ الفن

المصرى » مأخوذا عن الآثار منذ أقدم العصور الى الحكم الرومانى(٦٨) وهو أطلس يضم فى مجلدين مائة وستين لوحة من القطع الكبير وله أطلس آخر من مائتى لوحة فى ثلاثة أجزاء عنوانه الفن العربى مأخوذ عن آثار القاهرة منذ القرن السابع حتى نهاية القرن الثامن عشر(٦٩) .

هذا ولم يهتم قبل ادريس أفندى بالآثار العربية الا مهندس معمارى من أهل مارسيليا سبقه الى زيارة مصر ويدعى باسكال كوست Pascal Coste ورسم فيه العديد من اللوحات عن العمائر الفاطمية والأيوبية والمملوكية(٧١) .

ولم يكتف « ادريس أفندى » بالكتابة عن آثار مصر فحسب وانما اهتم أيضا بمصر الحديثة وادارتها فوضع مخطوطة عن السياسة والادارة فى مصر الحديثة(٧٢) وآخر بعنوان « أخلاق وعادات »(٧٣) تناول فيه المؤلف أحوال القطر المصرى والمناخ ، ومجرى النيل ، والادارة والتقسيم الادارى ، كذلك كتب عن الاسلام والمسيحية ، ومن الأوضاع المالية فى البلاد . على أن أهم ما يميز مذكرات « ادريس أفندى » انه كان شاهد عيان للأحداث فقد تنقل فى مصر سبعة عشر عاما كما أنه كان حرا فى آرائه لأنه بعيد عن السلطة خاصة بعد استقالته(٧٤) وأخيرا لقد نشرت بعض أعماله فى لندن وباريس خاصة ما يتعلق منها « بالآثار والحضارة المصرية القديمة وآثار القاهرة »(٧٥) « وعادات وتقاليد سكان وادى النيل »(٧٦) كما قدم وصفا للآثار المصرية الموجودة فى المتحف البريطانى(٧٧) .

١٢ ـ جوزيف ميشو Joseph Michaud (٧٨) (١٨٣٠) :

هو مؤرخ الحروب الصليبية الشهير وصل الى مصر عام ١٨٣٠ واهتم خلال فترة تواجده فى البلاد بوصف مصر الحديثة

فهى التى استرعت انتباهه وقد كتب معبرا عن ذلك « عندما يتحدث الرحالة فى العصر الحديث عن مصر يخيل الينا انها بلد خالية من السكان ، فالانسان لا يجلب انظارهم ، وانما يركزون جهودهم لوصف الأحجار ، ولا يهتمون بمن يعيشون فيها ، لابد من الاهتمام بالسلالة الحالية لانها تمثل جزءا من تاريخ مصر ، ولو كنت أملك الوقت الكافى لمكثت فى قرية صغيرة فى الدلتا ، ولما ذهبت الى طيبة ، ولا الى الأماكن الآثرية الأخرى »(٧٩) .

أعجب ميشو بذكاء محمد على ، ولكنه انتقد قسوته مع الفلاحين ومغالاته فى فرض الضرائب ، وفى مؤلفه الذى وضعه عن مصر لم ينس ميشو تخصصه الدقيق الا وهو الكتابة عن الحروب الصليبية فنجده وهو يصف المدن المصرية يتذكر ويتحدث عن هزيمة لويس التاسع فى المنصورة ، وعن الحملات الصليبية على مصر .

هذا وقد افاد ميشو من عمل شقيقه لوى جابريل ميشو Louis Gabriel Michaud (٨٠) ناشرا ، فنشر كتابه عن الحروب الصليبية فى سبعة أجزاء ، كذلك وضع كتابا عن رحلته الى الشرق برفقة صديقه بوجولا Bougoulat ، فسجل الأخير ملاحظاته عن فلسطين بينما دون ميشو ملاحظاته عن مصر(٨١) .

ويمكننا القول أن ملاحظات ميشو عن مصر جاءت سريعة مقتضبة ركز فيها الحديث على الحياة اليومية ، وعلى القناصل الأوروبيين ، والمكتبات والمدارس خاصة مدرسة أبو زعبل ، والمدارس العسكرية والصناعية التى أسسها محمد على(٨٢) .

١٣ ـ البـارون تايلور Baron Taylor (٨٣) (١٨٣٠) :

أديب وأثرى عمل مفتشا للفنون الجميلة وهو « مؤسس جمعية الأدباء » وصل الى الاسكندرية فى عام ١٨٣٠ بتكليف من الملك شارل العاشر فى مهمة رسمية لنقل مسلتى الأقصر الى فرنسا والتى اوصى بنقلها من قبل شامبيليون وكان تايلور محمـلا بالهدايا لمحمد على لينال موافقته على نقل المسلتين مقابلة بصحبة القنصل الفرنسى ميمو وقد أحسن محمد على على استقباله ووافق على طلبه . وقد جاء تايلور الى مصر وبصحبته اثنين من الرسامين هما مايـيـه Mayer ودوزا Dauzats فقدما عدة رسـومات جميلة عن مصر خاصـة آثارها ومعابدها ومساجدها وزينت هذه اللوحات قصور ملوك فرنسا ومتحف اللوفر وسجل تايلور أخبار رحلته فى مؤلف(٨٤) بعنوان « سوريا ومصر »(٨٥) .

١٤ ـ الكونت جوزيف ديتورميل Joseph D'estowumel :

جاء الى مصر في عام ١٨٣٣ بصحبة ابن أخيـه دى جونتو De Gontant وكان يمت بصـلة الى السـفير الفرنسى فى الاستانة بوالكومت Bois Le Comte تقابل فى القاهرة مع أحـد رجال الدين وهو الأب مارى جوزيف(٨٦) الذى صحبـه فى رحلة نيلية حتى أسوان ثم نشر الكونت ديتورميل رحلته فى عام ١٨٤٤ بعنوان رحلة الى الشرق(٨٧) وزود مؤلفه بالرسومات الرائعة عن الأهرامات ، المساجد ، تمثال ممنون ، عمود بومبى وكان أسلوبه فى الكتابة بسيطا وسهلا(٨٨) .

١٥ ـ جماعة السان سيمون(٨٩) :

جذبت مصر أنظار جماعة السان سيمون الذين اتخذوا كلمة نابليون المـأثورة شعارا لهم ، الا وهى « عن طريق مصر وحدهـا

يمكن أن تتلقى شعوب وسط افريقيا النور والرفاهية » واعتقدوا بضرورة اختلاط السلالات البشرية خاصة السلالة الافريقية النابضة بالعاطفة مع السلالة البيضاء المتسلحة بالعلم(٩٠) .

هذا وقد اعتبر السان سيمونيون شق قناة السويس أمرا واجب التنفيذ وهو اشارة ودليل على السلام والحب والوئام بين القارات وهمزة الوصل بين البشر . ولذلك عقد الأب انفتان العزم على المجيء الى مصر وكان يردد عباراته الشهيرة « أن الغرب هو الأب الذى انجبنى والشرق هى الأم التى احتضنتنى » وكتب انفتان بروح صليبية عن شق قناة السويس « نشق أحد الطرق الأوروبية الجديدة بين مصر العريقة ومملكة يهوذا صوب الهند والصين ولنضعن قدما على النيل وأخرى فى أورشليم ، ولنمد يدنا اليمنى صوب مكة على حين تغطى ذراعنا اليسرى روما ، بينما مازلنا نتكىء على باريس ، السويس هى بؤرة حياتنا وكفاحنا هناك فيتم العمل الذى يترقبه العالم والذى نثبت من خلاله رجولتنا »(٩١) .

وصل انفتان الى مصر مع اتباعه فاحسن القنصل الفرنسى ميمو استقبالهم وكان أفراد الجماعة يرتدون ملابس غريبة صممها لهم انفتان وهى سروال أبيض وفوقه قميص وصديرى احمر ودثار ضيق يمنطق الخصر ذو أكمام فضفاضة وقميص أزرق وبنفسجى وياقة شديدة الانفراج وشعر مرسل مع الريح وقد سخر منهم جمهور مارسيليا النساء توجههم لركوب السفينة الى مصر(٩٢) .

ومن الاسكندرية اتجه انفتان وشارل لامبير Lambert وفورنيل Fournel لمقابلة محمد على فاعجبوا به خاصة وانهم ادركوا انه يقبض على زمام السلطة فى البلاد وانه يستطيع

توجيه مئات الالاف من العمال لاتمام مشروع القناة التى يحلمون بها ، كما فعل من قبل عندما شقت ترعة المحمودية ولذلك قدم انفتان خدماته لمحمد على ، وابدى استعداده للمشاركة فى جميع المشروعات العمرانية فى البلاد . وسعى انفتان الى اقناع محمد على بمشروع قناة السويس مع جهود ميمو القنصل الفرنسى ميمو لتزكيته ، وفورنيل الذى نال وحاز ثقة الباشا ، فقد فورنيل ولامبير مذكرة فى ١٧ يناير ١٨٣٤ الحا فيها على محمد على بضرورة البدء فى مشروع القناة قبل اى مشروع آخر ولكن محمد على صمم على الرفض ولكنه وافق على اعفاء ادارة المناجم فى سورية الى فورنيل(٩٣) .

واعتقد انفتان انه اذا قدم المساعدات اللازمة للباشا فى مشاريع اخرى ، فربما يغير رأيه ويقبل مشروع القناة وكلف محمد على لينان دى بلفون بمشروع القناطر الخيرية(٩٤) هذا وقد قدم انفتان ولامبير خدماتهم الى الباشا ، فأسسا مدرسة للمهندسين بالقناطر وبمعاونه الكولونيل سيف تم انشاء مدرسة للمشاة فى دمياط ، ومدرسة للفرسان فى الجيزة ، ومزرعة نموذجية فى شبرا ، ومدرسة للفتيات فى الجيزة(٩٥) .

وفى أواخر عام ١٨٣٤ وفدت الى مصر ارسالية من السان سيمونيات بصحبة سوزان فوالكان Suzanne Volquin (٩٦) ولكن لم تطل اقامتهن فى مصر كثيرا بسبب انتشار الطاعون فى عام ١٨٣٥ واضطر انفتان بدوره الى الفرار الى الصعيد خوفا من العدوى فمكث فيه ستة أشهر وثق خلالها علاقاته بالفلاحين حتى أطلقوا عليه « أبو الدنيا » كما طاف ببعض المدن لزيارة آثارها خاصة ابيدوس ودندرة والأقصر(٩٧) .

واذا كانت جهود انفتان قد فشلت ولم يقتنع محمد على بمشروع قناة السويس مما اضطره الى العودة الى فرنسا ،

الا أن كثيرا من مقترحات انفتان أخذ بها محمد على خاصة فى شئون التعليم منها تأليف مجلس عام للنظر فى تنظيم المدارس ، وتقسيم التعليم الى ثلاث مراحل ابتدائية ، وتجهيزية وخصوصية ، وعندما أنشأ محمد على مدرسة المعادن عام ١٨٣٤ آلت ادارتها قبل ضمها الى المهند خان فى عام ١٨٣٦ الى لامبير ، كما تولى الدكتور بيرون Peron من جماعة انفتان نظارة مدرسة الطب البشرى منذ عام ١٨٤١ وتولى برونو Bruneau ادارة مدرسة الطوبجية بطره فى مارس ١٨٤٠ - ١٨٤٧ وتولى ديشارم Descharmes ادارة مصلحة الطرق والكبارى ما بين عامى ١٨٣٨ و ١٨٤٥(٩٨) .

هذا وقد ترك السان سيمون مؤلفهم عن أعمالهم Oeuvres de Saint Simon et d'Enfantin فيه قائمة بأسماء الذين رافقوا انفتان فى رحلته الى مصر ، وضمت القائمة خمسة وخمسين شخصا توفى منهم خمسة عشر فى مصر بسبب الطاعون وعاد عشرون الى فرنسا وبقى البعض الآخر فى مصر(٩٩).

ويلاحظ ان القائمة ضمت أفرادا لم يعتنقوا مبادىء السان سيمون وانما شاركوا معهم فى أعمالهم ومشاريعهم خاصة لينان دى بلفون وضمت القائمة مختلف المهن وكافة التخصصات(١٠٠) .

وجدير بالذكر ان أعدادا كبيرة من السان سيمون اعتنقوا الاسلام ، وقد علق محمد على على ذلك « انه لأمر يثير الضحك حقا ان يأتى السان سيمونيون هنا لتنصير المسلمين فاذا بهم يعتنقون الاسلام » وقد سجلت سوزان فوالكان المصاحبة للسان سيمون قصة اسلام « مارشيرو » وهو من أعضاء البعثة

والذى اطلق على نفسه اسم « محمد أفندى » وتزوج من سيدة مصرية وانجب منها اربع بنات أطلق عليهن أسماء عربية . ومن الأمور التى تدعو الى الدهشة أن انفتان اهتزت صورته وذلك لأنه اتخذ لنفسه البغايا وأكثر من الاحتفالات والاجتماعات ، وكان المجون هو الطابع الغالب عليها(١٠١) .

واخيرا اذا كان انفتان قد أعلن قبل مجيئه الى مصر بأن مشروع قناة السويس مشروع للسلام والوفاق بين القارات الا أنه لم يستطع ان ينكر بأن هذا المشروع أيضا كان مشروعا دينيا « انها صليبية جديدة تقودها فرنسا »(١٠٢) .

١٦ ـ الماريشال مارمون دوق دى راجوز Marechel Marmont

من الرحالة الذين زاروا مصر فى القرن التاسع عشر واستقر بها الماريشال مارمون دوق راجوز الذى جذبت مصر انتباهه أكثر من اى مكان آخر وكتب عنها « انها تذكرنى بشبابى » زارها وهو فى سن ست وثلاثين اثناء الحملة الفرنسية ثم عاد اليها بعد ما عانى من الاضطهاد السياسى فى فرنسا فى عهد ملكية يوليو ففكر فى المجىء الى مصر باعثا عن الثورة ، وقد اتصل قبل مجيئه بمترينخ ثم سافر الى روسيا وجاء الى مصر بجواز سفر نمساوى تحت حماية النمسا . وعند وصوله لمصر عام ١٨٣٤ قابل القنصل الفرنسى ميمو الذى عرفه محمد على وأوصاه بالافادة من خبرته للعمل معه خاصة وانه يمكنه الاعتماد عليه فى تزويد الجيش المصرى بالأسلحة والمعدات ، وقد سمح له محمد على بالاقامة فى مصر فى منزل الكولونيل سيف مصر القديمة(١٠٣) .

وجد الماريشال مارمون أن مصر قد تغيرت كثيرا عما كانت عليه زمن الحملة الفرنسية ، فكتب عن القاهرة « لقد تحملت

بدرجة كبيرة » ولم يكتف مارمون بالعمل لدى محمد على وانما انتهز فرصـة وجوده فى البلاد فزار المدن المصرية المختلفة خاصة مدن مصر العليا والصحراء الشرقية والقصير والسويس وغيرها كما اتصل به جماعة السان سيمون اثناء اقامتهم فى مصر(١٠٤) .

هذا وقد وضع المـاريشال مارمون كتابا عن رحلته وجولاته فى المجر وروسيا والقرم وآسيا الصغرى وبلاد الشام ومصر نشره فى عدة أجزاء وعندما أراد الكتابة عن مصر ذكر فى مقدمة كتابه « أن مهمتى صعبة للغاية فعلى أن أؤرخ لمصر فى عهد محمد على فى الوقت نفسه لقد عملت معه فلا أريد انقاص الحقيقة ولا أريد أن أذكر أشياء قد لا تعجبه ولكنى مضطر لسرد الحقيقة ولذلك فمهمتى مضاعفة(١٠٥) .

والحقيقـة ان مارمون لم يهـاجم محمد على كثيرا واكتفى بوصفه « تغلب عليه النشأة التركية العنيفة » ولذلك فهو من المؤيدين لمحمد على ولكن لا يمكننا أن نغفل أن كتابه يعتبر سجلا للحياة الاجتماعية والاقتصادية والعسكرية فى مصر(١٠٦) .

١٧ ـ نستورلوت Nestor L'hôte :

هو الرسام الشهير الذى جاء الى مصر عام ١٨٢٨ ضمن بعثة شامبيليون وهو من تلاميذه المقربين ، استرعت الآثار انتباهـه فعكف على دراستها ووضـع العديد من الرسـومات عن المعـابد والآثار المصرية القديمـة ثم عـاد الى مصر فى بعثـة على رأسـا لاتـرون La Tronne الذى اكتشـف آثارا جديدة لم يكتشفها شامبيليون فعمل نستورلوت على تصـويرها ورسمها ووضـع مؤلفا دون فيه ملاحظاتـه عن المسـلات المصريـة(١٠٧) نشر فى عام ١٨٣٦ ــ ثم وضع مؤلفا آخر نشر فى عام ١٨٤٠ بعنوان رسائل

مكتوبة عن مصر(١٠٨) وقد وضع فى مقدمة مؤلفه الأخير انه اضطر لتأليفه لأن فى زيارته الثانية لمصر اكتشف وشـاهد العديد من الآثار التى لم يرها من قبل(١٠٩) .

١٨ ـ جيرار دى نرفـال Gerard De Nerval :

ولد فى عام ١٨٠٨ ، اهتم بالتعرف على الشرق اهتماما كبيرا فسافر الى الشرق « للتخلص من قيود حياته اليومية المملة » على حد قوله فقد كان يعـانى من بعض الاضطرابات النفسية وكان ينهض أثناء نومه فمشى فى طرقات باريس شاردا تائها ولذلك رأى ان رحلته ضرورية لينال الشفاء الروحى(١١٠) .

وقد ذكر أن فكرة السفر الى الشرق راودته وهو فى النمسا فيما بين عامى ١٨٣٩ و ١٨٤٠ فكان « يحلم بالشرق » ثم عزم على السفر بصحبة صديقه تيو فيل جوتيه Theophil Gauthier وسجل أخبار رحلته باسم رحلة الى الشرق(١١١) وقد زار جيرار مصر فى عام ١٨٤٣ وكتابه عن رحلته مزيج من الثقافة الرفيعـة والمغامرات الممتعة والوصف الخلاب للعادات والتقاليد كل هـذا فى اطار قصصى جـذاب واسلوب ساخر ولم يسـلم هو نفسـه ولا الشرقيون ولا الغربيون من الوقوع ضحايا سخريته(١١٢) . وقد الغى جيرار رحلته الى اليونان وفلسطين وخصص رحلته الى مصر ولبنان وتركيا حيث تسود روح الشرق واستغرق سـت سنوات فى نشر ذكرياته ساقها فى أقسام ثلاث القسم الأول رحلته الى سويسرا والمـانيا والثانى عن مصر والقسم الثالث عن رحلته الى الشام وتركيـا ويختلف كتابه رحـلة الى الشرق عن الكتب المعاصرة له فى أمرين الأول انه لم يصف غير القـاهرة ولم يمكث طويلا فى الاسكندرية والدلتا والثانى ان كتابه ومؤلفه معاصر لزمنه

فهو مثل صديقه جوستاف فلوبير لم يجذبه الماضى فلم يهتم الا بالمدن والعادات وتقاليد السكان(١١٣) .

امضى جيرار ثلاثة اشهر فى القاهرة بصحبة أحد الشبان الاثرياء هو جوزيف دى فونفريد De Fonfrede وذكر جيرار انه أحد علماء الآثار المصرية . ولكن كاريه لم يستدل على أسمه ولم يعثر له على مؤلف باسمه . فضل جيرار رؤية القاهرة وتركيز رحلاته فيها عن مدن الوجه القبلى فقد وجد أن القاهرة تحتوى على مناطق اثرية هامة جديرة بالزيارة مثل الفسطاط وعين شمس وغيرها(١١٤) .

جذبت الحياة الاجتماعية أنظار جيرار خاصة الحفلات والموالد والراقصات والعوالم وحفلات الختان ومواكب الجنازات واسواق النخاسة ولاعبى الأفاعى والقرود والدراويش والمصارعين . ومن الطريف أن جيرار كتب أن شيخ الحارة الزمه بالزواج لانه اعزب واعطاه مهلة فتزوج بالفعل من احدى بنات الأسر القبطية . وسجل جيرار اعجابه بالحياة فى مصر وانتقد غيره من الرحالة الذين لم يجشموا أنفسهم عناء البحث عن المجتمعات الشرقية والاسلامية فقنعوا بما تصيدوا من أطراف هذا المجتمع فظلموا المرأة الشرقية ولم يلتقوا الا بغانية أو محظية مترفة ولقد كان لهم عذرهم اذ كان العرف يحول بينهم وبين الدخول الى البيوت أو لقاء النساء ، كما دافع عن حجاب المرأة المسلمة فذكر « أن العلامة المميزة للمرأة المسلمة وللسيدة المسلمة هى المحافظة على الفضائل » واكد بأنها تحظى بالاحترام والتقدير فى كافة المجالات الاجتماعية والدينية وأنها حظيت بمكانة كبيرة فى القرآن الكريم لم تحظ بها المرأة فى الانجيل ولا التلمود(١١٥) .

كما دافع جيرار عن الاسلام وحاول أن يدحض الكثير من الافتراءات التى كتبها عنه كتاب القرن الثامن عشر ومنذ تلك الافتراءات ورد عليها حتى انه دافع عن تعدد الزوجات فقال « انه أفضل بكثير مما يفعله القساوسة فى أوروبا الذين يتخذون لهم العديد من العشيقات »(١١٦) .

وقد حرص جيرار على تعليم اللغة العربية مما مكنه من الاطلاع على التراث الاسلامى واعجب بتسامحه مع الأديان الأخرى واكد تسامح المصريين وانسانيتهم وبالوفاق السائد فى مصر بين المسلمين والأقباط واشترك الجميع فى جميع الاحتفالات الاسلامية والوطنية حتى أن أثرياء الأقباط كانوا يتبرعون لاقامة الموالد أو ترميم ضريح أحد الأولياء فمصر فى نظره متسامحة وارت فى ثراها الكثير من الأنبياء »(١١٧) .

وعبر فيكتور هيجو الكاتب الفرنسى عن قيمة واهمية كتابات جيرال دى نرفال بقوله « لو أن جيرار دى نرفال لم يقصد الى مصر ولم يصور العادات المصرية بأسلوبه العلمي الساحر لتاقت نفسى الى أن أقصدها وأن أقصدها وأن أقصى ما أستطيع أن اثنى به على كتابه هو أنه أغنانى عن أن ارحل الى هناك وقد الهمت أعمال جيرار هيجو عندما وضع ديوانه الشهير المشرقيات(١١٨) .

هذا وقد الهبت مقالات جيرار عن مصر خيال الفرنسيين خاصة تلك التى نشرها فى مجلة العالمين فى عام ١٨٤٦ عن نساء القاهرة(١١٩) وعبيد القاهرة(١٢٠) وحريم القاهرة(١٢١) وسفن القنيح فى القاهرة(١٢٢) كذلك نشر فى مجلة National عدة مقالات عن احتفالات القاهرة وليالى رمضان وأهرامات القاهرة نشرت فى عامى ١٨٤٨و ١٨٥٠(١٢٣) .

١٩ ـ هوارس فرنيـه Horace Vernet :

زار مصر خلال تلك الفترة مجموعة من الرسامين والمصورين الدين اهتموا بتسجيل مشاهداتهم فيهـا كان من بينهم هوارس فرنيه الذى قصـدها فى عام ١٨٣٩ . وقد سجل أخبار ونتائج رحلته جوبيل فكيه ونشرها فى باريس عام ١٨٤٣ ركز فيها على الحديث عن حفلات الختان والموالد والاحتفالات الدينية كما اهتم بالقاء الضـوء على اعمال وانجازات لينان دى بلفون فى مصر(١٢٤).

٢٠ ـ جان جاك امبير (١٨٠٠ ـ ١٨٦٤ Jean Jacque Ampère
اكزافيه مارميه (١٨٠٩ ـ ١٨٩٢) Xavier Marmier

ولد جان جاك أمبير بليون فى عام ١٨٠٠ ووالده هو العـالم الفيزيائى أندريه مارى امبير مكتشف قياس التيار الكهربـائى والذى اتخذ اسمه أمبير اسما لوحدة التيار الكهربائى . وقد عرف القلق فى بداية حياته ولم ينعم بالاستقرار النفسى فلم يقبل على الدراسـة المنتظمة ولكنه نجح فى تأليف التراجيديات ووقع وهو فى سن العشرين فى هوى مدام كامييه ، وكانت صديقة شاتوبريان من قبل . تعلم أمبير اللغة السنكريتية وسافر الى ألمـانيا والتقى بجيته عام ١٨٢٧ وعين أستاذا بأكاديمية اللاتينية فى مارسيليا حتى عام١٨٣٣عين أستاذا فى كوليج دى فرانس وقد لونا جديدا من الدراسات هو الأدب المقارن(١٢٥) وفى عام ١٨٤٢ انتخب عضـوا بأكاديمية الوثـائق ثم قرر السـفر الى مصر بعد أن قرأ كتب شامبيليون عن اللغة الهيروغليفية ، وسافر الى مصر بعد أن نجح فى الحصـول على بعثة من وزير التربيـة والتعليم فى فرنسـا واصطحب معه الدكتور دوران Durand مساعدا له وبدأ جيرار فى زيارة المعابد والآثار القديمـة واكد انه كلف بمتابعـة جهود شامبيليون ودراسـة آثار مصر والنوبة التى أضاءت العالم

منذ خمسة عشر قرنا وسجل « اطلعت على ما سجله المصريون القدماء على جدران معابدهم من حروب وتمييمات سجلت كلها على الحجر وبدت لى الآثار كتب ومخطوطات على قراءتها وفهمها » هذا وقد اشتهر فى فترة أمبير العديد من علماء الآثار فمن فرنسا ذاعت شهرة لاترون وروشت ومن ألمانيا ليبسيوس ومن بريطانيا ويلكنسون وبيرش ومن ايطاليا لانجاريللى ومن أمريكا جليدون(١٢٦) .

لقد جذب الشرق اهتمام أمبير حتى أن صديقه سانت بوف Saint Beuve كتب « ابدى أمبير اهتماما وملاحظات عن مصر كان شغوفا بها أراد أن يستفيد من اكتشافات شامبيليون ليتابع خطاه ان مصر توقظ جميع ذكريات الماضى الهامة ولا يوجد بلد فى العالم مر على تاريخه كل هذه الفترات التاريخية الهامة مثل مصر »(١٢٧) .

لقد سلح أمبير نفسه بكتابات من سبقوه فلم تكن رحلته الى مصر « للنزهة وسرد الذكريات » على حد قوله انما قرأ لمعظم الرحالة السابقين هيرودوت ـ ديدور ـ شترابون ـ فانزليب ـ ميليه ـ سيكار ـ فولنى ـ دينون ـ شامبيليون ـ بريس دافين، ويلكنسون . كما حرص على الاطلاع على ما دونه الجبرتى عن أحوال مصر فى مطلع القرن التاسع عشر ولذلك جاء مؤلفه علميا ودقيقا(١٢٨) .

هذا ويعتبر امبير أعظم من كتب عن الآثار المصرية بعد شامبيليون وقد حرص على التجول بين المدن المصرية لمشاهدة المعابد والمبانى الجنائزية وعانى من الحمى والدوسنتاريا حتى خارت قواه ثم اصابه المرض وأصيب بالشلل وعاد الى مارسيليا

ثم ما لبث ان استرد قواه فعاد الى مصر ثانيـة عام ١٨٤٦ حيث انكب على النصـوص التى كتبها بالتنقيح النهـائى ليدفع بها الى مجلة العالمين ومع ذلك لم تخرج الى النور فى كتاب قائم بذاته الا بعد وفاته باسـم رحلة الى مصر والنوبـة زاخرا بالمعـارف العلمية الثمينة فى أسلوب بديع متنوع تتخلله النوادر اللاذعـة والأوصاف الشعرية(١٢٩) .

أما زميله اكرافيه مارميه فلم يصف الا مصر السفلى فقط ونشر رحلاته(١٣٠) فى أوروبا وايرلندا والدنمرك والسـويد ثم وضـع مؤلفـا عن هــذه الرحـلات بعنوان « من الراين الى النيـل »(١٣١) .

٢١ ـ الكونتيسة دى جسباران De Gasparin :

زارت مصر عام ١٨٤٨ حيث أحسـن محمد على استقبالها وكانت من أنصار محاربـة تجارة الرقيـق تزوجت من الكونت اجينور دى جسباران Agenord De Gasparin وهو سـياسى كبير ولكنـه كانت له اهتماماتـه الأدبيـة فوضـع مؤلفـا عن البروتستانتية فى فرنسا(١٣٢) .

زارت الكونتيسة مصر والنوبة وقد سجل رحلاتها فى مصر باربى بواسى وترجع أهميـة رحلتها انها واكبت الفترة التى زار فيها شولشيه Scholcher مصر وكان من أنصار مكافحة تجارة الرقيق فى الشرق(١٣٣) .

وعند ختام الحديث عن الرحالة الذين زاروا مصر فى عهد محمد على ينبغى أن نشير الى أنه كان من بينهم عدد من المؤيدين أثنوا عليـه فى مؤلفاتهم وكانـوا من المدافعين عن سياسـته وعن

انجازاته فى مصر ومنهم من استقر فى مصر وعمل فى خدمته مثل كادلفين وكلوت بك ، كذلك من بين هؤلاء الرحالة مجموعة انتقدت جميع أعمال وانجازات محمد على خاصة الصحفى بوسكيه دى شان وأسيب دى سال وهابون وجيسيكه وقد كان الأخير من رجال الدين المتعصبين ضد مصر بصفة خاصة والاسلام بصفة عامة ، كذلك شن شولشيه وهو من دعاة مكافحة تجارة الرقيق حملة كبيرة على محمد على .

ويمكن ايجاز كتابات هؤلاء على النحو التالى :

١ ـ ادوارد كادلفين Cadalvene :

وبريفورى Breuvery :

كان ادوارد كادلفين من رجال الأعمال فى فرنسا وصل مصر مع صديقه دى بريفورى فى عام ١٨٢٩ استقر عدة سنوات فيها رافق محمد على فى حروبه فى سورية خلال عامى ١٨٣٢ و ١٨٣٣ كان من المؤيدين لسياسة محمد على ورغم ذلك حاول توريطه فى قرض عرضه عليه رجل المال الشهير روتشيلد عام ١٨٣٣ وحاول كادلفين اقناع محمد على بقبوله لتمويل حملة بلاد الشام ولكنه رفض باصرار .

وكانت قيمة القرض مائة مليون فرنك فكتب كادلفين معلقا « أن الغرب يعتقد أن كنز محمد على قد نفد وهذا غير صحيح » هذا وقد وضع كادلفين كتابا عن مصر بعنوان مصر وتركيا ١٨٢٩ ـ ١٨٣٦ طبع فى عام ١٨٤١(١٣٤) .

ونجح كادلفين فى مؤلفه فى شرح المسألة الشرقية وأشاد فى كتابه بمحمد على واعتبره بطلا تاريخيا وانتقد الغرب والأوروبيين

لانهم يريدون تقسيم الامبراطورية العثمانية وتحويلها الى بولندا ثانية . ويعتبر مؤلف كادلفين وبرفيرى مؤلفا هاما ألقى الضوء على النواحى السياسية والاقتصادية والاجتماعية فى البلاد(١٣٥).

٢ ـ كلوت بك Clot Bey :

ضابط وطبيب فرنسى عضو الأكاديمية الملكية الطبية فى باريس زار مصر ثم استقر فيها ، ويعتبر مؤسس الخدمات الطبية فيها وضع كتابا بعنوان لمحة عامة عن مصر نشر فى عام ١٨٤٠ (١٣٦) فيه تجارب وخبرة خمسة عشر عاما قضاها بين ربوع البلاد وفى خدمة محمد على ولكن رغم أهمية مؤلفه وانه يعتبر سجلا لكل ما يتعلق بمصر من النواحى السياسية والاقتصادية والاجتماعية الا انه اتهم من قبل غيره من الرحالة بأنه كان من المدافعين عن سياسة محمد على وانه أخفى الكثير فى كتابه ولم يذكر الحقيقة كاملة ولكن رغم ذلك لا نستطيع أن نغفل هذا المؤلف الهام خاصة وأنه سجل فيه أهم العمائر الاسلامية كذلك الآثار الفرعونية القديمة ، لقد حاول كلوت بك أن يقدم عملا مماثلا كالذى قدمه ادوارد وليم لين البريطانى عن عادات المصريين واسلوب حياتهم (١٣٧) .

٣ ـ الدوق دى مونتبونسييه De Montpensier :

وصل الى مصر فى عام ١٨٤٥ فى الفترة التى توثقت فيها العلاقات المصرية الفرنسية فى عهد لويس نابليون وقد اثنى محمد على فى كتاباته التى التقطتها الصحف الفرنسية بشغف وحماس شديد ولقب محمد على « بنابليون مصر » بوصفه باعث نهضة مصر الحديثة وقد نشرت مقالاته فى صحيفة العالمين والمونيتور وركز فى كتاباته على قوة الصلات بين البلدين والى ايادى

محمد على البيضاء على مصر وانه له الفضل فى ادخال الحضارة والمدنية الى الشرق(١٣٨) .

أما نقاد محمد على أو بمعنى أصح المتحاملين بشــدة على نظام حكمه فيمكن اجمالهم على النحو التالى :

١ ـ بوسكيه دى شان Bousquet Deschamps :

جاء الى مصر بعد أن عانى من الاضطهاد فى فرنسا بسـبب موقفه العدائى من لويس الثامن عشر ثم خرج من السجن وسافر الى مصر واصــدر جريدة صــدى الأهرام(١٣٩) ولكن محمد على الغــاها فاتجه بوسكييه الى آســيا الصغرى وأصــدر جريــدة أزمير(١٤٠) شن فيها سلسلة من الهجمات على محمد على فاتهمــه بانه يعتبر مصر بمثابة « ضيعة له يفعل بها ما يشاء » وان مصر فى عهده امتلأت بالغرباء والأشرار يسيطرون على البلاد من مختلف المهن وان الفوضى تعم البــلاد فالحلاقون يعملون أطباء والطهــاة يعملون فى المدارس » وكتب بحسرة « أن هــذا ما يحدث فى أرض مصر الجميلة أرض الفراعنة »(١٤١) .

هذا وقد حاول محمد على ارضاءه فعرض عليه مبالغ مالية ضخمة ولكن بوسكييه رفضها كما زعم فى كتاباته وكانت هــذه المبــالغ فى مقــابل أن يكف عن هجومــه عليــه فى مقــالاته التى ينشرها(١٤٢) .

٢ ـ اوزيب دى سال Eusebe De Salles :

زار مصر وهو فى طريقــه الى بيت المقــدس خــلال عامى ١٨٣٧ و ١٨٣٩ ونشر مؤلفه(١٤٣) فى عام ١٨٤٠ واتسـمت كتاباته بالتعصب الشديد ضد الاسلام والمسلمين ومحمد على(١٤٤) .

٤ ـ جيسكيه Gisquet :

كان من رجال الدين المسيحى زار مصر فى عام ١٨٤٨ ودعا الى شن حرب صليبية عليها وادخال الحضارة والمدنية الأوروبية فيها ، ووضع مؤلفا(١٤٥) من جزءين ثم شن سلسلة من الحملات على محمد على ونظام حكمه فى مصر(١٤٦) .

٥ ـ فيكتور شولشيه Victor Scholcher :

شن حربا ضد تجارة الرقيق زار مصر فى عام ١٨٤٥ وهو من أنصار محاربة هذه التجارة وقد كتب فى مقدمة كتابه بأنه الهدف منه هو دراسة أحوال الرقيق ورغم انه أشاد بالحضارة الاسلامية الا أنه شن هجوما عنيفا على نظام حكم محمد على(١٤٧) .

وبذلك نلاحظ أن عدد الرحالة الذين زاروا مصر فى عهد محمد على بلغ مجموعهم احدى وعشرين رحالا أضف الى ذلك الرحالة الذين استقروا فى مصر وعملوا فى خدمة محمد على والمعارضين له ليبلغ اجمالى العدد ثمانية وعشرين رحالا فى عهد محمد على فقط .

الرحالة الفرنسيون منذ عهد عباس باشا وحتى نهاية عصر اسماعيل :

١ ـ الكونت دى برديو De Pardieu (١٨٤٩) :

وصل الكونت برديو الى الاسكندرية فى عام ١٨٤٩ بعد وفاة محمد على بثلاثة أيام ، وكان ضابطا بالجيش الفرنسى اختلف مع الساسة الفرنسيين بعد نشوب ثورة ١٨٤٨ فخرج من فرنسا

وقام بعدة رحـلات زار فيها بلاد الشام ، والجزيرة العربيـة ، وليبيا ، ومصر ومكث فى الأخيرة حوالى شهرين ثم عـاد الى باريس ونشر مؤلفه بعنوان رحلة الشرق(١٤٨) ، واتسم أسـلوبه بالجفاف فى الوصف خاصة وانه لم يكن من الأدباء ولا من الشعراء . ولم يهتم برديو بالآثار المصرية ، فلم تسترع انتباهه ، حتى تمثـال أبى الهول الذى جذب انتباه العديد من الرحالة وأفاضـوا فى تقديم وصف عنه ، لم ير فيه برديو « سوى خطين من الحجـارة الا انه ركز كتاباته على الحياة الاجتماعية فى مصر واهتم بالقـاء الضوء على الاحتفالات خاصـة حفل ختـان ابن عباس باشا ، ورقص العوالم فى قنا ، وساعده فى ذلك انه كان بصحبته المترجم الفرنسى دومنيـك .

وبذلك كان برديو أول من وصل مصر من الرحـالة فى أعقاب وفاة محمد على . وتولى عباش باشا السلطة فى البلاد(١٤٩) .

٢ ـ جوستان فولبير ـ ومكسيم دى كان

Gustave Flaubert — Maxime Du Camps

ولد فولبير فى روان عـام ١٨٢١ وهو يعتبر من أهم أدباء فرنسا ، اهتم بتاريخ العصـور الوسطى فى بداية حياته ، ثم درس القانون ، ولكنه لم يكمل دراسـته وقد توفى والده وشقيقتـه عام١٨٤٦ فعانى من الحزن والاكتئاب ساعده صديقه مكسيم دى كان فى الخروج من مأسـاته ، تأثر فلوبير بقصص الف ليلة وليـلة ودرس العقائد المسيحية وأشعار بيرون ومشرقيات هيجو ، وأعجب فولبير بالشرق وحضـارته حتى قال « لكى أتمنى أن اتخلى عن نساء العالم جميعا فى سبيل أن أضم الى مومياء كليوباترة » هذا وقد درس اللاتينية وتأثر بها ثم جاء فلوبير الى مصر عام ١٨٤٩

والف كتابا عن القديس سانت انطوان(١٥٠) الذى دفن فى الصحراء الشرقيــة .

وقد سعى مكسيم دى كان للقيام برحلة الى الشرق بصحبة زميله فلوبير خاصــة وأن مكسيم طاف من قبل فى آســيا الصغرى وايطاليا والجزائر واستطاع فى عام ١٨٤٨ وهو فى سن السادسة والعشرين أن ينشر كتابا « ذكريات أدبية » أهداه الى فلوبير ، ولذلك كان لمكسيم الفضــل فى قيام فلوبير برحلته الثانيــة الى الشرق ، ولكنه فى هــذه المرة أراد أن يوفد من قبل الحــكومة الفرنسية فذهب مكسيم الى مصر موفدا من قبل وزارة التربيــة والتعليم لتصوير الآثار فوتوغرافيا ، بينما جاء فلوبير بوصفــه موفــدا من قبل وزارة الزراعة لجمع المعلومات اللازمة للغرفــة التجارية الفرنسية(١٥١) .

وصل الصديقان الى الاسكندرية حيث التقيا بالكولونيــل سيف الذى أحسن استقبالهما وزودهما بالتوصيات الى مديرى المحافظات المختلفة لتسهيل وســائل انتقالهما وتذليل العقبــات أمامهما ، وفور وصــول فلوبير الى مصر حلق شــعر رأســه وارتدى عباءة قطنية نوبية بيضاء ، ووضع على رأسه طربوشــا أحمر ، وقد لقب المصريون فلوبير « أبو شنب » وكنوا مكسيم دى كان « أبى كتاف » وذلك لنحول جسده وبروز كتفيــه ، ونظرا لاعجــاب فلوبير بمصر وتعلقة بها راســل امه فى فرنســا وطلب منها قراءة كتاب ادوارد وليم لين « المصريون المحدثون » كى يساعدها على تفهم البيئة التى يكتب عنها(١٥٢) .

هذا وقد اهتم فلوبير بتسجيل الحياة الاجتماعية وطبقات المجتمع خاصة الرقيق ، والدراويش والعوالم فكتب عن كوتشك

هانم والتى ذكر بأنها كانت على صلة بعباس باشا ثم غضب عليهـا ونفاها الى الصعيد ، وبلغ من اعجاب فلوبير بها حيث قابلها انه كتب بعض الأشعار عنها ، هـذا ويمكننا القول أن فلوبير تأثر الى حد كبير بمصر وافريقيا فى كتاباته ورواياته الأدبية خاصة عندما كتب مدام بوفـارى Bovary وسالامبو Salammbo فالشرق فى نظره هو افريقيا والبدو والصحراء والجمـال والتمـاسيح والزراف ولذلك فاننا نجد انطباعاته الشرقية افريقية الطـابع اكثر منهـا آسـيوية واختلف بذلك عن الشـاعر بيرون وعن لوتى(١٥٣) .

أما مكسـيم دى كان فقـد نشر بعد عودتـه الى باريس مؤلفا(١٥٤)زوده بمائة وخمسين لوحة فوتوغرافيـة واهتم فيه بتسجيل مشاهداته عن الآثار المصرية التى بهرته فتوغل فى مدن مصر العليا ووصل جنوبا مع فلوبير الى الأقصر ودكة وكلابشـة ودبود ووادى السبوع وأبو سمبل(١٥٤) .

٣ ـ شـارل ادمـون Charles Edmond :

جاء شارل أدمون الى مصر فى عام ١٨٥٠ وكان يعمل صحفيا، وقد انفرد عن غيره من الرحـالة بتأليف كتاب يتناول فيه شخصية الكولونيل سيف ، الذى عهد اليه محمد على بتدريب الجيش المصرى وبفضله أحرزت مصر العديد من الانتصـارات فعمل شارل أدمون على نقده فى مؤلفه نقدا لاذعا بل حرص على تشويه صورته وذلك لأنه اعتنق الاسـلام ، وكان شارل مهاجرا بولنديا غير اسمه الأصلى « تشا وكيه » بعد فراره من بلاده الى باريس حيث عمل بالصحافة حتى اضطر الى مغادرتها مطاردا من رجال المـال والسياسـة والشرطة ، فجـاء الى مصر بعد أن جذبته اليهـا

كتابات جيرار دى نرفال ، وكان عباس باشا يتولى الحكم فى البلاد خلال فترة زيارته لمصر فنزل شارل ادمون ضيفا على سليمان باشا فى ضيعته الفسيحة فى مصر القديمة . وقد رافقه الأخير فى جولاته وتنقلاته غير الرسمية واخذ يبوح له بتعلقه بأرض مصر ، ورحابة وسماحة الاسـلام ، واخذ شـارل أدمون يتقرب اليه واقنعـه بتسجيل ذكرياته عن مصر وملاحظاتـه عن العادات والتقاليـد المصريـة ، وذكريات المعـارك التى خاضـها ، وابنـاء الجاليـة الفرنسية ، وما رواه سليمان باشا كان بداية لأحداث القصة التى كتبها شارل أدمون بعنوان زفيران كازفان Zephyrin Cazavin وهى شخصية غريبة حاك حولها وقـائع هزلية قصد بها أن يسلى قراءه الفرنسيين المتلهفين على التعرف على أسرار حيـاة مواطنيهم من المغتربين على ضفاف النيل ، ولم تنشر القصـة التى كتبها فى عام ١٨٥٠ الا بعد مرور ثلاثين عاما على تأليفها خشية تأليب الشخصيات التى تعرض لها(١٥٦) .

ورغم أن شارل أدمون الف رواياته عن شخصية سـليمان باشا الا أنه قدم وصفا للحياة المصرية والشـوارع والعوالم خاصة كوتشك هانم ، ولكن رغم تجوله على صفحـة النيـل وعلى ظهر ذهبية ، الا انه لم يشـعر ، ولم ينتبه لمـاساة الفـلاح المصرى ومعاناته من الجوع والفقر . وعندما نشر شارل أدمون كتابه عن مصر فى عام ١٨٨٠ لم ينتبه اليه أحد لانه كان يتحدث فيه عن مصر وأحوالها منذ ثلاثين عاما مضت ولذلك لم يجذب مؤلفـه الانتباه . ولكنـه وضـع مؤلفـا آخر(١٥٧) عن مصر نشر فى عام ١٨٦٧ لقى بعض الاهتمـام لانه تنـاول فيه مشروع قنـاة السـويس(١٥٨) .

٤ ـ اوجينى بواتــو Eugène Poitou :

زار مصر فى عام ١٨٥٤ ووضـــع كتابا عن رحلته فيها(١٥٩) وهو كتاب صغير الحكم ، لم يلق اهتماما كبيرا عند نشره ولكن اهم ما يميزه هــذا المؤلف هو اعجــاب بواتو بشخصية عبــاس باشا وذلك لعزوفه عن كل ما هو أوروبى وعدم اهتمامه وانبهاره بالحضارة الأوروبية فاختلف بهذا الوصف عن غيره من الرحــالة الذين انتقدوا فترة حكم عباس(١٦٠) .

٥ ـ بارتليمى سانت هيلار J. Barthelemey Saint Hilaire

كون دى لسبس لجنة دولية للاشراف على مشروع قنــاة السويس فعين بارتليمى سانت هيلار سكرتيرا عاما ، وكان يعمل مهندســا وأستاذا فى كلية فرنسا ، وصل مع دى لسبس إلى مصر فى ٨ نوفمبر ١٨٥٥ ، وكانت له اهتماماته بالحضــارة الاغريقية القديمة وفى عام ١٨٤٥ نشر بحثا عن افلاطون وعن فلاسفة مدرسة الاسكندرية . ثم جذبته السياســة فى عهد ملكية يوليو فى فرنسا ولكنه سرعان ما فضل الابتعاد عنها وعن الأضــواء خاصــة بعد نشوب ثورة ١٨٤٨ . وقد أفاد من هذه العزلة فانكب على دراسته العملية والأكاديمية ثم جاء مع دى لسبس الى مصر فى عام ١٨٥٥، واهتم بمصر اهتماما كبيرا فهو عالم وسياسى وفيلســوف فكتب عنها خمسة عشر رسالة ظهرت فى عام ١٨٥٧(١٦١) منها ثمــانى رســائل وجهت من مصر الى المستشرق الشــهير سليفســتر دى ساسى Silvestre De Sacy نشرها فى مجلة Le Debats خلال يناير وفبراير ١٨٥٦ ؛ ثم نشر الرســائل الستة الأخرى ، وعندما عاد الى فرنسا جمع هذه الرســائل وأضاف اليها مشروع قناة السويس وأضاف رسالة أخرى عن العمارة المصرية . وكان لرسائلة طابع علمى(١٦٢) .

وقد كتب بارتملى فى مقدمة كتابه « أن رســائلى تعبر عن نهضة مصر ، وحرصــا على الأخذ بأسباب المدنية الحديثة فمصر لها حضارة عظيمة وينبغى الا نغمض اعيننا عن مساوىء المجتمعات المسيحيــة ، وان الشرق لايمــكن أن يصبح مسيحيا وأن تحويله أو محاولة تحويله امرا لا أقره وانمــا هو خطيئة كبيرة ويكفى الشرقيون عظمة القرآن »(١٦٣) .

حوت رسائل برتملى العديد من الموضوعات والمعلومات منها خمس رســائل عن الآثار والمعابد المصرية ويبدو من خــلال هذه الرسائل حرص الكاتب على الاطلاع على كتابات من سبقوه خاصة الأثريين ومنهم ويلكنسون الأثرى البريطانى كذلك تناولت بعض الرســائل الأخــرى معــلومات عن وادى الطميــلات وخليــج السويس(١٦٤) .

٦ ــ الكونت جوبينــو Gobineau :

كانت له العديد من الدراســات عن الشرق ، وصــل الى السويس فى عام ١٨٥٥ وهو فى طريقه الى منصبه الجديد فى بلاد فارس موفدا من قبل الامبراطور نابليون الثالث امبراطور فرنســا وقد نشر جوبينو نتائج رحلته فى كتــاب نشر فى باريس عام ١٨٥٩ بعنوان ثلاثة أعوام فى آسيا(١٦٥) سجل فيه انطباعاته . ولم تنل مصر فى هــذا الكتاب سوى اربعين صفحة مختصرة تحدث فيهــا عن المقاهى العربية فى الاسكندرية والقناصل ، كذلك تحدث عن القاهرة بأســواقها العامرة والأزبكية واحتفالات « الدوسة » وقد انفرد هو وجيرار دى نرفال بتصــوير هــذا الاحتفال(١٦٦) كذلك وضع جوبينو مؤلفا آخر عن التفاوت بين الأجناس البشرية(١٦٧) أوضح وجهة نظره فيه واعتبر الافارقة والسلالات فى قارة افريقيا فى مرتبة أدنى من قارة آسيا فهو يؤثر العرب والفرس والآسيويين

على الافارقة . وهــاجم جوبينو الأقبــاط فى كتابــه واعتبرهم « بقايا ســلالة انقرضت » واعتبر الفــلاحين خليطا من الزنوج والعرب ، أما البدو فهم فى نظره « لصوص » والأتراك « مغامرون » قدموا من البوسنة وألبانيا لحكم البلاد(١٦٨) .

وترجع خطورة كتابات وأعمال جوبينو الى انهــا عبرت عن روح التعصب الكامنة داخله ضد الاســلام كما سجل اعجابــه بالحضــارة الفارسية فكتب « ان الفرس هم بناة الحضــارة ، وانهم رواد العالم المتحضر فهم أول الغزاة وأول العلماء لهم السبق فى العلم والحضــارة والحرب والفلسفة وقد امتد تأثيرهم الى أوروبا » ولعل أخطر ما كتبه جوبينو هو تعضيده للبابية فى فارس فقد أبدى تعاطفا كبيرا مع مؤسسها الشيرازى وانتقد اجراءات الحكومة الفارسية للحد من هذه الحركة(١٦٩) .

٧ ــ أوجســت ماربيت Auguste Mariette :

من أهم علماء الآثار قدمه بارتملى سان هيلار الى دى لسبس عام ١٨٥٧ وطلب ماربيت مقابلة سعيد باشا وأقنعه بانشاء وبناء متحف للآثار ، وعاش ماربيت أربع سنوات وسط الفــلاحين وكتب متألمــا « رأيت خلال هذه الفترة سبعمائة مقبرة قد اختلفت من أبو صير وسقارة » ولذلك اخذ يحــذر سعيد باشا ويطالبــه بالمحافظة على الآثار . وفى الفترة التى ركز فيها ماربيت جهوده فى التنقيب عن الآثار القديمة كان الرحــالة البريطانيون يركزون جهودهم فى الحصول على مخطوط اثيوبى اثرى هام من رهبــان دير وادى النطرون ورغم اهتمام المسئولين الفرنسيين بالمخطوطات القبطية وغيرها منذ القرن الثامن عشر الا أن ماربيت ركز جهوده على الآثار خاصــة فى منطقة سقارة والجيزة وميت رهينــة ــ

وابو صير ـ ودهشور ـ واستطاع ماريبت أن يكمل ويتمم عمل شامبيليون(١٧٠) .

وافاد ماريبت من دراسته للآثار فألف أوبرا عايده التي وضع موسيقاها الموسيقار الشهير « فيردى » وتصور قصة حب تجمع بين « عايدة » ابنة ملك الحبشة مع القائد المصرى راداميس المكلف بحماية طيبة(١٧١) .

وكان ماريبت يفخر انه فى حياته نجح فى انجاز عملين الأول متحف بولاق ، والثانى اكتشاف السرابيوم . ورغم التقدير الذى ناله ماريبت فى فرنسا اذ عين مديرا للمكتبة الوطنية ، وخصص له كرسى فى كلية فرنسا ، الا أن مصر جذبته اليها بتاريخها وحضارتها فظل يعمل فى التنقيب عن الآثار واكتشف تمثال شيخ البلد وزوجته فى سقارة . كذلك أتم عمل بريس دافين الذى اكتشف قائمة بملوك ابيدوس وعرفت بالقائمة الأولى فعثر ماريبت على قائمة ثانية لملوك أبيدوس لتتم عمل بريس دافين ولكن الأثرى الألمانى جوهان دومينخن(١٧٢) نسب هذا الكشف لنفسه(١٧٣)

وضع ماريبت مؤلفا عن رحلته الى مصر(١٧٤) ، كذلك مؤلفا بعنوان لمحة عامة عن مصر(١٧٥) . لقد أحب ماريبت مصر حبا شديدا وسجل ذلك بقوله « لا شىء يضاهى ويضارع حضارة مصر القديمة »(١٧٩) .

٨ ـ الممثلة راشيل Rachel (١٨٥٧) :

زارت مصر فى عام ١٨٥٧ الكاتبة والممثلة الفرنسية راشيل وكانت تعانى المرض « السل » فجاءت للاستشفاء وتجولت على

ظهر ذهبية على صفحة النيل حتى وصلت الى الشلال الأول ومكثت فى الأقصر ستة أسابيع نعمت خلالها على حد قولها « بالهواء المنعش » ولكن مناخ مصر لم يفلح فى القضاء على مرضها فكتبت فى ١٠ مارس ١٨٥٧ « لم أشف بعد من مرضى ، لم أعد أحب شيئا ولا أسمع شيئا ولا أنتظر شيئا من هذه الحياة منذ عانيت من المرض الحزين » اننى لن أموت بسبب مرضى ، ولكنى سأموت بسبب الملل والوحدة ، تخيلوا بأننى وحيدة مع طبيب بولندى يرافقنى وطاهية وخادمتى « اننى لا أكف عن تأمل النيل الخالد الكريم رمز الحضارة المصرية القديمة وتلك التماثيل العملاقة المنحوتة فى الجبال » هذا وقد نشرت راشيل رسائلها عن مصر التى تحوى زيارتها لمصر العليا ومعابدها والكرنك فى مجلة La Revue ثم توفيت راشيل فى قنا فى ٣ يناير ١٨٥٨(١٧٧).

٩ ـ الشاعر شارل ديديه Charles Didier :

هو سويسرى الأصل ، استقر فى باريس ، نشر أولى قصائده الشعرية فى عام ١٨٢٥ ثم أدار جريدة سياسية وأدبية(١٧٨) ، وكانت له صلاته مع مشاهير عصره خاصة جورج صاند ، وقد تعاون معها لاصدار جريدة العالمين ، ولكنه أصابه الاجهاد من عمله فقرر القيام بمجموعة من الرحلات الى أسبانيا ومراكش والجزيرة العربية وسنار ومصر ، وفى الفترة ما بين ١٨٥٧ حتى ١٨٦٠ وضع مجموعة من المؤلفات عن الرحلات التى قام بها ففى عام ١٥٨٧ ظهر مؤلفه « خمسون يوما فى الصحراء »(١٧٩) ، وفى نفس العام كتب عن « يومياته فى مكة »(١٨٠) فى عام ١٨٥٨ وضع « مؤلفه عن النيل »(١٨١) وفى عام ١٨٦٠ وضع مؤلفه عن « ليالى القاهرة »(١٨٢) .

والذى يهمنا من مولفات شارل ديديه هو كتابه عن النيل

فقدت تحدث فيه عن مشـاهداته على صفاف النيل وعن زيارته للخرطوم وسنار ومقابلته لرفاعه الطهطاوى ، كما قدم وصفـا لمروى ووادى حلفا ومدن مصر العليا خاصـة أسوان ، وأسـيوط والأقصر أما مؤلفـه عن ليـالى القـاهرة فهو يشـبه ما كتبـه جيرار دى نرفال عن الحيـاة الاجتماعيـة فى مصر والاحتفـالات والأعياد وقد ركز فيه أهتمامه على الجوانب الاجتماعية ، ولم يهتم بوصف الآثار ولا القصـور فلم يجذبـه سوى البشر(١٨٣) .

١٠ ـ ارنسـت رينـان Ernest Renan :

فيلسوف فرنسى زار مصر مرتين الأولى فى عام ١٨٦١ ، وكان فى طريقه الى بلاد الشام الا انه لم يمكث بها الا أياما قليلة وفى الثانيـة عام ١٨٦٤ جاب انحـاء البـلاد ودون انطباعاته فى فى مقـال مشهور بمجلة العالمين فى باريس عـام ١٨٦٥ . وكانت رحلته الثانية أكثر أهميـة أذ شـاهد فيهـا الكثير من المنـاظر الطبيعية خاصة اثناء رحلته الى أسوان على الباخرة النيلية ضيفا على ماريت باشا عالم الآثار ، ولم يكن ارنست يقصـد زيارة مصر وحدها بل كان فى طريقه الى دمشق وانطاكية وأثينا متتبعا آثار القديس بولس بهدف وضع المجلد الثالث من كتابه عن تاريخ « أصول المسيحية »(١٨٤) .

وعندما وصل الى القاهرة أحسن الخديوى استقباله ثم زار الآثار المصرية فى الجيزة وسقارة ومتحف بولاق ثم قصد الصعيد فى رحلة استغرقت ثلاثة أسابيع ولكن رغم زيارته للآثار المصرية الا انه شغف وأعجب بالفن اليونانى ولم ير فى الحضـارة القديمة سوى حضارة « قيدها الاستبداد الدينى والسياسى » وقد نشرت أعمـال رسـائل ارنست رينان وفى عام ١٩٤٨ بعد أن جمعتهـا كاملة هنريت بشارى(١٨٥) .

١١ ـ هنرى كامـــه Henry Cammas :

زار مصر المصور الفوتوغرافى هنرى كامه وصديقـــه أندريه لوفيفر André Le Fevre ووضعا البوما مصـــورا عن وادى النيـــل La Vallée du Nile يعد مرشـــدا ممتازا لمصر وقد أثار الاعجـــاب عنـــد نشره فى عـــام ١٨٦٢ ، وقـــد رتب كوينج بك Koenig Bey مقابلة مع سعيد باشا الذى أعجب بالألبوم وصوره ثم ظهرت بعد ذلك رســـوم واقعيـــة عن مصر وضعهـــا اميـــل جيميـــه Mmile Guimet فى كتابـــه الشـــهير Les Croquis Egyptiens Journa d'un touriste نشر فى باريس عام ١٨٦٧ هـــذا وقد أسس جيميـــه فى فرنســـا متحفـــا باسمه(١٨٦) .

١٢ ـ مـــدام اولمب Olympe Audouard :

ولدت فى اقليم بروفانس عام ١٨٣٠ ، تزوجت كاتبـــا من مارسيليا ثم انفصلت عنه ، اشتهرت ككاتبة ونشرت أولى رواياتها عام ١٨٦١ ثم اسست جريدة Papillon فى عـــامى ١٨٦٥ وجريـــدة Revue Cosonopolite فى عام ١٨٦٧ ، اهتمت بكل ما يتعلق بمصر وتركيا وروسيا . قامت برحلة الى الاسكندرية والقاهرة حيث مكثت فيهـــا خمسة عشر شهرا خلال عامى ١٨٦٤ و ١٨٦٥ ثم نشرت بعد عودتهـــا كل الروايات التى سمعتها عن مصر ونشرت كتابها الشهير عن مصر فى عام ١٨٥٦ (١٨٧) .

كانت مدام اولمب تخشى كل شىء فى مصر فقد كانت تعـــانى من متاعب صحية ولذلك خافت من المـــاء والهواء والحيوانات وهى فى كتابها تشكو من كل شىء فى مصر ، ومن كل شىء حولها . وطدت علاقتها مع أقارب الخديوى اسماعيل خاصـــة مصطفى

فاضل باشا شقيقه وعدوه فتحدثت فى كتابها عن كل ما يتعلق بمصر النيل . نظام الحكومة الفلاح وكتابها يمثل النقد لكل ما حولها ولذلك فهى تعتبر من نقاد الأسر الحاكمة فى مصر ، فكما نقد هامون وشولشيه عصر محمد على نقدت هى بنفس القوة عهد الخديوى اسماعيل وكذلك فكتابها يتسم بالتحيز ضد اسماعيل لانها جمعت مادته ومعلوماته من أعدائه ومنافسيه فالخديوى فى نظرها لم يفعل شيئا يستحق الذكر « تولى منذ عامين ولم يفعل حتى الآن شيئا لتحسين أحوال الشعب » بينما نجدها تثنى على مصطفى فاضل باشا فهو فى نظرها « أمير عادل أذكى ، مثقف »(١٨٨) .

هذا وقد اختلطت الحقائق فى كتابها بالخيال والقصص المبالغ فيها مثل القصص والروايات التى نقلها عن قسوة الدفتردار محمد بك صهر محمد على وأنه « كان يستقبل ضيوفه بين النمور والأسود التى يمتلكها » كذلك قصص أخرى عن نازلى هانم ابنة محمد على « التى كانت تبدل عشاقها كل ليلة ثم تقوم بذبحهم » ثم قصصها المبالغ فيها عن عهد عباس باشا الذى بلغ من قسوته أنه كان يضرب النساء فقد قام « بضرب كوتشك هانم العالمة الشهيرة » خمسمائة ضربة سوط قبل نفيها « كما ادعت وبالغت فى خيالها حتى انها اتهمت عباس بتقطيع أجساد ضحاياه ثم توزيعها على ضيوفه . وهكذا كان كتابها خالى من الموضوعية جمعت فيه بين المبالغات والروايات المختلفة ويعلل كاريه على ذلك الأسلوب المتسم بالعدوانية والدموية بقوله بأنها « أرادت الانتقام من زوجها الخائن وقطع راس عشيقته »(١٨٩) .

١٣ ـ الكونتيسية جوليت دى روباسا Juliette De Roberssat

اهتمت بمصر اهتماما شديدا ، ولم تثق فيما كتبه فولنى عنها فى القرن الثامن عشر ، ولذلك قررت زيارتها للتعرف عليها ،

وقد ساعدها على التعرف على أحوال البــلاد عدة شخصــيات هامة على راسها ماريبت ومدام روزيتى زوجة القنصل التوسكانى الســابق . ثم وضعت الكونتيسية جوليبت مؤلفهــا عن الشرق ومصر عام ١٨٦٣ سجلت فيه انطباعاتها عند زيارة البلاد(١٩٠) .

١٤ ــ ادمون ابــو Edmond About :

كان عضــوا بالكاديمية الفرنسية جاء الى مصر مكلفــا من قبل حكومة نابليون الثالث لمتابعة اعمال مشروع قناة السويس ، كذلك لدراسة مدى التقــدم الذى تم فى مصر فى كافة المجــالات ومراقبة انشاء المحــاكم المختلفة بعد ان الغى سعيد باشا القضاء القنصلى . وصل ادمون أبو الى مصر فى عام ١٨٦٨ ومكث فيهــا شهرين احسن خلالها المسئولون فى مصر استقباله خاصــة آرام بك سكرتير الخديوى وابن شقيق نوبار ، والتقى بعدة شخصيات بارزة خاصـــة رجب باشا وراتب باشا واراكيل بك ، تجول فى مدن مصر فزار القــاهرة ثم مدن الوجه القبلى ، لفت نظره احوال الفلاح المصرى ، فوضــع روايته الشهيرة « أحمد الفلاح » التى نشرت فى مجلة العالمين(١٩١) وهى ليست أفضــل أعماله ولكن ترجع أهميتها الى انها تعتبر دراســـة وافية عن عادات المصريين وبيئاتهم تحت حكم اسماعيل ويقال ان الخديوى قد عرض عليــه مبلغا من المــال لشراء الكتاب ومنع نشره ولكنه رفض(١٩٢) .

وفى كتابه الفلاح مثل شخصية أحمد المدافع عن مصر ، وألقى من خلالها الضــوء على حيــاة الفلاحين على لسان بطل قصته أحمد الذى ردد : « والدى ليس سيدا ، وانما يعمل فى الحقول ، منزله على الأرض ، لا توجد به نوافذ ، القش يكسوه ، ثروته الحقيقية تتكون من نخلتين وجملين »(١٩٣) .

ومن خلال القصة يتعرف القارىء على كل ما يتعلق بمصر من عادات وتقاليد وأمراض وأراضى ومساجد ، كما عبر على لسان احمد عن كراهيتـه للفـلاحين الأوروبيين « الذين يجيئون الى الاسكندرية لارتكاب الفضـائح » وانهم جميعـا يأتون الى مصر معدمين وفى فترة بسيطة يصبحون سادة(١٩٤) .

وبصفة عامة يمكن القول أن رواية الفلاح فقيرة الأحـداث يعرقل استمرارها عرض المؤلف للأوضـاع السياسية والاقتصادية والزراعية حتى شخصية احمد بطل الرواية لاتمت للفلاح بصـلة ولا تمثل الشخصية المصرية لأنه طالب بعثة عـاد الى مصر ولديه الرغبة فى التجديد ، كما أنه لا يبدو متمسكا بالتقاليد الاسلامية وتقاليد بلاده . ولكن رغم ذلك ترجع أهميتها الى أنها قدمت صورة لأوضـاع مصر ، فقد كرس « ابـو » جهده فى أمور كلفته بها فرنسا الا وهى المشكلة الزراعية ــ المحـاكم المختلفة ومشروع قناة السويس ، لذلك لم يضم الكتاب أوصافا أو مناظر كتلك التى الهمت الرحالة السابقين وانما معظم الملاحظـات جاءت مقتضبة وجافة ولكنه فى نهاية الأمر انجـاز فى كثير من الأحيـان لأحمد المسلم ضد الكاثوليك الفرنسيين خاصة عندما سجل على لسانه « التنصير لون من الوان النفاق ، وان ما فى حركة تسبيحة واحدة من حركات أصبع واحدة من أصـابع المسلمين من الايمـان مع التسبيح ما يفوت ما فى قلوب حشد من الكاثوليك »(١٦٥) .

١٥ ــ نرسيس برشـار Narcisse Berchere :

اشتهر الرسام نرسيس برشار برسوماته الرائعـة عن مصر كذلك برسائلها عنها ، وقد زارها عدة مرات خلال أعوام ١٨٤٩ ، ١٨٥٦ ، ١٨٦١ ثم ١٨٦٩ وعبرت لوحاته عن عظمة مصر ، فرسم

سهولة طيبة ودير صحراء سانت كاترين ، ومقابر المماليك كذلك رسم شوارع القاهرة ، ولم يكتف نرسيس بما قدمه من لوحات ورسومات أحدثت ضجة فى باريس عند عرضها جمع فيه كل رسائله التى أرسلها الى صديقه فرومنتان عن مصر من نوفمبر عام ١٨٦١ حتى ابريل عام ١٨٦٢(١٩٧) .

وقد وضع هذا المؤلف بعد أن كلفته الحكومة الفرنسية بتتبع عمليات انشاء قناة السويس فتجول فى دمياط وبورسعيد بحيرة التمساح ووادى الطميلات والتل الكبير ثم جلبته مدينة السويس بمساجدها وسكانها . ويمكننا القول أن مؤلف نرسيس بوشار يمثل أهمية كبيرة لأنه أوضح مدى امتداد عمليات الحفر فى قناة السويس ومراحل تقدم المشروع . هذا وقد قام باهداء ألبوم الصور التى رسمها عن مصر الى الامبراطورة أوجينى . وعندما تم افتتاح القناة دعمته الحكومة الفرنسية لحضور حفل الافتتاح(١٩٨) .

١٦ - تيوفيل جوتيه Théophile Gautier (١٨٦٩) :

كان تيوفيل جوتيه صديقا لجيرار دى نرفال ومكسيم دى كان وكان مثلهم عاشقا لمصر ، وقد بدأ حياته مصورا ، ثم ما لبث أن اهتم بالأدب حتى أصبح صحفيا وناقدا وروائيا . ورغم حبه الشرق ولمصر الا انه لم يزرها الا فى عام ١٨٦٩ حتى دعى فى حفل افتتاح قناة السويس وكانت مهمته تغطية احتفالات القناة(١٩٩) .

كانت مصر مصدر الهام لتوفيل جوتيه ، فوضع عنها العديد من الروايات مثل « امسية كليوباترة »(٢٠٠) التى ظهرت فى عام ١٨٣٨ وهى عن تعلق القائد الرومانى أنطونيو بالملكة

كليوباترة ، ورغم أن الرواية تضمنت العديد من الاخطاء التاريخية الا أنها حققت نجاحا كبيرا ، كذلك ألف قصيدة أخرى بعنوان « قدم المومياء »(٢٠١) عام ١٨٣٨ و ١٨٤٠ تخيل فيها أنه وقع فى غرام فتاة صغيرة حينما عثر على قدم مومياء رقيقة لفتاة فى مقتبل العمر « لم تطأ قدمها أرضا قط ، ولم تلمس الا أرق الحصير المصنوع من أعواد النخيل وأملس السجاد من جلود النمور » ، وفى عام ١٨٥١ نشر قصيدته « حنين بين مسلتين »(٢٠٢) تحدث فيها عن أنشودتين حزينتين على لسانى المسلة المصرية القديمة المقامة فى وسط ميدان الكونكورد فى باريس وشقيقتها التى ما تزال قائمة فى الأقصر ، وفى عام ١٨٥٢ وضع قصيدة بعنوان « المومياء »(٢٠٣) اتهمه النقاد بالمبالغة فيها وفى عام ١٨٥٧ ألف قصته « ألف ليلة وليلتان »(٢٠٤) وهى مستوحاة من قصص ألف ليلة وحكايات شهرزاد(٢٠٥) .

وهكذا يتضح لنا أن معظم مؤلفات جوتييه الروائية وقصائده الشعرية قد وضعها تأثرا بمصر والشرق وحتى قبل زيارته لمصر فى عام ١٨٦٩ . هذا بينما أهم ما ألفه تيوفيل هو ما نشره عن مصر وعن زيارته لها بعنوان رحلة الى مصر(٢٠٦) والتى نشرت فى عام ١٨٧٠ كذلك مؤلفه عن الشرق(٢٠٧) والذى تحدث فيه عن مشاهداته فى مصر ومدنها المختلفة(٢٠٨) .

١٧ ـ لويز كوليه Louise Colet (١٨٦٩) :

زارت مصر أثناء احتفالات افتتاح القناة . وكانت سيدة جميلة لها شهرتها فى باريس ، ولها صالونها الأدبى الذى جمعت فيه العلماء والأدباء وناقشت فيه قضاياها الهامة وكان لها موقف ضد البابوية وضد الامبراطورية ، ولذلك اضطرت الى السفر

الى ايطاليا ، حيث التقت بكافور ومازينى وغاريبالدى ثم انفصلت عن زوجها الموسيقار أيبوليت كوليه(٢٠٩) . وكانت لها طفلة صغيرة ارادت اعالتها فبدأت فى الكتابة فى الصحف الصغيرة واهتمت بالموضوعات السياسية والأدبية . ثم جاءت الى مصر مع مجلة ديبا ونشرت فيما بعد نتائج رحلتها وجولاتها فى مدن مصر المختلفة فى كتاب نشر فى باريس فى عام ١٨٧٩(٢١٠) هذا وقد قدم لها الخديوى اسماعيل الكثير من التسهيلات عند زيارتها لمصر ، فخصص لها السفينة البخارية « البشيرة » للتجول فى مدن مصر العليا ، والواقع أن مؤلفها يفتقر الى الملاحظات الدقيقة وروح النقد وقد اكتفت بنقل ما كتبه ودونه غيرها من الرحالة خاصة مدام أولمب وروايات الكسندر روما وغيرهم(٢١١) .

١٨ ـ شارل بلان Charles Blanc (١٨٦٩) :

يرجع اليه الفضل فى تعريف غير المتخصصين بالفن الاسلامى وتطوره ، والزخارف الاسلامية ، وله عدة مؤلفات عن الفن الفرنسى(٢١٢) عين مديرا عاما للفنون ، وفى عام ١٨٤٨ نشر كتابه عن مدارس الفنون المختلفة(٢١٣) ثم جاء الى مصر مع افتتاح قناة السويس . وكان فنانا وناقدا عمل فى جريدة العالمين وركز اهتماماته على مصر الاسلامية وفنونها ثم نشر رحلته عنها فى كتاب بعنوان « رحلة الى مصر العليا ملاحظات حول الفنون المصرية والعربية » وظل مؤلفه مصدرا رئيسيا للدارسين والباحثين فى تاريخ وفنون مصر(٢١٤) .

١٩ ـ فيليكس تينار Felex Teynard (١٨٦٩) :

حضر حفل افتتاح قناة السويس ونال شهرة واسعة بسبب أطلسه المصور عن الآثار المصرية والنوبة(٢١٥) .

٢٠ ـ اوجين فرومونتان Eugene Fromentin :

كان أوجينى فرومنتان فنانا ومستشرقا مشهورا عميق الثقافة واسع الاطلاع يعشق العزلة ، لم يمل البقاء فى الصحراء شهورا طويلة . وكان صاحب موهبتين الكتابة والتصوير . سافر الى الجزائر وعاش فترة طويلة فى الصحراء مع احدى القبائل وقد خرج من تلك التجربة بكتابين احدهما عن الصحراء نشر فى عام ١٨٥٧ والآخر عن « أقليم الساحل » طبع فى عام ١٨٥٩ هذا وقد أدت معرفته العميقة بشمال افريقيا الى تفهم مصر فقدم عنها صورة صادقة متعددة الألوان ولعل اهم لوحاته المصورة « الغروب على شاطىء النيل » ولوحة « لصوص فى الصحراء » ولوحة « النوبيات على شاطىء النيل »(٢١٦) .

جاء فرومونتان الى مصر فى عام ١٨٦٩ ووضع مؤلفا عنها بعنوان « رحلة الى مصر »(٢١٧) قدم فيه وصفا لمدن مصر العليا . وخصوبة الأرض فيها والجبال المحيطة بها والنيل أى أن الجانب الاجتماعى لم يلفت نظره ولكنه رغم ذلك قدم وصفا لمصر بكلمات رقيقة هاسسة صادقة وكأنه يرسم لوحة من لوحاته المتميزة وبلغ من اعجابه بمصر انه كان يخشى الا يستطيع فى رسوماته وكتابين أن يفى مصر حقها من الوصف الرائع(٢١٨) .

مما سبق يتضح لنا أن اعدادا كبيرة من الرحالة وفدت على مصر أثناء افتتاح قناة السويس ليشهدوا هذا الحدث الهام ، وكان بعضهم من المدعوبين الرسميين فى الحفل ، فانتهزوا فرصة وجودهم فى البلاد وانطلقوا يجوبون مدنها وقراها مسجلين مشاهداتهم فيها . ولذلك فان أهم الكتابات التى دونت عن مصر جاءت فى عام ١٨٦٩ وان كان هذا لا يمنع من مجىء بعض الرحالة

حتى نهاية عصر اسماعيل لعل اهمهم دى جارس الذى رصد الأحداث السياسية فى مصر فى تلك الفترة ووضع مؤلفا عنها ضمن فيه أخبار رحلته(٢١٩) .

وأخيرا عند ختام الحديث عن الرحالة الفرنسيين الذين وفدوا على مصر ، ينبغى لنا الا نغفل على سبيل المثال دروفتى الذى سجل أخبار رحلته الى واحة سيوه(٢٢٠) كذلك الطبيب الفرنسى كونى Cuny وكان يعمل فى أسيوط ثم قام بعدة رحلات الى مصر العليا وكردفان وتزوج من ابنة لينان دى بلفور وعينه محمد على للاشراف الصحى على منطقة اسيوط فتمكن من توطيد صلاته مع التجار والرحالة ثم قام فى عام ١٨٥٨ بزيارة الى قرب السودان فزار الأبيض ومدن كردفان ، ولكنه قتل وقيل ان سلطان دارفور قتله واحتفظ بابنته الصغيرة ثم ما لبث أن أرسلها الى مصر فى عام ١٨٦١ . هذا وقد نشرت نتائج رحلته فى باريس عام ١٨٦٣(٢٢١) .

كذلك ينبغى الا نغفل رحلات وكتابات لينان دى بلفون خاصة رحلاته الاستكشافية فى المنطقة الواقعة بين النيل والبحر الأحمر. حيث سجل ملاحظاته عن القبائل العربية فى هذه المناطق كذلك أعطى وصفا دقيقا عن قبائل العبابدة والبشارية كما سجل مشاهداته عن أهم المعادن والمناجم فى هذه الجهات(٢٢٢) .

لا جدال أن تطور وسائل المواصلات فى مصر ، والأمن والأمان الذى تمتعت به البلاد قد ساعد على تدفق أعداد كبيرة من الرحالة من مختلف الجنسيات على مصر فى القرن التاسع عشر (٢٢٣) ولذلك ينبغى علينا أن نلقى نظرة على أهم الرحالة البريطانيين الذين وفدوا على البلاد خلال تلك الفترة .

١ ـ وليم هاملتــون William Hamilton :

نشر كتابه « مصريات » بعد ثماني سنوات من زيارته لمصر فاصبح الكتاب مصــدرا رئيسيا للبريطانيين عن آثار مصر وكان الغرض من كتابه ســد الثغرات التى تركها بولكول ونوردن دنونى ودنيون ، وقد أخرج كتابه بأســلوب اليوميات ، ولم يهتم بالحياة المصرية ولم يلتفت أيضــا الى الحياة الاجتماعية ويمكننا القول أن مؤلفه رغم أهميته لايرقى الى ما سجله ودونه شامبيليون(٢٢٤).

٢ ـ هنرى صــولت Henry Salt :

عين هنرى صولت قنصلا بريطانيا فى مصر واهتم بالآثــار اهتماما كبيرا ووفق فى جمع عدد من القطع الأثرية لحساب احد أثرياء بريطانيــا وساعده فى ذلك أحد الايطاليين ويدعى جوفانى بلزونى الذى وصــل الى مصر عام ١٨١٥ لبيع رافعــة لنقل مياه النيل غير أن مشروعه أخفق فوطد صلاته بصولت ونجح فى القيام ببعض الاكتشافات مثل فتح منفذ الى معبد أبى سمبل وازاحــة الرمال عن مدخل الهرم الأوسط ، وكشف مقبرة سيتى الأول فى وادى الملوك هــذا وقــد ترجم مؤلف بلزونى ونشر فى باريس عام ١٨٢٦(٢٢٥) .

٣ ـ ويلكنســون Wilkinson :

وصل جون جاردنر ويلكنسون الى مصر عام ١٨٢١ فأمضى اثنى عشر عاما فى القاهرة وأفاد فى فك رموز اللغة الهيروغليفية على يد شامبيليون مما اعطاه دفعة قوية لعلم المصريات وأدت جهوده فى التنقيب الى الكشف عن عدد من أجمل مقــابر طيبــة مولهــا روبرت هاى الثرى الاسكتلندى وقد نشر ويلكنسون جهوده فى مجال الحفائر فى الفترة ما بين ١٨٢٨ و ١٨٣٤ فى كتــاب بعنوان

« طبوغرافية طيبة والمسح العام للقطر المصرى » ويعتبر كتابه أول تنقيح لما ورد فى كتاب علماء الحملة الفرنسية وصف مصر ، وفى ١٨٣٧ نشر كتابه « المصريون القدماء عاداتهم وتقاليدهم »(٢٢٦) .

٤ ـ ربرت هاى :

جاء الى مصر خلال ١٨٢٨ ـ ١٨٣٦ اعجب باسلوب الحياة الشرقية تعلم اللغة العربية ، وفضل السكنى فى الأحياء الشعبية ووضع مؤلفا هاما بعنوان « صور من القاهرة »(٢٢٧) .

٥ ـ الجراح مادين :

عاش فى مصر فى الفترة ما بين ١٨٢٥ و ١٨٢٧ ووضع مؤلفا بعنوان « رحلات فى تركيا ومصر والنوبة وفلسطين » وصف فيه مدينة القاهرة والتى وجد انها تفوق استانبول جمالا(٢٢٨) .

٦ ـ ويلسون وريتشارد دسون :

من الرحالة الذين زاروا مصر ولكن غلبت على كتاباتها روح التعصب والحقد والسخرية(٢٢٩) .

٧ ـ البارون كيرزون :

زار مصر وفلسطين بحثا عن المخطوطات الأثرية فى مكتبات الأديرة القديمة وأسفرت رحلته عن كتاب ظهر فى لندن عام ١٨٤٩ بعنوان « زيارات لأديرة الشرق الأدنى » لاقى نجاحا منقطع النظير وطبع عدة مرات رسم فيه صورة للمجتمع المصرى والحياة الاجتماعية(٢٣٠) .

٨ ـ ادوارد وليم لين :

من أهم المؤلفات التى كتبت عن مصر فى القرن التاسع ما سجله ادوارد وليم لين الذى ولد فى عام ١٨٠١ وتعلم فى جامعة كامبريدج بهدف الانضمام الى الكنيسة فى مرحلة لاحقة ولكنه تخلى عن هذه الفكرة ولحق باخيه فى لندن حيث كان يعمل فى مجال الطباعة الحجرية والنقش وانكب فى الوقت نفسه يتعلم اللغة العربية ثم أصيب بالحمى فرحل الى الشرق للشفاء منها . وجاء الى مصر فى عام ١٨٢٥ وهو فى سن الرابعة والعشرين وانكب على دراسة اللغة العربية ، وطبائع الشعب المصرى ، ولذلك ارتدى الزى التقليدى المصرى ثم عكف على دراسة الدين الاسلامى وأحكام الشريعة واختلط بالناس فعاش فى وسطهم متخذا لنفسه اسما عربيا ومتبعا عاداتهم وتقاليدهم . ولذلك اكتسب ثقة المصريين وتمكن من التغلغل الى اعماق اعماقهم تناسيا انه أنجليزى ولقد حذا لين حذو العديد من الرحالة السابقين مثل الأمريكى فرنسيس باركمان Francis Parkman الذى عاش مع هنود امريكا الشمالية والمجرى ارمينيوس فامبرى Arminius Vambery الذى تنقل بين تتار آسيا الوسطى ولكن ميزة لين انه استمر مدة أطول ممن سبقوه(٢٣١) .

عاد لين الى بريطانيا فى عام ١٨٢٨ ولم يجد ناشر لنشر مؤلفه عن مصر حتى وافقت « دار نشر المعرفة المفيدة » على نشر كتابه فى وصف مصر ثم رأى لين السفر الى مصر ثانية لتحسين مؤلفه فعاد اليها عام ١٨٣٣ وبقى فيها عامين اكتسب خلالهما معرفة أكبر ونظرة أعمق وأشمل فكان كتابه الجديد « عادات المصريين المحدثين وتقاليدهم »(٢٣٢) الذى صدر عام ١٨٣٦ فى جزءين زوده برسومات رسمها بنفسه فحقق مؤلفه الثانى نجاحا سريعا وباهرا(٢٣٣) .

ثم عاد لين الى مصر مرة ثانية فى عام ١٨٤٢ بعد أن وضع فى بلاده العديد من المؤلفات(٢٣٤) وبقى فى مصر فى هذه المرة سبع سنوات يعد العدة لاصدار المعجم العربى . وقد صدر الكتاب بعد وفاته فقد قضى لين عشرين عاما يدقق ويمحص قبل أن يسمح بنشره وأخرجه فى خمسة أجزاء .

وتوفى فى عام ١٨٧٦ فى الخامسة والسبعين من عمره أما الجزء المتبقى من المعجم فتم نشره بين ١٨٧٦ و ١٨٩٠ باشراف حفيده سى لاين بول(٢٣٥) .

٩ ـ دور بيرتون :

ن الرحالة الذين حرضوا انجلترا على احتلال صر فكتب « ان مصر موشكة على الوقوع السريع » ودعا بلاده الى ضرورة وضع يدها علما فى مغلفة « الهلال والصليب »(٢٣٦) .

وجدير بالذكر أن كما شهدت مصر مجيء مجموعة من السيدات الفرنسيات اللاتى وضعن المؤلفات عنها ، فانها شهدت ايضا جموعة ن البريطانيات نخص بالذكر :

هاربيت مارتينو :

التى أصدرت كتابها « احياة أشرقية » فى عام ١٨٤٨ فيه ذكرياتها عن رحلتها فى فلسطين ومصر .

صوفيا بول :

شقيقة ادوارد لين التى زارت مصر فى عام ١٨٤٢ بصحبة شقيقتها وعاشت فى القاهرة سبع سنوات زارت خلالها حريم محمد على وحصلت على معلومات عن المجتمع الاسلامى . ونشرت

مجموعة من الرسائل بعنوان « امرأة انجليزية فى مصر » ١٨٤٤ ـ ١٨٤٦ أفاضت فيه فى وصف الطبيعة المصرية والاحياء الوطنية .

لويس داف جوردون :

قد جاءت الى مصر بعد اصابتها بالسل لتبقى بعيدا عن زوجها وأطفالها للحياة فى مناخ جاف ووضعت مؤلفا عن مصر بعنوان « رسائل عن مصر » سجلت فيها روح التسامح التى تسود بين المسلمين والمسيحيين فى الاحتفالات الوطنية ويعتبر ما سجلته من أشد الكتب رقة وانصافا لطباع المصريين .

اميليا ادواردز

قد زارت مصر عام ١٨٧٣ ، ١٨٧٤ واهتمت خلال هذه الفترة بدراسة علم المصريات وبذلت جهدا كبير فى الحفائر ووضعت كتابا بعنوان « ألف ميل صعودا فى النيل » وهو عمل ضخم من مجلدين وفيه قدمت وصفا لمدن الوجه القبلى ووصف لعادات المصريين الاجتماعية(٢٣٧) .

وأخيرا اذا عقدنا مقارنة بين الرحالة الفرنسيين والبريطانيين الذين زاروا مصر فى القرن التاسع عشر سنلاحظ ما يلى :

ـ تفوق أعداد الرحالة الفرنسيين ، فكانوا سلسلة متعددة الحلقات يتم كل منها الآخر ، ولا نجد مثل هذه الأعداد من الرحالة لاية دولة أوروبية أخرى سوى فرنسا .

ـ كانت رسومات وكتابات الرحالة الفرنسيين أفضل وادق الى حد كبير من غيرهم ، خاصة وأن تلك الفترة شهدت مجىء العديد من الرسامين والمصورين الفرنسيين .

ـ نلمس فى كتابات الرحـالة الفرنسيين تعاطفا كبيرا مع طبقة الفلاحين فى مصر واهتماما كبيرا بوصف الطبقات الاجتماعية المختلفة . ويمكن تعليل ذلك الى تغلغل هؤلاء الرحـالة فى المجتمع المصرى أكثر من غيرهم .

كذلك لا ينبغى علينا أن نغفل تأثير الحركة الفكرية فى فرنسا فى أواخر القرن الثـامن عشر وتأثير مبادىء الثورة الفرنسـية وما حملته من أفكار انسانية مثل الحرية والمساواة والعدالة ، ولكن هـذا لا يعنى أن نغفل كتابات هامة صـدرت للرحـالة البريطانيين ونخص بالذكر ادوارد وليم لين الذى حقق شـهرة كبـيرة .

مثلت مصر اهمية كبيرة لفرنسا وارادت نشر نفوذها السياسى والثقافى خاصـة وأن تلك الفترة شهدت ازدهار عصر التوسـع والاستعمار وانتشار الشعارات البراقة فى فرنسا مثل « نشر رسالتنا الحضارية » « نشر ثقافتنـا » وهى نفس العبـارات التى رددها الفرنسيون فى شمال افريقيا وفى الشرق الأقصى فقد اعتقدوا أن عليهم واجبا حضـاريا ينبغى اتمامه ولذلك تردد على ألسنة الرحالة عبارات مثل « فرنسة مصر » « مد يد العون لها » بينما كان اهتمام بريطانيا لمصر خلال تلك الفترة منصبا على أهمية موقعها الاستراتيجى خاصة بعد افتتاح قناة السويس .

كانت تجربة التواجد الفرنسى فى مصر أعمق من التواجد البريطانى ففرنسا عرفت مصر قبل مجىء الحملة الفرنسية وذلك من خلال كتابات رحالة القرن الثامن عشر ثم درست مصر دراسة عملية أثناء الحملة الفرنسية . واذا كانت الحمـلة قد انتهت بالفشل الا أن ذكراها كانت ما تزال تردد فى أوروبا خاصـة وأن

« وصف مصر » انجاز الحملة العظيمة نشر فى أوائل القرن التاسع عشر(٢٣٨) .

ينبغى علينا الا نغفل ارتباط فرنسا مع مصر بعلاقات قوية منذ عهد محمد على أضف الى ذلك استقرار بعض من الرحالة الفرنسيين فى مصر واستمتاعهم بالعمل فيها مثل الماريشال مارمون ، كلوت بك ، كادلفين بينما لا نجد مثل هذه الأعداد لدى الرحالة البريطانيين .

تنوعت كتابات الرحالة الفرنسيين فشملت الآثار ، الحياة الاجتماعية والسياسية كذلك كان لبعض هذه الكتابات صدى هائل فى الأعمال الأدبية التى ظهرت فى فرنسا .

تنوعت وظائف الرحالة الفرنسيين فنجد من بينهم الأدباء والشعراء والعلماء وكما ضمت هذه الأعداد اسماء لامعة كان لها دورها البارز والواضح مثل شامبيليون .

وأخيرا كما تفوق الرحالة الفرنسيون على زملائهم البريطانيين فى القرن الثامن عشر ، بمؤلفاتهم المتعددة والمتنوعة فانهم حافظوا على هذا التفوق فى القرن التاسع عشر .

هوامش الفصـــل الثـــانى

(١) الهام ذهنى : المرجع السابق مصر فى كتابات الرحـالة والقناصـل ص ٤٩ — ص ٥٠ .

(٢) المرجع السابق ص ٥٢ .

(٣) المرجع السابق ص ٥٢ .

(٤) المرجع السابق ص ٣٤١ .

(٥) Essai sur Les Revolutions

(٦) La genie du christianisme

(٧) Histoire de L'Egypte sous Le gouvernement de Mohamed Aly.

(٨) Carré, J. : Op. Cit., t 1 PP. 165 — 169.

(٩) Les Martyrs

(١٠) ثروت عكاشة : مصر فى عيون الغرباء والرحالة والفنانين والأدباء ، القاهرة ١٩٨١ جـ ١ ص ١٧١ — ص ١٧٢ .

(١١) L'itineraire de Paris à Jerusalem.

(١٢) De chateaubriand, Le Vicomte : itineraire de Paris à Jerusalem. Paris 1868 t 2 PP. 121 — 122.

(١٣) De chateaubriand, Le Vicomte : Memoire D'Outre tombe. Paris 1911 P. 97.

(١٤) Itineraire de Paris à Jerusalem Par Julien domestique de M. De chateaubriand.

(١٥) Carré, J. Op. Cit., P. 170.

(١٦) El Abassi, Ali Bey, Travels of Ali bey in Moroco — Tripoli — Cyprus, Egypt, Arabia Syria and Turkey between the years 1803 and 1807. London 1816.

(١٧) Carré, J. : Op. Cit., t 1 P. 191.

(١٨) Ibid. P. 192.

(١٩) Auriant : Les Voyages Politiques du Colonel Boutin.

(٢٠) Carré, J. : Op. Cit., t 1 P. 192.

(٢١) Notes d'un Voyage fait dans Le Levant en 1816 — 1817.

(٢٢) Carré, J. : Op. Cit. t 1 P. 193.

(٢٣) ١٧٧٧ – ١٨٤٢ .

(٢٤) Carré, J. : Op. Cit., t 1 PP. 194 — 195

(٢٥) Voyage dans Le Levant en 1817 et 1819 Paris 1819.

(٢٦) Carré, J. : Op. Cit., t 1 P. 165.

(٢٧) ولد فى نانت ١٧٨٧ – ١٨٦٩ .

(٢٨) شوقى الجمل : سودان وادى النيل القاهرة ١٩٦٩ جـ ١ ص ٢٨٤ ، ص ٢٨٥ .

(٢٩) بلزونى ١٧٧٨ – ١٨٢٣ مكتشف ايطالى جاء الى مصر ١٨١٥ قام بعدة اكتشافات لصالح القنصل صولت .

(٣٠) Caillaud, Frederic : Voyage à L'oasis de thebes et dans Les deserts de La thébaide fait par M. Caillaud Pendant Les années 1815, 1816, 1817, 1818. Paris. 1819.

(٣١) Voyages à Meroé au fleuve Blanc et au delà de Fazogl dans Le Didi du Royaune du Sennaar.

(٣٢) Carré, J. : Op. Cit., t 1 PP. 222 — 224.

(٣٣) De Montulé : Voyage en Amerique en Italie Si ci li et en Egypte Pendant les anneés 1816 — 1817 — 1818 — 1819. Paris. 1821.

(٣٤) Carré, J. : Op. Cit., t 1 P. 200.

(٣٥) Souvenirs d'Orient

(٣٦) Carré, J. : Op. Cit., t 1 PP. 201 — 207.

(٣٧) De Bussières : Lettres sur L'Orient écrites Pendant Les anneés 1827 et 1828. Paris 1829.

(٣٨) Carré, J. : Op. Cit., t 1 PP. 215 — 216.

(٣٩) Rifaud : tableau de L'Egypte et de La Nubie et Les Lieux Circonvoisins Paris 1830.

(٤٠) Carré, J. : Op. Cit., t 1 PP. 223 — 224.

(٤١) شامبليون فى مصر الرسائل والمذكرات ترجمة عماد عدلى وطاهر عبد الحكيم القاهرة ١٩٩١ ـ الطبعة الأولى ص ٩ .

(٤٢) المرجع السابق ص ١٠ ، ص ١١ .

(٤٣) L'Egypte sous Les Pharaons

(٤٤) شامبليون فى مصر : المرجع السابق ص ٣١ .

(٤٥) Les Voyages en Egypte et en Nubie

(٤٦) Carré, J. : Op. Cit., t 1 PP. 219 — 220.

(٤٧) شامبيليون فى مصر : المرجع السابق ص ١٣ .

(٤٨) ثروت عكاشة : المرجع السابق جـ ١ ص ١٧٥ .

(٤٩) شامبيليون فى مصر : المرجع السابق ص ٣١ .

(٥٠) المرجع السابق ص ١٧ .

(٥١) ثروت عكاشة : المرجع السابق جـ ١ ص ١٧٦ .

(٥٢) شامبيليون فى مصر : المرجع السابق ص ١٧ .

(٥٣) ثروت عكاشة : المرجع السابق ص ١٧٩ .

(٥٤) المرجع السابق ص ١٧٨ .

(٥٥) شامبيليون فى مصر : المرجع السابق ص ٢٨ .

(٥٦) المرجع السابق ص ٦٩ .

(٥٧) المرجع السابق ص ٧٧

(٥٨) المرجع السابق ص ٢٣ .

(٥٩) نشر فى عام ١٨١٤ مؤلفا بعنوان L'Egypte sous Des Pharaons وفى عام ١٨٢٤ نشر المختصر فى نظـام الكتابة الهيروغليفية عند قدماء المصريين .

Recis du Systeme Hieroglyphique des Anciens Egyptiens

وفى عام ١٨٢٥ نشر مذكرة وصفية للآثار المصرية فى صحف شارل التاسع.

Notice descriptive des Monuments Egyptiens du museé charles IX.

وفى عام ١٨٣٣ نشر رسائل من مصر والنوبة .

Lettres écrites d'Egypte et de Nubie

وفى عام ١٨٣٥ و ١٨٤١ نشر قواعد اللغة المصرية القديمة .

Grammaire Egyptienne

وفى عام ١٨٤١ و ١٨٤٣ نشر المعجم المصرى للكتابة الهيروغليفية .

Dictionnaire Egyptien en écriture Hieroglyphigue

هذا وقام شقيقه ويدعى شامبيليون فيجيال بنشر الأعمال الأربعة الأخيرة عقب وفاته .

(٦٠) ادريس افندى فى القاهرة : مذكرات الفنان والمستشرق الفرنسى بريس دافين فى مصر ١٨٠٧ ـ ١٨٧٩ جمعها وترجمها دانور لوقا ., القاهرة ١٩٩١ ص ٥ ص ٦ .

(٦١) المرجع السابق ص ٧ .

(٦٢) المرجع السابق ص ٨ .

(٦٣) Carré, J. · Op. Cit., t 1 P. 227.

(٦٤) Ibid P. 298.

(٦٥) ادريس افندى : المرجع السابق ص ١١ .

(٦٦) المرجع السابق .

(٦٧) Les Monuments Egyptiens

(٦٨) Histoire de L'art Egyptien d'aprés Les Monuments depuis les temps les plus reculés jusqu'a la domination Romaine.

(٦٩) L'Art Arabe, d'Aprés Les monuments du Caire depuis VII siecle jusqu'a La fin du XVII Siecle.

(٧٠) وضع باسكال كوست كتابا عن « العمائر الاسلامية وآثار القاهرة ١٨٣٧ ـ ١٨٣٩ » .

(٧١) Carré, J. : Op. Cit., t 1 P. 311.

(٧٢) Politique et adminsitration de L'Egypte Moderne

(٧٣) Moeurs et Cotumes

(٧٤) Carré, J. : Op. Cit., t 1 P. 311.

(٧٥) Les Monuments du Kaire. Paris 1877

(٧٦) ادريس أفندى: المرجع السابق ص ١٣ .

(٧٧) Antique Egyptienne du museé Britnaique

(٧٨) ١٧٦٧ – ١٨٣٩ .

(٧٩) Carré, J. : Op. Cit. t 1 P. 243.

(٨٠) لقب ميشو الصغير تمييزا له عن شقيقه .

(٨١) Correspondance D' Orient

(٨٢) Michaud, M. Poujoulate, M. Corespondance d'Orient. Paris 1834 t 5 t 6 – 6 1835.

(٨٣) ١٧٨٩ – ١٨٧٩ .

(٨٤) Syrie et L'Egypte

(٨٥) Carré, J. : Op. Cit., t 1 PP. 211 — 213.

(٨٦) كان يدعى البارون جيرومب فى فرنسا قبل ان يصبح راهبا .

(٨٧) Journal d'un Voyage en Orient

(٨٨) Carré, J. : Op. Cit., t 1 P. 216.

(٨٩) جاء التعريف بهم فى الفصل الأول .

(٩٠) Carré, J. : Op. Cit., 1t P. 259.

(٩١) ثروت عكاشة : المرجع السابق جـ ١ ص ١٨٣ .

(٩٢) المرجع السابق ص ١٨٣ .

(٩٣) محمود صالح منسى : المرجع السابق ط ١ ص ٥٧ ص ٥٨ .

(٩٤) Carré, J. : Op. Cit., t 1 P. 268

(٩٥) ثروت عكاشة : المرجع السابق جـ ١ ص ١٨٦ .

(٩٦) عملت ممرضة مع كلوت بك فى أبى زعبل ووضعت مؤلفا عن ذكرياتها فى مصر بعنوان : Souvenirs d'une fille de peuple

(٩٧) Carré, J. : Op. Cit., t1 P. 266.

(٩٨) محمود منسى: المرجع السابق ص ٦٤ ، ص ٦٧ .

(٩٩) Carré, J. : Op. Cit. t 4. P. 267.

(١٠٠) ضمت القائمة الاسماء التالية هوار ـ لامبير فى مدرسة المهندسخان ـ برونومدير مدفعية طرة ـ فورنيل مهندس معادن ـ برا ضابط بحرى ـ لورنو مهندس سكة حديد ـ ديشارم مهندس معمارى ـ درواو مهندس ليتان ضابط بحرى ـ لوفيفر معدنى ـ جولدريه كيمائى ـ جافارى كيمائى ـ ايفون عالم رياضة ـ لامى مهندس ـ ماشيرو رسام ـ دومولار حداد ـ الكسندر ميكانيكى ـ اشار رسام ـ روجيه موسيقى ـ مارتان تاجر ـ برنار تاجر ـ بليشون فران ـ أوليفيه ـ النحات اليريك ـ بوسكودى دومباسال ـ فوركاد طبيب ـ لاشاز طبيب ـ ريجو طبيب ـ بيرون طبيب وعمل فى مدرسة الطب ـ كونيا طبيب ـ بارو عمل فى جريدة كوربيه ـ أوربان تاجر ـ روجيه اديب ـ جرنال اديب كولين عمل فى صحيفة ديموقراطى باسفيك ـ نويل مستشرق ـ ماسول صحفى ـ جانين أديب ... الى انظر Carré t 1 PP. 271 — 272.

(١٠١) Carré, J. : Op. Cit., t 1 PP. 263 —.265.

(١٠٢) Ibid PP. 257 — 259.

(١٠٣) Carré, J. · Op. Cit., t 1 P. 278.

(١٠٤) Ibid P. 278.

(١٠٥) Voyage du Marrchal Marmont Duc de Raguse en Hongrie en transylvanie, dans La Russie meridional, en Crimée et sur les bords de la mer d'Azff à Constantinople dans quelques Parties de L'Asie Mineure en Syrie en Palestine et en Egypte 1834 — 1835. Paris 1837 t 3 P. 5.

(١٠٦) Ibid PP. 5 — 10.

(١٠٧) Notice historiques sur Les obelisques L'hôte,

(١٠٨) Nestor : Lettres écrites d'Egypte en 1838 et 1839. P.

(١٠٩) Ibid PP. 5 — 6.

(١١٠) ثروت عكاشة : المرجع السابق جـ ١ ص ٢٢٠ .

(١١١) Voyage en Orient

(١١٢) Caréé, J. · Op. Cit., t 2 PP. 6 — 10.

(١١٣) ثروت عكاشة : المرجعالسابق ج ١ ص ٢١١ .

(١١٤) Carré, J. : Op. Cit., t 2 PP. 6 — 10.

(١١٥) ثروت عكاشة : المرجع السابق ج ١ ص ٢١٧ ، ص ٢١٨ .

(١١٦) المرجع السابق ص ٢١٩ .

(١١٧) Carré, J. : Op. Cit., t 2 P. 26.

(١١٨) ثروت عكاشة : المرجع السابق ج ١ ص ٢٢٣ .

(١١٩) نشر فى عدد ٢ مايو ١٨٤٦ Les Femmes du Caire

(١٢٠) نشر فى ١ يوليو ١٨٤٦ Les esclaves du Caire

(١٢١) نشر فى ١٢ سبتمبر ١٨٤٦ Les harem du Caire.

(١٢٢) نشر فى ١٥ ديسمبر ١٨٤٦ La Cange du Caire

(١٢٣) Carré, J. · Op. Cit., t 1 P. 263.

(١٢٤) Fesquet, Goubil : Voyage D'Horace Vernet en Orient Paris 1848.

(١٢٥) Ampère, J. : Voyage en Egypte et en Nubie Paris. 1868. P. 1 — 2.

(١٢٦) Carré, J. : Op. Cit., t 1 PP. 52 — 53.

(١٢٧) Ibid. P. 57.

(١٢٨) Carré, J. : Op. Cit., t1 PP. 52 — 57.

(١٢٩) ثروت عكاشة : المرجع السابق ج ١ ص ٢٢٨ — ص ٢٢٩ .

(١٣٠) Lettres d'Island 1837 . Histoire d'Islam de 1839. Histoire de LaLiiterature en Denemark et Sued 1839. Lettres du Nord 1840.

(١٣١) Marmier, Xavier : Du Rhin ou Nil Souvenirs de Voyage Paris. t 2.

(١٣٢) Les Interêts Generaux du Protestantisme Français Paris 1843.

(١٣٣) Boisy, Barbey : La Comtesse Agenor De Gasparin

(١٢٤) L'Egypte et La turquie de 1829 — 1836

(١٢٥) Carré, J. : Op. Cit., t 1 PP. 280 — 281.

(١٢٦) Apercu General sur l'Egypte.

(١٢٧) Carré, J. : Op. Cit., t 1 PP. 282 — 283.

(١٢٨) Ibid. PP. 284 — 285.

(١٢٩) L'echo des Pyramides.

(١٤٠) Journal De Smyrne

(١٤١) Carré, J. : Op. Cit., t 1 P. 286.

(١٤٢) Ibid P. 288.

(١٤٣) Peregrinations en Orient

(١٤٤) Carré, J. : Op. Cit., t 1 P. 288.

(١٤٥) L'Egypte Les turgues et Les Arabes

(١٤٦) Carré, J. : Op. cit., t 1 P. 290.

(١٤٧) Scholcher, Victor : L'Egypte en 1845 Paris 1846. PP 1 — 2.

(١٤٨) Pardien : Excursion en Orient Paris 1851.

(١٤٩) Ibid PP. 1 — 5.

(١٥٠) La tontation de Saint Antoine

(١٥١) Carré, J. : Op. Cit., t 2 PP. 77 — 78.

(١٥٢) ثروت عكاشة : المرجع السابق ص ٢٣٢ .

(١٥٣) Carré, J.: Op. Cit. t 2 PP. 124 — 127.

(١٥٤) Le Nil Egypte et Nubie.

(١٥٥) Carré, J. Op. Cit., t 2 PP. 77 — 78.

(١٥٦) ثروت عكاشة : المرجع السابق ص ٢٧٧ — ص ٢٧٨ .

(١٥٧) About, Edmond : L'Egypte à L'exposition Universelle de 1867. Paris. 1867.

(١٥٨) Ibid.

(١٥٩) Un hiver en Egypte

(١٦٠) Carré, J. : Op. Cit., t 2 P. 243.

(١٦١) Saint Hilaire, Barthelemey : Lettres sur L'Egypte Paris 1857 PP. 1 — 2.

(١٦٢) Ibid PP. 1 — 5.

(١٦٣) Ibid P. 6.

(١٦٤) Carré, J. : Op. Cit., t 2 PP 211 — 213.

(١٦٥) Trois ands en Asie

(١٦٦) Carré, J. · Op. Cit., t C2 P. 214

(١٦٧) Essai sur L'inegalité des Races Humaines

(١٦٨) Ibid.

(١٦٩) Gohineau : Op. Cit., Trois ans PP. 358 — 361.

(١٧٠) Carré, J. : Op. Cit., t 2 PP. 217 — 219.

(١٧١) Ibid P. 222.

(١٧٢) Johanes Dûmichen

(١٧٣) Carré. J. : Op. Cit., t 2 P. 228.

(١٧٤) 'Mariette, Auguste : Voyage dans La ahute Egytpe entre La Caire et Le Premier Cataracte. Paris 1903.

(١٧٥) Aperçu general sur L'Egypte

(١٧٦) Carré, J. · Op. Cit., t 2 P. 229.

(١٧٧) Ibid PP. 249 — 250.

(١٧٨) Le Courrier du Leman

(١٧٩) Cinquante jours au desert

(١٨٠) Sejour chez Le grand cherif de La Mecque.

(١٨١) Cinq cents lieues sur Le Nil

(١٨٢) Les Nuits du Caire

(١٨٣) Carré, J. : Op. Cit., t 2 P. 243

(١٨٤) ثروت عكاشة : المرجع السابق ج ١ ص ٢٦٧ .

(١٨٥) Psichari, Henriette : Oeuvres completes de Ernest Renan. Paris 1848.

(١٨٦) Carré, J. : Op. Cit., t 2 PP. 248 — 249.

(١٨٧) Les Mysteres de L'Egypte devoilés

(١٨٨) Carré, J. : Op. Cit., t 2 PP. 251 — 252.

(١٨٩) Ibid PP. 254 — 255.

(١٩٠) Orient, Egypte, Journal de Voyage .

(١٩١) نشرت فى عام ١٨٦٩ بعنوان : Le Fellah

(١٩٢) ثروت عكاشة : المرجع السابق ص ٢٧٠ .

(١٩٣) Carré, J. : Op. Cit., t 2 P. 269.

(١٩٤) Ibid. P. 272.

(١٩٥) ثروت عكاشة : المرجع السابق جـ ١ ص ٢٧٥ .

(١٩٦) Le desert de Suez : Cinq mois dans L'isthme.

(١٩٧) Carré, J. : Op. Cit., t 2 PP 291 — 292.

(١٩٨) Ibid P. 294.

(١٩٩) ثروت عكاشة : المرجع السابق جـ ١ ص ٢٤٨ ـ ص ٢٦٠ .

(٢٠٠) D'Une Nuit De Cléopatre

(٢٠١) LePied de Momie

(٢٠٢) Nostalgies d'obelisques.

(٢٠٣) Le Roman de La Momie.

(٢٠٤) La Mille et deuxieme nuit

(٢٠٥) Carré, J. : Op. Cit., t 2 P. 131.

(٢٠٦) Voyage en Egypte.

(٢٠٧) L'Orient.

(٢٠٨) Carré, J. Op Cit. t 2 PP. 301 — 308.

(٢٠٩) Hippolyte Colet

(٢١٠) Les Pays lumineux voyage en Orient Paris 1879

(٢١١) Carré, J. : Op. Cit., t 2 P. 309.

(٢١٢) Histcire des Peintres Français au XIV Siecle

(٢١٣) Histoire des Peintres de toutes écoles

(٢١٤) Blanc, Charles : Voyage de La Haute Egypte. Paris 1876.

(٢١٥) Carré, J. : Op. Cit., t 2 PP. 310 — 313.

(٢١٦) ثروت عكاشة : المرجع السابق جـ ١ ص ٤٢٢ — ص ٤٢٣ .

(٢١٧) Voyage en Egypte

(٢١٨) Carré, J. : Op. Cit., t 2 PP. 319 — 332.

(٢١٩) De Garcy : De Paris en Egypte Souvenirs de Voyage. Paris 1875.

(٢٢٠) Drovetti Voyage à L'Oasis de Syouah.

(٢٢١) Journal de Voyage de docteur Cuny De Siout à El Obeid du 22 Novembre 1857 à 5 Avril 1858. Paris 1863.

(٢٢٢) De Bellefonds, Linand Bey : L'Etbay, pays habité par les Arabes Bicharieh Geographie, Ethnologie Mines D'Or Paris 1869.

(٢٢٣) Hachich, Rawia : Les ecrivains Voyageurs Français en Egypte 1870 — 1935. Université D'Ain Shams. Faculté des Lettres Janvier 1992. P. 7.

(٢٢٤) ثروت عكاشة : المرجع السابق ص ٢٩٨ .

(٢٢٥) Beizoni : Le Jeune Voyage en Egypte et Nubie Paris 1926.

(٢٢٦) ثروت عكاشة : المرجع السابق ص ٢٩٩ .

(٢٢٧) المرجع السابق ص ٣٠٠ .

(٢٢٨) المرجع السابق ص ٣١٨ .

(٢٢٩) المرجع السابق ص ٣٢٢ .

(٢٣٠) المرجع السابق ص ٣٢٢ .

(٢٣١) ادوارد وليم لين : عادات المصريين المحدثين وتقاليدهم (مصر ما بين ١٨٣٣ ــ ١٨٣٥) ترجمة سهير دســوم القاهرة ١٩٩١ ص ٧ ، ص ٨ .

(٢٣٢) The Manners and Cutoms of Modern Egyptians

(٢٣٣) ادوارد لين : المرجع السابق ص ٩ .

(٢٣٤) نشر ترجمة لكتاب الف ليلة وليــلة والمجتمــع العربى فى القرون الوســطى .

(٢٣٥) المرجع السابق ص ٩ ــ ١٠ .

(٢٣٦) ثروت عكاشة : المرجع السابق ص ٣٦٢ .

(٢٣٧) المرجع السابق ص ٣٦٩ ــ ٣٨٣ .

(٢٣٨) المرجع السابق ص ٣٨٦ .

الفصـــل الثـــالث

أحوال مصر السياسية والاقتصادية كما سجلها الرحـــالة الفرنسيون

أولا ــ أحوال مصر السياسية فى القرن التاسع عشر .

ــ الأســـرة الحاكمة .

ــ نمو قوة مصر السياسية .

ثانيا ــ أحوال مصر الاقتصادية .

- الزراعــــة .
- الصناعــــة .
- التجـــــارة .
- الثروة الحيوانية .

أولا ـ أحوال مصر السياسية فى القرن التاســع عشــر

شهدت السنوات الأولى من القرن التاسع عشر حدثا عظيما اثر فى تاريخ مصر الحـديث تاثيرا كبيرا الا وهو اعتلاء محمد على الحكم فى عام ١٨٠٥ ، ثم توارث أفراد أسرته من بعده السـلطة والسيادة . وقد أهتم معظم الرحالة بتسجيل هـذا الحدث الهام فى كتاباتهم وتتبع الكثيرون منهم نشأة محمد على ، وركزت معظم الكتابات على تقديم صـورة لهـذا الحـاكم الجديد الذى تخطت انجازاته وأعماله حدود مصر ، واختلفت هذه الكتابات من بين مؤيد ومعارض وناقد ، حسب ميول وأهواء أصحابها ، وان كان الجميع قد اتفقوا على عظمـة محمد على فقد وصفه المـارشال مارمون : « أنه من أبرز الشخصيات التى ظهرت فى القرن التاسع عشر ، فهو من رواد عصره ، فرغم كونه أميا الا أنه استطاع أن يبنى لنفسـه مجدا من خـلال تجاربه الشخصـية ، وسـوف يخلد التاريخ انجازاته العظيمة فى مصر »(١) .

حرص معظم الرحالة على تقديم صورة لنشأة محمد على الأولى فذكر دى جارسى بأنه ولد فى قوله عام ١٧٦٩(٢) ، بينما أكد بريس دافين ان هناك اختلافا فى تاريخ مولده فهو اما عام ١٧٦٣ أو ١٧٦٨ أو ١٧٦٩(٣) كذلك قدم بعض الرحالة عدة روايات مبالغ فيها عن مولد محمد على نخص بالذكر ما ذكره على العباسى أو دومنيجو باديا « بأن محمد على هو خال السلطان العثمانى الحالى فقد تم أسره مع شقيقته الين وتم بيعهما الى أحد التجار ثم أصبحت « الين » محظية للسلطان فتزوجها وانجب السلطان الحالى » ثم يعود على العباسى وينفى هو بنفسه من خلال كتاباته هذه الرواية(٤) ولا جدال ان هذه الروايات وغيرها كان يكثر ترديدها حول الشخصيات العظيمة والبارزة ، ومنها ايضا ما ذكره كادلفين بأن « أم محمد على رأت رؤية وهى حامل بأنه سيكون له شأن عظيم »(٥) .

ولد محمد على فى قوله وكان أبوه يدعى ابراهيم أغا وكان مكلفا بحراسة الطرق وتوفى والده وهو فى سن صغيرة فتولى عمه طوسون اغا متسلم قوله تربيته ثم قتل عمه بناء على أوامر من الباب العالى كما ذكر كادلفين ، فتولى تربيته بعد ذلك حاكم بروسة الشوربجى ، وكان صديقا لأسرته ، ثم انتظم محمد على فى سلك الجهادية ، حيث أظهر منذ بداية عمله شجاعة كبيرة فعندما امتنعت احدى القرى عن دفع الضرائب قام محمد على بالقبض على أعيان القرية ، ثم اتجه بهم الى قوله ، واضطر السكان لدفع الضرائب لتخليص زعمائهم من السجن ويعلق كادلفين على هذه الحادثة « لم تكن هذه مهمة سهلة خاصة فى المناطق الجبلية فكانت أشبه بحملة عسكرية »(٦) .

هذا قد ركز معظم الرحالة على صلات وعلاقات محمد على بالتاجر الفرنسى ليون الذى أفاد محمد على من خبرته ،

كما انه ساعده وامده بالمال اللازم لكي يستطيع مواصلة تجارته فى التبغ(٧) وعلل « كادلفين حبه وتعلقه بالفرنسيين بسبب صلاته القديمة وذكرياته الطيبة مع « ليون » حتى أنه عندما تولى الحكم فى مصر استدعاه لزيارته ، وعندما علم بوفاته أرسل الى أخيه فى مارسيليا مبلغ عشر آلاف فرنك » لأنه لم ينس قط انه أقرضه المال اللازم لتجارته فانقذه من الافلاس والضياع » ولذلك « فان أول يد امتدت لمساعدة محمد على فى بداية حياته كانت يدا فرنسية »(٨) .

تزوج محمد على من امرأة مطلقة هى احدى قريبات الشوربجى وكانت تملك ثروة كبيرة ، فأنجب منها ثلاثة أبناء ابراهيم وطوسون واسماعيل ، وقد ذكر كادلفين بأن هناك شائعة انتشرت بان ابراهيم ليس ابنا لمحمد على ولكنه تبناه(٩) .

وعند مجيء الحملة الفرنسية على مصر أرسل شوربجى ابنه على أغا ومعه محمد على وقوة مكونة من ثلاثمائة جندى للمشاركة فى طرد الفرنسيين من البلاد ، فبذل محمد على قصارى جهده واشترك فى عدة معارك حربية ضد القوات الفرنسية وبينما عاد على أغا الى بلاده تاركا القوات العسكرية فى يد محمد على وظل الأخير فى مصر حتى تقلد السلطة فيها(١٠) وقد نال رتبة يوزباشى قبل جلاء الحملة ثم عينه خورشيد فى عام ١٨٠١ سرجشمة أى لواء(١١) .

ورغم استقرار محمد على فى مصر الا انه ظل مرتبطا بمسقط رأسه ، فيذكر بريس دافين « ظلت ذكرى مسقط رأسه عزيزة عنده ولطالما اظهر عاطفته نحو الربوع التى درج فيها طفولته ويقال ان رعاياه المولدين فى قوله معفون من الضرائب لأنه يؤديها

عنهم للخزينة ، ويقال ايضا أنه أصدر أمرا بحفظ بيت أبيه ، وعدم التعرض له بأى تغيير فمازال يعيش فى ذلك البيت أقرباء له قد غمرهم بنعمه »(١٢) .

هذا وقد أجمع الرحالة على أن ذكاء محمد على لعب دورا هاما فى وصوله الى الحكم فيذكر شاتوبريان أن « ذكاءه ودهاءه لعبا دورا هاما فى نجاحه فى القضاء على منافسيه خاصة ابراهيم بك ومحمد بك الألفى وكان هؤلاء مستقلين عن باشا مصر، فأخذ محمد على يدرس بين القوى السياسية المختلفة خاصة بين المماليك ، كذلك بينهم وبين الدولة العثمانية(١٣) ويضيف كادلفين ان الظروف مهدت لمحمد على لاعتلاء الحكم خاصة بعد ضعف قوة وأعداد المماليك ، فالدولة العثمانية منعت جلب الرقيق من جورجيا والقوقاز ، وكان هؤلاء هم الوسيلة الوحيدة لانعاش وتجديد كيان المماليك فأصبح عددهم ستة آلاف ، بينما ذاعت شهرة محمد على وجنوده الألبان فى التصدى للحملة الفرنسية ، وانتهز محمد على الفرصة فعمل على الدس بين المماليك والباشوات القادمين من الاستانة ، وكان انضمام محمد على الى أحد الفريقين سيؤدى الى ترجيح كفة احدهما فعمل على الدس بينهما ، وفى الوقت نفسه قوى صلاته مع العلماء والمشايخ مظهرا رغبته فى حماية البلاد وتخليصها من المنازعات التى لا تنته ونجح محمد على بفضل دهائه فى الحصول على فرمان التولية فى مايو عام ١٨٠٥ ولكنه ظل لفترة طويلة يحكم مصر السفلى فقط حتى تسنى له القضاء على المماليك واسترد الاسكندرية بعد خروج حملة فريزر(١٤) .

ثم بدأ محمد على اصلاحاته فى مصر بعد أن استتب له الأمر ويسجل دى جارسى اعجاب تيير رئيس الوزراء الفرنسى

بمحمد على حتى انه أشاد به وبحرصه على ادخال المدنية والحضارة فى مصر فقال « عندما حكم على مصر كانت اقطاعية ، مثلما كانت أوروبا فى العصور الوسطى ، وذلك بسبب وجود أعداد كبيرة من الأمراء ولكنه نجح فى ادخال المدنية والحضارة فى مصر »(١٥) .

وقد استرعت اصلاحات وانجازات محمد على انتباه الرحالة فعقدوا المقارنات العديدة بينه وبين العظماء والحكام فها هو بارتليمى سانت هيلار يعقد مقارنة بينه وبين « بطرس الأكبر » قيصر روسيا ، وبين فردريك الثانى « امبراطور روسيا » ، فانجازاته واصلاحاته فى مصر لا تقل عما أحدثه الحاكمان السابقان »(١٦) ويرى على العباسى « ان محمد على هو الشخصية الوحيدة التى تستحق ان نتأملها ونقابلها عندما نزور مصر »(١٧) .

أما كادلفين فقد أكد فى كتاباته اعجاب محمد على بالاسكندر الأكبر فهو « بطله المفضل » ولديه ملخص لمعاركه الحربية وقد طلب من المقربين منه ترجمة كتاب عن الاسكندر الأكبر ، وقد عبر عن هذا الاعجاب لكادلفين بقوله « ان بلدنا ــ يقصد مقدونيا ــ قد أعطت مصر ثلاثة زعماء الاسكندر وبطليموس وأنا » ولكن نفوذى سوف يمتد فى هذا البلد ابعد مما امتد اليه نفوذهما، ولدى أمل بفضل مساعدة السماء أن يجيىء اليوم الذى أصل فيه الى منابع النيل ، لأثبت فكرة شامبليون بأن الفراعنة وصلوا اليه « وقد علق كادلفين على ملاحظات محمد على » بانها تنم عن الجهل والسذاجة(١٨) .

هذا وقد أكد بريس دافين اعتزاز محمد على وتقديره للاسكندر الأكبر فاذا ذكر اسمه كان يقول بفخر « أنا أيضا من

فيلبية » ، كذلك لم يخف محمد على على اعجابه بنابليون بونابرت ولكن كان اعجابه بالاسكندر يستأثر لبه وتفكيره ، كذلك أعجب بيمكافيللى مؤلف كتاب الأمير »(١٩) .

ورغم انتقاد بريس دافين لمحمد على فى كثير من كتاباته ، الا انه لم يملك سوى تسجيل اعجابه « بنقاء أخلاقه فهو صديق امين ، ويندر أن نجد بين الأمراء الشرقيين مثله ، وقد أثرت فيه وفاة أولاده فظهرت عليه علامات الحزن والأسى »(٢٠) فقد توفى طوسون بالطاعون فى رشيد وذلك بعد انتقال المرض اليه من احدى جواريه وترك ابنا فى الخامسة من عمره ، كذلك توفى اسماعيل بعد أن أحرق الملك نمر معسكره فى شندى(٢١) .

اعجب الرحالة بحزم واصرار محمد على على بناء دولة مصر الحديثة فيذكر المؤرخ ميشو « رغم كونه ألبانى وغريب عن مصر لم يمنحها حريتها ، ولكنه اعطاها عدة سنوات من الأمن والأمان وأدخل حضارتنا اليها ، انه يسعى الى مزيد من المجد والى تنصيب نفسه سلطانا »(٢٢) .

وعندما زار « مارسيليوس » مصر فى عام ١٨٢٠ كتب عن محمد على « انه صغير السن ولكنه مشغول بأعماله وانجازاته الضخمة انه فخور بالقناة التى شقها بين القاهرة والاسكندرية وهو مشغول بالانجازات العظيمة أكثر من انشغاله بلذاته الشخصية »(٢٣) ثم يصفه الكونت برديو « انه الشعلة التى اضاءت البلاد »(٢٤) وهو فى نظر بريس دافين رجل نشيط يستيقظ فى الرابعة صباحا ليقضى النهار كله مع نظاره ، ويستعرض فرق الجيش ، ويفتش على أعمال البناء ، وهو حريص على مراقبة الادارات المختلفة ، صبور ولديه عزيمة كبيرة فقد تعلم أول مبادىء القراءة والكتابة على يد جارية من جواريه ثم قام أحد الشيوخ باتمام تعليمه(٢٥) .

وقد جاءت كتابات القناصل مؤكدة لما ذكره الرحالة عن عزيمة محمد على القنصل العام الفرنسى بنديتى « انه لما شرع فى اقامة القناطر الخيرية وسمع بالاعتراضات التى ابديت على المشروع من جهة العقبات والمصاعب التى تحول دون نجاحه وكان جوابه « ان هذا صراع بينى وبين النهر العظيم » ولكننى سأخرج فائزا من هذا الصراع وكان هذا تعبيراً عن رغبته فى قهر النيل والتحكم فى مجراه(٢٦) .

وكان محمد على لا ينام الا قليلا ، ويصرف معظم وقته فى مراقبة الأعمال ، والتجول فى الأقاليم ، كما اهتم بتعليم ابنائه وتربيتهم التربية السليمة لخدمة البلاد فعهد الى طوسون قيادة الحملة الوهابية الأولى ثم عهد الى ابراهيم بقيادة الحملة الثانية على الجزيرة العربية ، بينما كلف اسماعيل بالزحف على السودان، كما اهتم بتعليم سعيد فنون البحرية(٢٧) كذلك كان حريصا على مصاهرة كبار رجال الدول فزوج بناته لمهرام بك ومحمد بك الدفتردار(٢٨) .

أجمع الرحالة الفرنسيون الذين قابلوا محمد على على بساطته حتى فى ملابسه وقد وصفه معظمهم بانه « متوسط القامة ، بارز الجبهة ، صغير الفم ، باسم الشفتين ، غليظ الأنف يبدو الدهاء على وجهه ، وهو قوى البنية ، انيق الهيئة ، يمشى فى حزم ودقة، فى بداية حكمه كان يرتدى ملابس المماليك ثم استبدلها بالعمامة العريضة والطربوش وبالسروال الفضفاض وملابسه يغلب عليها البساطة »(٢٨) وهو لا يحيط نفسه بجمهور من الخدم والحشم المسلمين كما يفعل سلاطين آسيا ولكنه يختار حراسه وجنوده بدقة على حد قول بريس دافين(٣٠) .

وكان محمد على يحب ان يسترسل فى الحديث مع الرحالة فذكر اكزافيه انه عندما قابله أخذ يحدثه عن طفولته فى البانيا

ومن علاقته بالتاجر الفرنسى ليون « فكان بسيطا مجاملا فى حديثه واكد على بانه لن ينسى مطلقا أن فرنسا كانت أول من مدت اليه يدها بالخبرة والعلم »(٣١) ولكن يبدو ان نجاح محمد على فى الاستيلاء على بلاد الشام قد أكسبه ثقة كبيرة فقد التقى به ديتورميل خلال هذه الفترة وكان انطباعه عنه « بانه يتحدث كما لو كان المتحكم فى العالم ، لقد أخبرنا بانه لا يخشى أحدا وانه قد قام بغزو سورية ومن السهل عليه الدفاع عنها »(٣٢) .

حفلت كتابات الرحالة الى جانب المدح له أيضا النقد لتصرفاته خاصة بريس دافين الذى وصفه فى أكثر من موضع بالظلم حتى أن الفلاحين أنفسهم اطلقوا عليه « ظالم باشا » وذلك لما نالهم من تعذيب على أيدى المأمورين من كى بالنار الى تسمير آذانهم تمزيق اجسادهم بالكرباج فيذكر دافين « اننا نتورط فى الخطأ اذا قلنا ان فى ذهن الباشا أفكارا منطقية عن العدالة وأن فى قلبه حبا حقيقيا لها . وحسبنا نلاحظ زوح محمد على فى فرض الضرائب والنهب وعدم النزاهة فى ابتزاز الأموال روح لا نظير لها ، انه لا يود أن يدفع مرتبات لأحد ، لا للجيش ولا للموظفين ولا للعمال ويود أن يدبر أمره بحيث يخدمه الجميع مجانا ما استطاع الى ذلك سبيلا ، فالضباط والجنود والعمال يلاقون أشد العناء فى تحصيل مرتباتهم وأجورهم وقلما يقبضونها نقودا بل يجدون أنفسهم مرغمين فى أكثر الأحيان على أن يقبلوها سلعا خارجة من مصانع الباشا . ولكى يحصلوا على نقودهم عليهم أن يبيعوا هذه السلع بثمن بخس والتى حسبها عليهم الباشا بثمن باهظ »(٣٣) .

ثم يذكر « بريس دافين » أن محمد على رجل قد غرضه ليس اسعاد مصر وشعبها ومجدها فهو يستوحى المثل القائل

« انما الشعب مثل السمسم ينبغى أن تسحقه لكى تخرج منه الزيت » محمد على بريد القيام بالاصلاحات والانجازات دون أن يتكبد أية نفقات « دون أن يفتح كيس نقوده » وأنه من الخطأ أن نبرر ذلك لأنه أدخل المدنية الى مصر ، لأن المدنية نتاج سلسلة من العمليات المتتابعة ولا يمكن أن تأتى ارتجالا فى ربع قرن ، وأن المدنية لابد أن تنتج رخاء ومصر ما زالت للأسف بعيدة عن أن تحظى به فهو من أجل تحقيق أحلامه جند جيوشا وجمع ضرائبا لا تتناسب مع طاقة البلاد الطبيعية ومواردها « لقد اعتصر محمد على مصر بعنف وانهكها وتعقب المصرى فى صرامة شديدة حتى أن القرى كانت تقفز من أهلها لقد نصب من نفسه الحاكم المطلق فى البلاد لقد كان محمد على واليا متلهفا الى المجد لا مشرعا يضع أساس الرخاء الذى ينبغى أن يسود من بعده ، لقد أراد حكومة فردية لا تستمد قوتها الا من شخصه »(٣٤) .

أما شامبيليون فرغم اهتماماته الأثرية الا أنه اتيح له مقابلة محمد على وعاش فترة من الزمن مع الفلاحين فلمس بؤسهم فكتب منددا « اندهشنا للفقر المدقع المستشرى فى كافة هذه القرى ، ان مصر التى تحمل بذور الرخاء والازدهار يمكن أن تصبح أكثر خصبا وثراء وانتاجا حتى لخزانة الدولة ، واذا كانت الضرائب الباهظة والتعسفية المفروضة لا تفوق قدرة الشعب على سدادها واذا أحجم عديمو الشفقة من المستغلين ومصاصى الدماء من اغراق هذا البلد فى مستنقع البؤس والشقاء الذى يستحيل تخيله فى أوروبا ، نعم أن مصر تستحق مصيرا أفضل ومستقبلا أكثر أشراقا وسيكون من صالحها أن تأتى قوة أخرى للقضاءعلى هيمنة الأتراك ووضع حد لهذا الشقاء(٣٥) .

ويعتبر « بوسكيه دى شان » من أشد نقاد محمد على عنفا ، وهو صحفى عمل فى خدمته ثم أصـــدر جريدة بعنوان « صـــدى الأهرام » صادرها محمد على فرحـــل الى ازمير وتراس تحرير صحيفة ازمير ، واخذ فى تصفية حساباته مع محمد على ووزيره الأرمنى بوغوص فى حملة عنيفة فوصف مصر « بأنها مزرعة يستغلها حاكم أجنبى وكان « الموظفون العموميون من الأرمن الذين لا تعنيهم شئون البلاد وكان الذين يتولون الوزارة من الجراكسة الخاضعين لأوامر الوالى ، وكانت مرتبة البكوية والباشوية قاصرة على هؤلاء الذين أسلموا لينالوا الامتيازات الكبيرة ، وقد عين محمد على جنودا من الألمـــان ضباطا فى الجيش كذلك عين ثلثه من السويسريين نافخى الأبواق فى زمرة المحـــاربين الأكفاء ، كذلك انتحل مهنـــة الطب الحلاقون الذين لا صلة لهم بالمهنـــة وفى محيط مدرســـتى اللغات الأجنبية عين مدرسين لم يزاولوا المهنة مطلقا والبعض منهم كانوا طهاة قبل الحضور الى مصر »(٣٦) .

أما أوسيب دى سال « أستاذ اللغات الشرقية » فقد كتب « ان حقيقة محمد على تختلف كثيرا عن الصـــورة التى اشيعت عنه ، ولكنه عرف كيف يعبىء الصحافة الفرنسية لخدمـــة أهدافه ومجاملاته المحسوبة فما يكاد الزائر ذو المكانة المرموقة ان يطـــأ أرض مصر حتىيحـــاط بآيات التكريم ، فتعد له الرحلات المجانية فى طول البلاد وعرضها لينعم بأشهى طعام ويستقل المراكب الفاخرة ويمتطى الجمال والبغال ويحف به السواس والقواصـــون بأعداد كبيرة لا حصر لها ويعامل معاملة الأمراء فتطلق له المدافع وتفرش له درجات القصور السجاجيد ، ان محمد على يستمتع بذكاء خارق ويخفى وراء دماثته الفائقة دبلوماســـية بارعة فعلى حين يتخذ أمام رعاياه المسلمين صفة المسلم الورع المتمسك بقواعد الدين

المحافظ على التقاليد يتخذ أمام الأوروبيين صفة الحاكم الانسانى المتمرد »(٣٧) .

أما شولشيه فقد بالغ فى كراهيته لمحمد على بصورة أكثر من غيره فنجده يصفه « وحش الروملى » لم يهتم الا بما هو تركى ، لم يفكر لحظة أن يكون مصريا ، ولم يهتم بالوطنية والا الجنسية المصرية يعامل الشعب المصرى معاملة المقهور ، ونجد أن شولشيه فى كتاباته يسرد العديد من الأمثلة التى تدل على قسوة محمد على مثل اعدام معارضيه ، وقطع رقاب الفلاحين بسبب سرقة بعض أعواد من الذرة ، ثم يسخر من كلوت بك الذى ألف كتابا دافع فيه عن محمد على ساخرا « لماذا لا يعلق كلوت بك على هذه الأحداث التى تدل على مدنية محمد على »(٣٨) .

ولا جدال ان مذبحة المماليك فى القلعة فى عام ١٨١١ قد أعطت الرحالة مادة دسمه للحديث عنها ، فيذكر أمبير « لقد تخلص محمد على من المماليك بحيله خبيثة ذكية ، ولكنها وحشية ، غلبت فيها طبيعته القاسية الوحشية ، لقد تخلص منهم كما فعل بدر الجمالى بالأتراك ومثلما فعل رجب باشا مع المماليك فى القرن الثامن عشر »(٣٩) .

وقد روى كادلفين وقائع المذبحة « عندما ضرب المدفع العلامة المتفق عليها ، دخل المماليك الى داخل القلعة واغلقت أبوابها ، فسجن المماليك وبقى الباشا فى الديوان وحوله الضابط ، وثم اطلاق اشارة لبدء المذبحة حيث أطلقت النيران على المماليك المحاصرين وتم احضار الجثث من الممرات وجلس الباشا فى الديوان ، بينما القواسون يتعقبون المماليك الفارين داخل القلعة ، وعهد محمد على الى وزير الحرب بتفقد الجثث وتفحص وجوه

القتلى ، وقد حاول بعض المماليك طلب الصفح من محمـد على وتقبيل قدميه ولكنه رفض العفو عنهم »(٤٠) ثم أخذ الجنود فى اليوم التالى فى تعقب المماليك فى أحيـاء القـاهرة وقاموا بنهب مساكنهم ودورهم واضطر العديد منهم الى الفرار الى دنقلة والنوبة وسـورية(٤١) .

هذا وقد اقترب وصف الرحالة الفرنسيين لوقائع المذبحـة لمـا كتبه مؤرخنا العظيم الجبرتى حيث ذكر : « عندما تحققت العسكر حول الواقعة وقتل الأمراء ، انبثوا كالجراد المنتشر الى بيوت الأمراء المصريين ومن جاورهم طالبين النهب والغنيمـة ، فولجوها بغتة ، ونهبوها نهبا ذريعا ، وهتكوا الحرائر والحريم ، وسجنوا النساء والجوارى والخوندات والستات وسلبوا ما عليهن من الحلى والجواهر والثياب »(٤٢) .

واخيرا عند ختام الحـديث عن محمد على نذكر ما كتبـه شارل أدمون « لقد أراد السير فى طريق جاد خطوة خطوة ، ان الشرق الحديث كله يدين له بالفضل والمجد »(٤٣) .

توفى محمد على فى عام ١٨٤٨ ودفن فى المسجد الأنيق الذى شيده فى القلعة « ومن هنا يبدو وكأنه يشرف على مصر من هـذا المكان المرتفع »(٤٤) .

٢ ــ ابراهيـم باشـا (١٧٨٩ ــ ١٨٤٨) :

هو أكبر أبناء محمد على وسـاعده الأيمن وقائـد القوات المصريةولد فى قوله عـام ١٨٠٥ فولاه محمد على عدة مناصب ولكنه أظهر براعة فى قيادة القوات العسكرية قابل ابراهيم باشـا العديد من الرحـالة منهم شامبيليون فكتب عنـه « أحسـن

ابراهيم باشا استقبالنا ، وتحدث معنا عن اهتمامه بمنابع النيل ورغبته فى تخليد اسمه بارسال الكشوف وتشجيع الرحالة على ذلك وعن طريق قيامه شخصيا بقيادة بعثة صغيرة من الرحالة الى هذه المنافع » (٤٥) .

أما البارون بوالكونت فقد قابل ابراهيم باشا فى سورية ، وكان موفدا من الخارجية الفرنسية للتفاوض معه بشأن سحب القوات المصرية من الأناضول فوصفه بالذكاء ، قوى البنية ، نشيط فى كل حركاته ، قصير الذراعين شأن أفراد أسرته ، لمحت فيه روح الحماسة بادية لما ناله من الانتصارات(٤٦) .

ثم قارن بوالكونت بينه وبين محمد على « محمد على يمثل فكرة الحكم المطلق ، أما ابراهيم فانه اقرب الى المبادىء الحرة وقد خالف أباه فى مسألتين الأولى تطبيق الاحتكار فى سورية والثانية انه كان يجاهر برأيه فى احياء القومية العربية بخلاف محمد على المشبع بالفكرة التركية واراد ابراهيم باشا ان يجعل الامبراطورية التى يؤسسها دولة عربية واحدة »(٤٧) .

ورغم ثناء معظم الرحالة على ابراهيم باشا الا أن بريس دافين لم يرفيه « سوى رجل فظ ، قصير القامة ، وجهه التشرت فيه نقط حمراء ونقرة الجدرى ، وعينان رمادبتان ترتفعان عند الزاوية الخارجية ، وثغر مبتسم دائما يضفى على وجهه الصغير مظهرا مرحا . هذه هى الملامح الرئيسية فى خلقته وكانت طبيعته محتدمة فائرة »(٤٨) .

أما شولشيه فقد استمر فى شن هجومه على أسرة محمد على فبالغ فى سرد الأمثلة التى تدل على قسوة ابراهيم باشا وكانه يريد اقناع القارىء بتلك القسوة المبالغ فيها فقد ذكر انه أثناء

حملة فريزرعلى مصر وقع فى يد ابراهيم باشا بعض الأسرى فأمر بوقوفهم صفا فى الأزبكيـة وركب حصانه واخذ يجرى بأقصى سرعة وهو يضرب رقاب الأسرى « ومن الفظائع التى يصعب تصديقها أيضا ما أورده شولشيه انه قام بقتل اثنين من البدو وامر بشوى جسدهما على النار » كما أمر « بقتل احد مماليكه لأنه ذهب الى الحمام دون اذن مسبق منه ثم أمر بعدم دفن قدميه حتى تنهشما الكـلاب »(٤٩) .

ولم يكتف ابراهيم باشا بما فعله محمد على مع المماليـك فى مذبحة القلعة وفرار أعداد كبيرة منهم الى الجبال التى يقطنها العبابدة والبشارية ، ونظرا لصعوبة الحيـاة فى هـذه المناطق ارسلوا الى محمد علىيعرضون عليـه الصلح ، فأرسـل اليهم ابراهيم باشا مندوب له ليقترح عليهم اعادتهم الى مناصبهم ، فجذبت هذه الوعود اربعمائة منهم فنزلوا من الجبال فى عام ١٨١٢ واتجهوا الى اسنا حيث كان مقر قيادة ابراهيم باشا ولكنه بدلا من العفو عنهم كمـا وعدهم أمر بالاجهاز عليهم وتم ذبح مائتين منهـم(٥٠) .

ورغم اجماع الرحالة على مهـارة ابراهيم باشا الحربيـة وقدرته على قيادة القوات والجيوش ، الا أن بريس دافين استمر فى شن الهجمات عليه فوصفه بأنه لا يملك ملكات القائد الصالح ، بل لم تكن له الثقافة العلمية اللازمة لقيادة الجيش وان ما كتب عن قدرته الحربيـة انما يرجع الى جبن أعدائه والى شراسـة جنوده ، فقد ارتكبوا الفظائع فى ميادين القتال ويبدو لنا تحـامل دافين على ابراهيم باشا ، ولاشـك انه كان متأثرا بالكتابات التى ظهرت فى أوروباوغلب عليها التعاطف مع الثوار اليونانيين ، ولذلك نجده يجرد ابراهيم باشا من اى خصلة من الخصـال الحميدة

فهو تارة يصفـه بالدهاء ، وتارة أخرى بالجهـل ، وتارة أخرى بالدموية والتوحش ، والجشع واستغلال النفوذ(٥١) .

وفى الحقيقـة ان ما سجله شامبيليون يختلف عما سـجله بريس دافين فقد وجد فى ابراهيم باشا قائدا مستنيرا ، دلل على ذلك أنه عندما أراد تحويل مستشفى أبى زعبل للطب الى مصنع للحرير وأثار القرار استياء سكان القاهرة ذهب شامبيليون مع كلوت بك لمقابلته ونجـح فى انتزاع وعـد منه بعـدم المسـاس بالمستشفى(٥٢) .

حكم ابراهيم باشا فترة قصيرة ثم اصيب بمرض فى الرئـة فى الاسكندرية وتوفى فى ١٠ نوفمبر ١٨٤٨(٥٣) .

٣ ـ عبـاس باشـا :

نال عباس نصيبا وافرا من انتقادات الرحالة ، فلا تخلوا كتاباتهم عنه من الفاظ تحمل معنى الجهل ، التعصب ، التأخر ، الجمود ، وغالى بوتو فى كراهيته لعباس الى حد وصفه بالغباء ثم كشف عن غرضه وهدفه الحقيقى بعد ذلك عندما كتب « لأنه استغنى عن خدمات الأوروبيين »(٥٤) ومن العبارات التى رددها معظم الرحالة عن عباس ما ذكره « اذا يتحتم على الخضوع لأحد ما فاننى أفضـل الخضـوع للخليفـة ، لا للمسيحيين الذين أكرههم »(٥٥) .

أما بريس دافين فقـد أفرد عدة صفحـات لعبـاس فهو ابن طوسون ، كان مقربا من جده محمد على ، اهملت ثقافته بين يدى مربيه التركى وما أحاطه به من عبيد حريصيين على ارضائه ، وهكذا نشأ دون أن يلتفت الى التجديدات التى أدخلها جده والتى

كان يجد نحوها فى نفسه شعورا من الازدراء لازمته طيلة حياته . وقد ارسله محمد على الى معسكر جهاد اباد قرب الخانكة والحق بمدرسى اللغة التركيــة والفارســية والرياضية كولونيل فرنسى لتدريس العلوم العسكرية ومدرس للطبوغرافية ومدرس للتاريخ ، ثم عينه محمد على على رأس الادارة الداخليــة فقد تدرب على الشئون الادارية وحكم مصر بوصفه وكيلا عن محمد على(٥٦) .

وعندما توفى ابراهيم باشا ، تولى عباس الحكم ، وقد قوبل حكمه بالابتهاج من جميع أفراد الشعب فبدأ حكمه باتخــاذ بعض الاجراءات التى حققت جزئيا ببعض ما كان الشعب قد تمناه من أمل رفع بعض المظالم الصارخة ، وعندما تولى عباس السلطة لم يكف لفرنسا اى سيادة فى الشرق فقد سقطت مكانتها فى أوروبا خاصة بعد قيام ثورة ١٨٤٨ ، فاهملت شئون الشرق ، وكان عباس يطمع فى انشاء امبراطورية عربيــة فى الشرق ، وقد فاتح فى ذلك القنصــل الفرنسى العــام لمؤن الذى نصحــه بالتريث فضــاق بنصيحته . ثم سأل موارى القنصل البريطانى فأكد له مســاعدة بريطانيا له ، ولذلك فقد شجع المشروعات البريطــانية فى مصر خاصة تحسين المواصلات بين القاهرة والسويس(٥٧) .

وفى الحقيقة يتضح لنا سذاجة ما عرضه بريس دافين وذلك لأن القنصل البريطانى موارى كانت له بالفعل علاقات وطيدة مع عباس وقد يسانده فى مسألة التنظيمات فكافأه عباس بدوره بقبول مشروع السكك الحديديــة أما فرنســا فقد كانت تعــانى من الاضطرابات خلال السنوات الأولى من عهد عباس بسبب قيــام ثورة ١٨٤٨ ثم عصر الجمهورية الثانيــة ثم قيام الامبراطورية الثانيــة .

ومن الشائعات التى أطلقها الرحالة حول عباس هو تدليله للغلمان اكثر من الجوارى وقد ساق لاكور عدة أمثلة ماجنة على ذلك ثم عاد وذكر قصة غرامه بالعالمة كوتشك هانم والتى ما لبث ان غضب عليها ونفاها الى الصعيد(٥٨) .

أما بريس دافين فيصف تعلق عباس باحدى البدويات وكانت تنتمى لأحدى القبائل العريقة فى الجزيرة العربية فتزوجها عباس وبنى لها قصرا فى صحراء السويس وآخر فى العقبة حيث كان يستطيع استقبال الرؤساء العرب بعيدا عن أعين الرقباء . وذلك لأن عباس كانت له آمال واسعة . وهذا الزواج يمكنه من الحصول على مساعدة القبائل العربية فى حالة تعرضه للهجوم من الدولة العثمانية ، فقد كان عباس يدرك أن تحصينات الاسكندرية سوف تحميه من أى محاولة لهجوم تشنه الدولة العثمانية عليه ، كذلك كان فى وسعه قطع الطرق البرية عبر سورية ويؤكد دافين أن أوروبا لم تعرف شيئا عن هذا المشروع ، ولم تعرف قط بعلاقات الباشا بمسلمى الهندس الذى كان فى استطاعته اثارتهم ضد الانجليز(٥٩) .

اقتنى عباس باشا الحيوانات خاصة الجمال القوية التى حصل عليها من الحجاز ، ولم يكن يأذن لأحد بزيارة حظائره وذلك لأنه كان يخشى « شر العين الحسود على الجياد ولذلك أصدر أوامره بالقاء القبض على كل من يقترب من الاصطبلات والحظائر كذلك من ابراج الحمام لأنها كانت تحوى أجمل وأندر الأنواع(٦٠) .

وقد كثرت الروايات عن وفاة عباس باشا فأكدت مدام أولمب انه وجد مقتولا فى قصره ببنها ، وذكرت أن « الأميرة نازلى

عمة عباس هى التى ائتمرت به وهى فى الاستانة وأنفذت مملوكين من أتباعها لقتله ، واتفقت واياهما على أن يعرضــا أنفسهما فى ســوق الرقيــق بالقــاهرة ، كى يشتريهما عباس ويدخلهمــا فى خدمته ، وكان المملوكان على جانب من الجمال مما يرغب وكيل الباشا فى شرائهما فجاءا الى القاهرة ونزلا سوق الرقيق الى أن رآهما يوما وكيل الأمير فاشتراهما وأدخلهما سراى بنها فأعجب بهما عباس ، وعهد اليهما بحراستهم ليلا فلما كانت الليلة الأولى لم يجرؤ المملوكان على ارتكاب القتل لأنهما خشيا بأس عبــاس اذ كان قوى البنية فخافا أن يقاومهما وينجو من فتكهما فينكل بهما شر تنكيل ويوردهما موارد الهلاك ، فانقضت الليلة الأولى بسلام ومرت أيام عدة ، وهما يستجمعان قوتهما لانفاذ القتل عند سنوح الفرصــة حتى جاءتهما النوبة ثانيا لحراســة مولاهمــا فاعتزما ان يكونا أكثر شجاعة من قبل لم يكد يستغرق عبــاس فى النوم حتى انقضا عليه وقتلاه ثم فرا هاربين الى الاستانة حيث نقدتهمــا الأميرة نازلى مكافــأة سخيــة وتقول مــدام أولمب ان الهامى باشا ابن عباس تعقب المملوكين القاتلين ليثأر لأبيه فالتقى باحدهما فى الاستانة فقتله رميا بالرصــاص أما الثانى فلم يعثر له على مكان(٦١) .

أما بريس دافين فيروى رواية مختلفة فذكر أن عبــاس كان قد وضع خطة لكى يضمن وراثة عرش مصر لابنه من بعده ولذلك أمر بقتل خسمين من كبار ذوى النفوذ يوم سفر المحمل واعطيت القائمــة لخورشــيد باشــا ، وعلى أثر تســليم مقود المحمــل لأمــير الحــج كان مقــدرا أن يتشــاجر اثنــان من رؤســاء الباشبوزق وان يشترك فى الشجار رجالهما الموزعون بمهارة وفى هذه المحملة كان مقدرا ان يقتل عدة باشوات وبكوات وفى الوقت نفسه أن يتصنع عدد من الفرسان تعقب القتلة فيدخلوا فى وقت

واحد دار حليم باشا عم عباس ، وقصر مصطفى أحد باشا واسماعيل باشا ابنى عمومته كأنهم لاجئون ويقتلون جميع من هناك ويعلق دافين « وهكذا قبل كان عباس يريد أن يمهد طريق العرش لأبنه الهامى باشا »(٦٢) وبعد أن يعرض دافين هذه الرواية نجده يتراجع ثم ينفيها ويسوق رواية أخرى بانه عند وفاة عباس وجدت علامات سوداء حول عنقه ، على حد قول الرجل المكلف بغسل جثته قبيل دفنه ، وكان قد دخن فى الليلة السابقة لوفاته جوزة محشوة بالحشيش ثم نام نوما عميقا فانتهز القتلة الفرصة فى قصر بنها وتمكنوا من قتله ، ثم فروا من القصر دون أن يفكر أحد فى اعتقالهم ، وهناك آراء أخرى تؤكد مقتل عباس بأيدى مملوكين أدخلهما سعيد باشا ، على حين يزعم آخرون أن مصرعه كان بأيدى أخوين أراد عباس أن يجبرهما على ارتكاب الفواحش فرفضا . ويؤكد دافين أن سعيد باشا رفض تشريح الجثة ودفع بالطبيبين « ديامنتى » و « مارتينى » الى توقيع شهادة بأن عباس مات بالسكتة القلبية ، كذلك لم يتعقب القتلة ، ثم نجد بريس دافين ينفى كل هذه الروايات « ان كل ما أشيع عن موت عباس غير صحيح » لقد قال لى ذلك طبيبه « ديامنتى » فقد كان ذا بنية ضعيفة القلب ، ومات فجأة نتيجة لأزمة دموية، وقد سمع مملوكاه النائمان كالعادة بجوار بابه بعض أقوال مختلطة فلم يفهماها وعندما دخلا عليه وجداه قد فارق الحياة ، فهربا فى الحال الى القاهرة خشية أن يتهما بقتله ، وأكد الطبيب انه لم ير أى أثر للعنف على الجثة أو الفراش أو المكان المحيط به(٦٣) .

توفى عباس فى يوليو ١٨٥٤ ووضع سكرتيره الخاص الجثة فى عربة لنقلها الى العباسية واتخذ المسئولون جميع الاجراءات اللازمة لحفظ النظام باسمه ، ثم احتبسوا انفسهم فى القلعة أياما ثلاثة قبل أن يصرحوا بفتح الأبواب(٦٤) .

واخيرا لقد اقام عباس فى المناطق البعيدة النائية حيث الهواء النقى ، فبنى القصور فى العباسية ، وعند جبل المقطم فكان محل اقامته اشبه بالقلعة يعسكر فيه مع موظفيه بعيدا عن دسائس الأوروبيين وقناصلهم(٦٥) .

٤ ـ سعيد باشا ١٨٥٤ ـ ١٨٦٣ :

بتولى سعيد باشا الحكم استعاد الفرنسيون مكانتهم فى مصر ، فقد كان شغوفا بالحضارة الأوروبية ومحبا لكل ما هو أوروبى منذ نعومة أظافره ، واتخذ العديد من الفرنسيين مستشارين له على حد قول بواتو(٦٦) وقدم بارتملى سانت هيلار وصفا لسعيد فكتب « انه صديق الفرنسيين المحب لهم ، المتفتح للحضارة »(٦٧) وقد ظهرت قوة صلاته بالفرنسيين عندما وافق على مشروع قناة السويس بعد أن نجح صديقه دى لسبس فى اقناعه بتنفيذه(٦٨) .

أما بريس دافين فنجد أن كتاباته عن سعيد باشا اختلفت عن غيره من الرحالة فلم يرضه سوى حاكم « لم تكن لديه ملكة الذوق السليم رغم تعلمه الأجنبى ، فقد بنى قصر فى المكس من طراز الروكوكو ، ونحت فيه صورا منقولة طبق الأصل عن الانفاليد ، ولكنها كانت مذهبة شديدة الاسراف والغلاء فى الذهب ، كذلك كان لا يتسم بالأدب فى الحديث فكثيرا ما يلقى عبارات قذرة أثناء حديثه ، ولم يكن يتمتع باللباقة ، ولا حسن التصرف ، كما أنه أهمل جميع المؤسسات التى انشاها محمد على وابراهيم باشا « اتهمه بريس بالشره فى الأكل ، فهو ينقض على الثمار فى شره المنهوم ويلتهم واحدة بيمناه ويمسك الأخرى بيسراه ، ويشتهى الباقى بعينيه »(٦٩) .

ومن الروايات التى ذكرها دافين عن سعيد هو قتله أحمد باشا ابن ابراهيم باشا ولى العهد فى حادث كوبرى كفر الزيات ،

وقد اثيرت الشبهات حول سعيد واتهمته احدى الصحف الصادرة في مالطة ، ثم اضاف بريس بأن المهندس الانجليزى اخبره انه قبل الحادث صـــدر الأمر بالحفر حفرا عميقا عند اسفل أعمدة القناطر دون أن يستدعى ذلكحاجة ظاهرة ، فقد كان هناك من المــاء ما يحمل أشد السفن ولولا العمل الذى حفر هوة ابتلعت عربات القطارات لجاوزت العربة الثالثة التى كانت تقل أحمد باشـــا مستوى المــاء ولنجا وارث الحكم(٧٠) .

ولم يكتف دافين اتهام سعيد باشا بقتل احمد باشا ولكنــه اتهمه بالقسوة والعنف فقد أصدر أمرا بنفى أحد المنجمين الى فازوغلى لأنه أخبره ان وفاته قد اقتربت ثم أمر بالقائه فى النيــل اثناء الرحلة ثم أصدر أمرا باعتقال جميع المنجمين حتى بلغ عددهم ثمانين شخصا(٧١) .

وأخيرا لا يرى دافين فى سعيد باشا أيا من الخصال الحميدة فقد كتب « لا يمتدحه أحد سوى صديقه دى لسبس الذى امتلأت خزائنه بالأموال » فمن وجهـــة نظر دافين ان حكم سعيد باشـــا اسوأ من حكم عباس باشا خاصة لأنه أغرق مصر فى الديون بالاضافة الى تبذيره الأموال على خاصته وحاشيته مما أضر بالبلاد(٧٢) .

٥ ـ الخديوى اســماعيل ١٨٦٣ ـ ١٨٧٩ :

نشأ فى أوروبا وتأثر بمدنيتها ، اراد تطوير الزراعة والصناعة وتنمية تجــارة البلاد ، التقى به الرحالة دى جارسى منذ زيارته لمصر بصحبة القنصل الفرنسى كازو Gazaux فى ١٠ مارس عام ١٨٧٤ أوضح اسماعيل فى هـــذا اللقاء أن هدفه الرئيسى هو النهوض بالبلاد فقال « اننى أعلم أن الأوروبيين يشكون من ارتفاع الأسعار فى مصر ويتهموننى باننى السبب فى ذلك ، ولكن لا يهمنى

شيئا الآن ســوى أن أولى اهتمامى للنهوض بالصناعة والزراعة والتجارة وتعليم الفتيان »(٧٣) .

أما مدام أولمب فقد رات أن الديون هى الجانب المظلم فى تاريخ اسماعيل فهو « لم يكن يهتم الا بجمع الملايين وكان يقتن الأطيان فى كل ناحيــة قــدر ما يستطيع ، ويلجـأ الى السخرة لزراعتها واستصلاحها ويعقد القروض تلو القروض لآجال طويلة تاركا لمن يخلفه فى الحكم أن يسدد ديونه حتى كأنه يقصــد أن يعقد مهمة الحكم لمن يأتى بعده »(٧٤) .

أما بريس دافين فقد كتب عن اسماعيل « ان جميع أبنــاء الباشوات الذين نشأوا فى أوروبا لم تظفر مصر منهم بمواطن واحد ممتاز ، فلقد انهكوا أجسامهم جميعا فى المجون أخذوا جميع عيوبنا دون أن يكتسبوا واحدة من صفاتنا وفضائلنا واسماعيل باشــا محب للانتفاع وهباته الكريمــة ناتجة عن غروره ، وهو شحيح يتذكر أدنى نفقاته »(٧٥) .

واخيرا عند ختام الحــديث عن الأسرة الحاكمة نجد أن بريس دافين يذكر ان شقاء مصر الأكبر مصــدره نظــام وراثة الحكم الذى وضعه السلطان وأن ولاة مصر الذين خلفوا محمد على كانوا يعلمون أن أبنــاءهم لن يرثوا الحــكم فاهتموا بشرائهم أكثر ما أهتموا برفاهية مصر ، انهم يفكرون فى ملء خزائن أولادهم أو فى أن يضمنوا لهم الحكم ولا يفكرون قط فى أسعاد المصريين(٧٦) .

هذا وقد ساد نظام الحــكم المطلق فى عهد أسرة محمد على حتى المجالس التى تأسست لم تتجمع فى المشاركة فى حكم البلاد ، فالسلطة كلها تركزت فى يد محمد على وخلفائه ــ فمحمد على أسس مجلس يسمى الديوان العالى وكان مقره القلعــة ولقب

رئيسه بلقب الكتخدا باشا كان « بمثابة وكيل لمحمد على » ثم كون محمد على فى كل فرع من فروع الحكومة ديوانا مثل ديوان البحرية ، ديوان المدارس ، ديوان الحربية وفى عام ١٨٣٤ اسس محمد على المجلس العالى وكان يتالف من رؤساء المصالح ورؤساء الدواوين واثنين من العلماء . اما مجلس المشورة فكانت سلطته استشارية وقد تألف فى عام ١٨٢٩ وقد وصفه كادلفين بانه « كان يتكون من الأتراك الجهلة » لم يقدم محمد على النصائح المخلصة والمفيدة للبلاد ، ويبالغ كادلفين ويذكر بغرور وصلف « لا أحد يعادل الأوروبيين اخلاصا واهتماما بتقديم النصح الى محمد على » وقبل وفاة محمد على بفترة الف مجلس الخصوصى وكانت مهامه الرئيسية النظر فى شئون الحكومة واصدار القوانين ثم المجلس العمومى وكان ينظر فى شئون الحكومة ويرسل قراراته الى المجلس الخصوصى(٧٧) .

ولم يهتم الرحالة الفرنسيون بتقديم صورة واضحة لهذه المجالس وأعمالها وتطورها حتى عصر اسماعيل وانما اكتفوا باشارات موجزة ولعلهم اكتفوا بما قدمه كلوت بك فى مؤلفه عن مصر وان كانت نظرته وهو من المدافعين عن حكم محمد على تختلف بشأن المجالس التى تأسست فهو يرى بأنها كانت تمهيدا اوضع نظام دستورى ثابت فقد كتب « من المحقق ان هذه الهيئات الحكومية لم تبلغ درجة الاتقان ، لكن ينبغى ملاحظة ما بذله محمد على من الجهود فى هذا السبيل وما بثه من روح النظام وتقرير أوضاعه وما أظهره من سداد النظر وصدق العزيمة فى وضع النظام الادارى للحكومة ولا ريب فى أنه اذا توافر عنده الوقت الكافى وتخلص من مشاغله الحالية وأخرجت المدارس عددا كافيا من الأكفاء سيصبح لمصر نظام دستورى ثابت »(٧٨) .

نمو قوة مصر السياسية :

اهتم الرحالة الفرنسيون بابراز قوة مصر السياسية ومدى ما وصلت اليه حدودها فى عهد محمد على خاصــة وان البعض منهم رافق القوات المصرية فى هذه المعارك مثل فردريك كايو الذى رافق حملة اسماعيل باشا فى السودان ونلمس من خــلال كتاباتهم اشادتهم بقدرة القوات العسكرية المصريــة ومقــدرة محمد على على تنظيم قواته وكان اول واهم ما عنى به الرحالة هو الحديث عن حملة الحجاز .

١ ــ الحملات العسكرية ضد الدولة السعودية الأولى :

لم يكتف الرحــالة بتقديم وصــف لحمــلات محمــد على على الجزيرة العربية وانما نجد وصفا للدولة السعودية الأولى خاصة قبل سقوط الدرعية فى يد ابراهيم باشا ، وقد قدم على العباسى الذى زار مصر فى مطلع القرن التاسع عشر ثم اتجه الى الجزيرة العربية وصفا لتلك الدولة وتوسعاتها العســكرية قبل مجىء القوات المصرية . وقد جاءت زيارة على بك بعد تولى نابليون السلطة فى فرنسا فكانت رحلته محــاولة لمتابعــة جهود نابليون للاتصــال بأمراء الجزيرة فتــذكر « دومنجو باديا » الأســبانى الأصل فى زى عربى وانتحل اسم على بك وادعى انه من ســلالة العباسيين . وقد قدم وصفا للدولة السعودية وأكد تمســك أتباعها بتعاليم الدين الاســلامى الصحيح فهم « يتصفون بالجلد والقدرة على تحمل المشاق والصعاب » حريصــون على تطبيق الشريعة الاسلامية تطبيقا مشوبا بالحمــاس ولكن دولتهم تفتقر الى التنظيم العسكرى والادارى ، فهم يطيعون قادتهم طاعة عمياء ولا توجد لديهم سلطات قضــائية فشيوخ القبــائل مسئولون عن العدالة ولا يوجد وزراء وأبرز شخصية سياســية هى شخصــية

« أبو نقطة » أمير المع وعسير حلف الوهابيين الذين مدوا نفوذهم حتى جيزان(٧٩) .

وقد اثنى على بك على اتباع محمد بن عبد الوهاب وسجل هـذا الاعجاب « أن جميع الوهابيين الذين تحدثت اليهم يتصفون بالاعتدال والتعقل وقد استقيت منهم المعلومات اللازمة عن دعوتهم ثم يتخذ موقف المدافع عما أشيع عنهم من حبهم ورغبتهم فى تدمير المزارات فيقول « ان الناس لم يفهموا المعنى الاصـلاحى لهدم المزارات وتقويض أضرحة الأولياء التى كان المسلمون يسجلونها فقد تحـول هـذا الاجـلال الى نوع من العبـادة التى لا تقع الا لله وحده »(٨٠) .

ثم قدم على بك وصفا عن فتح الامام سعود بن عبد العزيز لمنطقة الحجاز ومساندة أبى نقطة أمير عسير له « تمكن الوهابيون من فتح المدينـة المنورة ثم مكة وحرص سعود على طرد جنـود الشريف غالب منها وكانوا من المغاربة والأتراك ، وأكد انه لا يريد أن يترك تركيا واحدا فى مكة والمدينة ولقد شهد الحجاز مولد ملكية عربية جديدة »(٨١) .

ولم يكتف على العباسى بالحديث عن آل سعود وانما قدم وصفا لمكة وجدة بأسواقها العامرة وميناءها بالمزدهرة وحركتهـا المتصلة مع السويس ومخا(٨٣) .

ولا جدال ان ما أورده على بك من ملاحظات وتقارير عن مدن الحجاز والملاحظات الفلكية عن الأماكن المختلفـة التى زارها على سواحل البحر الأحمر فى ينبع وجدة قد أفادت منهـا الحكومة الفرنسية . وبذلك يكون على العباسى المبعوث الفرنسى هو أول من زار الدولة السـعودية قبل وصول الحمـلات المصريـة اليها ،

ونلاحظ مما كتبه دفاعه عن الدولة السعودية والدعوة الوهابية وآل سعود . أما الرحالة الذين كتبوا عن حملات محمد على فى الجزيرة العربية فالكثير منهم لم يفهم حقيقة وطبيعة تلك الدعوة فأحيانا نجد البعض يطلق عليهم لفظ بيورتان المسلمين كما فعل كادلفين(٨٣) وتارة أخرى نجد لفظ بروتستان المسلمين على حد قول شارل أدمون(٨٤) وهذه المصطلحات ان دلت على شيء فتدل على جهل أصحابها بتلك الدعوة ، وخلطهم بينها وبين الحركات الدينية فى أوروبا فى القرن السادس عشر .

ونكن هنا فريق آخر تفهم تلك الدعوة بل نلمس فى كتاباته الدفاع عنها وعن أنصارها فقد وصفهم فوربان « انهم يريدون العودة الى النقاء والابتعاد عن الخرافات وتطهير عقيدتهم مما لحق بها من بدع »(٨٥) حتى كادلفين الذين وصفهم بأنهم مثل البيورتان نجده لا يخفى اعجابه بتلك الدعوة « جاءت لتنبه المسلمين بالعودة الى نقاء الاسلام والتخلص من البدع »(٨٦) .

اما المؤرخ ميشو فقد ذكر انه قابل أحد علماء الدين الاسلامى فى المنصورة فحدثه الأخير عن اعجابه بمبادىء الدعوة الوهابية وأكد له « أن الوهابى على حق ، وانه مجدد ، وأن اتباعه يتبعون الطريق السليم لأنهم لا يتجهون الا الله ، وأكد له أنه رغم هزيمة الدولة السعودية الا أن مبادىء الدعوى لن تنتهى ، وسوف تستيقظ من جديد وسوف تصل هذه المبادىء الى أهل النيل فنحن مرضى وفى حاجة الى علاج »(٨٧) .

هذا وقد قدم كادلفين وصفا لما وصلت اليه الدولة السعودية من نفوذ فذكر ان مركزها الرئيسى كان الدرعية ومنها أرسلت البعثات حتى البصرة مشيرا الى ما تم فى عهد الامام

عبد العزيز بن محمد بن سعود عندما أرسل قواته الى كربلاء فأغارت عليها وعلى مشاهد الشيعة فيها ، كذلك تتبع كادلفين توسع الدولة فى مكة والمدينة والحجاز ولكنه وجه الانتقاد الى القوات السعودية عند دخولها المدينة المنورة واتهمها بأنها « لم تظهر الاحترام الكافى لمكانة المدينة المنورة فقد نهبوا الكنوز والأموال والذهب فيها »(٨٨) .

هذا وقد دافع بعض الرحالة عن هذا الاجراء خاصة فوربان الذى أكد ان اتباع الدعوة الوهابية يريدون التخلص من البدع والخرافات وان الأموال والكنوز التى وجدت فى المدينة المنورة الرسول صلى الله عليه وسلم ليس فى حاجة اليها(٨٩) وقد اتفق ذلك مع ما ذكره الجبرتى فى دفاعه عن دخول القوات السعودية المدينة المنورة فكتب « ويذكرون ان الوهابى استولى على ما كان بالحجرة الشريفة من الذخائر والجواهر ونقلها وأخذها فيرون أن أخذه لذلك من كبائر العظام ، وهذه الأشياء وضعها خساف العقول من الأغنياء والملوك والسلاطين الأعاجم وغيرهم اما حرصا على الدنيا وكراهة أن يأخذها من يأتى بعدهم أو لنوائب الزمان فتكون مدخرة محفوظة لوقت الاحتياج فيستعان بها على الجهاد ودفع الاعداء فلما تقادمت عليها الأزمنة وتوالت عليها السنين والأعوام الكثيرة وهى فى الزيادة أرتصدت معنى لا حقيقة ، وارتسم فى الاذهان حرمة تناولها وانها صارت مالا للنبى صلى الله عليه وسلم ، فلا يجوز أخذها ولا انفاقها والنبى عليه الصلاة والسلام منزه عن ذلك ولم يدخر شيئا من عرض الدنيا فى حياته وقد أعطاه الله تعالى الشرف الأعلى وهو الدعوة الى الله تعالى والنبوة والكتاب واختار أن يكون نبيا ولم يختر أن يكون نبيا ملكا »(٩٠) .

ويقدم كادلفين وصفا لاستعدادات محمد على لارسال القوات الى الحجاز بقيادة ابنه طوسون ونجـاح هذه الحملات فى التوغل داخل الجزيرة العربيـة حتى وصلت نجد واستطاع ابراهيم باشا الاستيلاء على الدرعية وألقى القبض على الامام عبد الله بن سعود آخر ائمة وحكام الدولة السعودية الأولى فأرسله الى القاهرة حيث أحسن محمد على استقباله فى قصره بشبرا ثم أمر بارساله الى الاستانة حيث أعدم هناك.وبسقوط الدرعية « فقد الوهابيون نفوذهم وانتصاراتهم »(٩١) .

ويعلل فوربان عدة اسباب لانتصارات قوات محمد على فى الجزيرة العربيـة ، منها ان ابراهيم باشا لجـأ الى رشوة القبائل فكان هذا من أهم عوامل النصر وذلك لأنها زودته بالأدلاء واستطاع التعرف على الطريق الى الدرعية ثم عرف أيضـا مواطن الضعف فاسوارها ، كذلك رأى فوربان ان مطـاردة قوات ابراهيم باشـا لفلول الوهابيين واصرارهم على احراز النصر عليهم من أهم اسباب نجاح الحملة والا كانت القوات المصرية قد تعرضت للهجمات فى بلاد صحراوية ولانقطعت صلاتها بخطوط امداد الجيش(٩٢) .

هذا وقد أفاض الرحالة فى تصوير الاحتفالات التى أقيمت فى القاهرة عند سقوط الدرعية فيذكر كادلفين « بأن المدافـع ضربت من القلعة وتم تزيين القاهرة وخرج الناس الى الشـوارع متبهجين بالنصر»(٩٣) ووصفهم هـذا يتفق ما مع ذكره الجبرتى عند سماع محمد على خبر انتصار قواته « فانسر الباشا لهـذا سرورا عظيما وانجلى عنه الضجر وأنعم على المبشر ، وعند ذلك ضربوا مدافع كثيرة من القلعة والجيزة وبولاق والأزبكية ، وانتشر المبشرون على بيوت الأعيان لأخذ البقاشيش »(٩٤) .

٢ ـ حملة محمد على فى واحة سيوة :

أراد محمد على القيام بحملة فى واحة سيوة لتدعيم السيطرة المصرية عليها ، وقد رافقه فى تلك الحملة كل من لينان دى بلفون والقنصل الفرنسى دروفتى(٩٥) الذى وضـع كتابا سجل فيه أخبار رحلته فى المنطقة وقد تكونت الحملة من الف وثلاثمائة جندى بقيادة حسن الشماشرجى وتقدمت الحملة فى « الصحراء الليبية » وأجبرت السكان على الخضـوع لمحمد على . وتم فرض غرامة على السكان قدرها مائة ألف قرش مع تعهدهم بتوريد كميـة محددة من البلح علق مارسيلوس على هـذه الحمـلة بانها كانت ضرورية بالنسبة لمحمد على لتحقيق أحلامه فى ارسال الحمـلات الى السـودان وتامين حدود مصر الغربية ثم تحقيق حلمه الكبير بعد التوسـع فى السودان فيقوم بغزو الحبشة(٩٦) .

٣ ـ ضـم السـودان :

لخص الرحـالة الفرنسيون اسـباب فتح السـودان فأكد مارسيلوس أن الغرض الرئيسى من ارسال الحملات الى السودان هو « تحقيق الفخر واتمام غزو النوبة » خاصـة بعد أن حقق ابراهيم باشا نصرا كبيرا على الوهابيين فأراد محمد على تخليد ذكرى أبنائه وتحقيق المجد والفخر لهم(٩٧) أما كادلفين فيرى أن فتح السـودان كان ضروريا بالنسبة لمحمد على للحصـول على ذهب سنار وفاز غولى الذى كثرت حولها الأقاويل كذلك امداد الجيش بأعداد من السودانيين للتجنيد ، والقضـاء على بقايا المماليك الذين فروا من مصر بعد مذبحة القلعة واتخذوا من دنقلة مركزا لهم واكتشـاف منابع النيـل وتوسـيع نطـاق التجـارة المصرية(٩٨) أما شولشيه فيرى ان السبب الرئيسى للحمـلات على السودان كان للحصـول على الرقيـق لتزويد الجيش المصرى

بالمجندين فلم يهتم محمد على بمآسى السكان ، وتوغلت القوات المصرية فى سنار وغيرها من المناطق وسط صراخ وعويل السكان الذين تم حبسهم فى أقفاص تمهيدا لارسالهم الى القاهرة(٩٩) .

قدر كايو المرافق للحملة أعداد القوات الزاحفة على السودان على النحو التالى ١٢٠٠ من الفرسان الأتراك و ٤٠٠ من العرب والمغاربة و ٦٠٠ من المشاة و ٣٠٠ من رجال المدفعية و ٨٠٠ من المشاة العرب والمغاربة و ٧٠٠ من عرب العبابدة ، كذلك أكد كايو ان اسماعيل باشا تلقى المدد من أبيه أثناء حملته على السودان فزوده ١٤٠٠ مقاتل(١٠٠) .

اتجهت الحملة من أسوان الى وادى حلفا ومنها تقدمت الى أراضى سكوت والمحس ودلقوا وقدم كايو وصفا عما لاقته القوات المصرية أثناء زحفها فى ارقو حيث المنطقة مغطاه بالغابات والأحراش فاضطر الفرسان الى الترجل والسير على الأقدام وقد تقابل اسماعيل باشا مع ملك أرقو الملك جميع الذى اعترف بالتبعية المصرية ثم قدم لاسماعيل باشا الامدادات اللازمة لمواصلة تقدم القوات فى أراضى السودان(١٠١) .

وجدير بالذكر ان كادلفين عند زيارته للسودان بعد اتمام الفتح بعدة سنوات تقابل مع الملك طمبل ملك أرقو السابق فكتب « ان اسماعيل عينه حاكما عليها وظل بمارس مهام منصبه عدة سنوات وعاش فى قصر صغير تحيط به حديقة زرع فيها أنواع مختلفة من الخضروات والفواكه وبصحبته زوجاته الثلاث ويذكر كادلفين بأنه « رأى الحزن فى عينيه لأنه فقد ملكه فى أرقو واصبح الآن تابعا بعد أن كان ملكا »(١٠٢) .

ثم واصلت القوات المصرية زحفها حتى وصلت بربر فتم الاستيلاء عليها فى عام ١٨٢١ ، ومنها اتجهت لضم سنار وأقارب

على فازوغلى التى أعلنت ملكها الاستسلام لقوات اسماعيل باشا ، وأهداه الخيول الحبشية الجميلة ، ثم يصف ديدية طريقة استسلام الملك حسن ملك فازوغلى بأنه « وضـع ركبته على الأرض والدرع والرمح بجواره رمز الاستسلام »(١٠٥) .

هذا وقد أعطانا الرحالة وصفا لمملكة الفونج فى سـنار تلك المملكة تأسست منذ القرن السادس عشر وكان لها سيطرة كبيرة على جيرانها ، كذلك كان للفرنسيين ذكريات مؤلمـة فيها عندما أرسلوا البعثات التنصيرية الى الحبشة فتم اغتيال روادهـا مثل بعثة لى نوار دى رول مثل السكان معظم ارادها معتقدين انهم من السحرة وانهم أتوا لتغير مجرى النيل لاغراق المملكة(١٠٦) .

هذا وقد تعرضت القوات الزاحفة لانتشار الأمراض والأوبئة كما عانت من نقص المئونة والعتاد والأدوية مما اضطر محمد على الى ارسال ابنه ابراهيم باشا لتقديم الدعم لقوات أخيـه ولفتح ما تبقى من أقاليم السودان(١٠٧) .

بدأت قوات اسماعيل باشا فى تدعيم مراكزها فى المناطق التى احتلتها من وادى حلفا حتى سنار فى الوقت الذى تجمعت فيه حملة عسكرية فى الدبة وهى من مدن دنقلة للانطلاق منها غربا صوب كردفان بقيادة الدفتردار محمد بك وقد روعى التركيز فى الدبة باعتبارها أقرب المناطق الواقعـة جنوب دنقلة لكردفان هذا وقد تم تبادل الرسائل بين الدفتردار محمد بك والملك المقـدوم مسلم ملك كردفان الذى رفض الاستسلام وكانت كردفان تدين بالتبعية لمملكة الفور القوية فى دارفور ، وازاء اصرار الملك مسلم على القتال تقدمت القوات المصرية وسط الصحراء الممتدة من الدبة الى كردفان ونجحت فى الاستيلاء على مدن كردفان الرئيسية

خاصة بارة التى قتل فيهـا الملك مسلم . ثم الأبيض وقد قدم لنا كايو وصفا لهذه المعارك التى وصفها « بأنها غير متكافئة » بسبب تفوق القوات الزاحفة فى العدة والعتاد فقامت المدفعيـة بحصر أهـالى كردفان « بأسلحتهم البدائية » وقاتل الكثيرون منهم وهم شبه عرايا مدافعـين عن بلادهم بالرماح والدروع وغيرهـا « من الأسلحة البدائية »(١٠٨) .

وقد ذكر ديدية أن الدفتردار محمد بك انتقم من سـكان كردفان لمقاومتهم القوات الزاحفة فأمعن فى تعذيب الجرحى وخلع أسنانهم(١٠٩) وقد تطلع محمـد على لاستكمال الغزو والزحف بقواله غربا وتقويض دعائم الفور فى دارفور ثم الانطـلاق منهـا نحو ورنو ومنها شـمالا حتى طرابلس ولكن حروب المورة اضطرته للتوقف فى فتوحاته حتى كردفان فحتى دارفور لم يتم الاستيلاء عليها الا فى عهد الخديوى اسـماعيل ورغم تدعيم السـيطرة على كروفان الا أن المناطق الواقعة جنوبا لم تدين بالتبعية لمصر خاصة مملكة تقلى التى ظلت مستقلة(١١٠) .

وجدير بالذكر على الرغم من عـدم خضوع دارفور الا ان المراسلات والصـلات لم تنقطع بينهم وبين حكام مصر ففى عهد عبـاس باشا تم تبادل العديد من المراسـلات بين الطرفين وعندما أراد ملك دارفور تأدية فريضـة الحج أمر عباس بتأمين الطريق له وأحسن حاكم الخرطوم استقباله وقدم له التجار الأوروبيون الهدايا المختلفـة ويعلق ديدية على ذلك لقد عومـل واسـتقبل كمـلك(١١١) .

هذا وقد أعطانا الرحالة الفرنسي دى لاتور وصفا لمملكة الفور التى تأسست فى دارفور منذ عـام ١٥٠٦(١١٢) وقد تألفت من

العناصر العربية المهاجرة من شمال افريقيا الى غرب السودان فاختلطت بجماعات الفور زنجية التى أسست مملكة عظيمة مدت سيطرتها على جميع الوديان والسهول والتفت حول جبل مرة الغني بموارده المائية وشمل نواة المملكة الأولى وقد جذب هذا الجبل بثرائه وتوفر المياه فيه القبائل للاستقرار فيه ثم اتسعت المملكة فى القرنيين السابع عشر والثامن عشر وينال سلاطنها شهرة عريضة فى الخارج ونافسوا مملكة الفونج القوية فى ستار (١١٣) .

وفى الحقيقة أن لاتور لم يكن أول من ألقى الضوء على هذه المملكة وانما سبقه فى أواخر القرن الثامن عشر الرحالة البريطانى بروان الذى قام وصفا لنظامها الادارى فذكر ان السلطان على رأس السلطة يعاونه حكام الأقسام الأربعة الرئيسية ويلقب كل منهم بلقب المقدوم ومهمتهم الحفاظ على السلام بين القبائل وتسليم الخراج وأشار الى دخل السلطان من العشور اى له عشر ما يباع فى الأسواق . كذلك لابد لكل قسم أن يقدم له كمية من الرقيق سنويا ثم تحدث عن تجارة دارفور الخارجية حيث كانت الصادرات تشمل الكزبرة والكمون وريش النعام وسن الفيل أما الواردات فكان أهمها الأقمشة والحلى والحبوب والنقود والمنسوجات القطنية والصابون والأوراق(١١٤) .

كذلك لا يفوتنا أن نذكر الرحالة محمد بن السيد عمر التونسى الذى زار السودان فى الفترة ما بين ١٨٠٣ ، ١٨١٣ وقدم وصفا لمملكة الفور فى دارفور فى بداية القرن التاسع عشر وأثنى على حكامها لتشجيعهم واحترامهم للعلماء خاصة علماء الأزهر وعلماء مكة وتعتبر رحلته الى دارفور مصدرا هاما للتعرف على أحوال المملكة السياسية والاجتماعية(١١٥) .

وبينما نجحت القوات المصرية فى ضم أجزاء شاسعة من أراضى السودان فى عهد محمد على الا أن الانتصارات التى حققتها لم تكن تخلو من الآلام والذكريات الحزينة فبينما القوات الزاحفة ماضية فى تثبيت دعائم حكم محمد على على نشب تمرد فى شندى قادة الملى نمر فأسرع اسماعيل باشا للقضاء على هذا التمرد وتعهد الملك نمر بدفع غرامة مالية كبيرة قدرت بعشرين ألف قرش أسبانى واظهر الولاء وأبدى ندمه على هذا التمرد(١١٦) ولكن يبدو أن اسماعيل باشا كان قد اشتط فى غضبه عليه فلطمه على وجهه « وكلفته هذه اللطمة حياته » على حد قول كادلفين ، فقد تظاهر الملك نمر بالخضوع لاسماعيل وأقام له وليمة كبيرة ثم أحاط الخيام بالحطب والقش وأشعل فيها النار وتم ذبح قوات اسماعيل باشا واستطاع أحد التجار شراء جثمانه وحمله الى والده فى مصر وقد بالغ الملك نمر فى انتقامه فقام بنقل طبيب اسماعيل باشا بعد أن خلع أسنانه ووضع فى فمه أكياس من الجلد ثم شنقه(١١٧) .

على أن هذا العمل كلف الملك نمر الكثير فقد اسرع الدفتردار محمد بك بالقدوم مع قواته من كردفان الى شندى للانتقام لصهره فبالغ بدوره فى عمليات القتل والتنكيل واستمرت المذابح لمدة شهر ولم تشفع له توسلات السكان ولم يتوقف عن تلك المذابح الا بعد أن أمرة محمد على(١١٨) .

يلاحظ مما سبق أن معظم كتابات الرحالة الفرنسيين عن حملات السودان تركزت فى عهد محمد على وذلك لأنه كان حدثا جديدا على الأسماع والأذهان كذلك كان هناك شغف للتعرف على أحوال السودان وانجازات محمد على فيه . أما ما حدث من توسع وضم فى عهد الخديوى اسماعيل خاصة ضم فاشودة وفتح

دارفور ـ والتوسع فى سواحل السودان الشرقى لم يلق كل ذلك اهتمام الرحالة الذين زاروا مصر خلال تلك الفترة وذلك لأنه نشرت العديد من المؤلفات عن السودان كذلك كان الاهتمام الرئيسى لهؤلاء الرحالة فى تلك الفترة هو رصد الحدث العظيم الا وهو افتتاح قناة السويس .

لم يكف الرحالة بتقديم وصف للفتوحات المصرية فى السودان، ولكن ركزوا فى كتاباتهم على ايجابيات الحكم المصرى فيه وحرص الادارة على تنمية اقتصاد البلاد فكتب كادلفين « ان لمصر فضل كبير فى ادخال الأساليب الزراعية الحديثة فى السودان ، فهى لم تبخل عليه بالجهد ولا بالمال ، وقد حظيت اقاليم السودان بالعناية والاهتمام خاصة اقليم دنقلة حيث كانت ظروف الاقليم الطبيعية ملائمة للانتاج الزراعى كذلك طبيعة سكانه فهم من النوبيين الذين عرفوا اللين والمسالمة وكانوا يميلون الى الاستقرار ويفخرون بأنهم يعملون بالفلاحة والزراعة وأشار كادلفين الى انتشار السواقى فى السودان مما يدل على ازدهار الزراعة »(١١٩).

كذلك حرصت الادارة المصرية على ادخال حاصلات جديدة فى السودان والتوسع فى الغلات التى اشتهرت بها مناطق السودان ففى دنقلة تم التوسع فى زراعة النخيل وقد اشتهرت أنواع منه عرفت بنخيل سكوت والمحس ، كذلك تم التوسع فى زراعة الدوم الذى استخدم كغذاء للسكان ، واشجار السنط المعروفة بمتانة أخشابها وصلابتها فتم الاستفادة منها فى صناعة المراكب الكبيرة والسواقى وتم ادخال حاصلات جديدة مثل النيلة والتى كانت تنمو بريا الا أنه تم جلب تقاوى جديدة منهـا مثل النيلة الهندية والشامية لتحسين أنواعها كذلك نجحت زراعة الكتان وتم الاستفادة منه فى صناعة القوارب المحلية ، وتم التوسع

فى زراعة قصب السكر والأفيون والفواكـه التى أدخلت أنواع جديدة منها مثل الكروم والرمان والليمون والبرتقال(١٢٠) .

وفى عهد سعيد باشا حرصت الادارة المصرية على تنشيط الزراعة حتى فى المناطق التى تفتقر الى مقومات الزراعة ، فمديرية كردفان على سبيل المثال كانت فقيرة فى مواردها المـائية فالمجارى المـائية التى تكونت بفعل الأمطار سرعان ما تجف بسبب كثرة المـاء فى التربة كذلك بسبب ارتفـاع درجـة الحرارة وسرعـة التبخر ، كما أن أراضى كردفان جرانتيه ، ولكن رغم كل هـذه المصاعب الا انه تم التوسـع فى زراعة الدخن والذرة وتم توفير السواقى اللازمة فى الأراضى البور ، كما تم حفر الآبار على أعماق كبيرة لتيسير الحصول على المياه(١٢١) .

كما أشار كادلفين الى جهود المديرين فى السواقى من أجل النهوض بالزراعـة فخص بالذكر محمود بك مدير دنقلة الذى أعجب به كادلفين « لأنه كان يجيد القراءة والكتابة التى كانت أمرا نادرا بين المديرين ، كما كان يقوم بمراجعة حسابات الكتبة بنفسه » وقد شيد حديقـة جميلة على الطراز الأوروبى ، وحرص على زراعة النباتات الافريقية فيها والتى جلبها من كردفان كما حاول اقامـة مصـانع للصـابون والزيـوت ولكن المشروع لم ينجـح واقام حديقة للحيوانات فى دنقلة فكان يقوم بصيد الحيوانات من سنار وأرفو وغيرها من المناطق لتزويد الحديقـة وأشار كادلفين « لقد وجدنا لديه عددا من الحيوانات الحيـة أسـدين من سنار ومجموعة من الزرافات وثلاثة تماسيح مخططة وكان يعد العدة لارسالهم الى القاهرة لتزيين أبواب القلعة » وأشار كادلفين بحب السكان لمحمود بك رغم انه تركى ثقيل الوزن عمره أربعون سنة ولا يستطيع التحرك بسهولة لثقل وزنه على حد قوله(١٢٢) .

كذلك أبدت الادارة المصرية اهتماما كبيرا بعملية التنقيب عن المعادن خاصة الذهب فيتحدث كايو عن محاولته للبحث عنه فى فازوغلي ولكن « النتائج لم تكن مرضية كما ذكر . فانتقل مجال البحث الى المنطقة الواقعة جنوب كردفان ولكن لم يتم العثور عليه بكميات كبيرة وانما عثر على معدن النحاس فى المنطقة المعروفة بحفرة النحاس جنوب دارفور »(١٠٣) كما أشار ديدية الى توفير خام الحديد بكميات هائلة فى غرب السودان(١٢٤) .

كما أشار الرحالة الى اهتمام الادارة المصرية بتنمية التجارة فى السودان وقدم كايو وصفا لخط سير القوافل من كردفان فى الغرب الى دنقلة عبر واحة سليمة ومنها الى أسيوط(١٢٥) .

هذا وقد مثل الرقيق أهم صادرات السودان وكان تم جلبه من جبل الفرتيت الواقع جنوبا وتم تجميعه على بعد خمسة أميال من القبة ومنه يرسل عبر الصحراء حتى تصل قوافله الى أسيوط مركز تجميع الرقيق(١٢٥) وقد كتب شولشيه المناهض لتجارة الرقيق بأنه كان يتم غزو قرى بأكملها للحصول على الرقيق من مختلف الأعمار فتيات صغيرات ارسلوا الى القاهرة من سنار وكردفان ودارفور وكانت هناك غزوات تم تنظيمها فى مواسم معينة ، ولكن رغم تجميع كل هذه الأعداد الهائلة من الرقيق لم يصل الى القاهرة فيها سوى نصفها أو أقل نظرا لوفاة العديد منهم أثناء الرحلة وأخذ شولشيه فى وصف أحوال الرقيق حيث يتم ربط الأطفال بحبل طويل فى الرقبة ويجبرون على السير عدة ساعات طويلة(١٢٦) وتألم ديدية من رواية احدى بنات ملك كردفان وقد وقعت فى الأسر واقتيدت الى القاهرة « فاصبحت من الجوارى بعد أن كانت تعيش فى رفاهية وثراء حتى أنها كانت

تسير على بطون العبيد وهم نائمون على الأرض فأصبحت الآن ذليلة وهـذا من فعل الزمن وتدابيره » على حد قوله(١٢٧) .

وأشار الرحالة الى جهود مصر من أجل تعمير المدن السودانية وبناء المدن الجديدة وحرصها على اقامة الأبنية والمنشآت فقد تم تعمير مراغة وبناء مدينة الخرطوم لتحل محل سنار التى انهارت خاصة وان موقعها عند التقاء النيلين وقريبة من فازوغلى وكردفان وقد اختيرت لتكون عاصمة السودان المصرى ومركز ومستودع التجارة يحمل اليها فرعى النيل منتجات الجنوب من العاج وقرون الخرتيت ، والصمغ وتراب الذهب وريش النعام والعبيد وتحمل كل هذه المنتجات الى مصر ومنها الى موانى البحر المتوسط حيث يتم مبادلتها بالمنتجات الأوروبيـة خاصـة الموسلين والأقمشـة الحريرية والطبـاق والسكر والأرز والقهوة ، ولكن رغم جهود الادارة المصرية فى الخرطوم الا أن ديدية وجدها مدينة قبيحـة فلا يوجد فيها ما يستحق المشاهدة لا الديوان ولا القصر الحاكم ، حتى المساجد فيها بلا زينـة ، والشىء الوحيد الذى يسترعى الانتباه فيها هو حديقتها المقامة على ضفاف النيل الأزرق ، نبه ديدية الى ضرورة عناية الادارة بشـوارع المدينة فهى غير منتظمة وكأنها جحور للثعابين(١٢٨) .

كما اشار الرحالة الى وجود عدد من الفرنسيين المقيمين فى السودان منهم د. بنى Penny الذى كان يعمل فى الخرطوم ثم تزوج احـدى الحبشيات كذلك التـاجر الفرنسى لافـارج Lafargue الذى تزوج من جاريـة حبشـية وعـاش فى بربر ولكن هـذا الزواج لم ينتج غير سـلالة متخلفة عقليـا ويعلق ديدية على ذلك « لم ينجح الدم الافريقى ولا الدم الفرنسى فى تحقيق أى نجاح »(١٢٩) .

كذلك أشار ديدية الى وجود البعثات التنصيرية فى جنوب كردفان خاصــة البعثات النمساوية ، كذلك وجد بعثة ايطالية فى الخرطوم مهمتها نشر المسيحية بين قبــائل الشلك والقبــائل الزنجية ويرى ديدية بأن هــذه البعثات لم تحقق نجاحا كبيرا وذلك لأن الزنوج ذبحوا أعدادا كبيرة من فيها لأنهم « لا يثقون فى الأوروبيين بسبب تجارتهم فى الرقيق »(١٣٠) .

واذا كان معظم الرحالة قد قدموا صــورة مشرفة للحكم المصرى فى السودان الا أن شولشيه واصل هجومه ونقده على محمد على وأسرته فى الســودان فلم ير أى ميزة لهــذا الحــكم « كان من المتوقع أن يدخل محمد على الحضــارة الى الأفارقــة ولكن هــذا لم يحدث فلم يطرأ أى تحسن على أحوال الســودان والسودانيين(١٣١) .

٣ ـ حــرب المــورة :

اتسمت كتابات الرحالة عن حملة محمد على الى بلاد المورة بالنقد والهجوم خاصــة من قبل شانوبريان المتعاطف مع الثوار اليونانيين والذى أثار أوروبا بكتاباته عنها(١٣٢) .

ويوضح شامبيليون أن موقف بلاده من حرب المورة قد أثر على علاقاتها مع الدولة العثمانيــة حتى انه عندما زار مصر أخبره دروفتى بأنه « كان يفضل أن يرجىء زيارته لمصر بسبب ســوء العلاقات السياسية بين الباب العالى وفرنسا علاوة على ما تلقاه الباشا من تهديدات باتخــاذ اجراءات قمعية ضــده وعليه فقد كان محمد على يخشى من أن يؤدى كل ذلك الى اثارة الشــعب المصرى ضــد الأوروبيين ، كما أضــاف بأن قدوم عدد كبير من الأشخاص الى مصر بأمر من حكومة تكاد تكون فى حالة حرب ضد السلطان من شأنه أن يضعه شخصيا فى موقف حرج أمام الباب

العالى وان محمد على يرحب بقدومى ترحيبا شـديدا لولا ان ذلك سيساء فهمه وتأويله من طرف وزرائه وقادته الأتراك ثم أخبر دورفتى شامبيليون بأن الأوضاع تغيرت بعض الشيء خاصـة بعد توقيع معاهدة الجـلاء عن المورة » وهـكذا يتضح لنا تأثر تأييد فرنسا لثورة المورة ثم اشتراكها فى القتال معهم كان له صـدى على أوضاع الفرنسيين فى البلاد ، ولكن ما لبث محمد على أن منح شامبيليون كافة التسهيلات والفرمانات(١٣٣) .

هذا وقد أدت انتصارات قوات محمد على فى بلاد المورة فى بداية الحرب الى تحفز الدول الأوروبية هـذه خاصة وأن الثوار اليونانيين استنجدوا بهذه الدول التى تكتلت ضد قوات محمد على وتم تدمير الاسطول المصرى فى نافارين ، ولم يكن شاتوبريان وحده من المؤيدين لثوار اليونان ضـد الدولة العثمانية وانما نجد أيضا من بين الرحالة الفرنسـيين المتعاطفين معهم شولشيه وشـارك ادمون ، وقد بالغ الجميع فى وصف المذابح التىارتكبها ابراهيم باشا فى المورة وأبدوا تعاطفا مع الثوار وعبروا عن ابتهاجهم بتحطيم الأسطول.المصرى(١٣٤) .

هذا وقد قدم شامبيليون وصفا لمدينة الاسكندرية أثنـاء حرب المورة فكتب « دهشت لأننى لم أشاهد أى بوارج فرنسية أو انجليزية لمراقبـة الميناء وهو ما تصوره الصحف فى أوروبا بأن الاسكندريـة فى حالة حصـار فوجدت تلك البوارج الفرنسـية والبريطانية المكلفة بفرض الحصار راسية فى سـلام وسط السفن التركية تكاد تلامس سفينتين جزائرتين وقد تلقت الأمر بمهاجمتها اذا همتا بمغـادرة الميـناء ، وعلى مقربة من الحراقات والسـفن الأوروبية المتعددة ، القلاع كانت هناك بواخر مصرية وتركية من كل الأنواع جاءت للترميم بعد الهزيمة الفادحة التى نزلت بها فى ميـناء نافارين اليونانى كم هو فريدا هـذا الخليط من البواخر

التابعة لكل الدول الصديقة والمعادية فى نفس الوقت انه لمشـــهد غريب يكفى لاعطــاء صورة عن الوضع السياسى الذى يسود تلك الحقبة التاريخية وبمجرد دخولنا الميناء جاء الينا القادة الفرنسيون المسئولون عن فرض الحصـــار لأخبارنا بمعاهدة وقف القتال فى المورة فمنـــذ ثمانيـــة ايام قـــدم الأميرال كودرينجتون على رأس أسطول صفير للوقوف على نوايا الباشا الذى وافق على كل البنود الأساسية التى جاءت فى المعاهدة ثم بعث فى الحال بعدد كبير من السفن المصرية لنقل المؤن والذخــائر للقلاع التى تركتها الاتفاقية تحت سيطرة الجيش المصرى كما اطلعت سفن أوروبية صـــوب المورة لاحضاره ابراهيم باشا والجزء الأعظم من قواته الى مصر خلال عشرين يوما »(١٣٥) .

ويصف شامبيليون محمد على بالذكاء لأنه استغل معرفته بتحركات الأسطول الفرنسى الى نافارين فأراد سحب قواته التى بلغت اربعة عشر ألف جندى خوفا من عدم صمودهم أمام القوات الفرنسية ، وخشى أن يجد نفسه فى موقف حرج تجـاه البـاب العالم وأن يبدو خائفا ولكن استغل الموقف لصالحه مبررا أمام الباب العالى الحكمة من وراء سحب أبنه وقواتـــه الذين أعيتهم الأمراض لدرجة لا تسمح لهم بمواجهة القوات الفرنسية ، الا أن الأمر الوحيد الذى يقلق محمد على هو خوفه من رد فعل الانسحاب على ابراهيم باشا الذى يتحرق شوقا منذ وقت طويل لاختبـــار جنوده فى خضم معركة ضد الكتائب الأوروبية وأن يتم ذلك قبل جلاء قواته(١٣٦) .

٥ ـ حـــروب الشـــام :

اراد محمد على انشـــاء دولة عربية مستقلة تضـــم البـلاد العربية فى افريقيا وآسيا ومن اجل هذا الهدف قام بغزو سورية،

وقد اكد هذه الحقيقة ابراهيم باشا فى حديث له مع كادلفين أثناء حصار عكا عندما سـاله عن المدن الذى يتوقع أن تصل فتوحاته اذا استولى على عكا فأجابه الى المدى الذىيتكلم الناس اللسان العـربى(١٣٧)

اما البارون بوالكونت فقد ذكر عندما قابل ابراهيم باشـا بالقرب طرسوس بالأناضول ان ابراهيم يجـاهر علنا بأنه ينوى احياء القومية العربية واعطاء العرب حقوقهم واسـناد المناصب اليهم سـواء فى الادارة أم فى الجيش وأن يجعـل منهم شـعبا مستقـلا(١٣٨) .

أما الأسباب المباشرة لحملات محمد على على بلاد الشام فقد أوردها شولشيه وهى هجرة الفلاحين من مصر وهجرة أراضيهم وقراهم بسبب السخرة وأعباء الضرائب المفروضـة عليهم ففروا الى سورية وعندما طلب محمد على من عبد الله باشا والى صيدا طردهم واجبارهم على العودة الى مصر رفض ، واسهب شولشيه فى وصف أحوال الفلاحين المصريين ، وما لاقوه من تعنت السلطات الحاكمة ونلمس فى كتاباته تعاطفه الشـديد مع الفلاحين الذين وصفهم بالبؤساء ، والحقيقة ان محمد على كان يطمع فى ضـم سورية وتوسيع حدود بلاده وانه اتخذ من فرار الفلاحين اليهـا ذريعة لشن الحرب(١٣٩) .

شهد كادلفين أحداث الحرب السورية فاستطاع القاء الضوء على اعداد القوات المصرية الزاحفـة ومعسكراتها وخط سيرهـا فذكر انها تجمعت فى الخانكة بقيادة ابراهيم باشا وسارت حملة برية عبر العريش الى سورية بينما كانت السفن الحربيـة تحمل المدافع والمعدات الثقيلة قد أبحرت من الاسكندرية قاصدة يافا ، ونجحت القوات البرية فى احتلال غزة ويافا وحيفا(١٤٠) .

ثم اتخذت القوات المصرية من حيفا مركزا للقيادة العسكرية ثم بدأ حصـــار عكا ويذكر أمبير : ان حصار عكا طال ورفض حاكمها عبد الله باشا التسليم وصمد للحصار ستة أشهر قبل أن يضطر التسليم . وقد واصلت القوات زحفها فاحتلت دمشق عام ١٨٣٢ حيث أعلن الأعيان وكبار الشخصيات ولاءهم لابراهيم باشا(١٤١) ثم سقطت حمص وتقدمت القوات نحو حلب مما اضطر القوات العثمانية الى الانسحاب نحو بيلان جنوب الاسكندرية ، فواصلت القوات المصرية زحفها نحو حماة وحلب عســكر الجيش العثمانى عند جبال بيلان بينما عسكرت القوات المصرية فى سهل مستو وتم وضع المشاه فى الصفوف الأمامية ويضيف كادلفين مهـارة ابراهيم باشـــا الذى راى انه من الص عب على القوات مهاجمـــة القوات العثمانية فى أعمال الجبال فلجأ الى حيلة تمكنه من السيطرة على المعركة فأرســـل بعض القوات لمهاجمة ميسرة القوات العثمانيـــة على أن تحتل أعالى وقمم الجبال وأرسل جزءا آخر الى ميمنة الجيش على أن تتولى المدفعية ضرب القوات العثمانية فى القلب وأعجب كادلفين بقدرة القوات المصرية على تسلق الجبال والسير فى المناطق الوعرة وتحقيق خطة ابراهيم باشا كما أراد(١٤٢) .

ثم واصلت القوات زحفها نحو انطاكية واللاذقية ومنها الى الأناضول فحـــاول السلطان محمود ارسال جيش لاسترداد بلاد الشام ولكنه هزم فى قونية عام ١٨٣٢(١٤٣) وبانتصـــار قوات محمد على فى قونية فتحت لها أبواب استانبول واجتاح الرعب الدولة العثمانية واسرع الروس بتقديم خدماتهم للسلطان فعرضوا عليه وضـــع عشرين ألف جندى فى الاستانة وعلق شولشيه على تهديد محمد على للاستانة « كيف سيكون حال الشرق لو وقعت الاستانة فى يده والتهم سورية »(١٤٤) .

ويزهو كادلفين فى كتاباته وهو يلقى الضـــوء على موقف بلاده بانها بذلت جهدا كبيرا لحسم الخلاف بين محمد على والدولة العثمانية ولكن محمد على رفض سحب قواته ولوح بقدرته على تحريك شعوب الأناضول للقيام بثورة ضد الدولة العثمانية خاصة وانه يتمتع بتأييد شعبه وأن سيطرته سوف تمتد على عدة أقطار وأكد ان الرأى العام يؤيده فى امتلاك ســورية وهو يجد فى تلبية مطالب فرنسا وبريطانيا ، عار وذل يفضل عليه الموت(١٤٥) .

هذا وقد وقع محمد على اتفاقية كوتاهية عام ١٨٣٣ وحصل بمقتضاها على ســورية وأذنة مع تثبيته فى حـكم مصر وكريت والحجاز فى مقابل الجلاء عن الأناضول وعقب كادلفين على انتصارات محمد على « انه الآن سيد نفسه وحان الوقت ليجلس فى مصاف العظماء »(١٤٦) كما أثنى أمير على مقدرة القوات المصرية القتالية بقوله « انها فرق لا تقهر »(١٤٧) .

وقد أشـــاد الرحالة بالحـكم المصرى فى بلاد الشـــام فكتب مارمون « اذا بقيت اعمال محمد على وبقى الأمن الذى بسطه على البلاد والاستقرار الذى تنعم به سورية الآن فما لاشك فيه انها سوف تتطور تطورا عظيما »(١٤٨) أما شولشيه فلم ير فى حـكم محمد على لسورية سوى انه أدى الى قيام الثورات بسبب فرض الضرائب مما اضطر الأهالى لبيع أولادهم(١٤٩) .

لم تستسلم الدولة العثمانية وصممت على استرجاع بلاد الشام واخفقت محـاولة الصلح بين الطرفين وسرعان ما نشبت الحرب من جديد ، ولكن القوات المصرية نجحت فى تحقيق مزيد من الانتصارات خاصة فى نزيب الذى وصفه شولشيه بانه كان « انتصـــارا حاسما ارتفعت بعده أسهم ابراهيم باشا ومحمـد عـلى »(١٥٠) .

ثم تبع ذلك معاهدة لندن عام ١٨٤٠ التى رفضها محمد على ويعلق شولشيه على ذلك ان بريطانيا أرادت انتهاز الفرصة واظهار ودها للسلطان العثمانى الجديد عبد الحميد الذى خلف محمود ، فوقعت مع روسيا والنمسا وبروسيا اتفاقا كان الغرض الرئيسى والهدف الأساسى منه هو الحد من طموح الباشا المنتصر ، ولما كان قصر التويلرى له ارتباطاته مع محمد على فلم يهتم بالتحالف الذى عقد دون حضورنا أو مشورتنا واعتقد محمد على ان فرنسا سوف تدافع عنه ، وفى الحقيقة انه لم يدرك ان مهاجمة هذه القوات له ، انما كان المقصود منه مهاجمة فرنسا نفسها ولكن حكومة يوليو لم تتفهم الأمر جيداً »(١٥١) .

رفض محمد على شروط المعاهدة فنشبت الحرب من جديد(١٥٢) وتدخلت الدول الأوربية واستولت على بيروت وحيفا وصور وصيدا واضطر المصريون للجلاء عن طرابلس واللاذقية وادانه ثم سقطت عكا ويافا ونابلس ، وبينما هاجمت السفن الحربية الثغور الشامية لاجبار القوات على الانسحاب ، قام الجنرال نابير بمظاهرة أمام ميناء الاسكندرية . ونشعر من خلال كتابات شولشيه بشماته كبيرة عند انسحاب القوات المصرية ، لقد استعاد الباب العالى سورية ، ولن تعود لمحمد على مطلقا بعد أن نال أول لكمة من أوروبا ، لقد سقط مجده العسكرى فى بيروت وعكا ، ولولا تدخل فرنسا لفسد حكمه ، فهو مهزوم ، مدلول عليه أن يحنى جبهته من الآن فصاعدا ان انسحابه عار لن يتم محوه وسيلازمه طيلة حياته انه يعمل الآن على التقرب من بريطانيا ويتبع المثل المعروب « قبل اليد التى لا تستطيع قطعها » هكذا عبر شولشيه بحقد وشماتة عن هزيمة محمد على(١٥٣) .

بينما يرى كادلفين انه مما يحمد لمحمد على ويستحق الثناء عليه انه على الرغم من نفقات التوسعات العسكرية الا انه حرص

على المحافظة على ميزانيـة البلاد فرفض الاستدانة حتى عندما عرض عليه ورتشليد بواسطة مندوبين قرضا لتغطية تكاليف حرب المورة والشام رفض وصمم على الاستعانة بموارده المحلية ، واجتهـد لزيادة حجم الصـادرات لتعويض ما انفقـه فى هـذه الحـروب(١٥٤) .

أشار معظم الرحالة ان عمليات التوسع العسكرى خارج حدود مصر قد سبقتها محاولات وجهود عظيمة لتطوير قوة مصر العسكرية ، فقد أولى محمد على وخلفاؤه الجيش اهتماما كبيرا ومعظم المنشآت التى تمت فى البلاد لخدمة الجيش مثل مدرسة الطب لتخريج الأطبـاء الذين يحتـاج الجيش اليهم كذلك دور الصناعة ومصانع الغزل والنسيج التى كان الغرض منها توفير الملابس اللازمـة للجنود ، كما تم انشاء المدارس الحربيـة على اختلاف انواعها لتخريج الضباط الاكفاء .

وقد بدات محاولات « ادخال النظام الجديد » بعد عودة اسمـاعيل باشا من الحجـاز خاصـة وأن الجنود غير النظاميين اعتادوا اثارة الفتن والاضطرابات فى البـلاد . كما أن ارسـال هؤلاء الجنود الى الحجاز كان خطوة موفقة من محمد على للتخلص منهم على حد قول كادلفين(١٥٥) .

وقد بدات تطوير الجيش بفتح مدرسة جديدة فى أسـوان عام ١٩٢٠ لتخريج ضباط أكفاء وعهد الى الكولونيل سيف بهـذه المهمة فأحضر خمسمائة من المماليك لتدريبهم وتزايد هـذا العدد حتى وصـل الى ألف وتم تدريبهم لمدة ثلاث سـنوات ويعلل كادلفين اختيار أسوان لبعدها عن العاصمة ولكى يصبح الطـلاب بعيدين عن مغريات القـاهرة . ولكن كان من الصعب اخضـاع

هؤلاء المماليك على أساليب القتال الحديثة فدبروا مؤامرة للتخلص من الكولونيل سيف وحاولوا اطلاق النار عليه ولكنه نجــا ثم عفى عن المتآمرين مما كان له أثر كبير فى انضباطهم(١٥٦) .

هذا وقد حاول محمد على تجنيد السودانيين خاصة القادمين من سنار وكردفان ولكن لم تنجح هــذه التجربة وعلل كادلفين أسباب فشلها الى عدم ملاءمة مناخ مصر بالنسبة لهم . كذلك تجنب محمد على تجنيد الارناءوا والأتراك « لميلهم الشــديد الى الشغب وعدم الانضباط » وأخيرا لجــأ محمد على الى تجنيــد الفلاحين « فاثبت المصريون انهم جنود بواسل وحققوا العديد من الانتصارات لمصر ونشعر بأسى كادلفين وأسفه لأن انتصـــارات الجنود المصريين جنى ثمرتها كبار الضباط ولكن التجربة اثبتت أن الجندى المصرى يتسم بالشجاعة والصبر ، ولكنه أشـــبه بآلة تتحرك وتنفــذ التعليمات بدقة بالغة(١٥٧) كذلك انتقد كادلفين طريقة تجنيد الفلاحين حيث كانوا يساقون بصــورة مزرية الى معسكرات التجنيد فكان الجنود الالبان يغيرون على القرى فيفر منها الفلاحون ، الذين يتم القاء القبض عليهم وتجميعهم تمهيــدا لفحصهم بواسطة جراح ثم اقتيادهم الى الاسكندرية أو القاهرة وأيديهم مربوطة وراء ظهورهم(١٥٨) .

وفى يناير عام ١٨٢٣ تألفت الأورط الست الأولى من الجيش النظامى وأصبح المماليك الذين تعلموا فى أسوان ضباطا ثم انشــأ محمد على معسكرا عاما للجيش الخانكة التى أصبحت المعســكر الرئيسى للجنود وضم حوالى عشرين الفا من الجنود ثم انشئت مستشفى عسكرية فى أبى زعبل لخدمة هؤلاء الجنود(١٥٩) .

هــذا وقد تزايدت المدارس العسكرية فتم انشاء المدارس الحربية فى فرشوط وجرجا ومدرسة للمشــاه ثم مدرسة اركان

حرب فى الخانكة ومدرسة القصر العينى التى عرفت بالتجهيزية الحربية قدر مارمون عدد طلابها ١٢٠٠ طالب(١٦٠) .

أما مدرسة الفرسان فقد أنشئت فى الجيزة فى قصر مراد وتولى فاران تنظيمها وقدر شولشيه عدد طلابه ٣٥٠ طالبا و ٩٠٠ من الخيول(١٦١) وقد أوضح كادلفين صعوبة انشاء مدرسة للفرسان فى مصر « فذلك ليس أمرا سهلا لأن الخيول قليلة فى وادى النيل ، وكان تم احضار الخيول من نجد واحضار سلالات من سورية والروملى والقرم وقد كلف هامون بادارة المدرسة البيطرية يكون فى شبرا اصطبلا كبيرا للخيول يكفى لاستيعاب ٨٠٠ من الخيول وتم بناء الاصطبلات على الطراز الحديث وتم زراعة مائة الف فدان بالمحاصيل والفلات اللازمة لغذاء الحيوانات » وقد أشار كادلفين الى ضعف سلالة الخيول فى مصر وعلل ذلك « لهلاك الكثير منها فى حملات الحجاز فضاعت السلالات القوية الجيدة »(١٦٢) .

واشار مارمون الى أن مدرسة الفرسان فى مصر كانت تتبع نظام مدرسة سومور الحربية الفرنسية وعندما زارها عام ١٨٣٤ كتب « عندما شاهدت الطلبة يقومون بالمناورات فى الميدان خيل الى اننى أمام طابور من أرقى الايات الخيالة فى فرنسا ولئن كان ينقص المدرسة لتصل الى درجة الكمال بعض دروس فى اللغة والرسم ، والطلبة يجيدون ركوب الخيل والمناورات التى يقومون بها تجرى بخفة ودقة واحكام ونظامهم وهندامهم على أحسن ما يكون فهم جنود بكل معانى الكلمة »(١٦٣) .

هذا وقد تم انشاء مدرسة للمدفعية فى طرة وتولى ادارتها سيجيرا وهو كولونيل أسبانى عاونه مجموعة من الضباط الفرنسيين(١٦٤) .

كذلك تم انشاء مدرسة للموسيقى العسكرية على غرار المدارس الأوروبية وزودت بالآلات الموسيقية وتولى المدرسون الأوروبيون تنظيم العمل فيها وعلق مانجان على هذه المدرسة « ان أولئك الشبان الفلاحين قد أبدوا من السهولة فى توضيح الألحان الصعبة من النوتات ما أدهش العازفين بالفن وخاصة الافرنج الذين اجتذبتهم الى وادى النيل شهرة محمد على(١٦٥) .

هذا وقد اهتمت الحكومة بمظهر الجنود فكان الفرسان ورجال المدفعية والحرس يرتدون فى الشتاء صدارا أزرق اللون ويرتدون فى الصيف الملابس البيضاء وأحذية حمراء أما باقى الجنود فكانوا يرتدون سروال واسع يربط عند الركبة برباط وفى الشتاء كانت ملابسهم من الجوخ أما فى الصيف فهى من قماش سميك نوعا وكذلك كان لابد من ارتداء الطربوش الأحمر حتى الأوروبيين العاملين فى الجيش كانت هذه الملابس تصرف اليهم من الحكومة(١٦٦) .

ولم يكتف محمد على بانشاء المدارس العسكرية وانما أنشأ العديد من المدارس ولكن كانت كلها لتحقيق اغراض عسكرية محضة ولتخريج نفر من المؤهلين المقتدرين . فقد تم انشاء مدرسة الطب فى أبى زعبل فى بداية الأمر واختارت الحكومة كلوت لادارتها وزودتها بنخبة من الأساتذة الأوروبيين(١٦٨) .

وقد قدم كادلفين وصفا لمدرسة الطب فى أبى زعبل خاصة وان محمد على دعاه لزيارتها فكتب عن مستشفى أبى زعبل بانه يوجد بها ثمانية أقسام وبها صالات واسعة تحوى كل منها خمسين سريرا خاصة بالضباط والمرضى وتوجد صالة للدراسة تستوعب مائتين من الطلاب كما توجد مطبعة حيث يتم ترجمة

الأعمال الطبيـة الهامة وفى منتصف المستشفى توجد حديقـة واسعة ويوجد بها متحف وتوجد فى الصـالات معامل وصيدلية ويستخدم العنف فى المستشفى لمنع الفلاحين من الهروب منها كما احيطت المستشفى باسـوار عاليـة قوية لنفس الغرض واحيانا يتم ربط المرضى فى اسرتهم ثم اختتم كادلفين وصفه ان اسـم ابو زعبل يتردد منذ سنوات فى أوروبا(١٦٩) .

كذلك أنشئت مدرسة للصيدلية ومدرسـة للولادة الحقت بمدرسة الطب واختيرت قابلات حبشيات وسـودانيات للعمـل فيها وأعجب شولشيه بهذه المدرسة وكتب عن الحكيمات فيها « انهن مندوبات ورسـل الحضارة والمدنية فى هذا البلد(١٧٠) كما أنشئت مدرسة المهندسخانة فى بولاق وكان خريجوها يعملون فى انشاء الجسور والتنقيب عن المعادن اما مدرسة الألسن فقد انتقد الدراسة فيها شولشيه فهى من وجهة نظره « لا تمثل مدرسـة بالمعنى الحقيقى فما هى الا مكتب صغير للترجمة »(١٧١) .

ثانيا ـ احوال مصر الاقتصاديه

قدم الرحالة وصفا لحيـاة الاقتصـادية فى مصر فى القرن التاسع عشر فسجلوا مشاهداتهم عن النشاط الزراعى والصناعى والتجارى ، وقـد ساعدهم فى ذلك اقامة البعض منهم فى مصر واستقراره فيهـا لعدة سـنوات كذلك وجود أعـداد كبيرة من الأوروبيين خاصـة الفرنسيين العاملين فى خدمة الدولة الجديدة أضف الى ذلك حرص حكام مصر خلال تلك الفترة على استعراض انجازاتهم ومشروعاتهم الكبيرة فى البـلاد فعلى سبيل المثال كان محمد على يفخر أمام الرحـالة بما انجزه فى مصر ويحرص على اصطحاب هؤلاء الرجال لرؤية قناة المحمودية ومشروع القنـاطر الخيرية والمصانع التى أقامها فى أنحاء البلاد ، أما الخديوى اسماعيل فيكفيه احتفالات افتتاح قناة السويس وتشجيعه للأجانب على الاقامة فى البلاد .

الزراعـــة :

حرص معظم الرحالة عند الحديث عن ثروة مصر الزراعيه وأنتاجها الزراعى ان يؤكدوا على أن أسباب هذا الثراء ترجع الى

توفر المياه كذلك الى اعتدال المناخ مما يتيح للمحاصيل فرصة للنمو ، والى تربتها الخصبة.وفى الحقيقة أن هذه الكتابات اتفقت الى حد كبير مع ما أكده الرحالة الفرنسيون فى القرن الثامن عشر فلو اطلعنا على ما دونه نولنى على سبيل المثال سنجد انه أرجع وعلل زيادة الانتاج الزراعى فى مصر الى مناخهـا المعتدل وتوفر المياه فيها وخصوبة أراضيها فقال « ينمو الزرع سريعا فى مصر بسبب الحرارة والرطوبة معا وبدون مجهود يذكر »(١٧٢) .

لم يكتف الرحالة الفرنسيون بالاشادة بثروة مصر الزراعية وانما حرص معظمهم على الحديث عن أهم المحاصيل الزراعية وعن الأساليب المتبعة فى الزراعة كذلك حذر البعض منهم من تراجع مساحة الأراضى الزراعيـة بسبب زحف الرمال عليهـا ، فاطـلق كادلفين صرخة تحذير فقد قدر مساحة الأراضى الزراعيـة فى عهد سليم الأول بستة مليون فدان تناقصت فى بداية عهد محمد على فى عام ١٨١٢ لتصل الى ٢ مليون و ٥٠٠ فدان وعلل كادلفين ذلك « بأنه ليس بسبب زحف الرمـال فقط وانما بسبب الحروب الأهلية والمعارك الدموية »(١٧٣) .

نشعر من خـلال كتابات الرحـالة بأسفهم على أن الأراضى الزراعيـة فى مصر ليست ملكا للفـلاح فثروة مصر الحقيقيـة فى أرضها « ولكن الباشا لم يترك الأرض لمن يزرعها وانما كل أراضى مصر ملكا له فالفلاح لا يزرع الا لخدمتـه وعند جنى المحاصيل توضع فى مخازن الباشا من أجل التصدير ويحدد هو نفسه السعر المناسب لكل سلعة وما يتبقى لدى الفلاح من محصول يضطر لبيعه لدفع الضرائب والتى غالبا ما يعجز عن دفعها كما تتعرض الفلاح لعدة ضغوط مثل غارات البدو على أراضيه وان كانت هـذه الاغارات قد خفت حدتها وضعفت بسبب تصدى محمد على لها » على حد قول ميشو(١٧٤) .

ودعا ريفو فى كتاباته الى ضرورة استخدام الآلات الحديثة فى الزراعة لأن مصر من اغنى البلاد واستخدام هذه الآلات سيتيح لها فرصة اكبر للانتاج الزراعى فضلا عن أن مناخ مصر يسمح بنمو كافة انواع الغلات بما فيها الغلات الاستوائية مثل غلات سيلان فلابد من الافادة من ذلك فى زراعة مثل هذه الأنواع ، ثم اخذ ريفو يؤكد فى كتاباته على خصوبة أراضى مصر ولكن ما ذكره لم يختلف كثيرا عما كتبه من قبل جومار وراؤل روشيت(١٧٥) .

أما عن أهم الحاصلات التى تزرع فى مصر فهى القمح والفول والذرة العويجة والأرز والعدس والحمص والخس والترمس والبرسيم والكتان والنيلة والقرطم والدخن والبصل والسمسم والحناء والخضر والفواكه(١٧٦) .

كذلك يلاحظ أن رحالة القرن التاسع عشر قد اهتموا بتقديم وصف سريع لأهم الحاصلات الزراعية وهم يختلفون فى ذلك عن الرحالة الفرنسيين الذين وفدوا على مصر فى القرن الثامن عشر فكانوا حريصين على تقديم وصف دقيق لأنواع الفاكهة المختلفة والخضروات وذلك لاعطاء القارىء الفرنسى وصفا عن شكلها ولونها ثم جاء علماء الحملة الفرنسية فقدموا وصفا علميا شاملا عن كل ما تجود به أراضى مصر فلو رجعنا لكتابات رحالة القرن الثامن عشر لوجدنا على سبيل المثال وصفا شاملا لكل أنواع الفاكهة والخضروات دونوها فى صفحات كاملة فنجد سافارى يكتب صفحات عن القلقاس « نبات له ثمرة صلبة لونها وردى طعمه جميل ولكنه أقل حلاوة من البطاطس » كذلك كتب عن الكوسة « نوع صغير من الخيار حلو المذاق والطعم يتم طهيه ويطلق عليه السكان كوسة » كذلك نجده يتعجب من طهى المصريين لأوراق العنب « التى يتم لفها بطريقة دقيقة » أما فى القرن

التاسع عشر فلم تعد هذه الأنواع مجهولة أو فى حاجة الى الأوصاف الدقيقة التى دونها رحالة القرن الثامن عشر وعلماء الحملة الفرنسية(١٧٧) .

اوضح رحالة القرن التاسع عشر الأنواع الجديدة من الغلات والمحاصيل التى أدخلها محمد على فى مصر فقد غرس أشجار التوت بكميات كبيرة وعلى مساحات شاسعة وجلب المزارعين من سورية ولبنان وتم التوسع فى زراعتها فى وادى الطميلات وغيرها من المناطق وقدر كادلفين انتاج الحرير فى عام ١٨٣٢ و ١٨٢٢ ب ١٢٠٠ أقه(١٧٨) ويؤكد هامون فى كتاباته هذه الحقيقة فيذكر أن محمد على بدأ تجربة تربية ديدان الحرير عام ١٨١٢ وجاء بالسوريين لتربيتها وانتقد هامون مجيئهم الى مصر لأنهم « لم يكونوا يعرفون عن هذا العمل اكثر مما يعرفه الأهالى المصريون »(١٧٩) .

كذلك اهتم محمد على بالتوسع فى غرس الأشجار للاستفادة من أخشابها فى بناء السفن وامتدح ريفو هذه الخطوة وذلك « لأن مصر فقيرة من الأخشاب »(١٨٠) وحرص على غرس أشجار الزيتون لاستخراج الزيوت فتم زراعتها فى الوجهين القبلى والبحرى ؛ كما تم التوسع فى زراعة قصب السكر والطباق(١٨١). أما القطن فلم تعرف مصر سوى الأنواع الرديئة حتى عام ١٨٢١ ونشعر من خلال كتابات الرحالة بالفخر وهم يتحدثون عن فضل جوميل فى زراعته حتى عرف فى الأسواق العالمية وازداد الطلب على القطن المصرى(١٨٢) واكد كادلفين ان الأخير قادر على منافسة القطن الأمريكى ولكن زراعته تحتاج الى الخبرة للافادة من مياه النيل اللازمة لزراعته(١٨٢) .

وكما جلب محمد على السوريين فى تربية دودة الحرير فقد جلب أيضا الهنود من اجل التوسع فى زراعة النيلة الهندية وقدر ريفو مساحة الأرض المنزرعة بها بنحو مائة ألف فدان(١٨٤) .

هذا وقد اهتم الرحالة الفرنسيون بتسجيل وابرار جهود محمد على فى مجال الزراعة خاصة فيما يتعلق بمنشآت الرى على النحو التالى اصلاح سد أبو قير وسد فتحة البحيرة وكان هذا العمل له أثر عظيم على ضواحى الاسكندرية وكان نابليون بونابرت قد امر بقطع هذا السد لعزل الاسكندرية تم حلت القوات البريطانية حذوه عند مجيء حملة فريزر فقامت بقطع الجسر الذى يقع فى نهاية خليج ابى قير مما أدى الى تدفق مياه البحر حتى أغرقت الأراضى الزراعية فى جنوب البحيرة واستغرق هذا العمل عدة سنوات وقد أشار معظم الرحالة لعملية اصلاح سد أبو قير وكانت السلطات المصرية حريصة على ابراز انجازاتها(١٨٥) .

سد ترعة الفرعونية :

كانت ترعة الفرعونية تصل بين فرعى النيل بواسطة مجرى مائى طبيعى وكانت فوهته على مقربة من قرية بير شمس على فرع دمياط مارة بمنوف ثم يصب فى فرع رشيد وكان هذا المجرى يسمى بترعة الفرعونية نسبة الى قرية صغيرة بهذا الاسم ولكن هذا المقر أضر بالأراضى الواقعة على فرع دمياط لأن الترعة كانت تستنفذ كميات كبيرة من المياه مما أضر بزراعة الأرز فى شمال دمياط فجلبت عليهم هذه الترعة المضار فقام محمد على بسدها بجسر من الأحجار ليمنع انسياب مياه فرع دمياط الى الفرع الآخر(١٨٦) .

اما ترعة المحمودية فقد افاض الرحالة فى الحديث عنهـا ونشـعر فى كتاباتهم بالزهو لأن كوست الفرنسى كان المهنـدس المخطط لها ، وهذه الترعة هى ترعة الاسكندرية القديمة وكانت الرمال قد طمرتها فعمل محمد على على اعادة استخدامها ولكن جعل فتحتها من العطف بدلا من الرحمانيـة حيث كانت الترعـة القديمة تستمد مياهها وقد أدى شق هذه الترعة الى احياء الأراضى الزراعية فى البحيرة . كما حققت وسـائل الاتصـال سهلة عبر النيـل بين القـاهرة والاسكندرية وقد بدأ العمل فيهـا منذ عام ١٨١٩ وكان عرضها تسعين قدما وعمقها ثمانيـة عشر قدما وتم افتتاحها فى عام ١٨٢٠(١٨٧) .

وقد ترتب على حفر الترعة ظهور مدينـة العطف وميـلادها فأصبحت مخزنا للبضـائع كما أدت الى تنشيط التجـارة ولكن المـاريشال مارمون انتقد بناء كوبرى على الترعة لأنه أعاق الملاحة وكان لابد من انزال البضـائع من المراكب ثم اعادة تحميلهـا عدة مرات هذا الخطـأ فالترعة تؤدى وظيفتها وتحمل المياه العذبـة الى الاسكندرية(١٨٨) .

وذكر مارمون أن مشروع شق قناة المحمودية فكر فيه علماء الحملة الفرنسية عندما رأوا الفلاحين عاجزين عن الاحتفاظ بالمياه فكانوا يحـدثون ثقوبا فى القناة القديمة فيتم ملء الصهـاريج ويرجع الفضل الى لى بير Le Père المهندس الفرنسى فى التفكير فى هذا المشروع وقد قدر شابرول ولانكريه فى وقت الحمـلة تكلفته بنحو ٥٧٠ الف فرنك وقد نشر علماء الحملة هذه الأبحاث وأكدوا أهمية شق القناة لاعادة ازدهار المواصـلات الداخلية ثم نفذ المشروع فى عهد محمد على(١٨٩) .

أما ميشو فقد القى فى كتاباته الضوء على معاناة الفلاحين البؤساء أثناء حفر الترعة ووصف أحوالهم وهم يعملون عرايـا

وكانوا يعانون من نقص الغذاء والمياه حتى أدوات الحفر اللازمة للعمل لم تتوفر لديهم فكانوا يحفرون بأيديهم دون كلل أو توقف وكانوا يقضون يومهم وهم فى الرحل وعوملوا أسوأ معاملة حتى أنه توفى منهم اثنا عشر الفا من الجوع والمرض(١٩٠) حتى النساء والأطفال لم ترحمهم السلطات فحفروا الترعة باظافرهم وهم يتعرضون للضرب بالسياط والعصى وافاض أمبير فى سرد روايات عن انتزاع الأطفال من احضان أمهاتهم للعمل فى هذا المشروع فكان المارة يسمعون انين النساء والأطفال ولا يملكون لهم شيئا لتخفيف آلامهم(١٩١) .

كذلك اهتم الرحالة بالقاء الضوء على القناطر والترع التى انشئت لضبط مياه النيل فذكر شارل أدمون قناطر بحر موسى بالزقازيق وطامية فى الفيوم وكانت بمثابة خزان لحفظ المياه كذلك الشرقاوية والزعفرانية فى القليوبية والبحر الصغير والباجورية فى المنوفية ودميرة وبيلة فى الغربية . اما فى الوجه القبلى فقد شيدت قناطر بنى سويف ومنفلوط وملوى واسيوط وابنوب كذلك تم شق الترع والعناية بها ففى البحيرة ترعة المحمودية والخطاطبة وفى الغربية امتداد الجوفية وفى الدقهلية المنصورية وام سلمة والشرقاوية وفى المنوفية الرساوية والباجورية فى الشرقية ترعة الوادى والمسلمية وبحر مشتول ومصرف بلبيس وفى القليوبية الزعفرانية والشرقاوية والبولاقية وفى بنى سويف وفى المنيا ترعة الفشن(١٨٢) .

ولم ينس الرحالة الاشادة بمشروع القناطر الخيرية العظيم الذى بدأ العمل فيه منذ عهد محمد على وكان الغرض منه عدم اهدار مياه النيل واستمرار رى الأراضى الزراعية طوال العام فانشأ القناطر فى نقطة معروفة عند التقاء فرعى النيل تعرف

باسم بطن البقرة وعهد بالدراسة الى لينان دى بلفون والى موجل فاراد لينان اقامة القناطر على اليابس بينما فضل موجل اقامتها على النيل مباشرة وتم تنفيذ تصميم موجل واقيمت قنطرتين على فرعى النيل يوصل بينهما رصيف وتم شق ثلاث ترع كبرى تتفرع عن النيل فيما وراء القناطر لتغذية الدلتا وهى التى عرفت باسم رياح المنوفية والشرقية ثم توقف العمل بالقناة فى أواخر عهد محمد على لكثرة النفقات ثم استؤنف العمل بها وفى عهد عباس حاول توفير الأحجار اللازمة للقناطر ففكر فى انتزاع أحجار الهرم الأكبر ولكن لينان دى بلفون رفض واقنعه بأن ذلك سيكلفه أموالا طائلة وانتقد بارديو فكرة عباس ووصفه بالجهل لأنه لم يدرك قيمة الأهرامات وبعد الانتهاء من العمل ظهرت مدينة القناطر وخططت شوارعها وزرعت الأشجار حولها واصبحت تستخدم للنزهة(١٩٣) .

وكان تعليق معظم الرحالة على تلك الأعمال والمنشآت بأنها تمت بأيدى فرنسية فكتب اكزافيه بفخر « ان جميع الأعمال النافعة والمشروعات العمرانية التى اقامها محمد على يرجع الفضل فيها الى الفرنسيين الذى قدموا له يد المساعد فى كافة المجالات(١٩٤) .

هذا وقد حرص معظم الرحالة عند الحديث عن الزراعة فى مصر الى تقديم وصف سريع لتقسيمات مصر الادارية فذكر كادالفين بأن محمد على فى عام ١٨٠٨ قسم أقاليم مصر الى سبع ولايات اربع منها فى مصر السفلى : وتكونت الولاية الأولى من البحيرة والقليوبية والجيزة ، والولاية الثانية من المنوفية والغربية والولاية الثالثة من المنصورة والرابعة من الشرقية ، أما مصر الوسطى فقد شملت ولاية واحدة تكونت من بنى سويف

والفيوم والمنيا . اما ولايتا مصر العليا فكانت الأولى تمتد من شمال قنا الى جنوبى المنيا والثانية من وادى حلفا الى قنا . هذا وقد اعتبرت المدن الكبرى والثغور أقساما ادارية مستقلة فأطلقت عليها محافظات مثل الاسكندرية ورشيد ودمياط والسويس(١٩٥) .

وفى عام ١٨٢٦ أدخلت تعديلات على التقسيم الادارى فسميت الولايات والأقاليم مأموريات بلغ عددها ٢٤ مأمورية ١٤ منها فى الدلتا و ١٠ مأموريات فى الوجة القبلى . وفى عام ١٨٣٤ تم تحويل المأموريات الى مديريات فأصبح عدد المديريات ١٤ مديرية ولكن اعداد هذه المديريات لم يكن ثابتا لأن احيانا كان يتم دمج بعض المديريات أو فصل البعض الآخر . وقد قدم لنا شارل أدمون وصفا لهذه المديريات فى عهد اسماعيل فذكر انها فى عام ١٨٧٢ بلغت ١٤ مديرية على النحو التالى سبعة منها فى الوجه القبلى ومديريتان فى مصر الوسطى . ففى الوجه البحرى :

١ ــ مديرية البحيرة وعاصمتها دمنهور ولها أربعة اقسام و ٣٣٠ قرية .

٢ ــ الجيزة وعاصمتها الجيزة وبها ثلاثة اقسام و ١٦٠ قرية .

٣ ــ مديرية قليوب وعاصمتها بنها وبها ثلاثة اقسام و ١٥٠ قرية .

٤ ــ الشرقية العاصمة الزقازيق واهم المدن بلبيس ــ الابراهيمية ــ بها خمسة اقسام و ٣٩٩ قرية .

٥ ـ المنوفية العاصمة شبين الكوم وبها اربعة اقسام و ٣٢٢ قرية .

٦ ـ الغربية العاصمة المحلة الكبرى واهم المدن طنطا ـ سمنود ـ زفتى ـ كفر الزيات ـ فوة بها تسعة اقسام و ٥٦٤ قرية .

٧ ـ الدقهلية والعاصمة منصورة واهم المدن السنبلاوين وميت غمر والمنزلة وبها اربعة اقسام و ٤٢٢ قرية .

اما مديريتا مصر الوسطى فقد تكونت من :

١ ـ بنى سويف والفيوم والعاصمة بنى سويف واهم المدن ببا والفيوم .

٢ ـ المنيا العاصمة بنى مزار .

اما مديريات مصر العليا فقد تكونت على النحو الآتى :

١ ـ اسيوط والعاصمة اسيوط واهم المدن منفلوط وملوى .

٢ ـ جرجا العاصمة سوهاج .

٣ ـ قنا والقصير واهم المدن ارمنت وفرشوط .

٤ ـ اسنا واهم المدن اسنا واسوان .

٥ ـ شرق أطفيح واهم المدن أطفيح(١٩٦) .

هذا وقد قسمت المديريات الى مراكز والمراكز الى اخطاط أما الجهاز الادارى فقد تكون على النحو التالى :

المديرون : كانوا يتلقون الأوامر من محمد على ولهم نفوذ وحقوق كبيرة ولهم حق المراقبة المباشرة على المأمور وزعماء الأقاليم وكان معظمهم من الأتراك(١٩٧) فاستبدوا بالفلاحين وسجل بارتلمى سانت هيلار ملاحظاته عنهم بقوله « ان الفلاح المسكين وقع بين براثن المديرين يسومونه العذاب »(١٩٨) .

المأمور : له نفس مهام المدير ولكن له اتصالاته المباشرة مع النظار ، ويعاونه المعاون فى ادارة المأموريات وزراعة الأراضى وحرثها واقامة الجسور وحفر الترع واصلاح الأطيان ، ومتابعة زراعة التقاوى وحل مشاكل الفلاحين واعداد البيانات والتقارير عن أحوال المأموريات ويقوم الكتاب بمعاونة المأمورين فى مهامهم فيتولون اعمال الكتابة(١٩٩) .

النظار : مهمتهم متابعة الأقسام وهم يعرفون عدد الفدادين فى كل قرية ومراقبة جمع الفردة والميرى ، كما يقومون بتجميع الحاصلات اللازمة للحكومة وتشوينها فى مخازن الحكومة ولابد للنظار من تسجيل العجز او النقص كذلك لابد من تسجيل أحوال الزراعة فى « دفتر الزراعة » ويوجد دفتر يختص باقامة الجسور وشق الترع ، ويعاون النظار الجرنالجى . ويرى كادلفين ان وظيفة الناظر قريبة الشبة من وظيفة المأمور فعليه مراقبة نتاج الأرض وتوزيع المحاصيل كذلك له اتصالاته بالديوان فى مصر فيرسل اليهم « جرنال العمليات » وهو يقترح فيه التغييرات اللازمة لتحسين الانتاج ، ولكن القرار الأخير يكون فى يد محمد على الذى يقرر اضافة أو عدم تنفيذ ما أرسل اليه من مقترحات وتقارير . ويتم ارسال المهندسين الى النظار لمراقبة الأراضى وتحديد أماكن حفر القنوات وقت الفيضان كما يوضع فى كل اقليم فرقة من الفرسان مهمتها الحفاظ على الأمن(٢٠٠) .

أما **حاكم الخط** فهو مسئول عن مراقبة وتنفيذ التعليمات الواردة وهو مسئول أيضا عن الحفاظ على الأمن والتعداد ، وعن عدد السواقى ، والماشية وعدد النساجين(٢٠١) .

القائمقام : يتلقى اوامره من الناظر ، ويوجد على راس القرية الهامة وقد ألغيت هذه الوظيفة منذ عام ١٨٣٤ وتم تجميع كل السلطات فى يد شيخ البلد وذكر كادلفين « أن شيخ البلد فى مصر هو المعروف فى فرنسا بالعمدة فهو المسئول عن حل المنازعات والقضايا »(٢٠٢) . أما بارتيلمي سانت هيلار فقد أكد أن شيخ البلد له سلطات واسعة على الفلاحين وهو يتسم بالطغيان والعنف والقسوة(٢٠٣) .

ويعاون هذا الجهاز الادارى الصراف وهو غالبا من الأقباط والمساح وهو المسئول عن ملاحظة الأطيان وقياسها وتحديد مدى صلابتها للزراعة والأصناف التى تصلح للزراعة . **والمشد** ووظيفته المرور على المزارعين يوميا واحضارهم للديوان لدفع ما عليهم من أموال وأصناف ، وضبط الفارين من الفلاحين من الاشغال العامة(٢٠٤) هذا وقد ختم بارتيلمي سانت هيلار رأيه فى هذا الجهاز الادارى بقوله : « ان هذا النظام يشبه ما كان يسود فى أوروبا فى العصور الوسطى(٢٠٥) .

الصناعة :

اختلفت كتابات الرحالة الفرنسيين عن الصناعة فى مصر فى القرن التاسع عشر عما كتبه أقرانهم فى القرن الثامن عشر. حيث تدهورت الصناعة فى هذا القرن حتى أن معظم الرحالة وصفوها « بأنها بدائية متدهورة » وعبر سونينى وغيره من الرحالة عن أسفه لهذا التدهور ، واقتصرت الكتابات فى هذه الفترة على بعض

الصناعات المنتشرة فى مصر خاصــة استخراج ملح النشادر من وادى النطرون وصناعة الجلود والمنسوجات والأوانى الفخارية وضرب الأرز وتبييضــه ، وصناعــة اســتخراج الزيوت وتفريخ البيض(٢٠٦) . ولم تختلف كتابات علماء الحملة عما ذكره رحــالة القرن الثامن عشر وان كانت هــذه المؤلفات قد اتخذت طابعــا علميا مثل دراســة الكيميائى كولليه ديكوتيل(٢٠٧) عن صناعــة ملح النشادر ، ودراســة المهندس روزيير والصيدلى روييه عن صناعة تفريخ البيض وغيرها من الصناعات(٢٠٨) .

أما فى القرن التاسع عشر فقد لفتت جهود محمد على وخلفائه فى مجال الصناعة انظــار الرحالة خاصــة وأن تلك الفترة اقترنت ببناء المصانع أو معامل الصناعة المختلفة والتى يمكن ايجازهــا على النحو التالى :

١ ـ معامل الغزل والنسيج :

كان مصنع الخرنفش من أول المصانع التى اسسها محمد على فى عام ١٨١٦ واستقدم له العمــال والفنيين من ايطاليا وقد قدر شولشــيه عــدد العــاملين فى هــذا المصــنع بنحو ثلاثمائــة من الصناع(٢٠٩) أما جيمس اوغسطس فقد قدر العاملين فى هــذا المصــنع بنحو ثمانمائــة وكانت ادارتــه تحت اشراف النســاج « جوميل » واخصائيين من ايطاليا وكان انتاج هــذا المصنع فى البداية من الحرير والستان ثم حل محل مغازل القطن ماكينات لصنع الأقمشة(٢١٠) .

كذلك ذكر شولشيه انه قبل استخدام الآلات كانت البغال هى القوة الرئيسية المستخدمة فى المصنع ، الذى كانت تتم فيه عمليات الصباغة والتبييض وتلوين المنسوجات والرســم ، هذا وقد ارسل محمد على بعض العمــال الى فرنسا للتعليم ولكنهم

عندما عادوا الى مصر لم يعاملوا المعاملة اللائقة بهم كخبراء وقد قابل شولشيه احد العمال الذين تعلموا فى فرنسا فأخبره « لقد عوملنا فى فرنسا كأمراء أما فى مصر فنعامل مثل الصعاليك »(٢١١).

كذلك أنشأ محمد على مصنعا فى بولاق تولى جوميل ادارته، وتعجب شولشيه من تناقض عدد عماله الى اربعمائة كما تعجب انه وجد الآلات المستوردة ملقاة على الأرض وأكد أن مصانع الغزل فى مصر تعطى محمد على فوائد وارباح كبيرة فيصدر منه كميات كبيرة حوالى ٣٥ الف قطعة شهريا وهذه الأقمشة تمتاز بالمتانة وتصبغ بالانديجو وتشترى نساء الطبقة الدنيا هذه الأقمشة من محلات الباشا ويوضع على القماش علامة ، وشارة ، وتم معاقبة من ترتدى من النساء قماشا لا توجد به هذه العلامات(٢١٢) هذا وقد ذكر كادلفين ان مصنع بولاق قد اشتهر وعرف باسم مصنع مالطة لأن به عددا كبيرا من العمال المالطيين(٢١٣) .

هذا وقد اهتم محمد على بانشاء عدة مبيضات لتقوم بعملية التبييض فانشا واحدة ما بين النيل وبولاق وفى المحلة والمنصورة(٢١٤) .

ولقد اكد لينان دى بلفون أن هذه المصانع تنتج ما يضارع أجمل منسوجات مدينة ليون وقد تم التوسع فى انشاء هذه المصانع خاصة فى قليوب وشبين الكوم والمحلة ودمنهور وفوة ودمياط وأسيوط والمنيار وفرسكور(٢١٥) .

٢ ـ مصانع الجوخ :

كانت مصر تستورد الجوخ من فرنسا ، ومن اشهر الأنواع جوخ لانجدوك ، ولذلك استقدم محمد على العمال الفرنسيين من

هذه المدينة ، كما أرسل الطلاب الى فرنسا ، وتم انشاء مصنع للجوخ فى دمنهور واستخدم فيه الصوت ردىء النوع لتصنيع ملابس بحارة الأسطول كما تم انشاء مصانع أخرى فى المنيا وجرجا والفيوم ودمنهور ، ولكن مناخ مصر المترب اثر فى الأصواف التى كان تم خلطها بأصواف تونس وأسبانيا وروسيا(٢١٦) وقد خصص مصنع بولاق لانتاج ملابس الجيش وذلك للافادة من موقعها كميناء نهرى فمن السهل أن ترسو المراكب فيها حيث يتم نقل هذه المهمات(٢١٧) .

٣ ـ مصنع الحرير :

تم تأسيسه فى بركة الفيل ، بعد التوسع فى زراعة الأشجار التوت واستجلب له العمال من الاستانة وقد عمل فيه الأرمن وقدر كادلفين انتاجه فى عام ١٨٣٣ بنحو ٧٠ الف كيلو من الحرير الجيد النوع(٢١٨) .

٤ ـ مصانع الطرابيش :

تركزت هذه الصناعة فى فوة وكان الطربوش يوضع لمدة ثلاثة أيام فى المكبس ثم يصب عليه الماء الساخن وقد خصص انتاج مصنع فوة للجنود(٢١٩) ولقد تركز انتاج المصانع فى القاهرة وفى باقى المدن المصرية ويعلق أوغسطس سانت جون على ذلك بقوله : « لقد أراد محمد على أن تنافس القاهرة مانشستر »(٢٢٠) .

٥ ـ معمل سبك الحديد :

تم تصنيعه على غرار مسبك انجلترا وكان رئيس العمال فيه أحد البريطانيين ، وقد استخدم لصب الحديد المعد للسفن ،

وقد سد مسبك بولاق احتياجات البحرية والمدفعية واستخدمت فيه الآلات البخارية(٢٢١) .

٦ - مصنع الأسلحة :

انشيء على الخط الفرنسي فى القلعة وأشرف عليه أحد الضباط الايطاليين وهو ايتام بك ثم أسس محمد على خارج القاهرة ثلاث مصانع انتجت ٣٦ ألف بندقية ومسدسا وأسلحة بيضاء وكان تم تخزين الذخيرة فى كهوف جبل المقطم خوفا من حوادث السطو(٢٢٢) . وقد وصف شولشيه هذه المصانع بأنها « على الطراز الأوروبى »(٢٢٣) . أما الماريشال مارمون فكتب « لا يسع المرء الا الثناء على مصانع الأسلحة لأنها متقنة الصنع » فالبنادق المصنعة فيها على الطراز الفرنسي ومعمل القلعة لا يقل عن معامل الأسلحة فى فرنسا من حيث الجودة والاحكام(٢٢٤) .

كما انشئت معامل للمنتجات الكيماوية واستعان محمد على بهاين Hayne لادارة هذه المعامل وزودت مصانعه بما تحتاج اليه فى الصباغة(٢٢٥) كما انشئت مصانع للصابون ودبغ الجلود والشمع(٢٢٦) .

أما معامل السكر فقد أسس محمد على معملا فى أربرمون بالمنيا فى عام ١٨١٨ وقدر كادلفين انتاجه فى عام ١٨٣٣ ب ١٢١٩٥ قنطارا من السكر الخام كما انشيء معملين للسكر فى الروضة مركز ملوى(٢٢٧) .

وجدير بالذكر أن مناخ مصر المشبع بنترات البوتاسيوم لم يناسب الآلات البخارية مما أدى الى اتلاف الماكينات واذا كان اسم جومبل الفرنسى قد لمع فى عهد محمد على نظرا لتشييده

عددا كبيرا من المصانع فان اسم جالوى Gallowi البريطانى قد برز أيضا فقد استعان به محمد على فى كثير من المصانع(٢٢٨).

هذا وقد أكره العمال والفلاحون على العمل فى المصانع واضطروا لتأدية اعمالهم فى جو من الرعب والخوف ، وفى ظروف صحية سيئة مما أدى الى اعتلال صحتهم وافاض شولشيه فى وصف صور من المآسى التى كانت تحدث فى القرى حيث كان يتم انتزاع العمال من أحضان عائلاتهم تحت ضربات العصى ، ومن يخالف منهم الأوامر يتعرض للعقاب ، ولقد عومل العمال معاملة العبيد فى مصر فكانوا يساقون الى العمل فى الصباح الباكر ومن يتأخر عن الحضور يتعرض لعقوبة الجلد ، وقد رأيت عمالا يموتون من الجوع رغم أنهم يحصلون على أجور الا انها كانت أجور زهيدة ينفقون معظمها على الطعام ففى الخرنفش فى مصنع الغزل كان العامل يتقاضى قرشين وثلاثين بارة أى ٦٥ سنت للقطعة والعامل النشيط هو من يستطيع انجاز سبع قطع فى الشهر . أما فى مصنع المبيضة فكان العمال الذين يرسمون على الخشب للطباعة يأخذون أجرهم الشهرى حوالى أربعين قرشا(٢٢٩) .

وعند ختام الحديث عن الصناعة سنلاحظ ان معظم الرحالة قد حرصوا على زيارة **ترسانة الاسكندرية** والكتابة عنها ، والثناء على جهود محمد على فى هذا المشروع ، حتى شولشيه الناقد اللاذع لعصر محمد على يثنى على هذا العمل العظيم بقوله : « اهتم محمد على بالبحرية المصرية وذلك لتلبية طموحاته وتوسعاته خارج مصر والحجاز وسورية وضد الدولة العثمانية، قوى ولذلك قام بشراء السفن من مارسيليا وليفون والبندقية

وفى عام ١٨٢١ عمل بيسون Bisson الضابط البحرى الفرنسى فى خدمة محمد على وكان يشرف من قبل على العمل فى ترسانات أوروبا مما اكسبه خبرة كبيرة أراد الباشا الافادة منها وبعد تحطيم الأسطول المصرى فى نافارين صمم محمد على على انشاء ترسانة الاسكندرية وقد عهد الى سريزى المهندس الفرنسى ببناء الأحواض ولم ينس شولشيه عند حديثه عن هذا العمل العظيم ان يلقى الضوء على معاناة الفلاحين اثناء العمل فيها ، فقد قدر عدد العاملين بمثانية آلاف فلاح ونجار . وقد بدأ العمل فيها فى عام ١٨٢٩ وفى عام ١٨٣١ كان سريزى قد نجح فى تصنيع سفينة حربية ذات مائة مدفع وفى خلال فترة وجيزة تم الانتهاء من دار الصناعة الجديدة بما تحويه من أسطول كبير . ثم تعرضت الترسانة للاهمال وهجرت العنابر وتناقص عدد العمال فكتب شولشيه « لقد سيطرت البربرية على هذا العمل الكبير ، لقد انشىء هذا العمل بعد أن تكبد الشعب الضرائب لتغطية النفقات »(٢٣٠) .

اما الماريشال مارمون فقد زار ترسانة الاسكندرية فى عام ١٨٣٤ فأعجب بنظافتها وفخامتها وبهرته دقة أعمالها وكفاءة العمال المصريين فكتب « فى عام ١٨٢٨ لم يكن بالاسكندرية الا ساحل مقفر ولكن هذا الساحل فى عام ١٨٣٤ أصبح مغطى بترسانة كاملة بنيت على مساحات واسعة وأحواض للسفن ومخازن ومعامل ومصانع لكل نوع ، ومما استوقف نظرى ورشة الحبال التى ببلغ طولها ١٠٤ قدما أى فى طول ورشة الحبال بثغر طولون وقد شاهدت فى الترسانة عمالا يعملون فى مختلف معاملها ولهم مهارة فى كل ما يعهد اليهم من الأعمال البحرية وهم جميعا من المصريين ويسود بينهم النظام والعمل والنشاط وهذه الترسانة التى لم يمض على انشائها أكثر من ست سنوات وضع

فيها عشر بوارج سـلاح كل منها مائة مدفع وقد تم تسليح سبع منها وتمخر العباب الآن . أما الثلاث الأخرم فلم تزل بالحـوض على وشك النزول الى المـاء هـذا عدا السفن التى نوع الفرقاطة والكورفت والابريق مما جعل عدد الأسطول يزيد عن ثلاثين سفينة حربية وقد نمت هذه المنشآت ووصلت البحرية المصرية الى هذه النتائج المدهشة فى ذلك الزمن القصير فى بلاد ليس فيهـا أخشاب ولا حديد ولا نحاس ولم يكن فيها عمال ولا بحـارة ولا ضباط بحريون أى أنها كانت مفتقرة الى كل العناصر اللازمة لانشـاء اسطول وهذه همة لا نظير لها فى التاريخ والفضل فى هذا العمل الجـليل راجـع الى كفاية المسيو سريزى والى عزيمـة محمد على »(٢٣١) .

التجـــارة :

اتسمت تجـارة مصر الخارجية وقد ساعد على ذلك انشاء الأسـطول المصرى واصـلاح ميناء الاسـكندرية كذلك تنفيـذ المشروعات الضخمة مثل خط حديد الاسكندرية السويس واصلاح طريق القاهرة السويس واخيرا افتتاح قناة السويس . ويلاحظ من كتابات رحالة القرن الناسع عشر أسفهم على تراجع تجـارة فرنسا مع مصر بعد أن كانت تحتل الصـدارة والمكانة الأولى فى القرن الثامن عشر . وقد حل محلها التجـارة البريطانيـة وقد عبر شـولشيه عن ذلك بقوله « النفوذ كله لبريطانيـا فى هـذا القرن ويشعر الزائر فى مصر بأن منتجاتها فى كل مكان » وقد أراد شولشيه تأكيد ما ذكره عن تراجع تجـارة بلاده مع مصر فعقد مقارنة بين صادرات ووابردات فرنسا وبريطانيـا(٢٣٢) خـلال عامى ١٨٤٢ و ١٨٤٣ على النحو التالى :

الدولة	عام ١٨٤٢ الصادرات	عام ١٨٤٢ الواردات	عام ١٨٤٣ الصادرات	عام ١٨٤٣ الواردات
فرنسا	٥ر٤٨٥ر٠٠٠	٧ر٤٧٢ر٧٠٠	٤ر١٧٥ر٠٠٠	٥ر٥٠٠ر٠٠٠
بريطانيا	١٠ر١٠٧ر٧٠٠	١٨ر١١٣ر٢٠٠	١٠ر٣٣٠ر٠٠٠	١٢ر٨٧٥ر٠٠٠
النمسا	٩ر٧٢٠ر٢٠٠	٨ر٢٩٨ر٥٠٠	١٣ر٨٠٠ر٠٠٠	٥ر٣٧٦ر٩٠٠
تركيا	٩ر٧٧٥ر٠٠٠	١٣ر١٣٦ر٥٠٠	٩ر٤٢٢ر٠٠٠	٩ر٣١٧ر٠٠٠
دول أخرى	١٠ر٠٨٣ر٣٠٠	١٤ر٧٥١ر٥٠٠	١٠ر١٤٥ر٠٠٠	١٣ر٤٠٨ر٠٠٠
الاجمالى بالفرنك	٤٥ر١٧٢ر٢٠٠	٦١ر٧٧٢ر٤٠٠	٤٧ر٨٧٢ر٠٠٠	٤٦ر٤٧٦ر٩٠٠

وقد علل شولشيه اسباب تراجع التجارة الفرنسية فى مصر الى الأســباب التالية :

١ ــ مسئولية الحكومة الفرنسية وعدم اهتمامها بتنشيط تلك التجارة .

٢ ــ المخالفات التى ارتكبها التجار الفرنسيون .

٣ ــ عدم جودة المنتجات الفرنسية بينما معظم ما يوجد فى مصانع الغزل والنسيج من أصــل فرنسى والآلات القديمة لم يراع تجديدها وهــذا خطأ من فرنســا لأن الحكومة لم تكلف نفسها بمراجعة ذلك ، ولا ينطبق انخفاض مستوى المنتجات الفرنسية على مصر فقط وانما الأسواق الأجنبية الأخرى فالتجار الفرنسيون لم يراعوا ذمتهم وأطلق شولشيه صيحــة تحــذير لبلاده « ان فرنسا اليوم تفقد فى مصر يوميا المكانة الحالية التى حققها من قبل »(٢٣٣) .

هذا وقد شملت أهم الصادرات القطن والأرز والحبوب ، والقمح والأقمشــة الكتانية والتمر والخضر والأفيــون أما أهم الواردات الفرنسية الى مصر فشملت الأنسجة القطنية والأنسجة الصوفية وأثواب الحرير والآلات والأخشاب والحديد والأوراق والعقاقير والسكر والزجاج والزيوت والنبيذ(٢٣٤) . .

واذا كان شولشيه قد تحدث عن تجارة فرنسا مع مصر خلال عامى ١٨٤٢ ، ١٨٤٣ فان شارل أدمون سجل أيضــا بعض ملاحظاته عن هذه التجارة فى عهد اسماعيل خاصــة فى عام ١٨٦٥ موضحا حجم بعض الواردات الفرنسية ومقارنتها بغيرها من الدول الأوروبيــة(٢٣٥) .

الدولة	الأخشاب	القمح	الفحم ك	الفحم فرنك
بريطانيا	٢٢٢ر٨٠١		١٠ر٥٧٥٣	٤ر٤٨٨ر٧٤
النمسا	٢ر٢٦٠ر٠٦٦	٥٨ر١٥٦		
فرنسا	٢٠٧ر٢٧٢		٥ر٠٦٣ر٨٥	٢٣٤ر٠٦٢
ايطاليا	١٦٠ر٩٩٢		١ر٠٣٩ر٤١٠	٨٩ر٦٤٣
اليونان	٢٣٢ر٨٣٩	١ر٣٣٤ر٩٥٢	٣ر٧٤٨ر٠٩٥	٣١١ر٨٢٤
بلجيكا	١٢٣ر٦٩٤			
تركيا	٢ر٣٢٨ر٣١٠	٦ر٠٠٨ر٦٠٠	٣ر٧١٣ر١٦٠	٢٧٦ر٢٩٧
سوريا		١٧٨ر٦٥١	٣٢ر٤٢٥٠	٢١ر٣٩٩٠

. واذا كان الرحالة الفرنسيون قد اهتموا بالقاء بعض الضوء على تجارة بلادهم مع مصر الا أنهم اهتموا أيضا بالحديث عن تجارة مصر الداخلية . فذكر شارل أدمون بأن هنالك عدة طرق أو مسالك .

الطريق الأول من القصير الى الغرب عبر قنا ويمثل خط الاتصال بين الصعيد والبحر الأحمر به طرق للقوافل تستغرق أربعة أيام من قنا الى القصير ويوجد خط يخرج الى صحراء ليبيا يصل اسنا وأسيوط .

الطريق الثانى فى مصر الوسطى يبدأ من المنيا الى الواحات الصغيرة فى الصحارى الليبية وخط من بنى سويف الى الفيوم ثم الى واحة سيوة .

الطريق الثالث مصر السفلى من القاهرة الى السويس طريق القوافل من بلبيس الى الصالحية الى بحيرات النطرون(٢٣٦) .

كذلك لمعت أسماء بعض التجار فى القاهرة وكانت لهم صلاتهم التجارية مع موانى جدة وقنا وبومباى ومن بينهم سيدى المحروقى فى القاهرة وسيد حجر الحربى فى الاسكندرية كذلك وجدت البيوتات التجارية الأجنبية واشهرها بوبولانى وفوالاريا وباولو امبا والسورى باسيلى فخر فى دمياط(٢٣٧) .

كذلك القى الرحالة الضوء على أهم المشاريع العمرانية التى تمت فى مصر من أجل تنشيط التجارة وقد قام بمعظم هذه المشاريع الأجانب من الأوروبيين لخدمة مصالحهم . وكانت أهم هذه المشاريع هو تنظيم المواصلات الداخلية وتطوير وسائل النقل وانعاش التجارة الداخلية فتم حفر ترعة المحمودية كذلك

تم زيادة عدد المراكب الشراعية والتجارية . وقد نجح محمد على فى اقرار الأمن فى البلاد بشهادة معظم الرحالة كذلك نجح فى حفر ترعة المحمودية فى فترة قياسية وقدم التسهيلات للشركات الأجنبية وبعض الأفراد فسمح لتوماس واجهورن بادارة خط ملاحى نهرى يتكون من عدة صنادل تجرها الخيول ووافق على أن ينشىء خطا ملاحيا بين العطف والقاهرة فسيطرت شركة واجهورن على النقل ووفدت أعداد كبيرة من المسافرين القادمين من بومباى الى السويس ثم نقلهم الى القاهرة ثم الى الاسكندرية وكانت السفن التى تنقل المسافرين متعددة الأنواع « تسير بلا كلل » بين القاهرة والاسكندرية ، ولكن محمد على ما كان ليسمح لهذه الشركات بالاستمرار فى عملها حرصا على مصالحه ففى عام ١٨٤٦ أصبحت كل وسائل المواصلات النهرية تحت تصرفه(٢٣٨) وفى عام ١٨٥٤ كون سعيد باشا مصلحة الانجرارية وعمل على زيادة عدد المراكب ثم أنشىء شركة الملاحة النيلية واطلق عليها الشركة المصرية للملاحة التجارية(٢٣٩) .

كذلك عرفت مصر الخطوط الحديدية وان كان انجاز هذا العمل قد تم فى عهد عباس الا أن بريطانيا حاولت منذ عهد محمد على تنفيذ مشروع مد خط حديدى بين السويس والاسكندرية وسجل شولشيه محاولات بريطانيا للتقرب من الباشا فى مصر فنشرت جريدة التايمز فى ٨ أكتوبر ١٨٤٤ مقالا موجه الى محمد على أورده شولشيه فى مؤلفه « ان الوقت قد حان وأن الحكومة البريطانية فى حاجة الى مد خط قصير نحو الشرق يمر ببلادكم لأن مصر طريق ومركز هام بين الصين فى الشرق وأمريكا فى الغرب واذا تم مد الخط الحديدى عبر صحراء السويس فمن الممكن أن يتصل روتشيلد بكم لتقديم التسهيلات اللازمة » ثم عدد المقال الفوائد السياسية والتجارية للمشروع وانه يحتاج

لمهندسين أوربيين من ذوى الخبرة وأن ستيفنسون البريطانى هو خير من يقوم بهذه المهمة ثم أكد المقال أن جميع الدول العظمى ترغب فى تنفيذ المشروع خاصة روسيا والنمسا وبروسيا وبريطانيا وامريكا وفرنسا هى الوحيدة التى تعارضه وعلل ذلك لأنها تخشى أن تحتل تريستا مكانة مارسيليا ومن مزايا المشروع « ومن مزايا المشروع أنه سينتج عنه اقامة المنشآت بين القاهرة والسويس » . ثم علق شولشيه على هذا المقال أن بريطانيا تقوم بدور خطير فى مصر ، انها تريد ارسال وتدعيم نفوذها على حساب نفوذها ودلل شولشيه على ذلك بأن شركة الهند البريطانية لها عدة مراكب تتولى نقل المسافرين من الاسكندرية الى القاهرة كما توجد سفن تنقل الركاب الى بومباى وكلكتا .

كذلك عرفت مصر الخطوط الحديدية منذ عهد عباس فتم مد الخط الحديدى بين الاسكندرية والقاهرة واخترق الأقاليم الزراعية الغنية الكثيفة بالسكان وقد وجد بواتو أن هذا المشروع « قد أرضى طموحات بريطانيا الى حد كبير »(٢٤١) ونشعر من كتابات فلوبير مدى تخوفه من هذا المشروع فقد سجل وجهة نظره قائلا : ستصبح بريطانيا السيد المطاع فى مصر ، فهى الآن تحتل عدن وقد حشدت فيها فرقا عسكرية ويمكنها التوجه نحو السويس وربما تظهر الحلة العسكرية الحمراء فى شوارع القاهرة وسيبلغنا نبأ احتلال بريطانيا لمصر بعد وقوعه بخمسة عشر يوما فتعترينا الدهشة واذكروا كلامى ونبوءتى فليس هناك ما يحول دون وقوع الغزو(٢٤٢) ورغم اختلاف الآراء حول هذا الخط الحديدى الا أنه أدى بلا شك الى اختصار المسافة بين الاسكندرية والسويس اى طريق الهند واصبحت المسافة تقطع من باريس الى القاهرة فى ستة أيام وبفضل هذا التطور جذبت مصر العديد من الأوروبيين والسائحين الأمريكيين(٢٤٣) .

هذا وقد تم تشييد المحطات والجراجات على النمط الأوروبى فكانت محطة مصر على نمط محطة فرســاى فى باريس وقدمت أفضل الخدمات فى هذه المحطات التى أصبح يعمل فيها عدد كبير من المصريين ممن يتسمون بالأدب والأخلاق الرفيعة على حد وصف دى جارس(٢٤٤) .

كذلك تم تطوير وسائل الاتصال فمدت خطوط التلغراف التى ربطت بين مصر وأوروبا واستعان محمد على بالأجانب وأقام منذ عام ١٨٢٠ أبنية مرتفعة على شكل أبراج امتدت من رأس التين بالاسكندرية الى القاهرة وأقــام على قمة كل برج آلة تلغراف ضوئية تعمل على طريقة تعرف باسم طريقــة شاب مكنت من تحقيق الاتصال بين القــاهرة والاسكندرية وبالعكس الى مدى لا يتجاوز ٣٥ دقيقة(٢٤٥) .

وتم التوسع فى مد الخطوط التلغرافيــة فى عهد اســماعيل فارتبطت مصر بأوروبا والاسكندرية بمالطة والسويس بســوريا والاستانة(٢٤٦) .

كذلك تم تطوير البريد وتوفير الموظفين اللازمة للخدمــة البريدية وكان لابد من وزن الخطابات لأن الحســاب كان يتم فى بداية الأمر على أســاس الوزن ولم يخصص لادارة البريد فى بداية الأمر مكانا معينا أو مبنى وانما كان العمل فيها يتم فى الهواء الطلق ولم توجد موازين كافية لوزن الخطابات وقد اضطر أمبير عندما أراد ارســال خطاب الى فرنسا أن يذهب الى محل عطــارة لوزن الخطاب ، ولكن رغم كل هــذه المصــاعب الى جانب تأخر الخطابات « الا أن محمد على بادخاله البريد وتطوير وسائل الاتصال نجح فى ادخال الحضــارة الأوروبية الحديثة الى قلب افريقيا »

ولذلك فهو فى نظر أمبير يستحق بأن يوجه اليه الشكر والتقدير(٢٤٧) .

ولعل أهم مشروع نفذ فى مصر وكانت له آثاره الخطيرة كان مشروع قناة السويس الذى أفاض الرحالة فى الحديث عنه وتقديم نبذة عن فكرته منذ العصور القديمة فى العصر الحديث فأشار شولشيه الى محاولات نخاو الثانى فى وصل البحر الأحمر بالنيل ثم توقفت هذه المحاولات بسبب الاعتقاد بأن سطح البحر الأحمر أكثر ارتفاعا ولكن هيرودوت أكد أن السبب الحقيقى لتوقف المشروع هو خوف نخاو الثانى من غزو مصر ثم يستعرض شولشيه فكرة المشروع حتى الفتح الاسلامى لمصر(٢٤٨) .

هذا وقد قدم علماء الحملة الفرنسية العديد من الدراسات حول فكرة وصل البحرين ولكنهم اعتقدوا بوجود اختلاف بين مستوى سطح البحرين فتخوفوا من غرق الدلتا . ويرى أمبير أن القرن التاسع عشر هو قرن المشروعات العملاقة ففيه تم وصل قناة لانجدوك على المحيط بالبحر ، وفيه أيضا تم الاتصال بين بحر الشمال والبلطيق كما تم وصل الراين والدانوب ، على أن أهم المشروعات العملاقة التى تمت وفاقت فى عظمتها المشاريع السابقة كان مشروع قناتى بنما والسويس(٢٤٩) .

وقد رفض محمد على تنفيذ مشروع قناة السويس الذى لم ينفذ الا فى عهد سعيد ونشعر فى كتابات شولشيه بالأسى لرفض محمد على المتكرر للمشروع رغم « ما يحمله من ثروة لمصر » ويعلل شولشيه هذا الرفض نتيجة « تخوف الباشا من أن يصبح البحر الأحمر بحيرة أوروبية »(٢٥٠) .

الثروة الحيوانيـة :

عند حديث رحالة القرن التاسع عشر عن الثروة الحيوانية فى مصر نلاحظ أن هـذا الحديث جاء مقتضبا ، بينمـا أفـاض الرحـالة السابقون فى الحديث عن ثروة مصر الحيوانيـة وأهم الحيوانات فيها حتى اننا نجد عدة فصول فى مؤلفات الرحالة الفرنسيين خلال القرنين السادس والسابع عشر عن وصف زرافة أو جلد تمسـاح أو حجم فرس النهر ونخص بالذكر مؤلفـات العلماء والأطباء مثل بيلون دى مان ، ومونكونى . هذا وقد استمر هذا الاهتمام بحيوانات مصر خـلال القرن الثامن عشر من قبل الرحالة ثم علماء الحملة الفرنسية فوجدنا تفاصيل فى وصف هذه الحيوانات ومقارنتها بحيوانات فرنسا من حيث الشكل والحجم . أما رحالة القرن التاسع عشر فقد جاء وصفهم لهذه الحيوانات وللثروة الحيوانية بايجاز شديد فقد تناولها غيرهم من قبل .

ومن الأوصاف الطريفة التى دونها الرحالة فى القرن التاسع عشر عن الحمام فى مصر وما كتبه بواتو « ان أحوال الحمام فى مصر أفضل بكثير من أحوال الفلاحين فالحمام له بيوت يأوى اليها ويجد فيها طعامه »(٢٥١) .

كذلك نجـد اشارات عن المـاعز والخـراف والعجول ومن الطرائف التى ذكرت عن الجمل ما كتبه شولشيه « بأنه لا يوجد حيوان أكثر دمامة من الجمل فهو لا يسر العين عند النظر اليه ويستخدمه المصريون فى حمـل البضـائع وهو قادر على حمل ستمائة كيلو ويتم التحكم فيه بواسطة حبل طويل وهو يستخدم بكثرة فى الريف »(٢٥٢) .

أما الحمار فهو وسيلة انتقال مريحة وهو أجمل من الحمير فى أوروبا وأنشط وتوجد مواقف مخصصة له أمام كل فندق .

وتتكلف رحلة استئجار الحمار فى اليوم الواحد خمسة قروش(٢٥٣) .

اما التماسيح فلا نجدها الآن الا فى جنوب مصر ويعيش فى جزر النيل الرملية وهى تخاف من أقل حركة وتفر سريعا الى النيل وفى الصباح تجلس وسط هذه الجزر تستمتع بأشعة الشمس القوية وتأتى العصافير « لتغنى لها » والتى تستطيع دخول أفواه التماسيح بسهولة فتقول بمهمة تنظيف أسنانها . والتماسيح يغلب عليها الجبن ولكنها اذا ذاقت اللحم البشرى ولو مرة واحدة تصبح نهمة بعد ذلك ، ولذلك فلابد من مهاجمتها واصطيادها ويتم اصطياد التماسيح وعمل الكمائن لها فى الجزر التى تأوى اليها أو باطلاق النار عليها أو ضربها بالسهام(٢٥٤) .

يتضح لنا مما سبق اهتمام الرحالة بالحديث عن الأسرة الحاكمة فى مصر وعن أحوال مصر الاقتصادية . وقد لمسنا اختلاف الآراء حول أسرة محمد على ما بين ناقد ومؤيد وان كان النقاد قد بالغوا فى نقدهم وحملاتهم على محمد على فاتهموه بالرغبة فى انشاء امبراطورية شخصية ولم يتفهموا رغبته الحقيقية فى الاستقلال بمصر كذلك اتهموا اسماعيل بالاسراف ولم يتفهموا سياسته التى تلخصت فى اعادة بناء قوة مصر والتخلص من شروط معاهدة لندن ١٨٤٠ وفرمان ١٨٤١ وذلك عن طريق اصراره على الحصول على الفرمانات التى تمكنه من تحقيق الاستقلال لمصر ولذلك تكالبت عليه الدول الأوروبية وتآمرت لخلعه .

وعند حديث الرحالة عن أحوال مصر الاقتصادية نلاحظ اهتمام الرحالة بالحديث عن المشروعات العمرانية المختلفة من أجل تنمية الزراعة والصناعة والتجارة فهى التى جذبت انتباههم ووجدوها جديرة بالتدوين .

هوامش الفصـــل الثـــالث

(١) Mormont : Op. Cit., PP. 127 — 129.

(٢) De Garcy : Op. Cit., P. 41.

(٣) ادريس افندى : المرجع السابق ص ٨٩ .

El Abassy, Ali : Op. Cit., P. 20.

(٥) Cadalvene : Op. Cit., t 1 P. 138.

(٦) Ibid. P. 139.

(٧) De Garcy : Op. Cit., P. 41.

(٨) Cadalvene : Op. Cit., t 1 P. 138.

(٩) De Garcy : Op. Cit., P. 41.

(١٠) Forbin : Op. Cit., P. 76.

(١١) Ibid. P. 76.

(١٢) ادريس افندى : المرجع السابق ص ٨٩ .

(١٣) Chateau briand : Op. Cit., P. 115.

(١٤) Cadalvene : Op. Cit., t 1 PP. 142 — 146.

(١٥) De Garcy : Op. Cit., P. 87.

(١٦) Barthelemey : Op. Cit., P. 101.

(١٧) El Abassy, Ali : Op. Cit., P. 20.

(١٨) Cadalvene : Op. Cit., t 2 — PP. 207 — 211.

(١٩) ادريس افندى : المرجع السابق ص ٩٠ .

(٢٠) المرجع السابق ص ٩٠ .

(٢١) Forbin : Op. Cit., P. 107.

(٢٢) Michand : Op. Cit., P. 271.

(٢٣) Marcellus : Op. Cit., P. 139.

(٢٤) Pardieu : Op. Cit. P. 28.

(٢٥) ادريس افندى : المرجع السابق ص ١٧ .

(٢٦) عبد الرحمن الرافعى : المرجع السابق عصر محمد على ص ٥٥ .

(٢٧) Scholcher; Op. Cit., P. 129.

(٢٨) Forbin : Op. Cit., P. 76.

(٢٩) Cadalvene : Op. Cit., t 2 P. 207.

(٣٠) ادريس افندى : المرجع السابق ص ٧٦ .

(٣١) Xaveir : Op. Cit., P. 488.

(٣٢) D'estourmel : Op. Cit., t 2 P. 480.

(٣٣) ادريس افندى : المرجع السابق ص ٢١ — ص ٢٤ .

(٣٥) شامبيليون فى مصر : المرجع السابق ص ٤٠١ .

(٣٦) ثروت عكاشة : المرجع السابق ج ١ ص ٤٩ .

(٣٧) المرجع السابق ج ١ ص ٥٠ .

(٣٨) Scholcher : Op. itC., PP. 22 — 24.

(٣٩) Ampere : Op. Cit., PP. 237 — 241.

(٤٠) Cadalvene : Op. Cit., t 1 P. 194.

(٤١) Forbin : Op. Cit., P. 80.

(٤٢) محمد فؤاد شكرى : مصر فى مطلع القرن التاسع عشر ١٨٠١ — ١٨١١ القاهرة ١٩٥٨ ج ١ ص ١٣١٧ .

(٤٣) Edmond, Charles : Op. Cit., P. 209.

(٤٤) شامبيليون فى مصر : المرجع السابق ص ٦٩ .

(٤٦) عبد الرحمن الرافعى : المرجع السابق محمد على ص ٥٧٠ .

(٤٧) المرجع السابق ص ٥٧٢ .

(٤٨) ادريس افندى : المرجع السابق ص ٩٨ .

(٤٩) Scholcher : Op. Cit., PP. 106 — 108.

(٥٠) ادريس افندى : المرجع السابق ص ٩٩ .

(٥١) المرجع السابق ص ١٠١ — ١٠٢ .

(٥٢) شامبيليون فى مصر : المرجع السابق ص ٣٩٤ .

(٥٣) ادريس افندى : المرجع السابق ص ١٠٣ .

(٥٤) Poitou : Op. Cit., P. 8.

(٥٥) ثروت عكاشة : المرجع السابق ص ٥١ .

(٥٦) ادريس افندى : المرجع السابق ص ١٠٥ .

(٥٧) المرجع السابق ص ١٠٦ ، ص ١٠٧ .

(٥٨) Lacour, Raoul : L'Egypte d'Alexandrie à la seconde cataracte Paris 1871. P. 73,

(٥٩) ادريس افندى .

(٦٠) المرجع السابق ص ١٠٨ .

(٦١) ذكر هذه الرواية الرافعى فى كتابه عصر اسماعيل جـ ١ ص ٢٥٠ .

(٦٢) ادريس افندى : المرجع السابق ص ١١٠ .

(٦٣) المرجع السابق ص ١١١ .

(٦٤) المرجع السابق ص ١١٢ .

(٦٥) المرجع السابق ص ١١٠ .

(٦٦) Poitou : Op. Cit. P. 9.

(٦٧) Barthelemey : Op. Cit., P. 103.

(٦٨) De Garcy : Op. Cit., P. 43.

(٦٩) ادريس افندى : المرجع السابق ص ١١٥ — ١١٦ .

(٧٠) المرجع السابق ص ١١٧ .

(٧١) المرجع السابق ص ١٢٢ .

(٧٢) المرجع السابق ص ١٢١ .

(٧٣) De Garcy : Op. Cit., P. 177.

(٧٤) عبد الرحمن الرافعى : المرجع السابق عصر اسماعيل جـ ٢ ص ٣٦ .

(٧٥) ادريس افندى : المرجع السابق ص ١٢٤ .

(٧٦) المرجع السابق ص ١١٨ .

(٧٧) Cadalvene : Op. Cit., t. 1. PP. 102 — 103.

(٧٨) عبد الرحمن الرافعى : المرجع السابق محمد على ص ٥٢٥ .

(٧٩) El Abassy, Ali Bey : Op. Cit., t2 PP. 455 — 456.

(٨٠) Ibid. P. 424.

(٨١) Ibid PP. 289 — 291.
(٨٢) Ibid. P. 292.
(٨٣) Cadalvene : Op. Cit., P. 210.
(٨٤) Edmond. Ch. : Op. Cit., P. 210.
(٨٥) Forbin : Op. Cit., P. 98.
(٧٦) Cadalvene : Op. Cit., t 1 P. 258.
(٨٧) Michand : Op. it., t 7 PP. 21 — 22.
(٨٨) Cadalvene : Op. Cit., t1 P. 158.
(٨٩) Forbin: Op. Cit., P. 98.
(٩٠) عبد الرحمن الجبرتى : عجائب الآثار فى التراجم والأخبار جـ ٤ ص ٤٧ .
(٩١) Cadalvene : Op. Cit., t 1 P. 158.
(٩٢) Forbin : Op. Cit. pp. 98 — 106.
(٩٣) Cadalvene : Op. Cit., t 1 PP. 108 — 110.
(٩٤) عبد الرحمن الرافعى : المرجع السابق ص ١٥٠ .
(٩٥) Drovetti : Voyages à L' Oasis de Syoah
(٩٦) Marcellus : Op. Cit., P. 420.
(٩٧) Ibid. PP. 420 — 422.
(٩٨) Cadalvene : Op. Cit., t 1 P. 159.
(٩٩) Scholcher : Op. Cit., P. 111.
(١٠٠) Caillaud : Op. Cit., t 1 P. 251.
(١٠١) Ibid. P. 9.
(١٠٢) Cadalvene : Op. Cit., t 1 PP. 328 — 340.
(١٠٣) Caillaud, F. : Op. Cit., P. 407.
(١٠٤) Ibid. P. 408.
(١٠٥) Didier : Op. Cit., P. 12.
(١٠٦) Ibid. PP. 6 — 8.
(١٠٧) Caillaud : Op. Cit, P. 318.
(١٠٨) Ibid. P. 316.

(١٠٩) Didier : Op. Cit., P. 126.

(١١٠) De Lature, Le Conte D'Escay Rac : Memoire sur le Soudan 1855 — 1856 P. 453.

(١١١) Didier : Op. Cit., P. 18.

(١١٢) تأسس المملكة فى ١٥٠٦ ص ١٩١٦ عندما دخلتها القوات المصرية وقضت على آخر ملوكها .

(١١٣) De Lature : Op. Cit., P. 40.

(١١٤) Browne, W : Nouveau Voyage dans La haute, La basse Egypte, La Syrie, Le Dar-Four. Paris 1798 t 2 PP. 78 — 86.

(١١٥) محمد التونسى : تشحيذ الاذهان بسيرة بلاد العرب والسودان .

(١١٦) Caillaud : Op. Cit., t 2 PP. 310 — 318.

(١١٧) Cadalvene : Op. Cit., t 2 PP. 265 — 272.

(١١٨) Ibid P. 273.

(١١٩) Ibid PP. 256 — 265.

(١٢٠) Ibid PP. 166 — 170.

(١٢١) De Lature : Op. Cit., P. 40.

(١٢٢) Cadalvene : Op. Cit., t 2 PP. 138 — 143.

(١٢٣) Caillaud : Op. Cit., t 3 P. 10.

(١٢٤) Didier : Op. Cit., P. 22.

(١٢٥) Caillaud : Op. Cit., t 3 P. 244.

(١٢٦) Scholcher : Op. Cit., P. 111 — 116.

(١٢٧) Didier : Op. Cit., P. 13.

(١٢٨) Ibid. PP. 25 — 33.

(١٢٩) Ibid P. 147.

(١٣٠) Ibid. PP. 69 — 75.

(١٣١) Scholcher : Op. Cit., PP 11 — 12.

(١٣٢) Chateau briand: Op. Cit., P.

(١٣٣) شامبليون فى مصر : المرجع السابق ص ٦٠ .

(١٣٤) Scholcher : Op. Cit., P. 140.

(١٣٥) شامبليون فى مصر : المرجع السابق ص ٥٨ ، ص ٥٩ .

(١٣٦) المرجع السابق ص ٧٧ .

(١٣٧) الرافعى : المرجع السابق محمد على ص ٢١٨ .

(١٣٨) المرجع السابق ص ٢١٩ .

(١٣٩) Scholcher : Op. Cit., P. 152.

(١٤٠) Cadalvene : Op. Cit., t 1 P. 178.

(١٤١) Ampère : Op. Cit., P. 243.

(١٤٢) Cadalvene : Op. Cit., t 1 PP. 178 — 188.

(١٤٣) Ampère : Op. Cit., P. 243.

(١٤٤) Scholcher : Op. Cit., P. 140.

(١٤٥) Cadalvene : Op. Cit., t 1 PP. 275 — 300.

(١٤٦) Ibid. P. 179.

(١٤٧) Apmère : Op. Cit., P. 212.

(١٤٨) Marmont : Op. Cit., t 3 P. 228.

(١٤٩) Scholcher : Op. Cit., P. 140.

(١٥٠) Ibid. P. 140.

(١٥١) Ibid. P. 140.

(١٥٢) Edmond, : Op. Cit., P. 211.

(١٥٣) Scholcher : Op. Cit., P. 141.

(١٥٤) Cadalvene : Op. Cit., t 1 P. 174.

(١٥٥) Ibid. t 1 P. 159.

(١٥٦) Ibid. P. 160.

(١٥٧) Ibid. P. 160.

(١٥٨) Ibid PP. 117 — 120.

(١٥٩) Ibid. P. 180.

(١٦٠) Marmont : Op. Cit., P. 388.

(١٦١) Scholcher : Op. Cit., P. 57.

(١٦٢) Cadalvene : Op. Cit., t1 P. 114.

(١٦٣) الرافعى : المرجع السابق محمد على ص ٣٣٤ .

(١٦٤) Cadalvene : Op. Cit., t 1 125.

(١٦٥) الرافعى : المرجع السابق ص ٣٣٠ .

(١٦٦) Cadalvene : Op. Cit., t 1 P. 112.

(١٦٧) الرافعى : المرجع السابق ص ٣٥٩ .

(١٦٨) Marmont : Op. Cit., P. 81

(١٦٩) Cadalvene : Op. Cit. t 1 P. 184.

(١٧٠) Scholcher : Op. Cit., P. 45.

(١٧١) Ibid. P. 57.

(١٧٢) الهام ذهنى : المرجع السابق ص ١٥٨ .

(١٧٣) Cadalvene : Op. Cit., t 1 P. 151.

(١٧٤) Michaud : Op. Cit., PP. 75 — 78.

(١٧٥) Rifaud : Op. Cit., P. 326.

(١٧٦) De Bussiere : Op. Cit., t 2 PP. 29 — 30.

(١٧٧) انظر الهام ذهنى المرجع السابق ص ١٦٧ ، ١٦٨ .

(١٧٨) Cadalvene : Op. Cit., t 1 P. 154.

(١٧٩) هيلين آن ريفلين : الاقتصاد والادارة فى مصر فى مستهل القرن التاسع عشر ، القاهرة ١٩٦٨ ص ٢٤٢ .

(١٨٠) Rifaud : Op. Cit., P. 25.

(١٨١) Ibid. PP. 25 — 26.

(١٨٢) Ibid. P. 26.

(١٨٣) Cadalvene : Op. Cit., t 1. P. 201.

(١٨٤) Rifaud : Op . Cit., P. 27.

(١٨٥) انظر ما كتبه لينان دى بلفون مذكرات عن أعمال المنافع العامة الكبرى التى تمت فى مصر منذ اقدم العصور حتى ١٨٧٢ ، القاهرة ١٩٤٩ ص ٢١٣ — ص ٢١٤ .

(١٨٦) المرجع السابق ص ٢١٤ .

(١٨٧) Marcellus : Op. Cit. P. 373.

(١٨٨) Marmont : Op. Cit., P. 145.

(١٨٩) Ibid. PP. 146 — 147.

(١٩٠) Michaud : Op. Cit., P. 48.

(١٩١) Ampère : Op. Cit., P. 120.

(١٩٢) Edmond : Op. Cit., PP. 270 — 275.

(١٩٣) Pardieu : Op Cit., P. 68.

(١٩٤) Xavier, M. : Op. Cit., P. 430.

(١٩٥) Cadalvene : Op. Cit., t 1 PP. 104 — 105

(١٩٦) Edmond, Ch : Op. Cit., P. 271.

(١٩٧) Cadalvene. : Op. Cit., t 1 P. 105.

(١٩٨) Saint Hilaire, B. : Op. Cit., P. 196.

(١٩٩) Ibid. P. 196.

(٢٠٠) Cadalvene · Op. Cit., PP. 100 -- 105.

(٢٠١) Michaud : Op. Cit., t 7 P. 52.

(٢٠٢) Cadalvene : Op. Cit., t 1 P. 107.

(٢٠٣) Saint Hilaire, B : Op. Cit., P. 195.

(٢٠٤) Cadalvene : Op. Cit., t 1 PP. 107 -- 108.

(٢٠٥) St. Hilaire : Op. Cit., P. 195.

(٢٠٦) الهام ذهني : المرجع السابق ص ١٧٩ — ص ١٨١ .

(٢٠٧) انظر وصف مصر جـ ٦ ص ٢٩٢ .

(٢٠٨) المرجع السابق جـ ٦ ص ٢٦٧ .

(٢٠٩) Scholcher : Op Cit., P. 53.

(٢١٠) St. John, James August us : Egypt Mohamed Ali Or travels in the valley of the Nile London 1848 Vol. 2. P. 40.

(٢١١) Scholcher : Op. Cit P. 54.

(٢١٢) Ibid. P. 55.

(٢١٣) Cadalvene · Op. Cit., t 1 P. 131.

(٢١٤) Marmont : Op. Cit., PP. 96 — 97.

(٢١٥) ليثان دى بلفون : المرجع السابق ص ٢٢٥ .

(٢١٦) Cadalvene : Op. Cit., t 1 P. 131.

(٢١٧) Marmnot : Op. Cit., P. 297.

(٢١٨) Cadalvene : Op. Cit., P. 131.

(٢١٩) Ibid. P. 131.

(٢٢٠) St. John : Op. Cit., Vol. 2. P. 405.

(٢٢١) Marmonk · Op. Cit., P. 280.

(٢٢٢) Ibid. P. 280.

(٢٢٣) Scholcher : Op. Cit., P. 52.

(٢٢٤)

(٢٢٥) Cadalvene : Op. Cit., t 1 P. 134.

(٢٢٦) Ibid P. 134.

(٢٢٧) Ibid. P. 135.

(٢٢٨) Marmont : Op. Cit., P. 328.

(٢٢٩) Scholcher : Op. Cit., PP. 55 — 56.

(٢٣٠) Ibid. PP. 51 — 53.

(٢٣١) الرافعى ، المرجع السابق ص ٣٨٠ ، ص ٣٨١ .

(٢٣٢) Scholcher : Op. Cit., P. 76

(٢٣٣) Ibid. PP. 76 — 77.

(٢٣٤) Cadalvene : Op. Cit., t 1 P. 148.

(٢٤٥) Edmond, Ch. : Op. Cit., P. 277.

(٢٣٦) Ibid. P. 270.

(٢٣٦) Forbin : Op. Cit., P. 106.

(٢٣٨) Xavier : Op. Cit., P. 414.

(٢٣٩) Ibid. P. 414.

(٢٤٠) Scholcher : Op. Cit., PP. 70 — 73.

(٢٤١) Poitou : Op. Cit., P. 49

(٢٤٢) مصطفى الحفناوى : المرجع السابق ص ٩٠ .

(٢٤٣) Poitou : Op. Cit., P. 50.

(٢٤٤) De Garcy : Op. Cit., P. 45.

(٢٤٥) Cadalvene : Op. Cit., t 1 P. 73.

(٢٤٦) Edmond, Ch. : Op. Cit., P. 277.

(٢٤٧) Ampère : Op Cit., P. 324.

(٢٤٨) Scholcher : Op. Cit., P. 65.

(٢٤٩) Ampère : Op Cit., P. 196.

(٢٥٠) Scholcher : Op. Cit., P. 65.

(٢٥١) Poitou : Op. Cit., P. 58.

(٢٥٢) Scholcher : Op. Cit., P. 157.

(٢٥٣) Ibid. P. 176.

(٢٥٤) Cadalvene : Op. Cit., t 1 P. 292.

الفصل الرابع

الحياة الاجتماعية

اولا ـ طبقات المجتمع .

ثانيا ـ الاحتفالات والأعياد .

ثالثا ـ المنشآت الاجتماعية .

قدم الرحالة الفرنسيون وصفا للمجتمع المصرى ودونوا ما شاهدوه من احتفالات واعياد ومنشآت اجتماعية .

اولا ـ طبقات المجتمع :

تعاقبت الأجناس المختلفة على مصر ولكنها امتزجت وانصهرت بسكان البلاد الأصليين مما أدى الى فقدان الأجناس الواحدة لخواصها المميزة ، فأصبحت مصر شعبا متجانسا ، وقد عدد فولنى فى القرن الثامن عشر الأجناس التى تعاقبت على مصر من فرس واغريق ورومان ثم عرب واتراك ورجح أن يكون قدماء المصريين من الزنوج والأفارقة ثم « امتزجت دماؤهم على مر العصور بدماء الشعوب الواحدة مثل الاغريق والرومان ففقدوا ملكيتهم الأولى »(١) ويتشابه ما ذكره فولنى مع ما ذكره جوبينو فى القرن التاسع عشر حيث أكد « ان العنصر الزنجى

اختلط بالعناصر الأخرى وامتزجت هذه العناصر على مر العصور »(٢) .

لقد فند الرحالة الفرنسيون طبقات المجتمع المصرى فى القرن التاسع عشر على النحو التالى :

١ ـ طبقة الأتراك :

تعتبر هذه الطبقة فى قمة الهرم الاجتماعى ، وهى الطبقة الحاكمة فى البلاد ويرجع تاريخها الى أيام الفتح العثمانى ومنها كانت الفرق العسكرية المختلفة ، وتمثل هذه السلالة الطبقة الارستقراطية فى البلاد رغم أصولهم الاجتماعية المتواضعة « على حد قول شولشيه وهم يتمتعون بالاعفاء من الفردة ومن الضرائب، ولهم كل الحقوق ، فلم نسمع عن ضرب أو معاقبة أحد من الأتراك بالعصى أو وضعه على الخازوق ، حتى فى العقوبات هناك تفرقة بين التركى والمصرى ، فالأول يشنق اذا ارتكب جرما أما الثانى فمكانه الخازوق » ، ويضيف شولشيه « أن هناك أكذوبة تردد بأن محمد على كون قومية مصرية ، بينما أرى عكس ذلك فقد كان تركيا وسيظل تركيا ، وهو يعامل المصريين معاملة المهزومين »(٣) .

وأعداد الأتراك كبيرة ، ولا نراهم الا فى المدن والادارات الحكومية ، ويمكن تمبزهم من ملابسهم الفخمة المختلفة عن ملابس المصريين المتواضعة ، وهم يقضون أوقاتهم فى شرب القهوة والتدخين(٤) والتجول فوق خيولهم المغطاة بالسجاجيد الفاخرة وحولهم العبيد يصرخون فى المارة لافساح الطريق لهم « أوعى وجلك » «حاسب » « ظهرك »(٥) .

كما اعتبر الأرنؤط أو الألبان من الطبقات العليا فى البلاد ، وينتمى محمد على لهذه الطبقة اذ كان رئيسا للأرنؤط وعلل شولشيه تناقص أعداد هذه الطبقة « بسبب اشتراكهم فى الحرب الوهابية خاصة وأن محمد على أراد اقامة جيش على النظام الجديد ، فأحل السودانيين ثم المصريين محل الجنود الأرنؤط » وقدم شولشيه وصفا للألبان فذكر « انهم موجودون فى القرى لهم شوارب طويلة يرتدون أحزمة عريضة مرصعة بالمسدسات وخناجر منقوشة ويبدو للناظر اليهم وكأنهم ترسانة متنقلة من الأسلحة ، ولما كان الأرنؤط فرق غير نظامية فقد أثاروا الاضطرابات فى البلاد ، وكثرت شكاوى السكان منهم ، ولذلك تخلص منهم محمد على بارسال اعداد كبيرة منهم الى الجزيرة العربية والى سنار وكردفان « لكى يلتهمهم مناخ سنار » فقضى عليهم مناخ البحر الأحمر ، وقد أوضح شولشيه أن الدكتور أوبير روش Aubert Roche قدم بحثا طبيا هاما عن أثر مناخ البحر الأحمر على هذه الفرق وهكذا استطاع محمد على بدهائه التخلص منهم حتى تناقصت أعدادهم من ١٨ الف الى اربعمائة ، ولم ينف شولشيه اعجابه بذكاء محمد على فى التخلص منهم وعلق على ذلك « لقد كان محقا فى ذلك ؛ وقد وفق فى اختيار الأماكن السيئة بعناية لاقامة هذه الفرق تمهيدا لابادتهم »(٦) .

ويتفق ما ذكره شولشيه عما أحدثته هذه الفرق من النهب والاعتداء على الأسواق مع ما ذكره الجبرتى عنها وعن حوادث الشغب التى ارتكبوها(٧) .

أما شاتوبريان الذى زار مصر فى بداية حكم محمد على فقد أتيح له مشاهدة جانب من الفوضى التى أثارها الألبان فوصفهم بأنهم « لصوص ، عبيد المزاج ، يتسمون بالقسوة والوحشية ،

لا عمل لهم سوى السلب والنهب ، وهم يتجولون فى البلاد مرتدين ملابسهم المميزة سروال وجيبونة صغيرة ، وصديرى مزين بالسلاسل والأزرار الفضية »(٨) .

يتضح لنا من كتابات الرحالة الفرنسيين الذين زاروا مصر فى القرن التاسع عشر كراهيتهم لفرق الألبان أو الأرنؤط حتى اننا نشعر خلال كتاباتهم وملاحظاتهم التى سجلوها أنهم شعروا بالارتياح للاجراءات التى اتخذها محمد على للتخلص منهم ، وانه لم يكن أمامه سوى ارسالهم الى المناطق الحارة التى لا تتلاءم معهم حتى يهلكوا جميعا(٨) .

واذا كان محمد على قد تخلص من الألبان الا انه حرص على مصاهرة طبقة الأتراك فتزوجت بناته من كبار رجال الدولة ونخص بالذكر منهم صهره الدفتردار محمد بك الذى أفاض الرحالة فى الحديث عن قسوته وقدموا صورا مبالغة عنه فقد ذكر سانت جون بأنه كان يقتنى عددا كبيرا من النمور وكانت تجلس فى الديوان بجواره، فيصاب زواره بالفزع والرعب عند رؤيتها كذلك اتهمه بقتل عبيده لأتفه الأسباب(٩) . ومن الروايات التى ظل الرحالة يرددونها عنه عندما كان حاكما فى مصر العليا اتهمت امرأة أحد الجنود بسرقة اللبن منها ، فقام الدفتردار بطرح الجندى أرضا وأمر بشق بطنه ، كما ذكر بواتو أن ستة من مماليكه فروا فى حملة سورية فأمر باحضارهم امامه فى القاهرة ، وطلب منهم أن يتقاتلوا ومن يبقى منهم على قيد الحياة سوف يعفو عنه ، وعندما نجا أقواهم نظر اليه منتظرا العفو عنه ، ولكنه أمر حراسه من العبيد بقطع رقبته(١٠) كذلك أفاض الرحالة فى وصف ما فعله الدفتردار فى السودان من فظائع ، وانتقامه من الملك نمر فى شندى لمقتل اسماعيل باشا ابن محمد على ، حتى أنه كان يطارد

السكان ويطلق عليهم النيران ، كما تطارد الحيوانات عند الصيد وكان يحضر الأسرى ويجبرهم على سب انفسهم بعبارات مثل « أنا ابن ثور ، أنا ابن بقرة »(١١) .

وفى الحقيقة وجدت أن الرحالة بالغوا فى وصف فظائع الدفتردار محمد بك وتناقلوا هذه الروايات فيما بينهم ، ونقلوها وظلت تتداول حتى عهد الخديوى اسماعيل ، وبعد وفاة صاحبها بسنوات طويلة وكانوا يعقبون عليها وكأنهم يتهمون طبقة الأتراك بكاملها بارتكاب مثل هذه الفظائع .

٢ ـ طبقة المماليك :

ظلت هذه الطبقة مميزة حتى عام ١٨١١ عندما حدثت مذبحة القلعة وتخلص منها محمد على ولذلك نلاحظ قلة الكتابات عن هذه الطبقة باستثناء حادثة المذبحة . وتركزت الكتابات عن مراد بك وابراهيم بك والألفى بك خاصة فى السنوات الأولى من حكم محمد على بعكس ما ذكر فى القرن السابق أى فى القرن الثامن عشر حيث أفاض الرحالة فى الحديث عن هذه الطبقة وأصولها الاجتماعية فقد كانت هى الطبقة الحاكمة بالفعل خاصة بعد ضعف وتقلص سلطة الباشا العثمانى وقد وصفهم معظم رحالة القرن الثامن عشر « بالطغيان والتعسف » ثم تحدثوا عن ظاهرة وفاة أطفال المماليك وعلل فولنى ذلك بسبب مناخ مصر الحار كما أشار علماء الحملة الفرنسية الى نفس الظاهرة فكتبوا « طقس مصر الحار يحول دون تكاثر الأجانب » أما « أوليفيه » فقد علل وفاة أطفال المماليك الى خطأ الأمهات اللاتى يحرصن على تنشئة أولادهن فى مكان مغلق لا يجدد فيه الهواء ، ولا يحصل فيه الطفل على التغذية المناسبة سوى اللبن ، كذلك الى بقاء الأطفال فى جناح الحريم حتى سن السابعة » فتذبل صحتهم وتعلو

الصفرة وجوههم لأنهم يعيشون فى أجواء مغلقة غير صحية « بعكس أطفال الفلاحين الذين يتمتعون بالهواء الطلق والشمس »(١٢) .

ويمكننا القول بأننا نلمس فى كتابات رحالة القرن التاسع عشر التعاطف مع المماليك بسبب مذبحة القلعة وبذلك اختلفت كتاباتهم عما سجله زملاؤهم فى القرن الثامن عشر عن هذه الطبقة والتى وصفوها بالاستبداد والطغيان .

٣ ـ طبقة العلماء :

لهم نفوذ كبير فى البلاد وتاثير على الناس ، يحركون المحركات السياسية ، اضطر محمد على لانتزاع أملاكهم الواسعة لتقليل نفوذهم هذا وقد قابل الرحالة مجموعة كبيرة من العلماء فاثنوا عليهم وسجلوا بانهم كانوا وسيلة الاتصال بين محمد على والشعب(١٣) واكدوا بأن علماء الأزهر لا يقودون مصر فحسب وانما لهم دور واضح ومتميز فى العالم الاسلامى(١٤) وجاء ذكر أسماء بعض من العلماء مقترنا بالاحترام والتقدير خاصة الشيخ عمر مكرم والشيخ سليمان الفيومى والشيخ العروسى ، والشيخ السادات ، والشيخ الشرقاوى ، والشيخ البكرى وعبد الرحمن الجبرتى(١٥) ويتفق ما ذكره رحالة القرن التاسع عشر مع ما ذكره الرحالة فى القرن الثامن عشر عن العلماء فقد سجل دورفال اعجابه بهم بقوله « هؤلاء الرجال مسلمون بالفطرة ، يمتازون بالجد والاستقامة »(١٦) .

٤ ـ طبقة الفلاحين :

الفلاح المصرى طويل القامة ، قوى البنية ، متناسب الجسم ، منتظم التقاطيع ، تتوقد بالحياة ، ميناه السوداوان الفائرتان فى

محجريهما والمرتفعتان بعض الشيء نحو الجبين ، وقد تعبران تعبيرا وحشيا لولا الأهداب الطويلة التى تلطف من قدمهما ، وهو قوى الشفتين ، جميل الأسنان ، ينتهى وجهه البيضاوى المستطيل بلحية سوداء مجعدة غير كثيفة . وفلاحو مصر العليا نحاسيو البشرة جفاة الطبع صفراويو المزاج . أما فلاحو الدلتا فأنصع بشرة بكثير هكذا وصف بريس دافين الفلاح فى مصر(١٧) .

بينما رأى شولشيه أن فى مظهر الفلاحين وملامحهم تشابها كبيرا من صور المصريين المنحوتة على المسلات الجرانيتية الرائعة والتماثيل العظيمة(١٨) وقد لاحظ هذه الملاحظة أيضا الروائية البريطانية « امليا ادواردز » عندما زارت مصر فكتبت عبارات تشبه ما سجله شولشيه بأن « الفلاحين لم يتغيروا فى مظهرهم عما كانوا عليه قديما فحياة الفلاح المنقوش فى التصاوير الجدارية بالمقابر يبدو نفس الأكتاف العريضة والأطراف القوية رغم نحولها والشفاة المكتنزة والبشرة السمراء وها هو الفلاح المعاصر يرتدى نفس المئزر ويعمل بنفس الشادوف ونفس المحراث »(١٩) .

أما بريس دافين فقد سجل « فى مظهر الفلاحة وملامحها يجد المرء تشابها كبيرا بين شعب مصر الحالى والصور المنحوتة على الآثار القديمة »(٢٠) .

ونشعر فى كتابات شولشيه بالحزن والأسى على أحوال الفلاحين فى الوقت الراهن « لا أحد يصدق أن أحفاد الفراعنة الذين نحتوا المسلات الجرانيتية الرائعة والتماثيل العظيمة بمهارة وعلم وفن وقدموا للعالم آثارا عظيمة ، أضاءت الحضارة يعيشون الآن فى جهل ويغلب على طباعهم البربرية لا شىء يضارع بؤس وشقاء القرى المصرية حتى العبيد فى مستعمراتنا أكثر تقدما فى مساكنهم من الفلاحين »(٢١) .

لقد وصف معظم الرحالة حالات البؤس والشقاء التى يعيشها الفلاح المصرى فكتب عنها بوجولا وميشو وشولشيه الذى سجل « ان التعاسة لا توصف فى القرى المصرية ، لا نجد سوى رجال عرايا وجوههم شاحبة حزينة » واكد شولشيه ما ذكره مع ما سجله مانجان عن أحوال الفلاحين « لا توجد بلد فى خصوبة أراضى مصر ولكن خيرها ليس لمن يفلحها » وقد أعجب شولشيه بهذه العبارة التى وضعها مانجان فى مؤلفه فأخذ يكررها ويستشهد بها كلما جاء ذكر أحوال الفلاح المصرى(٢٢) .

أما مونتوليه فقد سجل عبارات مشابهة « ان هذه الأمة قدر لها الاستبعاد من اى شخص يرتدى الملابس التركية ، رغم أن هذا الشعب كله حيوية ويمكنه القيام بالأعمال العظيمة لو أحسن توجيهه »(٢٣) .

وانتقد شولشيه اتهام محمد على وأسرته للفلاح بالغباء والجهل وقارن بين ادعاءات محمد على بما يتردد فى أوروبا من ادعاءات عن الزنوج « بأنهم حيوانات متوحشة ، وبما يصف به الانجليز الشعب الايرلندى بأنه عاجز لا يستحق التمتع بحريته ، وبادعاءات الأسبان بأن الكاريبيين ليسوا رجالا وطلب شولشيه بمحاربة كل هذه الادعاءات والأفكار الخاطئة لأن التعليم يبرز ذكاء الانسان ، وقد أبرز التجنيد شجاعة الفلاحين فى الجيش ، كما أن محمد على لم يجد صعوبة فى تدريبهم وتعليمهم كذلك دافع عما يقال عن كسل الفلاح ، وتساءل كيف يكون كسولا وهو بالكاد يجد غذاءه فاذا أعطينا الفلاح غذاء مناسبا وأحسنا معاملته سيصبح أفضل حالا مما هو عليه الآن(٢٤) .

وأرجع دى بوسيار السخرة والضرائب بأنها من الأسباب المباشرة لثورات الفلاحين(٢٥) فالسخرة فى مصر لمدة شهرين

ويعامل الفلاحون معاملة عبيد الأرض ، وتوكل اليهم مهمة حفر الترع والقنوات واذا ما احتـاج محمد على الى جنـود فكثـيرا ما تتوقف جماعة من الألبان فى احدى القرى فتقوم بالاغارة عليها والقبض على العدد المطلوب من الفـلاحين ثم توثق أيديهم ويتم ابعادهم عن أهلهم ولذلك يحـاول الفلاحون الفرار من التجنيد بقطع أصابعهم واحداث عاهات وأحيانا تقوم الأمهات بقلع عيون أولادهم ، ولا يوجد فى مصر منظر أكثر بؤسا من قيام الفلاح بحفر القنوات بيديه ، فالرجال يجمعون الطين بأيديهم ، ويمكثون اليوم بأكمله فى المـاء بينما يقوم الحراس بضربهم بالسياط ، وينـام الجميع على ضفاف القنـاة وفى الحقول وعلى الأرض وغـداؤهم الرئيسى من الذرة(٢٦).

وتعتبر الضرائب من مآسى الفـلاحين فقد ذكر كادلفين انه شاهد هجوم الجنود الألبان فى اسنا على قرى الفلاحين لتسديد ما عليهم من ضرائب(٢٧) هـذا وقد أطلق الفلاحون على محمد على لقب « ظالم باشا » بسبب ما نالهم من تعذيب على أيدى مأموريه ومن كى بالنـار وتمزيق آذانهم وضربهم بالسـياط ولقد أنهكت الضرائب الفلاح المصرى وأصبح فريسة لجميع موظفى الوالى من أعلاهم الى أدناهم (٢٨) .

وتعجب شولشيه من عدم مراعاة محمد على لظروف الفلاحين فهو حريص على جمع الضرائب سـواء انخفض النيل أو حتى ارتفع الفيضان ، فهو لا يرحم الفلاح ، وسكان القرى مسئولون عمن يفر من قريتهم ، ويمتنع عن دفع الضريبة فلابد أن يدفعوها نيابة عنهم ، ورأى شـولشيه أنه « لا يمكن وصف نظام أكثره قسوة وتدميرا من نظام محمد على فى جمع الضرائب التى يجبر الفلاح على تسديدها حتى آخر بارة لديه » وساق شولشيه عدة

روايات نعتقد أنه مبالغ فيها فذكر أن أحد المشايخ عجز عن تجهيز عدد من الجمال لحملة سنار فضرب بالعصى خمسمائة ضربة على رجليه ثم علق من أنفه على الحائط بواسطة قطعة من النحاس حتى سقط على الأرض من الاعياء بينما بقيت أجزاء من أنفه معلقة على الحائط بواسطة القطعة النحاسية وردد شولشيه عدة روايات كتبها من قبل كادلفين وهامون بل نقل بعض الروايات من ادوارد وليم لين وكأنه يريد اقناع القارىء بالأدلة والبراهين على قسوة محمد على(٢٩) .

ويذكر شامبيليون أنه اثناء رحلته فى مصر « كان الفلاحون الفقراء شبه العرايا يفرون لمرآنا مثل قطيع من الغزلات لاعتقادهم فى بادىء الأمر اننا من جباة الضرائب ولكن سرعان ما يأتون الينا عندما يدركون اننا قوم مسالمون »(٣٠) وقد تأثر شامبيليون من بؤس ومعاناة الفلاح فكتب « أن محمد على كان يعلم بأن أسلافه الأقدمين كانوا يصورون مصر على هيئة بقرة ولذلك فهو لا يتورع عن حلبها وانهاكها ليلا ونهارا »(٣١) .

وسجل بريس دافين « لا يستطيع أى اجراء أن يخلص الفلاح من العقاب البدنى اذا لم يدفع الضرائب فهو عقاب مباشر وكل ما يستطيع ان يناله من تخفيف لا يتجاوز تقليل عدد الضربات التى توقع عليه وتلجأ النساء لبيع حليهن لتسديد ما على ازواجهن من ضرائب(٣٢) .

وعندما فر الفلاحون الى سورية بسبب عجزهم عن دفع الضرائب وضع محمد على عقوبات صارمة وخصص للبدو مبلغ ٦٥,٠٠٠ فرنك سنويا لمراقبة الطرق والقاء القبض على الفارين، وفى عهده هجرت قرى بأكملها وأصبحت خاوية وتناقص عدد

السكان بصورة واضحة(٣٣) وقد شاهد فلوبير أسر مصرية بأكملها تسكن فى سراديب المقابر ومعها أطفالها العراة فرارا من الضرائب « وقد اتخذ البعض منهم من أخشاب التوابيت المنقوشة أبوابا لمأواهم »(٣٤) .

أما بارتيلمى سان هيلار فقد طالب بضرورة أن يكون فى مصر حكومة قوية متفتحة تحمى الفلاح بدلا من تعذيبه ، فهو لا يعرف الملكية الفردية ، ولا يعرف حياة الأرض(٣٥) وان كان هذا الحق قد منح له فى عهد سعيد باشا فكان ذلك بمثابة « ثورة اقتصادية » على حد قول شارل بلان(٣٦) وقد رأى أمير أن الفلاح المصرى يعانى من البؤس والشقاء فى ظل الحكومة الحالية ولكنه « لم يكن أحسن حالا فى عهد المماليك » فقد كتب عليه الفقر ودلل على ذلك بمطاردة الفلاحين للأوروبيين والرحالة « انهم شحاتون يطالبوننا بالبقشيش دائما وفى كل مكان »(٣٧) وأكد شولشيه هذه الحقيقة كما لاحظ أن الفلاحين « ينظرون الينا كما لو كنا مخلوقات عالية مختلفة ، ويروا فى كل شخص يرتدى القبعة عالما يستشيرونه فى كل شىء ، ولكنهم فى أعماقهم يكرهون كل ما هو أوروبى ومسيحى، وذلك لأنهم يكرهون الأقباط بحكم عملهم مع الطاغية ، فهم من وجهة نظرهم مسئولون عن آلامهم »(٣٨) .

ودافع بريس دافين عن اتهام الفلاحين بالسلبية وأكد أن الأعباء المفروضة عليهم هى السبب فى ذلك الشعور وهذه السلبية من وجهة نظره «هى نوع من الاحتجاج على السلطة »(٣٩) .

ويعيش الفلاح فى مساكن من الطين منخفضة مظلمة ولا يمتلك سوى حجرة واحدة تأويه مع أولاده وزوجته والحيوانات التى يمتلكها(٤٠) وتعجب ميشو من مسكن الفلاح « الذى لا يدخله

الضوء مطلقا الا اذا فتح الباب » بينما أعجب بمنزل شيخ البلد فهو « منزل ممتــاز يتكون من طابقين به عدة نوافذ وله فنـاء واسع »(٤١) .

ويعانى الفلاحون من انتشار الأمراض والأوبئــة خاصـة الطـــاعون ، ولو تحســنت معيشتهم لاختفى هــذا المرض ، اما أولادهم فيبدو عليهم الضـعف والمـرض ويموتون بأعـداد كبيرة (٤٢) وانتقد بريس دافين الفـلاحين الذين يتركون أولادهم والذباب يحـاصر وجوههم « فاذا رأيتهم تحسب أنهم لم يغسلوا وجوههم قط ، ويواصل من بقى منهم على الأرض حيـاة مريضة حتى سن المراهقة وفجأة دون فترة انتقال ترى أولئك الصغـار الدميمين قد أصبحوا رجالا وساما والسبب الرئيسى فى ضعفهم هو الغذاء النبـاتى الذى يتألف من خبز الذرة والفول المسـلوق واللفت(٤٣) .

وتعجب شولشيه أنه على الرغم من سوء التغذية ورغم كل هذا الضعف « لا نرى طفل أو فلاح ظهره غير مستقيم » ثم قارن بين الفلاحين فى مصر وباقى البلاد الفقيرة فسجل « أن أحـوال الفلاحين فى مصر تشبه أحوال الهنود فى المكسيك وفى الكاريبى وفى الدومنيك وعبيد جزر الانتيل فلا يوجد أدنى مظهر من مظـاهر الحضارة فى حياتهم »(٤٤) .

ورغم انتشار الأمراض بين الفلاحين وسوء أوضاعهم الا أن الفلاح له طبيعة مرحة ، ويتسم بالرقة ، والصبر والتحمل(٤٥) وله أيضا طبيعة حزينة بسبب انه اعتاد المعاناة ، واتهم ميشو الفلاح بالجبن « فدائما نظرته الى الأرض ، أن مصر بها آلاف من الفلاحين لا يأكلون سوى الحبوب ، والحشـائش ، انهم خليـة نحل تنتج لغيرهم »(٤٦) .

اما ملابس الفلاح فهى بسيطة ، تتكون من قميص وسروال من الكتان عليهـا قميص أزرق واسـع وحول خصره حزام من الجلد أو القماش ويرتدى على رأسه قلنسوة من طربوش يعرف باللبدة وفى الشتاء يرتدى عباءة واسعة تسمى « الزعبوط »(٤٧) .

هذا وقد حاول الخديوى اسماعيل فى مقابلة مع شارل بلان أن ينفى معاناة الفلاح المصرى خاصـة وقد كثرت الكتابات فى تلك الفترة عنه فذكر « ان الفلاح فى مصر ليس بائسا ، فهو يعيش على الزراعة ، يزرع المحاصيل التى تناسب تربته ، والنيل عامل هام فى مساعدته على الزراعة فهو يزرع فى مارس ويجنى الثمار ، وفى مصر تزرع فى كل الأوقات »(٤٨) .

نلاحظ مما سبق أن رحالة القرن التاسع عشر قد أفاضوا فى الحديث عن الفلاح المصرى وبذلك اختلفوا عن زملائهم الذين زاروا مصر فى القرن الثامن عشر وجاءت ملاحظاتهم عن الفـلاح موجزة وان كان الطرفان قد اتفقا فى بعض الآراء فعلى سـبيل المثال وصف الكونت دانتريج الفلاح فى القرن الثامن عشر بالجبن فقال « انهم عبيد لديهم انحطاط لايثورون ضد أسـيادهم » . وقد اتفق ذلك مع ما ذكره ميشو فى القرن التاسع عشر ، بينمـا نجد بريس دافين يدافع عن الاتهامات التى وجهت الى الفـلاح المصرى وهو بذلك يتفق ايضـا مع ما ذكره فولنى فى القـرن الثامن عشر « ان الفـلاحين لديهم نخوة ، ويتسمون بالعناد ، ولا يحتاجون سوى التوجيه ، حتى تصبح شجاعتهم رهيبة ، ان أحوالهم قاسية ، وهم أجدر بالشفقة من الاحتقار انهم مستبعدون لفاتحين غرباء »(٤٩) .

٥ ـ القبـــائل :

أثنى ميشو على القبائل العربية فهى تملك الثراء ، وتمتلك أعدادا كبيرة من الجمال والحيوانات ، وقبـــائل مصر تشبه قبائل فلسطين فلهم نفس العادات والتقاليد ، وهم يعشقون الحرية ، ولا يشربون الدخان ، يقومون بالصيد ، يرتحلون فى الصحراء وراء العشب والمـــاء غذاؤهم الرئيسى من البلح ، ولذلك صحتهم جيدة، لا يعرفون أمراض القاهرة ، ولا يتعاملون مع الأطباء ، ولا نجد لديهم أية اصابات بمرض الطـــاعون أو غـــيره من الأمـــراض ، دستورهم القرآن ، ولكنهم رغم ذلك لا يهتمون بالمواظبـــة على الشعائر الدينية وأداء الصلاة والحج الى مكة . جنائزهم بسيطة ، ولا يسمح للنساء بالسير خلف النعوش كما يحدث فى القاهرة ، فلا نسمع عويل أو بكاء ، ويتم الدفن فى حفرة من الرمال دون أية علامة ، وهم يفخرون بأنهم من البدو ، وليســـوا من الفلاحين، ولا يمكن أن يسمح لبدوية بالزواج من فلاح والا نبذتها القبيلة ، واذا حدث ووافقت القبيلة على هـــذه الزيجة ، فينبغى على الفلاح المسكين دفع كل ما يملك لارضاء القبيلة واذا رفضت فمن الجائز قتل الفلاح »(٥٠) .

وتفخر القبائل بأنسابها ، ولديهم عزة نفس ويسكنون فى الخيام ، ويسمى العرب الذين يعيشون فى العراء عرب الخيش ويفخرون بأنهم أولاد اسماعيل ، أما العرب الذين تركوا الصحراء وسكنوا المدن فيطلقون عليهم عرب الحيط(٥١) .

وقـــد أثنى الرحـــالة على البدو فوصفهم فوربان بالكرم والشجاعة وانتقد من وصفهم بالتوحش والهمجية فهو من وجهة نظره كرماء يعشقون الحرية والاستقلال(٥٢) هذا وقد اتفق رحالة القرن التاسع عشر على ما سجله الرحالة من قبل من اعجابهم

بالبدو فقد قدم سافارى فى القرن الثامن عشر صورة مشرفة فكتب « انهم يعشقون الحرية ويعيشون أحرارا فى الصحراء يعتقدون أن سهول مصر سوف تحولهم الى عبيد ، وهم أفضل شعوب العالم لا يعرفون الكذب ولا النفاق ، معتدون بأنفسهم كرماء خيامهم مفتوحة دائما لاستقبال ضيوفهم فاذا نزل عندهم مسافر فانهم يكرمونه ويذبحون له الخراف ويقدمون له العسل واللبن وهم يتسمون بالجرأة والشجاعة »(٥٣).

هذا وقد سجل الرحالة محاولات محمد على لاخضاع القبائل واجبارهم على التوطين وتملك الأراضى وذلك لكى تتخلص مصر من اغاراتهم وما تحدثه من اضطرابات فى البلاد . فأجبرهم على العمل ، كما كلف بعض القبائل بمراقبة الطرق والحفاظ على الأمن ولكن ذلك « لم يكن أمرا هينا فقد كلف الباشا عدة سنوات من العمل الجاد »(٥٤) فقد كلفهم محمد على بمراقبة الطرق وفرض عليهم عقوبات عند الفرار من التجنيد ، وذكر كادلفين انه شاهد أحد الشبان من البدو فى أسيوط حيث تم ضربه بطريقة غير انسانية فضرب بالسياط والعصى ، وتزداد عدد الضربات كلما ازدادت عدد مرات الفرار « فكان البدوى المسكين يضع يده فى فمه ويضرب الأرض بقدميه من الألم ، وقد فكر المسئولون فى مصر فى توقيع عقوبة الاعدام رميا بالرصاص على الفارين ولكنهم وجدوا بأنها لن تحل المشكلة »(٥٥) .

كذلك حرص خلفاء محمد على على اخضاع البدو والقضاء على الاضطرابات التى كانوا يثيرونها فقد أجبر سعيد باشا قبائل الصعيد على دفع الميرى عن الأراضى التى يزرعونها وكان محمد على قد أعفاهم منها لقاء خدمات أدوها له أثناء حرب الشام فلما امتنعوا عن الدفع أرسل سعيد فرقا من الجيش هزمتهم فأذعن شيوخهم بشرط أن يؤمنهم الباشا على حياتهم

ولكنه رفض وأمر باعدامهم وتم ربط عدد من رؤساء القبائل الثائرة فى فوهات المدافع وحكم على الباقين بالاشغال الشاقة(٥٦).

هذا وقد سجل الرحالة فى كتاباتهم أسماء أشهر القبائل فى مصر مثل الهوارة والعبابدة والهنادى والهدندوة فى الوجه القبلى والمعازة فى مصر الوسطى والطرابين وأولاد على والقطاوية فى الوجه البحرى . كما سجل الرحالة ملاحظات عن بعض من هذه القبائل يمكن ايجازها على النحو التالى :

العبابدة : يشبهون الزنوج ولكن قسماتهم ادق وارق ، يعيشون بأعداد كبيرة بين الأقصر وأسوان وأكد مونتوليه « ان العبابدة هم السلالة الحقيقية للمصريين القدماء وليس الأقباط ، ثم وصفهم « بأنهم أكثر القبائل نبلا وكرما »(٥٧) أما « ريفو » فكان له رأى مخالف عنهم تماما فهم فى نظره ليسوا « سوى لصوص ، لهم شهرة فى السلب والنهب »(٥٨) .

البشارية : تمتد أوطانهم بين النيل والبحر الأحمر يعتمد عليهم الرحالة والسائحون لزيارة الأماكن الهامة(٥٩) وقد عاش لينان دى بلفون بينهم وقدم وصفا لمساكنهم وخيامهم التى تختلف عن خيام العرب فهم مصنوعة من الجلود والجريد(٦٠) .

اولاد على : يعيشون فى الفيوم وتمتد أوطانهم غرب مصر فى الصحراء الليبية ، لديهم أجمل الخيول وهم يتصفون بالشجاعة(٦١) .

وقد لجأت القبائل الى تقديم الهدايا الى حكام مصر لينالوا رضاءهم فذكر كادلفين انه شاهد وفدا من أولاد على يقدم لمحمد على غزال أبيض جميل ونعامة صغيرة ، وانهم اثناء زيارتهم له ظلوا يقبلون الأرض واطراف ثوبه حتى أجبرهم الجنود على النهوض والخروج من الديوان(٦٢) .

المغاربـــة : قبـائل قوية وفدت على مصر واستوطنت فى البـلاد(٦٣) .

أما عن مـلابس البدو فهى بصفـة عامة بسيطة تتـكون من سروال يربط بالحبال وقميص واسع عليه صديرى صغير وحزام مزين بالأسلحة(٦٤) .

لم يكتف الرحالة الفرنسيون بالحديث عن القبـائل التى تقطن مصر وانما امتد هـذا الحديث الى قبائل السودان ، فقد حرص الرحالة الذين صاحبوا قوات محمد على أثناء فتح السودان على اعطـاء صورة ولو موجزة عن هذه القبائل .

البجـــة : هم سكان الأراضى الواقعـة بين البحر الأحمر شرقا والنيل غربا ، وينقسمون الى أربعة أقسام البشاريون فى الشمال والأمرار فى الجنوب هم الهدندوة الى الجنوب وبنى عامر فى الجنوب الشرقى وقد قدم لينان دى بلفون وصفا لهذه القبائل « فقوامهم صغير دقيق ولونهم فاتح ، وهم بدو رحل ، يعيشـون حياة بسيطة ويميلون الى العزلة »(٦٥) .

ومن القبائل التى تقطن ساحل البحر الأحمر قبـائل **الجـالا** وتمتد أوطانهم جنوب سـواحل السودان ، كذلك **الدناكل** وتعيش هذه القبائل على الرعى لأن أوطانهم فقيرة ، فلا يوجد بها زرع ولا صناعة . هـذا وقد قدم « أوبير روش » عدة أبحـاث عن هذه القبائل واكد ان كلا من الجـالا والدناكل تندرج تحت سلالة واحدة ، فهم من الحاميين . أما شولشيه فقد أكد فى كتابته اقتناعه برأى بعض العلماء خاصة « نيكولاس ويزمان » بأن الطقس هو المسئول الأساسى عن لون البشرة وضرب أمثلة بالقبائل التى تقطن سواحل كندا بأن لون بشرتها يختلف عن القبائل التى تعيش فى المناطق الداخلية ، كذلك الحـال بالنسبة لقبائل السودان فهناك

اختلاف فى لون البشرة ، فالقبائل التى تقطن فى المناطق الداخلية يغلب عليها العنصر الزنجى واللون الأسود الحالك بينما قبائل البحر الأحمر يغلب على بشرتها اللون الفاتح نوعا ما(٦٦) .

أما عن القبائل العربية فى السودان فقد اختلطت بالسكان الأصليين ومن أشهر هذه القبائل الجعليون الذين امتدت أوطانهم من دنقلة فى الشمال الى بلاد الدنكا فى الجنوب وقد استقر البعض منهم غربا فى كردفان خاصة الجوامعة والبديرية ويفخر الجعليون بانتسابهم الى عم الرسول « صلى الله عليه وسلم » ومن أشهر القبائل العربية أيضا **الشايقية** الذين كونوا ثلاث ممالك فى جنوب دنقلة وشملت كورتى وحنك ومرورى وقد ظلت هذه الممالك قائمة حتى قضى عليها النفوذ المصرى فكان للشايقية تجارة نشطة مع سنار وقد اشتهروا بشجاعتهم فى القتال ولذلك حرص اسماعيل باشا عند فتح السودان على ضمهم للعمل مع الادارة المصرية(٦٧) .

وتعتبر قبائل **جهينة** من أهم القبائل العربية وقد تركزت هذه القبائل فى غرب السودان خاصة فى كردفان ومن أشهر أقسامهم الكبابيش والحمر وكانت حرفتهم الرئيسية هى الرعى الا أنهم عملوا مع الادارة المصرية فى حراسة القوافل المتجهة من كردفان الى مصر وساهموا فى نقل البضائع ، أما البقارة فمنهم قسم من أقسام جهينة أيضا ، ولكن يغلب عليهم الطابع الحربى وقد اشتهروا برعى الأبقار والصيد(٦٨) .

كذلك قدم الرحالة الفرنسيون وصفا للقبائل الزنجية خاصة الشلك والتى تمتد أوطانهم على الضفة اليسرى للنيل الأبيض ومنها قبائل **البارى** وتسكن على ضفاف بحر الجبل ، ولم يتم اخضاع الشلك وكثير من القبائل الزنجية الا فى عهد الخديوى اسماعيل(٦٩) .

واخيرا اذا كنا قد عرضنا بايجاز كتابات عن القبائل التى تقطن السودان فانه ينبغى علينا أن نشير أيضا الى حرصهم على تسجيل كل ما يتعلق بالنوبيين خاصة كايو المرافق لحملات محمد على والذى أتيح له أن يشاهد عن قرب المجموعات النوبية المختلفة التى تعيش ملاصقة للنهر وقد لمسنا الاعجاب بالنوبيين ليس فقط فى كتابات كايو وانما فى كتابات غيره من الرحالة خاصة كادلفين وشولشيه وغيرهم والحقيقة أن هذا الاعجاب لم يكن وليد القرن التاسع عشر فعلماء الحملة الفرنسية سجلوا ملاحظاتهم عنهم خاصة العالم الفرنسى كوستاز(٧٠) فكتب « انهم يعيشون بين فيلة وأسوان ، وهم لطيفوا المعشر ، يعيشون فى حالة سلم بقدر ما يستطيعون مع جيرانهم العربان ، وعندما يشن هؤلاء عليهم هجوما فانهم يلجأون الى الصخور ، وهنالك يتخذون وضع الدفاع . وقد اشتهر النوبيون بالأمانة والاستقامة ، ويكاد يعهد اليهم بحراسة كل البيوت والأسواق » . ثم يتساءل كوستاز « ترى من أين جاء لهذه الأمة كل هذا السمو الأخلاقى الذى يميزهم عن جيرانهم العربان الذين تبدو اللصوصية عندهم مهنة شريفة »(٧١) .

أما ما سجله كادلفين عن النوبيين فى القرن التاسع عشر فهو يتشابه مع ما ذكره كوستاز بأنهم شعوب متلاصقة لنهر النيل « تمتد أوطانهم من أسوان شمالا حتى الشلال الثانى حتى كورتى ، ويتركزون فى دنقلة فى السودان ، ويتصفون بالجلد والاخلاص ، ودماثة الخلق ، والهدوء والأمانة . ملامحهم دقيقة بعيدة عن ملامح الزنوج ، طباعهم مهذبة بعيدين عن التوحش ، وبذلك هم يختلفون عن العرب والزنوج ويعمل الكثيرون منهم فى مصر ، ويدخرون الأموال ثم يعودون بها الى بلادهم لمساعدة أهاليهم »(٧٢) .

ويتحدث النوبيون اللغة النوبية ، وهى عدة لهجات فمنها المحسى والسكوتى والكنزى وينقسم النوبيون الى عدة مجموعات منهم الكنوز الذين تمتد أوطانهم من أسوان الى كرسكو ، والفديجة يقطنون بين وادى حلفا وكرسكو ، ثم باقى المجموعات فى السودان فيعيش الدناقلة فى الجنوب بين الدبة وأبى فاطمة ، ويعيش المحس والسكوت فى منطقة الشلالات والجنادل ، وقد عاودت الدناقلة الادارة المصرية فى تنفيذ مشروعاتها العمرانية فى منطقة دنقلة وساعدهم على ذلك خصوبة أراضيهم وتوفر المياه فأثنى عليهم كادلفين وغيره من الرحالة(٧٣) .

ويرتدى النوبيون ملابس من الدمور الذى يتخذون منه سراويل طويلة وفوقه قميص أزرق أو أحمر ويسيرون حفاة رؤوسهم عارية ، بينما يظل الأطفال عراة حتى سن الخامسة فترتدى الفتاة ما يعرف « بالرهط » وهو حزام من الجلد يلف حول خصرها تتدلى منه قطع من الجلد حتى الركبتين . أما النساء فيرتدين « القرباب » وهى أشبه بفوطة الحمام وفوقها قميص ثم ثوب من الدمور وتضفر المرأة شعرها على هيئة ضفائر دقيقة جدا ويخشى النوبيون « العين الحاسدة الشريرة » ولذلك يصنعون الأحجبة لدفعها عنهم ويحرصون على تعليقها(٧٤) .

٦ ـ الأقباط :

ينتمى الأقباط الى الطائفة اليعقوبية ، ويؤمنون بطبيعتين للمسيح ولا يعترفون ببابا روما وانما يتجمعون تحت قيادة البطريك(٧٥) . ويبدو أن شولشيه « لم يعجبه اختلاف الأقباط فى المذهب عن المسيحيين الكاثوليك فى أوروبا فكتب دوان المسيحيين فى الشرق ظلوا على بربريتهم الأولى ولا يقارن جهد الكاثوليك فى أوروبا من أجل الكنيسة والمسيحية بما تفعله كنائس الشرق »(٧٦) .

وقدم « دى بوسيبار » وصفا للأكليروس القبطى الذى يقوم بالخدمة الدينية فى الكنائس فهناك الرهبان والشمامسة الانجيليون والكهنة ورؤساء الكهنة ولا يجوز ترشيح أحدهم للانتظام فى سلك الاكليروس الا اذا كان متزوجا . أما الرهبان فيعيشون فى عزوبية وسط الصحراء ويتم قبول الراهب فى الدين بطريقة غريبة حيث يقام حفل كبير « يتم فيه زفافه الى الموتى ، ويعتبر ميتا فى الدنيا ، ويذهب أهله وأصدقاؤه لوداعه ورؤيته ، وذلك لأن الصلة سوف تنقطع بينهم وبينه بعد أن يصبح راهبا »(٧٦) .

أما « ادوارد وليم لين » فقد أعطانا صورة لدرجات الكهنوتية فذكر أن البطريرك هو رأس الكنيسة ويحتل كرسى القديس مرقص ويقيم فى القاهرة ويتم اختياره من بين طبقة الرهبان وهو يلتزم بتقاليد صارمة فهو لا ينام الا لايقاظه كل ربع ساعة ، ويتم اختياره عادة من بين رهبان دير سانت انطوان فى الصحراء الشرقية ، ويتم كتابة أسماء ثمانية من الرهبان على ورق منفصل ثم تطوى الأوراق ويحسب أحد الرهبان ورقة يكون فيها اسم البطريرك المنتظر ، ويعين البطريرك مطران الحبشة الذى يتم تعيينه فيها ، أما الأساقفة فعددهم اثنا عشر أسقفا ويتم الاختيار من بين الرهبان ، ويتم اختيار القمص من رتبة الكهنة ، أما الكاهن فلابد أن يكون شماسا لا عاهة جسدية فيه ، والا يقل سنه عن الثالثة والثلاثين ، ويقوم البطريرك بتعيين القساوسة والشماسين(٧٨) .

وقد اقترب وصف رحالة القرن التاسع عشر من وصف علماء الحملة الفرنسية للأقباط عندما كتبوا « ملامحهم زنجية من سلالة المصريين القدماء فى ملامحهم يشبهون الأفارقة أما « فولنى » فقد كتب « انهم أحفاد الفراعنة ، تتسم وجوههم بسبمة

خاصة ، فالبشرة صفراوية دخانية اللون ومجمل القول لهم وجه خلاس » (٧٩) .

وقد سجل « شارل ادمون » فى القرن التاسع عشر بأن فيهم الشكل المصرى القديم خاصة أقباط الفيوم ، الأنف الصغير المستقيم ، الشعر الأسود المموج ، والبنية الصغيرة »(٨٠) وأكد أمبير انحدار الأقباط من سلالة الفراعنة أو المصريين القدماء(٨١) بينما نفى « شولشيه » ذلك وأكد أن الأقباط اختلطوا باليونانيين والأحباش وغيرهم من الوافدين والغرباء على مصر وهم « يدعون بأنهم ينحدرون من سلالة المصريين الأوائل من طيبة ومنف ولكن هذه المقولة غير صحيحة فلا يوجد بينهم تشابه مع قدماء المصريين وذلك لأنهم اختلطوا بعد دخول المسيحية مصر باليونانيين والسوريين والرومان »(٨٢) .

وانتقد « ريفو » الأقباط لأن معظمهم لا يعرف القراءة ولا الكتابة فهم لا يملكون النور ولا المعرفة والسبب فى ذلك مذهبهم الأرثوذكسى الذى يعتنقوه(٨٣) ولكنهم رغم ذلك بارعون فى الأعمال الحسابية ، ولذلك نجدهم يسيرون فى الشوارع والمحبرة تتدلى من تحت أحزمتهم بدلا من الخنجر الذى يعلق فى الخصور ، ويعمل معظمهم فى الادارات المختلفة ومساحة وقياس الأراضى(٨٤) .

وللأقباط لغة خاصة ، ولكنها الآن لم يعد لها وجود مثل اللغة اللاتينية التى انقرضت فى أوروبا ، ولكن مازال رجال الدين المسيحى يعرفون هذه اللغة خاصة فى الصعيد(٨٥) .

هـذا وقد احتكر الأقباط بعض المهن والحرف مثل صناعة الحرير ، كذلك هم « ملوك صناعة الزيوت والشموع والسمك

المملح وتقطير الورود خاصة فى الفيوم والمنزلة »(٨٦) كما برعوا فى صياغة الذهب ولهم العديد من المحلات فى الموسكى(٨٧) .

وتتشابه ملابس الأقباط مع ملابس المسلمين ولكنهم يفضلون الألوان القاتمة السوداء والزرقاء ، ومن الصعب التمييز بين نساء المسلمين ونساء الأقباط فهن يشتركن فى عادات وتقاليد واحدة ؛ والقبطية تغطى وجهها مثل المسلمة(٨٨) ولكن من وجهة نظر « مونتوليه » ملامح الأقباط أقل رقة من العرب وعلل ذلك بسبب أصولهم الزنجية فشعرهم أسود مجعد ولون بشرتهم يميل الى اللون الشاحب المائل الى الصفرة(٨٩) .

يلاحظ أن رحالة القرن التاسع عشر خفت فى كتاباتهم روح العداء والانتقاد للأقباط عما كان يدونه رحالة القرن الثامن عشر والذين كان من بينهم رجال دين من الكاثوليك ارادوا نشر مذهبهم ولكنهم اصطدموا بالأقباط الذين تمسكوا بمذهبهم الأرثوذكسى ، ولذلك نجدهم يشنون عليهم حملة كبرى من خلال ما دونوه فقلما يخلو كتاب أو مؤلف من كتب هؤلاء الرحالة من انتقاد للأقباط ووصفهم بالخبث والدهاء والقذارة والجهل . وكان الأب « سيكار » من أشد المهاجمين لهم خلال تلك الفترة حتى أنه كتب « لابد لنا أن نتعرف على عاداتهم وتقاليدهم حتى يتسنى لنا هزيمتهم وتصحيح أخطائهم » أما « سونينى دى مانكور » فقد سجل « ان اسم فرنسا الذى يحترم فى أوروبا كلها وفى الشرق ، وفى الدولة العثمانية محتقر لدى هؤلاء الأقباط الأرثوذكس الذين يقطنون الصعيد ، ويمقتون أعمال بعثاتنا الكاثوليكية ويطلقون على أعضائها الكلاب »(٩٠) .

وقد اتهم بعض رحالة القرن التاسع عشر الأقباط بالتعصب الشديد لمذهبهم خاصة « ادوارد لين » و « كادلفين » . كما

تعرض رجال الدين الأقباط للانتقاد الشديد لسيطرتهم على رعاياهم ، ومن الأمور التى لفتت أنظار الرحالة قيام الرهبان بعملية جلب العبيد خاصة فى اسيوط فى « زاوية الدير » فشن الرحالة عليهم حملة من الانتقادات وكان شولشيه هو الوحيد من بين الرحالة الذى دافع عن هؤلاء الرهبان فكتب يقول « ينبغى علينا الا نلوم الأقباط على ذلك ، فالبعثات الكاثوليكية فى الغرب امتلكت الزنوج والعبيد عبر البحار ، وتاجرت فيهم »(٩١) .

وأخيرا يمكن القول ان الأقباط تمتعوا بقدر كبير من التسامح الدينى فى القرن التاسع عشر وقد أكد هذه الحقيقة ادوارد لين وشولشيه وحصلوا على المناصب الكبيرة ووصل بعضهم الى مصاف البكوات(٩٢) .

٧ ـ اليهود :

يعيش اليهود فى مصر فى احياء فقيرة قذرة ويقطنون منازل سيئة البناء ، أسطح المنازل فيها متقاربة تكاد تتلامس ، والأبواب منخفضة ولذلك عند ظهور الطاعون يظهر فى حارة اليهود أولا نظرا لضيق المكان . وقد قدر « ميشو » أعداد اليهود فى مصر بنحو ثلاثة آلاف(٩٣) أما « كادلفين » فقد قدرهم بثلاثة آلاف وخمسمائة(٩٤) وهم ينقسمون الى فئتين اليهود العبرانيين واليهود القرائين ويعمل اليهود فى تغيير العملة وفى تجارة الأحجار الكريمة المستوردة من تركيا وآسيا الصغرى والهند(٩٥) .

واليهود مكروهون وهم لصوص ولهم سمات ملحوظة فلهم عيون منتفخة لا يهتمون بالنظافة ويرتدون ثيابا رثة قذرة وعلل « بوسييار » ذلك « حتى لا يلفتون اليهم الأنظار ، ويظهروا دائما بمظهر الفقراء »(٩٦) .

٨ ـ طبقة الرقيق :

افاض الرحالة فى وصف أحوال الرقيق فى مصر خاصة القادم من السودان فذكر كادلفين بأن القوافل تأتى الى مصر محملة بالعبيد من كردفان وسنار حيث تتجمع فى اسيوط ثم يعرض الرقيق فى الأسواق نصف عرايا وأجسادهم مدهونة بالزيت ويتم عرضهم للبيع فى مكان واسع ولكل منهم سيد يتبعه ، وتم فحص العبيد والكشف على أسنانهم وشفاهم العليا ولسانهم وعيونهم وأذانهم وبعد هذا الفحص المقزز على حد قول كادلفين يتم البيع وقد سجل كادلفين بعض أسعار العبيد على النحو التالى :

النوع	داخل افريقيا	اسيوط
الأطفال (الثلاثى)	٨٠٠ ـ ١٠٠	١٥٠ ـ ٤٠٠
الرباعى	١٠٠ ـ ١٦٠	٣٠٠ ـ ٤٠٠
الخماسى	١٨٠ ـ ٢٠٠	٥٠٠ ـ ٦٠٠
السداسى	٢٥٠ ـ ٤٠٠	٧٠٠ ـ ٨٠٠
الغلام سن ١٥ سنة)	١٥٠ ـ ٢٥٠	٤٠٠ ـ ٥٠٠
الفتاة	٥٠٠ ـ ٧٠٠	٩٠٠ ـ ١٠٠٠
أم البكر (لها طفل)	٢٥٠ ـ ٣٠٠	٥٠٠ ـ ٦٠٠
أم الاثنين	١٥٠ ـ ٢٠٠	٤٠٠ ـ ٥٠٠
الأسطة (امرأة لها خبرة بالشئون المنزلية)	٢٥٠ ـ ٣٠٠	١٠٠ ـ ١٥٠٠
المرضعة	ـــ	٩٠٠ ـ ١٠٠٠ (قرش)

ولا يفضل الجلابة النوعين الآخيرين لانهما يحتاجان الى رعاية ويتم مراقبة العبد ثلاثة أيام لمعرفة العيوب كالتبول ليلا أو الشخير ويمكن رده الى التاجر مرة ثانية اذا ما ثبتت عليه هذه العيوب(٩٧) .

ويزداد الطلب على النساء الحبشيات لجمالهن حتى بعد الغاء الرق كان يتم احضار العديد منهن تحت ستار العمل كخدم فى المنازل(٩٨) .

وقد أعطى « نرفال » وصفا للحبشيات وهن يجلسن فى الانتظار الراغب فى شرائهن ، وشعرهن مقسم الى عدة ضفائر ، ايديهن مزينة بالأسوار ، وآذانهن بالأقراط ، وأكد ان جوارى اجمل من النوبيات ، والحبشيات أكثر توحشا وشراسة ولكنهن مطلوبات للخدمة فى المنازل ولا يتم عرض الجوارى من النوبيات والحبشيات فى الأسواق على الملأ بل لابد من الصعود الى الغرف المخصصة لاقامتهن لرؤيتهن وترتفع اثمانهن عن غيرهن خاصة القادمات من دنقلة وقد روى نرفال رواية سردها غيره من الرحالة ويبدو ان كل واحد منهم أراد أن ينسبها الى نفسه لاضفاء البسمة والبهجة فى نفوس القارىء الفرنسى فذكر « نرفال » ان احدى الحبشيات رأته وهو يرتدى قفازا أسودا فأخذت تصرخ فى وجهه « أنت شيطان وجهك أبيض ويداك سوداء »(٩٩) .

وانتقد « مارسيلوس » طريقة بيع الجوارى ، وذلك لأن المشترى يطلب من التاجر فحصها فتخرج لسانها ويرى أسنانها ، ويستعرض جسدها وطولها ، ويحرص المشترى على أن تكون الجارية فى صحة جيدة(١٠٠) .

والتقى جيرار دى نرفال بأحد مشاهير الجلابة وهو عبد الكريم فذكر انه كانت لديه مجموعة من النساء الجميلات وهو

يمتاز بأن له عينا فاحصـــة وكان يمتلك منزلا له فناء واســـع به عدد كبير من الحجرات خصصت لاقامـــة النوبيات والحبشيات وسمح لمشترى بالصعود الى هذه الغرف ليستعرض الجوارى ويطلب منهن الســـير أمامه ، وقـــد أعجب « نرفال » باحـــدى الجوارى وأشفق عليها لأنها كانت ترتدى ملابس رقيقة وفى يدها القيود الحديدية ، واخذ التاجر عبد الكريم يعرضها عليه ، وهو يزهو بأنها حبشـية من قبائل الجـــالا ثم اسرها فى احدى الحروب، ورغم ما شاهده « نرفال » الا انه اثنى على عبد الكريم وحســـن معاملته للجوارى فهو يأكل معهن ، ولكن راى فى فناء الدار منظرا آخر اثار الأسى والحزن فى قلبـــه فقد شاهد مجموعة من الصغار تلعب فتذكر ان لهم أمهات تم انتزاعهم من احضانهن وعندما اطلع عبد الكريم عما يجول فى صـــدره أكد له ان بعض الأمهات يسلمن أطفالهن له لبيعهن لانهن يعلمن بأن ذلك أفضـــل لهم اذا قدر لهم العمل عند الأثرياء فســـوف تتوفر لهم سبل معيشـــة أفضـــل بكثير عما لو بقوا معهن(١٠١) .

ولا يقتصر بيع الجوارى على الحبشيات وانما وجدت أعداد من الجوارى فالقوقازيات كانت أسعارهن غالية ومرتفعـــة وذلك نظرا لجمالهن حيث يتمتعن ببشرة بيضـــاء صافية وعيون ملونـــة جميلة وشعر طويل على حد وصف مارسيلوس(١٠٢) فالجـــارية القوقازية التى يتراوح عمرها من عشر الى خمسة عشر عاما تباع بستة آلاف قرش ، ويتم جلبهن من وســـط آســـيا مثل جورجيا وارمينيا وقد رأى الرحالة أعدادا كبيرة من أسرى الحرب اليونانية اثناء حملة ابراهيم باشا وقد تم بيعهن فى أســـواق الرقيق ولكنه نظرا لارتفـــاع أســـعارهن كان لا يستطيع امتلاكهن الا الأثرياء فى مصـــر(١٠٣) .

أما العبيد من الرجـال فكان يتم أحضارهم من السـودان ويتم جب الصبية الصغار فى زاوية الدير فى أسيوط ويقوم بهـذه المهمة الرهبان ، والتى كانت تؤدى احيانا الى موت العديد منهم ، وقد احصى كادلفين عدد من تم خصيهم فى زاوية الدير فى العـام فقدرهم بنحو ثلاثمائة عبد ، وأكد أن محمد على يحصل من زاوية الدير على ثمانين عبد سنويا فيقوم بدوره باهداء البعض منهم الى السلطان العثمانى والى كبار الشخصـيات فى الاستانة ويتراوح سعر العبد الذى تم خصيه من ألف وخمسمائة الى ثلاث آلاف قرش وهـذا النوع من العبيد لا يملك شراءه سوى الأسر الثريـة ليعمل فى خدمة النساء(١٠٤) .

هذا وقد قدم كلوت بك وصفا دقيقا لعمليـة جب العبيد والتى يتم بعدها دفن الصبى حتى بطنـه فى الأرض لمدة يوم ثم يدهن الجرح بعد ذلك بالطمى والزيت وقد أطلق كلوب بك على أسيوط « عاصمة السفاكين » لانهم يقومون بهذه العملية(١٠٥) .

هذا وقد أكد جيرار دى نرفال أن احوال الرقيق فى ظل الاسلام أفضـل بكثير من احوالهم فى أوروبا ، فقد كانوا يحظون بحياة أكثر رغدا من الفلاح فى مصر ، وان الرق فى الاسـلام من وجهـة نظره هو لون من ألوان التبنى المتسـم بالود ، أكثر منـه استعبادا قاسيا ، وأن هناك فارقا كبيرا بين ما يلقاه الرقيق فى بلاد المسلمين ، ومالاقاه الرقيق فى المستعمرات الأمريكية على يد « المسيحيين البيض » الذين يسومونهم الذل والهـوان ، بل ان الارقاء فى الاسلام ينعمون بالطمأنينة والاستقرار حيث يشكلون جزءا من الأسرة ، يأكلون مما تأكل ويلبسون مما يلبس ، ويروى « جيرار » انه حين آن أوان رحيله عرض على جاريته أن يمنحها حريتها فرفضت ، وذكر « نرفال » ان السيد يعامل الجوارى

معاملة حسنة ، ومن النادر أن يطرد أحد دون تدبير أو معاش ، فاذا تخلص من جارية فانه يمنحها ما تستعين به على حياتها أو يزوجها من شخص يثق به ، أو يهديها لأحد أصدقائه ، فمن العار أن يبيع رقيقا له بعد أن يكون قد أمضى مدة طويلة فى خدمته ، وعاب « نرفال » على الانجيل انه تجاهل موضوع الرق ، أما القرآن فقد عالجه بشجاعة وانسانية ، وقد شهد بنفسه احترام بعض انظمة الحكم فى الدولة الاسلامية الغاء الرق بمباركة العلماء(١٠٦) .

واخيرا لقد أكد هذه الحقيقة « كلوت بك » بان الرقيق فى البلاد الاسلامية لا يرى فى مركزه الاجتماعى ما يغض من كرامته ويحط من منزلته بل انه غالبا ما يفتخر بانتمائه الى بيت فلان من البكوات أو الباشوات ويطلق على سيده لقب الوالد وفى مصر السواد الأعظم من كبار الضباط فى الجيش أرقاء(١٠٧) .

٩ ـ النساء :

اما فى رحالة القرن الثامن عشر فى وصف نساء مصر وان كان هذا الوصف مركزا على نساء المماليك والأتراك باعتبارهن من الطبقة الحاكمة فذكر « فرمون » بأنهن على جانب كبير من الجمال فهن من أجمل نساء العالم تم جلبهن من موسكو وجورجيا، واكد فولى أن نساء البكوات على قدر كبير من الجمال ، ثم قدم دانتريج وصفا لمقاييس الجمال من وجهة نظر المماليك والأتراك ، فلابد أن تكون المرأة بيضاء وسمينة واكد فولنى هذه الحقيقة فكتب ما يردده العامة فى أمثالهم « خد البيضاء من اجل عينيها »(١٠٨) .

وكما أتيح لمدام ماجالون زوجة القنصل الفرنسى دخول حريم ابراهيم بك ومراد بك وتقديم وصف لنساء المماليك ، أتيح أيضا

لزوجات القناصل الدخول الى حريم الأسرة الحاكمة خاصة مدام روزيتى زوجة قنصل تسكانيا التى تمكنت من مقابلة نساء من اسرة محمد على بحكم اقامتها فى البلاد فترة طويلة فقابلت زوجة سعيد باشا التى كانت تقيم فى الأزبكية ، وقدمت وصفا عنها للرحالة فذكرت بانها جميلة جدا صغيرة السن لا يتجاوز عمرها سبعة وعشرين عاما ، عيونها زرقاء وجهها بيضاوى ، بدت لى قوقازية الأصل على حد وصفها لبواتو(١٠٩) .

كذلك اتيح لمدام روزيتى مقابلة زهرة ابنة محمد على وزوجة محمد بك الدفتردار التى ورفضت الزواج بعد وفاته ، وقد أفاضت مدام روزيتى فى وصف جمالها فهى بيضاء وجهها مستدير شعرها حالك السواد لا يتجاوز عمرها خمسة وثلاثين عاما ثم قالت « شعرت بأن دماء محمد على تجرى فى عروقها »(١١٠) .

ويعيش حريم محمد على فى قصور مخصصة لهن ومسكنهن مقسم الى ثلاثة أقسام الجزء الداخلى ويتكون من الغرف الداخلية وغرف النوم وجزء مخصص للمكاتب وآخر للاستقبال(١١١) .

وقد القى الرحالة الضوء على زواج عباس باشا من احدى البدويات فقد تزوج ابنة احد زعماء القبائل وعندما توفى ظلت مخلصة له ولم تبرح الصحراء وظلت تفضل سكنى الخيام على سكنى القصور على حد قول ادمون أبو(١١٢) .

والشرقى غيور على زوجته ، وقد ذكر بريس دافين « محال ان نعلم شيئا عن النساء الا من الأوروبيات أو السوريات اللائى يختلطن بهن ، وانك لتسبب المسلم سبا اذا سألته عما يخص حريمه فهو لا يذكر أبدا اسم زوجته فى مجلس عام ولا يتحدث مطلقا فى مجلس خاصة عن شئون بيته »(١١٣) .

وعند الزواج لا يؤخذ رأى الفتاة ، بينما يختار الرجل زوجته مما يسمعه عنها ، ولا تشعر النساء بالضيق من تلك القيود ففى الشرق حيث لا يرى الرجال النساء من الصعب أن نجد زواجا قد تم بناءا على عاطفة بين الطرفين أو توافق فى الطباع أو الأفكار بل أن المنفعة هى التى تقود وتقرر واذا أراد التركى الزواج فهو يقترب بجارية سرحها أحد الكبراء ويهب محمد على نساءه اللواتى يضيق بهن لمماليكه أو البكوات الذين يعتبرون تلك الخطوة دليلا من دلائل الشرف وسبيلا الى الثراء والجاه أما أهل البلاد فيتزاوجون غالبا فيما بينهم(١١٤) .

والفتاة فى مصر تتزوج فى سن صغيرة فهم اداة لتسلية الرجل الذى لا وقت لديه للعناية بزوجته فتعيش وحولها أعداد كبيرة من الحريم والخدم ، والفتاة تفضل الزواج من متسول على أن تظل بدون زواج(١١٥) ونظرا لزواج الفتاة وهى صغيرة فى السن نجد انها تصبح اما فى سن الثانية عشرة وقد تصبح جدة فى سن الرابعة والعشرين وفى سن السادسة والثلاثين ترى أحفاد أحفادها(١١٦) .

وتغطى المرأة وجهها بغطاء رقيق ، ولا يرون فى الشوارع وانما على ظهور الحمير التى يقودها الاعراب(١١٧) ولا يظهر من النساء سوى العيون فيرتدين الحبرة وهى قطعة كبيرة من القماش الأسود تلف الجسد كله(١١٨) أما نساء العامة فملابسهن من القطن الأزرق(١١٩) .

ولا تعيش النساء فى مصر حياة بائسة كما نتصور فهم محاطون بالخدم لهن قصور جميلة ، ولهن عدد من الجوارى يرتدين أجمل الملابس ولهن أيضا عدد من الزنجيات لخدمتهن

ومنازلهن جميلة مزينة مؤثثة بأفخر الأثاث ويحرص أزواجهن على شراء كميات كبيرة من الذهب والجواهر والحلى لارضاءهن(١٢٠).

ويرى « دافين » أن النساء فى مصر شديدات التراخى يعجزن عن القيام بعمل طويل ويقضين نهارهن ممددات على أرائكهن يتعطرن أو يضفرن شعورهم ، أو يسترسلن فى أحلامهن ، أو يغتبن غيرهن أو يتجسسن على سلوك جيرانهن ، والعالم كله فى نظر المرأة المصرية أو الشرقية يتلخص فى زوجها وأبنائها وبعض الصديقات ولذلك فالشرقيات أكثر هدوءا من الأوروبيات لا يعشن الا بفكرة واحدة ، لرجل واحد ، يقفن أنفسهن على الحب وعلى أولادهن وعلى شئون بيوتهن(١٢١) .

أما « أمبير » فقد نفى عن نساء مصر التراخى والكسل ، وكتب يقول « هناك فكرة سيئة عن الشرقيات بانهن يقضين أوقاتهن فى الذهاب الى الحمامات والتزاور ويخرجن والعبيد خلفهن ولكنهن فى الواقع لسن منعزلات ولهن حرية الخروج حتى أن نساء القاهرة لسن بسعيدات عن السياسة والمؤمرات السياسية بل على عكس يشاركن فيها »(١٢٢) .

بينما أكد « جيرار دى نوفال » أن المرأة المسلمة تحظى بالاحترام والتقدير فى كافة المجالات الاجتماعية والدينية وأن الانجيل والتوراة لم يكرم المرأة كما فعل القرآن وضرب أمثلة بزوجة فرعون والسيدة مريم وفاطمة ابنة الرسول صلى الله عليه وسلم وأشاد جيرار بما أعطاه القرآن للزوجة المسلمة من حقوق حتى تعيش معززة مكرمة فى منزل زوجها(١٢٣) .

جاء وصف الفلاحات المصريات أشد قوة مما وصفهن به من قبل رحالة القرن الثامن عشر فكتب شولشيه « انهن يفتقرن الى

الرقـة والجمــال » وتعجب من انهن يخفـين وجـوههن رغـم قبحهن(١٢٤) أما كادلفين فقد كتب « أجســادهن قوية ولكنهن قذرات وكسالى(١٢٥) وقد وجد « بواتو » بأن الفلاحات المصريات يتمتعن بجمال وحشى طبيعى(١٢٦) بينما كتب « ميشــو » ان الفلاحات لسن على درجة كبيرة من الجمال فالفم واسـع كبير الأنف كبير والصـوت حاد غليظ واعتقد ان نساء سورية اجمل من نساء مصر(١٢٧)ولكن رغم هـذا الوصف الا أن « ميشو » لم يملك ســوى التعاطف مع الفلاحات لانهن يحملن اعباء العمـل فى المتاجر ويساهمن فى اعالة عائلاتهن وهن يعيش عيشة خضوع لأزواجهن أكثر من نساء الطبقات الراقية(١٢٨) .

أما « بريس دافين » فقد وجد ان جمال الفلاحة أقل من جمال الفلاح ، ونظرتها أقل ذكاء وان كان وجهها حسن التقاطيع مشرقا كوجهه وسحر الفلاحة فى طول القامة والرشاقـة وهى تتزوج فى سن الثالثة عشرة ولا تكاد تبلغ الخامسة والعشرين حتى تذبل نضــارتها من ارهاق الأمومة ومعاناة البؤس(١٢٩) .

أما نساء العامة فيمكن رؤيتهن فى الأسواق وهن يتصايحن مثل النمور والأسود ، وعند الغضب تصبح الواحـدة منهن فى منتهى الشراسة خاصــة أثناء الشجار والمنازعات وفى أســواق الخضر وتظل المرأة تتشاجر دون كلل وتعب ، وبينما هى لا تكف عن الشجــار تترك ابنها فريســة للذباب فهى لا تهتم به قـدر اهتمامها بتحقيق النصر أثناء الشجار(١٣٠) .

وقد علق « برين دافين » على جمال المرأة المصرية بصفـة عامة فكتب ، أما جمال المصريات ففيــه شىء مما يروقك فى كل النساء الجميلات ببلاد العالم جميعا ، وليس حسنهن فى انتظام

التقاطيع والجمال الصارم الذى تراه فى الأوروبيات ، انه حسن حلو ساحر ، مزيج من افريقيا وأوروبا الوجه لطيف دون أن يكون رائع الجمال ، صغير الأنف ، كبير الفم فى وسامة ، غليظ الوجنتين وفى عينيه الطويلتين الواسعتين لحظ فاتر فاتن خلاب ، لا تبحث هنا عن بشرة زئبقية والوان من ألوان الورد وصدر من المرمر بل قدر هذه البشرة السمراء التى ذهبتها الشمس ، واعجب بصورة هذا الصدر الذى ما أبدع مثال أجمل منه ، وانظر الى هذا الخصر الدقيق كأنه خصر النحلة فهو الذى رسمه الفنانون المصريون على آثارهم وجلب جميع الفنانين الأوروبيين واذا كانت الطبيعة لم تشكل المجموع بالنسبة لنفسها من الجمال بقدر هذه الأجزاء التى تعوض عن عيوب كثيرة ولكن بادر الى الاستمتاع فالجمال هنا يعبر سريعا ان زهرة لا تدوم الا نهارا وما تكاد تستمتع بها حتى تذبل ، ذلك أن النساء لايقمن بأى رياضة ، ولا يصطنعن أية وسيلة تحفظ حسنهن ، بل يلتمسن السمنة بكل الطرق فتشوههن منذ الصبا(١٣١) .

وعن جمال المرأة المصرية كتب الرحالة البريطانى « مادين » « أرى أنه من غير اللائق أن تصطدم مشاعر سيداتنا المسيحيات فنصف لهن النساء المصريات ، بل قد يكون من مجافاة الذوق أن نمتدح جمالهن ومع ذلك لا أملك الا أن أعلن انهن بالرغم من أصباغهن وآذانهن المرسومة بالوشم الأزرق وأصابعهن الملونة بصفرة الحناء وحواجبهن المزججة بالكحل فان كثرة منهن يتمتعن بجمال فائق لا يبارى »(١٣٢) .

أما عن ملابس النساء فى مصر فقد قدم الرحالة وصفا يطابق الى حد كبير وصف كلوت بك ترى المرأة بقميص يصنع من قماش ثمين من الحرير وهو واسع فضفاض ، كما ترتدى شنتيان وهو

عريض يربط عند الخصر وهو يشبه التنورة الحالية أما اليلك فهو يصل من الكتفين الى القدمين وله مكين كبيران ويكون فى الشتاء من الجوخ ثم يلف حزام حول خصر المراة ويكون من الحرير أو الكشمير ثم ترتدى المراة عند الخروج الجبة لتغطى الملابس السابقة كما تضع على رأسها طاقية حمراء حولها منديل ويثبت فى مقدمتها قطع صغير من النقود أو الذهب ، وغطاء المراة المتزوجة لونه أسود وعند خروج المراة من البيت لابد من ارتداء الحبرة وتكون فضفاضة تصل الى القدمين ولها أكمام واسعة ثم علق « نرفال » على ارتداء الجرة بقوله « بدت لى نساء مصر فى ملابسهن الواسعة كالبالون المنفوخ »(١٣٣) وقد تخفى المراة عينيها بمنديل أو تترك عين واحدة دون غطاء أما ملابس الطبقات الدنيا فهى تتكون من رداء ازرق وينتهى بغطاء على الرأس وبرقع مربوط على الأنف بقطعة نحاسية(١٣٤) .

لم يقتصر وصف الرحالة لنساء مصر من الطبقة الحاكمة والقرويات والمصريات وانما قدموا وصفا للعوالم وقد كتب رحالة القرن الثامن عشر عن هذه الفئة أيضا فسجل سافارى « لعوالم مجتمع خاص بهن وهن يتقن الغناء والرقص ولا يوجد احتفال يتم فى مصر دون غناء ورقص العوالم اللائى يتميزن بنعومة أجسادهن ويرقصن على نغمات الطبول وينشدن الأشعار والمواويل حتى الأتراك أعداء كل الفنون يجدون متعة فى الاستماع الى الغناء ورقص العوالم . ولابد من وجود عالمة فى حفلات الزفاف(١٣٥) كذلك يعدن كى يصبحن عوالم منذ نعومة أظفارهن، فالعوالم فى مصر هن بهجة الأعياد »(١٣٦) .

لم يفرق الرحالة فى القرن التاسع عشر بين العوالم والغوازى ربما كان ادوارد لين أدقهم جميعا فذكر ان الفازية تطلق عامة

على النساء وأن هذا خطأ وقع فيه الرحالة فقد خلطوا بين العوالم وهن المغنيات وبين الغوازى أى الراقصات الشبيهات المنتشرات فى البلاد ، فالغازية ترقص سافرة الوجه فى الشوارع العامة ولا يتم رقصهن بأدنى لباقة أو اناقة وأثواب رقصهن مشابه الأثواب نساء الطبقة المتوسطة وهى تتالف من البلك والشنتيان من القماش الطويل وتتزين هؤلاء الراقصات بحلى مختلفة ويرسمن أطراف اللواحظ بالكحل ورءوس اصابعهن وراحات أيديهن واقدامهن بالحناء الأحمر وفقا لعادة نساء الطبقتين المتوسطة ويرافقهن عادة موسيقيون يعزفون على الربابة والكمان والطار وترقص الغوازى فى ساحات المنازل وفى الشوارع وأمام الأبواب وفى بعض المناسبات كالاحتفال بولادة طفل أو زواج ولا يرحب بهن فى حريم حسن السمعة ويدفع لهن للترفيه عن الرجال وهن أكثر النساء خلاعة وتهتكا(١٣٧) .

كذلك لم يفرق الرحالة الفرنسيون بين العوالم والغوازى باستثناء كادلفين الذى ذكر « لا يكتمل اى حفل فى مصر الا بوجود العوالم »(١٣٨) وتتواجد العوالم فى كل المدن المصرية فقد رآهم فرومنتان فى اسيوط(١٣٩) ورآهم شولشيه فى اسنا(١٤٠) وقدم ادمون أبو وصفا عنهن فى قنا(١٤١) وشاهدهم دى كان فى أسوان(١٤٢) وكتب عنهم كادلفين من اسيوط والنوبة(١٤٣) .

هذا وقد نفى محمد على العوالم خارج القاهرة وفى عام ١٨٣٤ منع رقص الفتيات العام فى الشوارع وفرض عقوبة على المرأة المخالفة لهذا القانون فيحكم عليها بالجلد خمسين جلدة للانتهاك الأول فاذا تكررت الانتهاكات يحكم عليها بالاشغال الشاقة لسنة أو اكثر أما الرجل فيضرب بالعصى ولكن رغم هذه الأوامر المشددة الا أن العوالم تجاهلتها فسرن فى الشوارع سافرات وقد

تركت شعورهن يتدلى منها الضفائر المزينــة بقطع من العمــلات الذهبية ووصف شولشيه الأســوار والخواتم التى كانت تزين أذرع وأقــدام العوالم ، كذلك قــدم وصفــا للابسهن الشفافة كالشاش وغيره(١٤٤) .

وفى أسيوط قابل كادلفين عددا من الحبشيات أكد أنهن كن يدفعن مبلغا شهريا للجلابة ليتركهن يمارسن البغاء وان لهن حى معروف فى أسيوط وقد تم فرض ضريبــة عليهن ، ولهن رئيس يدير شئونهن ويذهب بنفسه الى الموانى لتفقد الأحوال ولمعرفــة مواعيد الاحتفالات المختلفة للمشاركة فيها(١٤٥) .

هذا وقد قدم فورمونتان وصفــا للابس العوالم فذكر أن البعض منهن يرتدين افخر أنواع المــلابس الدمشقيــة المذهبــة الحمراء والزرقاء من الحرير ، وشعورهن مزينة بالذهب حتى الأحزمة المستخدمة حول الخصــور من الذهب ، ولكن رغم كل هــذه الزينــة الا أن العــوالم بلا جمــال ولا ســحر يفتقرن الى الرقة(١٤٦) وقد شــارك « دى بوسيبار » فرومونتان فى الرأى فكتب« رغم كل ما تتزين به العالمــة من حلى وعقود ذهبية ، الا اننا اذا اقتربنا منهن نلمس قــذارة وجوههن فهن لا يتمتعن بالجمال »(١٤٧) .

ويصــاحب العــوالم المخنثــين فى الرقص ، وقــد وقع جيرار دى نرفال فى الخطــأ عندما شــاهد رقص بعض العوالم فأعجب بهن ثم اكتشف أن الراقصة التى ترقص أمامه رجــلا « فعلمت بأننا كنا بين أيدى عوالم من الذكور ويقلد المخنثون الراقصات والعوالم ، ومظهرهم العام قريب من مظهر النســاء ويعزفون على الآلات مثل الربابة والكمان والدربكة وقد تعجب

جيرار من هذه الآلات فسجل ملاحظاته « الأوركسترا المصاحب للعالمـة مكون من آلات غريبة »(١٤٨) .

وتعجب شارل بلان من رقص العوالم ، وقارن بينه وبين رقص الفراعنة على جدران المعابد فكتب « لم نر فى مصر مثل رقص الفراعنة الراقى »(١٤٩) .

وللعوالم عدة رقصات سجلها الرحالة فمنها البدوية حيث ترقص العالمـة وهى تضـع الأسلحـة على رأسها وقد تخوف شارل بلان من هذه الرقصة وعبر عن ذلك بقوله « شعرنا باننا فى الصحراء وسط بدو متوحش(١٥٠) كذلك هنـاك نوع من الرقص يشبه رقص المراكشيات فى الجزائر ، كذلك توجد رقصة شهيرة سجلها معظم الرحالة وتعرف برقصـة النحلة حيث تتظاهر الراقصـة بدخول نحلة فى ملابسها فتبدأ فى الرقص وكأنها تبحث عنها بين ملابسها(١٥١) ورأى دى كان رقص العوالم فى أسـوان يشبه رقص الزنوج فى افريقيا كما شـاهد بعض الراقصـات النوبيات وأشهرهن راقصة تدعى عزيزة ، كانت ترقص مثل زنوج وسط افريقيا ، وشبه ذراعيها الطويلتين بجناحى طائر يطير فى الفضـاء(١٥٢) .

ومن أشهر العوالم التى ذكرها الرحالة كوتشك هانم وهى سورية الأصل من دمشق ، نفاها عباس الى اسـنا ، وقد قابلها دى كان وقدم وصفا عنها « كانت ترتدى قميصا بسيطا وسروال طويل من القطن الأبيض ، وعلى أكتافها قماش من الحرير الأزرق وصدرها مزين بالعقود الذهبية والأسـاور المذهبة فى أيديها ، وقد زينت شعرها بشرائط زرقاء أما وجهها فكان ابيض جميـل ، وأكد ان أى رسم لها لم يفيها حقها من الجمال والحسن ، وقد

زارها دى كان فأحسنت استقباله وقدمت له عددا من الراقصات ثم أدت هى بنفسها رقصة النحلة الشهيرة . وذكر دى كان ان معنى اسم كوتشك الوردة الصغيرة(١٥٣) .

وفى ختام الحديث عما ذكره الرحالة عن النساء فى مصر نذكر بعض القصص التى أعتاد هؤلاء الرحالة ترديدها فقد ذكر بريس دافين قصة زواج أحد الضباط الفرنسيين بفتاة قبطية وكان يحبها حبا جما ورزق منها بطفل وبعد عدة سنوات أحب أخرى فرنسية أثارت فى نفسه ذكريات وطنه فطلبها للزواج واستكانت الزوجة الأولى أما الزوجة الجديدة فقد ذهبت متنكرة لرؤية ضرتها وعاشت معها فترة من الوقت أعجبت بها اعجابا شديدا ثم كشفت لها عن شخصيتها وعندما عاد الزوج طلبت الزوجتان منه عدم تفريقهما « لقد عشنا معا منذ رحيلك كأختين »(١٥٤) .

كذلك تحدث بريس دافين عن زوجات الشيخ حسن الجبرتى فقد أحبته زوجته الأولى ، واشترت له من مالها الخاص عدة جوارى ، وعندما ذهب الشيخ الى مكة اشترى جارية صغيرة السن لا تكاد تتجاوز سن المراهقة وعهد بها الى زوجته فقامت بعتقها واقامت لها مسكنا خاصا بها وزوجتها من زوجها فرزقت منه بعدة أولاد وعندما مرضت زليخا وهو اسم الجارية مرضا شديدا حزنت زوجة الشيخ حزنا شديدا عليها وبعد وفاتها بأيام قليلة توفيت هى أيضا بعدها بفترة بسيطة(١٥٥) .

الأوروبيـــون :

ألقى الرحالة الضوء على بعض الجاليات المقيمة فى مصر خاصة الأرمن فسجلوا أن نفوذهم تعاظم منذ عهد محمد على فهم بمثابة السلطة الثانية فى البلاد ، فقد اتخذ محمد على منهم

المترجمين والمستشارين واخذ منهم الوزراء . ولمعت عدة أسماء فى القرن التاسع عشر خاصــة بوغوص ونوبار وذكر ميشــو ان أعداد الأرمن كبيرة فى مصر ولهم بطريريكية أرثوذكسية خاصــة بهم وعدد من المدارس وقد أصبح لهم نفوذ كبير فى البلاد حتى أن السلطات سمحت لهم بركوب البغال(١٥٦) وركزت معظم الكتابات على شخصية بوغوص فذكر « فوربان » بانه ولد فى ازمير وعمــل بالتجارة ، ثم جاء الى مصر وعمل مترجما فى الجيش البريطــانى القادم الى مصر لطردالفرنسيين منها ، وبعد رحيل خسرو باشا من البلاد عمل مع محمد على حتى اصبح من أقرب مستشاريه ويبدو ان بوغوص كان على علاقة طيبة مع معظم الرحــالة الذين وفدوا على مصر فأحسن اكرامهم وتقديم الخــدمات لهم ولذلك أثنى عليه معظمهم فى كتاباتهم(١٥٧) .

اما اليونانيون فقد قدر دى بوسييار أعدادهم بحوالى ألفين ومعظمهم يعملون بالتجارة والصناعة ويسكنون فى حارة الروم ولهم كنائس خاصة بهم ولعل أشهرها دير سانت كاترين فى سيناء الذى يمثل أهميــة كبيرة بالنسبة لهم فيتوجهون لزيارته ولهم طقوس دينية خاصــة بهم . وقد سمحت السلطات لهم ببناء كنيســة فى مصر القديمة(١٥٨) . ورغم نشوب حرب المورة الا أن محمد على لم يحــاول طرد اليونانيين المقيمــين فى البــلاد فأبقى عليهــم فى وظائفهم(١٥٩) .

اما الجاليــة الفرنســية فقد تزايدت أعــدادها فى القــرن التاسع عشر خاصة بعد عام ١٨١٥ وانتهاء فترة حكم نابليون فأخذ المعارضون للنظام الجديد فى فرنسا فى التوافد على مصر . هــذا وقد أفاض الرحالة فى الحديث عن الفرنسيين بصفة عامــة ، ولكنهم ركزوا فى كتاباتهم عن الفرنسيين الذين أقاموا فى البــلاد

بعد جلاء الحملة الفرنسية أى بقايا جيش بونابرت ومينو وأطلقوا عليهم « المماليك الفرنسيين » فقد فضـل هؤلاء البقاء فى مصر عن العودة الى بلادهم . وعلل شـاتوبريان ذلك نظرا لخـوفهم من الانغماس فى مغامرات عسكرية مجهولة وقد عمل البعض منهم فى جيش محمد بك الألفى وعمل البعض الآخر فى خدمة محمد على . وقد كتب شـاتوبريان معربا عن امنيته فى توحيد جهود هؤلاء الفرنسيين « فلو أن هؤلاء الفارين تجمعوا واختاروا بك فرنسيا، لأصبحوا سـادة البلاد بدلا من انقسامهم فيما بينهم » ، وقد صاحب العديد منهم شاتوبريان اثنـاء جولاته فى مصر فذكر انهم كانوا يتحدثون العربيـة والتركية وأن البعض منهم اتخذ أسماء عربية مثل عبد الله وكان اسـمه الحقيقى درو Dreau وكان موطنه الأصلى من تولوز ، وسليم بك واسـمه الحقيقى كومب Combes وهو من أفينيون واسـماعيل رشـوان واسـمه الحقيقى بير جارسى Pierre Garcy وقد ذكر فوربان بان عدد هؤلاء الفرنسيين بلغ فى عام ١٨١٧ ثمانين شخصـا بينما ذكر مارسيليوس بان عددهم قد تناقص فى عام ١٨٢٠ الى ثلاثة وعشرين وفى عام ١٨٣٠ بلغ عددهم سبعة عشر . وقد علل فوربان تناقص أعدادهم الى اجتياح الطـاعون مصر ، هـذا وقد اعتنق هؤلاء المماليك الفرنسيون الاسـلام ، وارتدوا الملابس الشرقية وامتلكوا الجوارى والعبيد والخيول(١٦٠) .

ومن أبرز هؤلاء المماليك الفرنسيين جان الذى آثر البقـاء فى مصر بعد جلاء الحملة وكان له قصر كبيرا عدد من الجوارى ، وكون ثروة من بيع النبيذ الذى كان يستورده من سورية ومالطة وكانت له صلاته بالمسلمين ومع كل أفندى فى القاهرة . كما كانت له مجموعة من الموظفين تتولى ادارة أعمـاله من كاتب وخزندار وسلحدار وسراجى(١٦١) .

والى جانب المماليك الفرنسيين عمل فى مصر عدد كبير من الأجانب خاصة الفرنسيين ونلمس من خلال كتابات الرحالة الفخر بهؤلاء وقد سجل شولشيه « لقد حمل الفرنسيون الى مصر النور والحضـــارة لقد ارسلنا الى محمد على العباقرة من أبنائنا للعمل معه »(١٦٢) .

ولعل اشهر هؤلاء العاملين الذين جاء ذكرهم على لســان الرحالة الكولونيل سيف أو سليمان بك الذى وطد نفوذه فى مصر واصبح له مكانة كبيرة فى البلاد وحظى باحترام الجميع . وقد ذكر مارمون بانه درس فى ليون العلوم البحرية ثم ســـافر الى جزر الانتيل والى ســـواحل سورية اثناء حروب نابليون وقد اشترك فى تعقب السفن البريطانية وتامين السفن الفرنسية كما اشترك فى حملة روســـيا ورافق بونابرت خـــلال فترة حكم المـــائة يوم وشهد وقائع معركة واترلو وفى عام ١٨١٧ ترك فرنسا بعد انهيـــار نظام بونابرت وجاء الى الشرق « باحثا عن الثروة » فزار فارس ومصر ثم فضـــل الاستقرار فى الأخيرة(١٦٣) . وقد نال الكولونيل سيف ثقة محمد على فعهد اليه بتدريب المماليك فى أسوان وذلك لعزلهم عن العاصمة ومغرياتها وتدريبهم على الأسلحة الحديثـة وقد لقى فى بداية الأمر صعوبة كبيرة فى تدريبهم حتى انهم تآمروا على قتله ، وفى احدى المرات أطلقوا الرصـــاص عليه حتى مرت الرصاصة بجانب أذنه « ورغم ذلك عفى عن المتآمرين ، مما أدى الى تعلقهم واحترامهم له وازدادوا تمسكا به واخلاصا(١٦٤) وكلما عهد اليه محمد على بعمل انجزه على مايرام وكلما ارتفع فى درجات الترقى شعر بالمسئولية الملقـــاة على عاتقه . ثم عهد اليه الباشا بتدريب الفـــلاحين فانجز مهمته على خير ما يرام . هـــذا ونشر فى كتابات الرحالة بالفخر والاعتزاز بالمكانة التى حققها سليمان باشا فقد أصبحت له مكانة كبيرة فى البـــلاد وامتلك منزلا كبيرا

ضخما يطل على النيل وأقام فيه ديوانا كبيرا وقاعة للبلياردو كما زينه بأجمل الرسوم والنقوش العربية . غير ان هذا الفخر يتحول الى اسف وأسى فقد سجل بارديو « استبعده عباس بعد توليه الحكم »(١٦٥) .

ومن الأسماء التى لمعت فى مصر وذكرها الرحالة بيسون Bisson وقد عمل فى البحرية الفرنسية وتزوج من سيدة دانمركية . وكان ثريا امتلك مركبا تجاريا وصلت تجارته الى امريكا حيث تاجر فى التحف الثمينة ثم جاء الى مصر واستقر فيها ، واسند اليه محمد على قيادة السفينة « البحيرة » التى صنعت فى مارسيليا ، وقد تدرج فى وظائفه فى مصر حتى وصل الى منصب (نائب اميرال) وقد تقابل مارمون معه وتوثقت العلاقة بينهما(١٦٦) .

أما سريزى Cerisy فقد وكل اليه بناء قوة مصر البحرية وتطويرها فقام ببناء ترسانة الاسكندرية وقد قدم الى مصر فى عام ١٨٢٩ ولم يكن فى ميناء الاسكندرية سوى بعض السفن القليلة الباقية من الأسطول المصرى بعد معركة نافارى وذكر ديتورفيل ان هذه السفن كانت فى حالة سيئة فقام سيرزى بمجهود كبير لتجهيزها حتى أصبحت صالحة للقتال ثم واصل جهوده فى الاسكندرية ونجح فى انشاء ترسانة الاسكندرية بدلا من الترسانة القديمة المتهالكة(١٦٧) .

ومن الشخصيات التى لمعت فى مصر لينان دى بلفون فكتب بارديو عنه « كان مسئولا عن الاشغال العامة فى مصر وهو يعرف عنها كل شيء »(١٦٨) ويعتبر لينان من وجهة نظر شولشيه من العظماء لأنه ساهم فى بناء مصر الحديثة ولكنه لم يعامل المعاملة

اللائقة التى يستحقها فقد كان يستحق مزيدا من التكريم(١٦٩) أما أمبير فقد اصابته الدهشـــة عندما راى زوجة لينان ترتدى الملابس الشرقية بينما هو يدخن النرجيلة ثم علق على ذلك « لقد اعتاد على حياة الشرق »(١٧٠) .

ويعتبر كلوت بك أول فرنسى يحمل لقب بك دون أن يضطر لتغيير ديانته أو جنسيته وجهوده معروفة فى محاربة الأوبئـــة والأمراض خاصـــة الطاعون ، فاليه يرجع الفضـــل فى تأسيس مدرسة الطب والنهوض بها(١٧١) ورغم ثناء العديد من الرحـــالة على جهود كلوت بك الا انه تعرض للنقد أيضا خاصـــة بسبب كتابه « لمحة عامة عن مصر » حيث اعتبره بعض الرحالة خاصـــة شولشيه مجاملا لأسرة محمد على ولأنه كان يبرر كل اعماله حتى القتل والتخلص من المنافسين(١٧٥) .

ومن اشهرالمهندسين الفرنسيين الذين عملوا فى مصر موجل الذى أقام العديد من المصانع والجســـور . والى جانب هـــذه الأسماء اللامعة وجدت أعداد أخرى من الفرنسيين العاملين فى مصر مثل الدكتور بيرن ولامبير وجوميل وهامون المشرف على مدرســـة الطب البيطرى وانم المشرف على مدرســـة الكيمياء وغيرهم من الفرنسيين الذين كانوا يشرفون على الشئون الادارية والعلميـــة وهـــكذا « تغلغـــل نفوذنـــا فى كل مكان على حد قـــول هوراس فرنيـــه »(١٧٣) .

وقد عبر محمد على عن امتنانه لوجود هذه الأعداد الضخمة من الفرنسيين فى خدمتـــه فى حـــديث له مع البارون بولوكومب « اننى مدين بجيشى لسليمان بك وعدد آخر من الفرنسيين ، وبحريتى لمسيو سريزى ، بل انى مدين للفرنسيين بأكثر مما عملته

فى مصر »(١٧٤) والى جانب هؤلاء الفرنسيين وجدت أعداد من الايطاليين فى مصر وهم يتمتعون بمكانة ملحوظة فى الدولة على حد قول بولوكومب(١٧٥) .

وقد تعجب العديد من الرحالة من تزايد أعداد الأوروبيين فى مصر وقد وصلوا الى المناصب العليا دون أن تكون لديهم المؤهلات المناسبة لأعمالهم ، واندس بينهم عدد من المغامرين الأجانب ، وقد أكد هامون هذه الحقيقة فذكر أن محمد على استعان بالأطباء الأجانب ومنهم من كان ممرضا أو عامل تلغراف ، وصانع أحذية ، فى مارسيليا ، وان ثلثى أولئك الأطباء لا يحملون دبلومات ، ومن بين مائة صيدلى عشرة فقط حائزون للدبلومات ، واذا ما هبط أوروبى فى مصر وليس له حرفة يحترفها سرعان ما يعين صيدليا أو طبيبا(١٧٦) . وقد أكد هذه الحقيقة أيضا الماريشال مارمون فذكر أن معظم الأوروبيين كانوا من الباحثين عن الثروة وقد استقرت أعداد كبيرة منهم فى الاسكندرية وذلك لطابعها الأوروبى(١٧٧) .

هذا وقد جذبت مصر الفنانين الفرنسيين للاقامة فيها ففى الأزبكية افتتح احد الفرنسيين مكتبة لبيع الصحف والكتب ومنها كنا نطلع على أخبار فرنسا كما ذكر اكزافيه(١٧٨) كما وجد عدد من الرسامين الفرنسيين فى القاهرة مثل دولييه Delié وكان يمتلك مرسما فى الأزبكية يرسم فيه اللوحات للنساء والأطفال ، كذلك عمل عدد من النحاتين فى مصر فى خدمة محمد على واسماعيل واستطاع النحات جاكومار Jacquemard أن ينال مكانة كبيرة فى البلاد وقد صبغ تمثالا ضخما لمحمد على وضع فى الأزبكية(١٧٩) كما افتتح الفرنسيون المحلات فى الأزبكية لبيع الملابس على أحدث خطوط

الموضات فى باريس ومن أشهر هذه المحلات محل سيسن وزوجته كما اشتهر الفرنسيون بمهارتهم فى الصياغة وصناعة المشغولات المذهبة الدقيقة خاصة الصائغ مايبه Mayer (١٨٠) .

ولم يقتصر تواجد الفرنسيين فى المدن الكبرى الهامة مثل القاهرة والاسكندرية فقد وجدت أعداد منهم فى معظم المدن المصرية ففى المنيا عمل المهندسون الفرنسيون فى مصانع السكر التى يمتلكها محمد على وخلفاؤه خاصة فى الريرمون(١٨١) كذلك عمل بعض الايطاليين فى الوجه القبلى ولعل أبرز تلك الأسماء التىذكرها الرحالة الايطالىجوزيف بريشت Joseph Brichette الذى جاء الى مصر باحثا عن الثروة فوجد غايته فى التجارة . وعمل فى خدمة الرحالة واستقر فى المنيا وكان يتحدث العربية بطلاقة وقد رافق العديد من الفرنسيين اثناء جولاتهم فى الوجه القبلى فقابله مكسيم دى كان حيث رافقه فى رحلته الى جبل الطير(٨١٢) .

ومن الطرائف التى سجلها الرحالة عن استقرار بعض من الفرنسيات فى القاهرة فقد كتب ميشو عن قصة احدى الفرنسيات عاشت فى احدى قرى المنصورة واطلق عليها السكان « السنيورة »، وحرص ميشو على تتبع أخبارها عندما سمع عنها ، فعرف انها جاءت الى مصر وهى فى الثانية عشرة من عمرها ، وكانت مع أمها التى رافقت أحد جنود الحملة الفرنسية . وبعد رحيل الحملة سافرت الأم الى فرنسا تاركة ابنتها لدى أحد الشيوخ وكان يدعى الشيخ أبو قورة اشترى الفتاة بمبلغ مائة تاليرى ووضعها بين حريمه حيث تم تنشئتها نشأة اسلامية ، ثم تزوجها الشيخ وتوفى بعد أن أنجبت له ثلاثة أبناء وقد ذهب ميشو بنفسه الى القرية التى شهدت استقرار الفتاة الفرنسية فيها

حيث عثر على منزل الشيخ ولاحظ علامات الثراء عليه وحاول مقابلة السنيورة ولكن أبناءها أكدوا له وفاتها وسرعان ما أدرك كذبهم وعلم أن السبب الرئيسى فى ذلك هو تخوفهم من أن يلحق محمد على أمهم بحريمه فتصبح مثل نساء اليونان الذين وقعوا فى اسر قوات ابراهيم باشا واصبحوا الآن حريما لجنوده المسلمين(١٨٣) .

اهتم الرحالة بالحديث عن القناصل الفرنسيين فى مصر خاصة وأن قناصل الشرق كان لهم نفوذ كبير(١٨٤) ومن القناصل الذين جاء ذكرهم على لسان الرحالة القنصل الفرنسى دروفتى فقد قابله معظم الرحالة ، وتحدثوا عن نفوذه الكبير فى مصر كما اثنوا عليه لأنه كان يحسن استقبال الرحالة . وقد تمتع دروفتى بنفوذ عظيم فى مصر وكان له منزل كبير على البحر فى الاسكندرية وذكر مارسيليوس انه كان أول من شجع محمد على على الاستعانة بالفرنسيين خاصة فى مجال البحث عن الآثار المصرية القديمة(١٨٥) وقد اكد هذه الحقيقة شامبليون الذى أثنى على جهوده لتدبير لقاءات مع محمد على لمساعدته فى التجول فى المدن المصرية . فعند وصول شامبيليون الى الاسكندرية جاء المسيو كاردان موثق العقود فى القنصلية الفرنسية للترحيب بقدومه نيابة عن دروفتى ثم قابل الأخير الذى ساعده فى الحصول على الفرومانات اللازمة لرحلته من محمد على الذى وافق على السماح له بالتجول فى البلاد ليظهر فى أوروبا بمظهر الحامى للعلوم والفنون ونجح دروفتى فى منح شامبيليون كافة التسهيلات رغم انه وصل الى مصر اثناء حرب المورة واشتراك فرنسا بقواتها ضد محمد على وسجل شامبيليون امتنانه لدروفتى فكتب « بفضل درفتى حسمت القضية لصالحى وخشى المعارضون أن أندد بهم فى صحف أوروبا »(١٨٦) .

وكان لدروفتي اهتمام كبير بالآثار فقد كان يقوم بنفسه بعدة جولات فى مدن مصر ، فزار طيبة وقدم وصفا لآثارها ، وكتب ملاحظاته عن الآثار المصرية بصفة عامة كما أحضر مجموعة من الآثار الى فرنسا لتزيين متحف باريس(١٨٧) وقد حدث بينه وبين صولت القنصل البريطاني تنافسا كبيرا فى مجال التنقيب عن الآثار وقد كلف الأخير الايطالى بلزونى بمساعدته فى هذه العملية(١٨٨) .

ونستدل على اهتمام دروفتى بالآثار المصرية وجمعها من رسالة ارسلها الى شامبيليون فى ٣ مايو عام ١٨٢٨ يشجعه فيها ويحثه على البحث عن الآثار : « أرجو أن تكون على يقين من أنه ما من أحد بعدك أكثر منى اهتماما بتلك الرحلة التى تعتزم القيام بها الى مصر » وفى رسالة أخرى « رحلتك لن يعوقها عندئذ أى مصاعب سوف تؤمنها الحكومة المصرية تأمينا كاملا »(١٨٩) .

ومن أشهر نواب القناصل الذين جاء ذكرهم فى كتابات الرحالة باسيلى فخر الذى عين فى دمياط وهو سورى الأصل تعلم الايطالية والعربية ، وكانت له اتصالاته مع تجار المدينة ، وكان على جانب كبير من الثراء فامتلك منزلا وصفه الرحالة بانه قصر حوى العديد من الغرف كما اقتنى مكتبة ضخمة بها العديد من المؤلفات التى تتناول تاريخ فرنسا وعن تاريخ الحملة الفرنسية فى مصر ، وكتب للمؤلفين الفرنسيين ، وقد امتلك باسيلى العديد من الجوارى والعبيد وكان يستقبل ضيوفه بعزف الموسيقى لهم والموسيقيون الذين يستخدمهم من المصريين يعزفون لضيوفه الموسيقى الشرقية ، وقد أحاط قصره بالمزارع وكان له مترجم خاص(١٩٠) .

تحدث كثير من الرحـالة عن مغامراته الشخصـية فى مصر خاصة جيرار دى نرفال الذى استأجر منزلا . وبعد فترة طلب منه صاحبه الانتقال منه ، وبرر ذلك المطلب بسبب انه أعزب فاضطر جيرار للاقامة فى أحد فنادق الأزبكية ثم قابل أحد اليهود من أصدقائه ويدعى يوسف فعرض عليـه الزواج من فتاة قبطية من ديانته حتى يتمكن من البقـاء فى مصر بحريته ودون قيود وقد عرض عليه الوكيل عددا من الفتيات اختار واحدة من بينهن عمرها ستة عشر عاما فتزوجها أثناء اقامته فى مصر(١٩١) .

وأخيرا بالرغم مما دونه القرن التاسـع عشر عن الفرنسيين فى مصر الا اننى أعتقد أن رحالة القرن الثامن عشر تفوقوا عليهم فقد اسهبوا فى الحديث عن الجالية الفرنسية فى مصر وعن القناصل ونوابهم فى المدن المصرية فى رشيد ودمياط والاسكندرية ، وعن المترجمين الفرنسيين العاملين فى اسكالات الشرق ، كذلك قدموا وصفـا دقيقا للحى الفرنسى واهتموا بابراز العلاقات والصـلات بين الفرنسيين والسلطات الحاكمة خاصـة الباشوات وضباط الادجاقات والبكوات فى مصر . كما قدموا عدة احصاءات عن أعداد الفرنسيين فى البلاد ، كذلك سجلوا ما يلاقيـه الفرنسيون من متاعب فى مصر ، سـواء من السلطات المحليـة أو من الأهـالى وتعرضهم للاهانات والغرامات ومعاناتهم من الفوضى والحروب الأهلية والفتن الداخلية وتأثير ذلك على تجارتهم ، ومصـالحهم فى مصر ، كذلك اهتموا بالقاء الضـوء على مشـاكل الجالية الفرنسية والمنازعات بينهم وبين القناصـل الفرنسيين وتدخل القناصـل لمراقبة الحياة اليومية للفرنسيين ومراقبة سلوك أفراد الجاليـة الفرنسية ثم الاهتمام بتسجيل المنازعات بين البعثات التنصيرية خاصة بين اليسوعيين والكابوسيين وآباء الأراضى المقدمة وتعرضهم لمنافسة التجـار اليهود وسوء معاملة اليهود لهم فى الجمـارك

ولذلك نجد أن رحالة القرن الثامن عشر جاءت كتاباتهم أكثر دقة واسهابا(١٩٢) عما سجله فقط الرحالة الفرنسيون فى القرن التاسع عشر وانما أكثر دقة ممن سبقوهم من الرحالة فى القرنين السادس عشر والسابع عشر ولكن هؤلاء كان اهم مبررهم وعذرهم لأنهم لم يمكثوا فى مصر مدة كافية كذلك كانت أعداد الفرنسيين قليلة خلال تلك الفترة أضف الى ذلك اقتصار الرحلات على مناطق مصر السفلى فقط أما الرحالة الفرنسيون فى القرن التاسع عشر فيمكننا ان نعلل عدم تركيز اهتمامهم على أوضاع الفرنسيين فى البلاد الى كثرة أعداد هؤلاء فقد تدفق الفرنسيون الى مصر بعد عام١٨١٥ أى بعد هزيمة نابليون وانتهاء امبراطوريته فجاءت أعداد كبيرة كانت تعارض عودة البوربون الى الحكم فى مصر ، كذلك كانت تخشى الانتقام من النظام الجديد لتعاونهم مع بونابرت كذلك تمتع الفرنسيون بحرية كبيرة فى عهد محمد على وخلفائه ولذلك قلت شكواهم خاصة وان الأسرة الحاكمة الجديدة سمحت لهم بالاقامة فى البلاد بحرية تامة ، كذلك لم يعد الحى الفرنسى هو المكان المخصص للفرنسيين وانما شيدت العديد من الفنادق فى الأزبكية وغيرها من المناطق استوعبت الفرنسيين القادمين الى البلاد .

ثانيا ــ الاحتفالات والأعياد :

حرص الرحالة الفرنسيون فى القرن التاسع عشر على تسجيل أهم الاحتفالات والاعياد فى مصر ومن أجمل الاحتفالات التى حرص الرحالة على تسجيلها هو الاحتفال بسفر المحمل الى الأراضى المقدسة وقد أفاض الرحالة فى وصف القوافل المتجهة الى الحجاز وطرق حراستها كذلك أسهبوا فى وصف الاحتفالات التى تقام عند عودة القافلة من الحج فكتب جيرار دى نوفال عن

عودة المحمل من الحجاز(١٩٣) « ان مشاهدته من أكثر المشاهدة اثارة ، وقد حرصت على مشاهدته عند باب الفتوح حيث وجدت أمما زاحفــة تدوب فى خضم شعب عريق تموج بهم شرقا ابتداء من المقطم وتصخب بهم شــمالا جبانة الموتى . كما حفلت بالنظارة قمم الأســوار المسننة وأبراج صلاح الدين وخيل الى أن الزمن يعود الى الوراء واننى أرى مشهد من المشاهد القديمة .. ولم يخل المشهد من الراقصــين والمنشــدين حيث يبارى موسيقيو القاهرة نافخى الأبواق وقارعى الطبول ورأيت قوما وقد طالت لحاهم وانتفشت شعور رؤوسهم كانوا ينشدون بصــوت عــال وحماس شديد أوراد الذكر والمديح الفياضــة باسم الجلالة ، واحتشد الموكب بالبيارق ذات الألف لون والســوارى المقرونة بالرنوك والتروس .وهوا وهناك ترى الأمراء والشيوخ فى ثيابهم الباذخة فوق صهوات جيادهم وعليها الحلول المزركشــة المرصعة بالقصب والأحجار الكريمة وعندما يقرب النهار من ثلثيه تنطلق المدافع من القلعة ويدوى الهتاف ، وتنطلق الأبواق معلنة قدوم المحمل وعليه الكسوة الشريفة ، وقد بلغ مشارف القــاهرة ولم يلبث ان جاء فى أثر الموكب سبعة جمال زين رؤوسها أجمل زينة وقد كسيت أجسادها البسط النضرة فحجبت معالمها حتى ليخيل اليك انها حيوانات السمندل الخرافيــة ، وكانت الجمال الأولى لقارعى الطبوع من الشــباب ترتفــع أذرعتهم العاريــة وتهوى بعصيهم المذهبة ، وقد اقتعدوا سرحا تنبثق منها اعــلام خفاقة ، والمحمل عليه هودج على شكل الخيمة المربعة وقد كســا نقوشــا مطرزة وتتدلى من قمته وعن زواياه الأربع كرات فضية ضخمــة وعند مرور المحمل يخر الناس ساجدين فوق التراب ، وفى رفقة المحمل حرس من القواسين الذين يلقون عنتا شــديدا فى زحزحة

الحجاج السود ، خاصة الذين تجاوزوا فى ورعهم حماس سائر المسلمين ويؤثرون ان تطأهم أقدام الجمال تبركا ، وكان ثمة طائفة الدراويش يخرون على حين كان ثمة آخرون يلتهمون الأفاعى فيه وآخرون يحشدون أشدافهم بالفحم الملتهب »(١٩٤).

ويحرص على مشاهدة هذا الاحتفال الباشوات الأثراى ونلمح فى كتابات فلوبير الانتقاد الشديد للباشوات الأتراك وهم يرتدون الأزياء الأوروبية فى وجهة نظره تفتقر الى الذوق السليم كذلك الضباط الذين دست سيقانهم فى سراويل ضيقة شدت اليها احذية غليظة ، وقد وجد فلوبير بأن هذا المنظر لا يتفق مع جمال وروعة المشهد السابق وهو سفر المحمل(١٩٥) .

أما شامبيليون فقد قدم وصفا للاحتفال **بالمولد النبوى** حيث يكتظ ميدان الأزبكية بالناس الذين يلتفون حول المهرجين والراقصات والمغنيات بالاضافة الى سرادقات تقام فيه غاية من الجمال نصبت لاقامة الشعائر الدينية فهنا ترى بعض المسلمين جالسين يرتلون آيات قرآنية ، وهناك ترى ثلاثمائة من الناسكين وقد جلسوا صفوفا متوازية يتمايلون دون توقف بأعلى أجسامهم الى الأمام ثم الى الخلف ، ويرددون فى نفس واحد لا اله الا الله وعلى مبعدة من ذلك كان خمسمائة من الرجال يهتفون باسم الله من أعماق صدورهم المنهكة ، ويرددون ذلك آلاف المرات والى جانب ذلك وجدت أعداد من العازفين ، وتعجب شامبيليون من اختلاط الاحتفالات الدينية بهذا المزيج من الألعاب الدنيوية بالاضافة الى غرابة الوجوه والتنوع الشديد فى الثياب ، وقد شكل كل ذلك منظرا لن يبرح ذاكرتى(١٩٦) .

ومن الاحتفالات الدينية الهامة الاحتفال بعيد الفطر وعيد الأضحى وليلة القدر حيث تضاء القاهرة بالمشاعل والأنوار ،

ويستمر الاحتفال لعدة أيام وطوال الليل ، وتزدحم الشوارع بالناس وقد أشار جيرار دى نرفال بالوفاق بين المسلمين والأقباط في مصر فالأقباط حريصون على حضور الاحتفالات الدينية ، كما أن المصريين يسعدون بمشاركتهم فى الاحتفالات والموالد ، كما أن أثرياء الأقباط يتبرعون للانفاق على تجديد أضرحة بعض الأولياء والمشاركة فى الاحتفالات(١٩٧) .

كما تنتشر فى القاهرة والمدن المصرية الاحتفال بمولد كبار المشايخ والأولياء وتتشابه هذه الاحتفالات فى معظم المدن وقد وصف جيرار الاحتفال بمولد الحسين الذى دام لمدة خمس عشرة ليلة اضيئت المساجد بالمصابيح والشموع الغليظة التى يبلغ ارتفاع البعض منها أكثر من متر ونصف وتظل دكاكين المأكولات والمشروبات والمقاهى المجاورة للمسجد مفتوحة الى الصباح والاستماع الى الموسيقى ومشاهدة الرقص والاستماع الى الرواة، أما فى داخل المسجد فنجد جماعات مختلفة تجلس لتلاوة بعض سور القرآن والادعية ومدح الرسول ويزدحم المسجد بالزوار من لرجال والنساء وتنتشر مواكب الدراويش التى تطوف بشوارع القاهرة وهى تحمل الاعلام والرايات والطبول والموسيقى وعندما يمرون على احد اضرحة المشايخ يكفون عن عزف الموسيقى لحظة لقراءة الفاتحة وتلاوة بعض الادعية ، ثم يستمرون فى المسيرة الى المسجد الحسينى ، وفى الليلة الكبيرة تكثر حلقات الدراويش فى المسجد التى تقوم بالذكر ، وبعضها يؤدى بعض طرق الشعوذة مثل بلع الجمرات المشتعلة أو أكل الزجاج ، أو التهام الثعابين(١٩٨) .

وهكذا نجد اهتماما كبيرا من الرحالة بتسجيل أهم الاحتفالات الدينية وكما كتب بول لوكا فى القرن الثامن عشر « لا يوجد فى العالم بلد مغرم بالاحتفالات مثل مصر ، فلا يمر يوم لا نرى فيه

احتفـالا فالمصريون مغرمون بها وهى تتركز فى المـدن أكثر من الريف »(١٩٩) .

وهناك بعض الاحتفالات الخاصة ببعض الطرق الصـوفية جاء ذكرها على لسان الرحالة لعل اهمها ما ذكره جيرار وجوبينو عن احتفالات الدوسة حيث ينام الدراويش على الأرض متلاصقين متجـاورين ، أرجلهم ممددة وأذرعهم مضمومة تحت جباهم ثم يقوم عدد من الدراويش بالسير على ظهور زملائهم الممددين على الأرض وهم يهتفون الله ، الى أن يظهر شيخ الطريقة فيقوم بالدوس على ظهور الدراويش وهو يمتطى حصانه الذى تدرب على القيـام بهذه المهمة كما يتواجد فى احتفالات الدوسـة بعض من الحواة الذين يقومون باستعراض ألعابهم والبعض منهم يقوم بأكل الثعابين الحيـة(٢٠٠) .

ولا تقتصر احتفالات المصريين على المناسبات الدينية فهناك بعض الاحتفالات القديمة العريقة حرصت الأجيال على توارثها مثل الاحتفال بيوم شم النسيم وغيرها من الاحتفالات كذلك احتفالات الزواج التى تعتبر من أهم الاحتفـالات وذلك لأن « فى الشرق بعض الاحتفالات القديمة العريقة حرصت الأجيال على توارثها مثل لا يرى الرجال النساء فالزوج لا يختار زوجته عن عاطفة الطباع والأفكار وانما المنفعة هى التى تقود وتقرر ما اذا أراد تركى أن يتزوج فهو يقترن عادة بجاريـة سرحها أحد الكبراء وقد وهب محمد على جواريه اللواتى ضاق بهن لمماليكه من البكوات والذين يعتبرون ذلك دليلا من دلائل الشرف ، أما أهل البلاد فيتزوجون فيما بينهم(٢٠١) .

وعند الزواج تقـوم العروس بتخضيب قدميهـا ويديهـا بالحناء وتذهب الى الحمام فى موكب كبير ، وينشد المغنون الأغانى، ثم يقام احتفال كبير فى الليل يستمتع فيه الناس بالغناء ورقص

العوالم وكان معظم الرحالة حريصين على حضور احتفالات الزواج ، فكتب نرفال انه وجد حشدا كبيرا وشبه الزمام وصعوبة التعرف على الشارع المقام فيه الاحتفال بقصر النيه رايت أحد الأفراح مقامة فى وسط اللابراش ، حيث العديد من المصابيح المضادة ، والعروسان يسيران وسط المشاعل ، والأطفال يحملون الشموع والراقصين امامهم هذا وقد سارت العوالم والمغنيات والغوازى يرتدين ملابسهن من الحرير المقلم ، وعلى رؤوسهن طربوش مذهب ووجوههن مكشوفة ، وصاحب العازفين طابور طويل ثم اصطف العبيد خلفهم والنساء فى الوسط بملابسهن الطويلة السوداء يخفين وجوههن بالنقاب ، وقد أخبر المترجم المصاحب لجيرار بأن المصريين يحرصون على ارتداء اجمل الملابس فى الأفراح حتى الفقراء منهم أما العروس فكان جسدها مغطى بالملابس الطويلة من الكشمير وحولها اثنتان من النساء ممسكتان بيديها ، ويسير الجميع ببطء شديد وبدت لى العروس وكأنها تخشى الانزلاق والوقوع ثم جاءت العوالم فرددت الأغانى ثم شرب الحاضرون مشروبا لونه أحمر غريب محلى بالسكر وجاء العريس الذى هلل الناس عند رؤيته وجلس مع الرجال فى الدور الأرضى ، وبدأت الولائم بالأصابع ، ولم يتوقف الغناء ولا الرقص ، وقد أعجب جيرار بمجموعة من الراقصين النوبيين وعالمة ثم اخذ العبيد يرشون نقودا صغيرة على النساء وتستمر احتفالات الزواج ثمانية أيام(٢٠٢) .

أما فلوبير فقد أضاف « رايت الطبالين فوق ظهور الحمير ، والعبيد فوق صهوات الجياد ، مرتدين ثيابا باذخة ، والنساء محجبات بملابس سوداء يطلقن الزغاريد كما شاهد فلوبير مجموعة من المصارعين تؤدى ألعاب وحركات غريبة ومجموعة أخرى من اللاعبين يتبارزون بالعصى وراقص يدعى حسن البلبيس

ارتدى ثيابا نسائية مطرزة واسدل شعره المضفر على منكبيه وزجج حاجبيه والصق بظهر سترته دنانير مذهبة وشد حول وسطه حزاما من تمائم مربعة مذهبة(٢٠٣) .

كما يتواجد الأفراح المغنون والمنشدون الذين يمرون من مدينة لأخرى يغنون عند تجمعات الأفراح والاحتفالات يروون قصص وروايات أبو زيد وعنتر بن شداد وقد أطلق عليهم الرواة(٢٠٤) .

ولم تقتصر كتابات الرحالة على احتفالات الزواج فى القاهرة والمدن المصرية المختلفة وانما اهتموا بتسجيل تلك الاحتفالات لدى النوبيين فى أسوان فى شمال السودان خاصة لدى الدناقلة فوصف كادلفين تلك الاحتفالات بقوله « يرقص النوبيون على شكل حلقات ويعزفون على آلات تعرف بالنوجورا مثل الطمبورا بينما يتولى المدعوون التصفيق جالسين على الأرض ويحرص النوبيون على تواجد العوالم فى الأفراح ، وهم لم يعرفوا العوالم الا بعد وصول القوات المصرية الى بلادهم ، ويمكن القول ان رقص النوبة رقص جماعى ممتع ، أما عن العروس فيتم دهن جسدها بنبات له رائحة نفاذة وتجدل شعرها ضفائر صغيرة ويدهن بالعنبر ويزين بالعاج ويتولى تزيين العروس سيدة متخصصة فى ذلك ويعقد الزواج أمام القاضى ، ولابد أن يحضر العريس عقد من الذهب وأساور وحلقات ذهبية واذا لم تعجب العروس بالهدايا فيمكنها أن تردها وعند اتمام الزواج يتم ذبح ثلاث بقرات وعدد من الأغنام وتوزع لحومها وتخرج العروس على رأس موكب ويرتدى العريس القفطان بينما تنطلق الزغاريد وتوزع اللحوم والبلح ثم تقوم أم العروس بقراءة الفاتحة وفى اليوم التالى يأتى المهنئون وتستمر الاحتفالات مدة أيام ولا يتوقف الرقص والغناء خلالها(٢٠٥) .

وتقام احتفالات الختان فى مصر للذكور فور ولادة ، وأحيانا عندما يبلغ الطفل اثنى عشر عاما ، والختان ضرورى للمسلمين والمسيحيين ويتم وضع الطفل على جمل أو حصان ويخرج فى موكب كبير ويقوم بعملية الختان الحلاقون ثم تجىء النساء للتهنئة ويزغردن طوال الوقت ويقوم أهل الطفل برش ماء الورد على المارة وتقتصر احتفالات الختان على الأسر الموسرة فالفقراء لا يحتفلون بختان اولادهم وكلما ازداد ثراء الأسرة كلما كان الحفل باذخا على حد قول هوراس فرنيه(٢٠٦) .

هذا وقد قدم ادريس افندى وصفا لاحدى مواكب الختان فقال « رأيت الأطفال على صهوات جياد باذخة الزينة يطاف بهم فى أرجاء المدينة ، ويتقدمهم موكب حاشد وعلى رأس هذا الجمع رجل يرفع عصا كبيرة مزينة بالأشرطة والأزهار يتبعه عدة مشعوذين وعوالم قد أسرفن فى طلاء وجوههن وانطلقن فى هيئة مثيرة يغنين يؤدين رقصا ماجنا ، ومصارعون قد دهنوا اجسادهم بالزيت وهم يقومون بحركات رياضية ، ثم تأتى بعد جوقة من الموسيقيين وراكبى الحمير يعزفون انغاما حادة شاحبة لا توافق بينها ، وانه لضجيج حقا ، وترسل النسوة اللواتى يختتمن الموكب صيحة واحدة تختلط بين حين وآخر بالموسيقى ، ويسند كل طفل على حصان سائسان يقفان به ما وقفت هذه الزفة وهى تقف فى كل ميدان لتؤدى الرقص والألعاب ، وهكذا يعودون بالأطفال الى بيت أبيهم حيث يقوم الحلاق بالختان ولا ينسى الأب أن يدعو الى وليمة حافلة لهذه المناسبة الأقارب والأصدقاء(٢٠٧) .

كذلك تقام احتفالات السبوع بعد مولد الطفل بأسبوع وتعد النساء الوانا من الطعام ومشروب اصفر(٢٠٨) اللون يتكون من السمن وزيت السمسم ويضاف اليه البندق والحمص هذا

اذا كانت الأم تنتمى الى الطبقــة الثرية ثم تقوم النســاء بزفــة الطفل داخل الحريم وهن يحملن الشموع التى توضــع بعد ذلك فى الحناء وتقوم احدى السيدات وغالبا تكون القابلة برش الملح المختلط بحبــة البركة على المدعوات وعلى الطفــل لمنع « العين الشريرة » ثم تقوم الحــاضرات بتقديم الهدايا الى الطفل وتكون غالبا من النقود(٢٠٩) .

لم يقتصر وصف الرحالة على الاحتفالات والأعياد من زواج وختان ... الخ وانمــا وصفوا اجراءات دفن الموتى وقد كتب شولشيه « لا يوجد فى العالم أبسط من اجراءات الدفن فى مصر ، حيث تم حفر حفرة صغيرة بطول الجسد ثم يدفن الميت ويوضع عامود عند راسه ارتفاعه من اربعين الى خمسين سنتيمتر يوضع عليه عمامــة او طربوش لتحديد جنس المتوفى ويحترم المصريون مدافنهم(٢١٠) ويحرصون على دفن موتاهم بحيث تكون رؤوسهم تجاه القبلة كما لا يتوقفون عن ترتيل القرآن أثنــاء الدفن(٢١١) وفى مصر نساء مهنتهن البكاء على الميت ، وهن يصبغن وجوههن بالنيلة ، ويضربن صــدورهن ، ويمسكن المنــاديل السوداء فى أيديهن ويستمر صراخهن حتى انتهاء اجراءات الدفن كما يحرص أهل الميت على احضــار مجموعة من العميان لقراءة القرآن وتم لف جسد الميت الثرى بالموسلين أو الكشمير أما الفقراء فيكتفى أهله بالقطن(٢١٢) .

وقبل أن نختتم الحــديث عن احتفالات المصريين الخاصــة أو الدينية ينبغى لنا أن نشير الى احتفال هام تم فى مصر وحرص الرحالة على تسجيله الا وهو افتتاح قناة السويس ذلك الاحتفال الوطنى الذى حضره امبراطور فرنسا وامبراطور المــانيا ، والأمير عبد القادر الجزائرى ، كما حضره عدد من علمــاء الآثار الألمــان

منهم لبســـيوس Lepsius ودوميخـــن Dumichen
ودراك Brake كما حضره النوريج ابسن ، ومن سويسرا
نافيـــل Naville ومن اســـبانيا أوســـيبيو بلاســـكو
Euebio Blasto وحرص معظم الرحـــالة على التأكيد على
أن الوفد الفرنسي كان أكثر الوفود عددا وأكثرها اشراقا على حد
قول فرومونتان وقد تكون من ستة أعضـــاء من أكاديمية العلوم
ولذلك لم يلفت النظر أثناء الاحتفال سوى الوفد الفرنسى الذى
تكون من كل من الكيميـــائى بيلار Balard وورلز Wurlz
وبرتيلو Brocar وعالم الطبيعة أوترفـــاج Autrefage
والفيزيائى جامين Jamin والفيسلولوجى مـــارى Mary
كذلك كان هنـــاك أعضـــاء من الأكاديميـــة الطبيـــة منهم برتوليه
Berthelot وهـــانى Hany وميلر Miller ومجموعة
من الأساتذة على رأسها فيكور دورى Victor Duruy وشعراء
خاصة تيوفيل جوتييه theophile Gauthier ونقاد أمثـــال
شارل بلان Charles Blanc ورسامون مثل برشار Berchere
وتورومن Tourmène وجيروم ûerome ولى نوار Lenoir
ونحاتون مثل جيويوم Guillaume وصحفيون مثل فلوريون
Flofian ومديرون صحف مثل بيربيشو ـ Pierre Pichot
وصحفيون من مجلة Le Temps ومنهم فيرنيه Feyrnet
كذلك صحيفـــة Les Debats التى مثلهـــا يونج Young
وصحيفـــة Moniteur التى منهـــا لامبـــير دى لاكـــروا
Lambert De La Croix وصحيفة Gaulas حضر منهـــا
تربيـــه Tarbé وصحف — Journal de Paris Boulanger
La Presse مثلها أفلاطون Apleton وصحيفة Le Siecle ومثلثها
لويز كوليه Louise Colet وجان مارى Jean Marie وكاميـــل
Jeune Camille.

وقد دعا الخديوى ألف شخص منهم تسعمائة من الشخصيات الأوروبيـة جاءوا مباشرة الى السـويس وتولت السـفن نقل المدعويين من مارسيليا الى مصر وسفن أخرى كانت مهمتهم نقلهم الى أسوان وبين أسواق والقاهرة ثم تكليف عدد من الشخصيات لراحة المدعوين وتنظيم التنقل الى الأقصر وأسـوان وخصصت عدة فنادق منها فندق الشرق وشبرد لاقامة المدعوين وعـلق فورمون على ذلك « بدت هذه الفنادق كالخلايا »(٢١٣) .

لقد سجلت فرنسـا فخرها ومجدها بافتتاح القناة لقد دعمت هيبتها على ضفاف النيل ، وقويت الصـلة بينها وبين مصر ان البعثة المصاحبة لدى لسبس عند افتتاح القناة تعتبر البعثـة العلمية الثانية الى مصر بعد البعثة الأولى التى جاءت الى البلاد بصحبة الحملة الفرنسية(٢١٤) .

ثالثا ــ المنشـآت الاجتماعية :

تحدث معظم الرحالة عن الجـامع الأزهر مؤكدين روعـة وجمال البناء فلا يوجد مسجد يضاهيه فى فخامته(٢١٥) ثم أثنى معظم الرحالة على دور الأزهرمؤكدين بأن علماءه لا يقودون مصر فحسب وانما لهم دور واضح متميز فى العالم الاسـلامى . وفى الأزهر يتعلم الطلاب علوم الفلك والطب والرياضـة الى جـانب العلوم الشرعية وكل دارس له جراية من الخبز واللحم(٢١٦) .

وأثنى معظم الرحالة على عمارة الجامع الأزهر(٢١٧) ، بينما يعطى على العباسى وصفا للأعمدة الفخمة والعمـارة الضخمـة والسجاجيد الثمينـة التى كست الأرض باكملها(٢١٨) ويتألف المسجد من عدة أروقة تضـاء بواسطة أكثر من الف مصـباح . ويرتفع البناء على أعمدة من المرمر والجرانيت وعلى جانبى المسجد

غرف منفصلة بواسطة حواجز خشبية وفى كل غرفة خزانات لحفظ الكتب الثمينة والمخطوطات النادرة(٢١٩) .

وتوجد فى الأزهر أقسام وأروقة خاصة باقامة الطلاب المسلمين فهناك اروقة التكارنة وأروقة أخرى خصصت للطلاب القادمين من السودان(٢٢١) .

ومعظم الحجاج الذين يمرون على مصر حريصون على زيارة جامعة الأزهر كما يطلقون عليها فهو من أغنى راشهر المنشآت الاسلامية وقد بلغ عدد طلابه ألف ومائتى طالب ، كما يتولى المسجد الانفاق على عدد كبير من العميان(٢٢٢) .

وشحد الأزهر أذهان الرحالة الفرنسيين فتذكروا دوره اثناء الحملة الفرنسية حيث لجأ السكان الى علمائه طالبين النجدة ، وحيث نظم العلماء المقاومة الشعبية ضد الفرنسيين فيذكر ميشو أن الأزهر « هو الجامعة التى تعلم فيها سليمان الحلبى » وكأنه يريد فى كتاباته أن يذكر القارىء الفرنسى بمقتل كليبر وليلقى الضوء أيضا على أهمية الدور الذى لعبه الأزهر فى المقاومة الوطنية . ورغم أننا نشعر فى ملاحظات ميشو بالحقد الا انه لم يستطع أن ينكر دور وعظمة الأزهر « وأنه جامعة ضخمة يحوى مكتبة ضخمة وهامة وخطيرة » وهو من أشهر مساجد الشرق وتلاميذه من مختلف أنحاء العالم الاسلامى من آسيا وأفريقيا والجزيرة العربية والهند وسورية . وفيه تدرس كل العلوم ولعالم الأزهر هيبة واحترام لا نجدها لدى كثير من علماء الغرب ، فالكل ينظر اليه باحترام عظيم . ثم أثنى ميشو على النظام المتبع بالنسبة للطلاب والاشراف على غذائهم وتخصيص الأطباء لهم . وختم ميشو حديثه عن الأزهر « انه الشعاع الذى

أضاء العالم الاسلامي فقد تخرج منه العديد من العلماء الذين أدوا رسالتهم العلمية والدينية فى حلب ، ودمشق والمدينة والنيجر والنوبة والهند »(٢٢٣) .

وأثنى ديتورميل على العادات المتبعة عند دخول المساجد فهى غريبة بالنسبة لهم « فلابد ان نترك أحذيتنا عند دخول المسجد ، وقد وجدت عددا من الطلاب يجلسون القرفصاء على شكل حلقة يدرسون القانون والشريعة ، وينصتون باحترام شديد وانتباه لأستاذهم الذى بدأ عليه ألوقار والهيبة »(٢٢٤) .

هذا وقد أتيح لبعض الرحالة الالتقاء ببعض العلماء فالتقى على بك العباسى بالشيخ عمر مكرم ، والشيخ سليمان الفيومى والشيخ السادات والشيخ الشرقاوى والشيخ البكرى والشيخ العروسى وعبد الرحمن الجبرتى ، وأثنى على بك فى كتابته عليهم فهم « مشايخ لهم نفوذ كبير وهيبة عظيمة »(٢٢٥) .

ونشعر فى كتابات « شولشيه » بالأسف والأسى لأن محمد على ضرب نفوذ العلماء فى مصر لينفرد بالسلطة(٢٢٦) .
وجدير بالذكر أن ثناء معظم رحالة القرن التاسع عشر على علماء الأزهر يشبه الى حد كبير ما دونه الرحالة فى القرن الثامن عشر فقد كتب « دورفال » هؤلاء رجال مسلمون بالفطرة يمتازون بالجد والاستقامة » كما أفاض جرانجيه فى الثناء على الجامع الأزهر « ففى القاهرة كلية عظيمة اسمها الأزهر يدرس فيها المنطق والفلك والتاريخ بها رؤساء المذاهب الأربعة لهم الهيمنة والنفوذ »(٢٢٧) .

ولم يكتف الرحالة بتقديم وصف للجامع الأزهر باعتباره من أشهر المساجد بل نجد انهم كتبوا عن باقى مساجد القاهرة .

ومن بين الرحالة الذين نلمس روح العداء عند الحديث عن تلك المساجد شولشيه رغم أنه كان كما يدعى من أصحاب المبادىء الانسانية فهو من المناهضين لتجارة الرقيق . ومن أشهر نقاد مصر محمد على الا أنه لا يخفى فى كتاباته شعوره تجاه المسلمين فقد كتب « فى القاهرة عدد لا يحصى من المساجد ان المسلمين يكرهون المسيحيين لأنهم لم ينسوا تجربة الحروب الصليبية » ننا لا نستطيع دخول المساجد بمفردنا نمنع من الاقتراب منها ، لابد من الحصول على اذن مسبق ، ولابد ان يصحبنا قواس ونلزم بخلع احذيتنا كدليل على الاحترام . معظم المساجد فى مصر على نمط واحد فناء كبير وفى الوسط توجد نافورة فى مواجهة المدخل ، ثم ندخل قاعدة كبيرة فنجد القبلة وتوجد سلالم مخصصة لوقوف الامام ، والمساجد مقامة على اعمدة ضخمة ويتم الاعلان عن الصلاة بواسطة المؤذن وقد وجدت صوته اقل تأثيرا فى المشاعر من صوت أجراسنا البرونزية لأنه صوت جاف بلا شعور »(٢٢٨) .

وفى الحقيقة أن معظم الرحالة لم يسجلوا ملاحظاتهم عن الآذان كما سجلها شولشيه فقد اتفقوا مع ما سجله الرحالة من قبل عن اعجابهم بصوت الآذان فانه أفضل من أجراس الكنائس كما أن معظمهم لم يبد استياء من خلع الأحذية عند دخول المساجد فيسجل شامبيليون « لا يجوز دخول الأماكن المقدسة بالحذاء . ان المساجد فى مصر تعتبر نموذجا رائعا للأناقة والرفعة والسمو »(٢٢٩) .

ويعتبر مسجد عمرو بن العاص من أهم المساجد التى أشار اليها الرحالة باعتباره من أقدم المساجد وهو يقع فى مصر القديمة وقد قدم اكزافيه وصفا لأعمدته واعجب بالساعه الكبير وهو محاط

ببوابات كبيرة . ورغم ان المسجد يخلو من الزخـاف الا ان النظر اليه يعطى احساسا بالهيبة والعظمة(٢٣٠) .

وشعر بواتو بالأسى لأن مسجد ابن طولون أقام فيه ابراهيم باشا مستشفى عسكرى ، وانتقد هـذا العمل خوفا على أبنيته الرائعـة(٢٣١) .

اما جامع السلطان حسن فهو اضخم وأعظم ما أسس فى عصر المماليك وقد قدم اكزافيه وصفا عنه « يتميز بالاتسـاع الشديد ، وفى وسـطه نافورة كبيرة ومكان للوضـوء وهو مربع الشكل والزخارف فيه تتسم بالاتقان والروعة والذوق الرفيع وأبواب المسجد عليها رسـومات نعجز عن وصفها لفرط جمالها وهو من أشهر المساجد وبه قبر السلطان حسن(٢٣٠) .

ثم قدم الرحالة وصفا لمسجدى السيدة زينب والحسـين باعتبارهما من اشهر المساجد ولهما مكانة خاصة لدى المصريين لارتباطهما بآل البيت (٢٣٣) .

ورغم اعجاب الرحالة بالمساجد فى القـاهرة الا أن البعض منهم وجد أن مساجد استانبول تفوق مساجد القـاهرة روعـة وجمالا خاصة « ميشو » « ان مساجد استانبول تفوق مساجد القاهرة جمالا وذلك لأن الأخيرة بنيت على أرض مستوية بينما مساجد استانبول بنيت على أراضى وتلال مرتفعـة فيمكننـا مشاهدتها وتبدو ضخامتها وفخامتها للناظراليها »(٢٣٤) كمـا أشار مارسيلوس الى كثرة عدد المساجد فى القـاهرة حتى انه « يستحيل على أى شخص احصاءها »(٢٣٥) .

وعند الحديث عن المساجد ينفى بأن تشير بأن الرحـالة من الفنانين والرسامين تركوا مجلدات هائلة عن الآثار الاسـلامية فى مصر فيها العديد من الرسومات عن معظم مسـاجد القاهرة .

المستشفيات :

يحدث « هوراس فرنييه » عن مرستان قلاوون وقد وجد أن الجدران بتخللها فجوات تغطيهـا شبكات حديدية ضخمة يرتمي فيها التعساء عراة فوق الأرضيات الحجرية التي تعلوها طبقة سميكة من التراب وقد أحاطت بأعناقهم سلاسل ثقيلة مزدوجة تثبت أطرافها بحلقات خارجية وهو منظر مشين لا يتصور وجوده في منتصف القرن التاسع عشر(٢٣٦) .

كما انتقد فوربان المارستان ووصفه بأنه رمز البؤس والشقاء والاهانة البشرية والانسانية حيث يتم اغلاق الأبواب على المرضى وقد رأى فروبان منظرا أثار الأسى في نفسه فرأى سيدة فقيرة تجلس في أحد الأركان كان يتم اطعامها بواسطة جذب حبل حول رقبتها ليتم اقتيادها لتناول الطعام(٢٣٧) .

أما « ميشو » فقد أعطى القارىء نبذة عن انشاء المارستان في العصور الوسطى من أجل عزل المجانين وعلاجهم وهو ملحق بمسجد قلاوون وانتقد عدم وجود الأطباء ولا الأدوية فيه ورأى عدد من الممرضين يضربون المرضى المجانين على رؤوسهم »(٢٣٨) .

ولكن الى جانب هذه الصور البائسة للمارستان نجد أن الرحالة سجلوا أيضا عملية تأسيس المستشفيات في عهد محمد على وخلفائه خاصة المستشفى العسكرى في الاسكندرية والذى خصص لجنود البحرية وان كانت كتاباتهم لم تخل من النقد أيضا فقد وجد شولشيه بأن هذا المستشفى « يعاب عليه أن الأسرة فيه متقاربة ، كما أنه يخلو من وسائل التدفئة »(٢٣٩) أما دى كان فقد أعجب بعملية انشاء المستشفيات في الأزبكية ، والقصر العيني وغيرها . واعتبر ذلك مظهرا من مظاهر الحضارة يجب

تشجيعة(٢٤٠) « مصر العريقــة الكثيرة النسيان التى دارت فى ثراها الكثير من الأنبياء واحتفظت فى تراثها الفكرى بالعديد من الأديــان(٢٤١) .

كما وصف « جيرار » المصريين بميلهم الى الرحمة والرأفة ورأى أن المصريين أفادوا من الاســلام فى أخلاقهم « حقيقة أن مصر هى أم المعارف والحضارة » ولكن الاسلام كان له أثر ايجابى فى طبائع المصريين(٢٤٢) وهو يتفق أيضا مع ما كتبه ادوارد لين بأن « أهم السمات فى طبائع المصريين هو اعتزازهم الدينى(٢٤٣) .

ويمكن القول أن المصريين يتصفون بصفة عامة بالهدوء وعمق التفــكير ، ولكن فى ملمحــهم طــابع حــزين على حــد وصــف شــولشيه(٢٤٤) .

ومن العادات السيئة فى مصر **الكيف** فيقبل المصريون على تعاطى الحشيش وهو لا يتوفر فى المقاهى فقط ، وانما توجد أماكن أخرى لبيعــه تعرف باسم « المحشيشــات » . والكيف معروف فى مصر وتركيا وهو يجعل المصريين أكثر تراخيا وخمولا فنجدهم لا يشعرون بالقلق ، ويشعرون بالراحــة . وهم على حد قول بريس دافين « لا يصبح لهم من لذة الا فى الاحســاس بأنهم يعيشون فى تتابع التموجات التى يرسمها الدخان المنبعث من تبغ اللاذقية(٢٤٥) ولكن من حسن الحظ أن عدد المدمنين قليل فى مصر كما أن المصريين لا ينتشر بينهم الأفيون (٢٤٦) .

الحمامــات العامــة :

أعجب معظم الرحالة بالحمامات العامة فى القاهرة فسجل اكزافيه « لقد شعرت بالجهل عند رؤية حمامات القاهرة وقارنتها بحمامات أوروبا فوجدت بأنها تفوقها فهى مزودة بالميــاه الساخنة

والأحواض الرخامية حيث يتم تدليك الجسم بالمـاء المعطر وليف الجمـل »(٢٤٧) .

والحمامات فى مصر مزخرفة على نمط المساجد يغلب عليها اللونان الأبيض والأحمر . اما الحمام فيتألف من حجرات مبلطـة بالرخام المختلف الألوان وكل قسم منهـا تعلوه القباب مثقوبـة بثقوب مستديرة ينفذ الضـوء منها من خلال قطع متكورة من الزجاج والجدران ،والقباب تبنى عادة بالآجر والمصيص وتوجد على مستوى الأجزاء المرتفعة من الحمام ساقية لتغذية الخزان بالمـاء ، وهو يؤخذ اما من بئر أو من حوض فى أسفل البناء ، وفى المسلخ يتجرد الرجل من ثيابه ، ويضـع فى وسطه فوطة ، ويلبس قبقاب من الخشب ، ويمر فى دهـاليز ضيقة للتدرج فى الحرارة ، ثم الحمام وهو بهو كبير ذى قبة عالية وارضية مفروشة بالرخام فى وسطه حوض ماء سخن تنبعث منه سحب من الأبخرة لا تلبث أن تتكاثف فوقه ويستمر انبعاثها على الدوام فتختلط بالروائح الزكية التى تحرق فى المباخر الحمامات الشرقية مفيدة للصحـة افـادة خاصـة فى بلد حرارتـه مرتفعة ولكن انتشـار الحمامات سبب من أسباب بعض الأمراض الجلدية(٢٤٨) .

وقدم « بريس دافين » تجربته فى دخول الحمـام فكتب « انها جديرة بالوصف ، فبعد أن تجتاز ممشى طويلا ينتهى بهو فسيح ينفذ اليه النور والهواء من فتحة عريضـة بالسـقف ، وتحتل وسط هـذا البهو فى العادة نافورة تبثق فى حوضها وتمتد حـول الجـدران من كل جانب مصـاطب فرشـت بالسجاجيد والنماق وهناك يودع المرء ملابسه ولا تكاد تدخل حتى يتقدم نحوك خادم ليعينك على خلع ملابسك ثم يدثر رأسك بمناشف دافئـة ويضع قدميك فى قبقاب خشبى ويقتادك من يدك فى ممر متعرج

ينفذ منه المرء الى الحمـام ، انها عدة غرف متتاليـة محـلاة بفسيفسات من المرمر أو الصينى الملون يحفظها المـاء دائما جد نظيفة وجميعها تسبق قاعة كبيرة مستديرة،كسا الأسمنت جدراها واتخذ سقفها هيئة قبة خفيفة لطيفة تزينها قطع من الزجاج الملون تنشر نورا حلوا جدا ، وقد صنعوا فى الوسط نافورة ومدوا حول الجدران ارائك يستلقى عليها المستحمون حيث يدلكهم المدلكون وتتصل بهذه القاعة المستديرة عدة غرف صغيرة يحتوى بعضها على مقاعد رخامية فى وجه صنابير تصب المـاء البارد والساخن الذى يستحم به المرء ويحتوى بعضها الآخر على حوض يملؤه ماء يغلى ، فيمتزج بخاره المتجدد دائما بما يحرقون من عطوره وفى العادة يستلقى المرء فى هـذه القاعة وقد اسند راسـه الى وسادة صغيرة أو اتكأ يدخن النرجيلة متخذا جميع الأوضـاع المناسـبة بينما تغمره سحابة من البخـار تنفذ من مسامه جميعـا فتصبب عرقا غزيرا فاذا استراحت قليلا ونديت جميع أجزاء جسـمك ندى للديدا تسـلمك فتى ليمرسـك فى رفق ويقلبـك ثم يركع فيثنى جميع مفاصلك دون اجهاد أو ايلام ويمد جميـع أطرافك ويجعلها تؤدى حركات كبيرة وبعد تلك المقدمات الرياضـية قد يضع يده فى قفاز باذخ الزينة وقد لا يصطنع القفاز ، ولكنه يفرك سطح جسمك باكمله ثم يزيل بقطعة من الحجر الأسفنجى ما يعترى قدميك من نتوء ، وبعد التدليك ينشر على جسـمك زيتا صابونيا ثم يغسلك تماما وحين تنتهى هـذه العمليـة يكسوك بمناشف جديدة ، ويعيدك الى القاعة الأولى حيث تستلقى فى استرخاء وعلى ديوان تحسو القهوة وتدخن الغليون على حين يغلفك غلمان صغار بمناشف جديدة ويبدأون فى تدليكك مرة أخرى(٢٤٩) .

ولا تكاد النساء تخرج الا للذهاب الى الحمام فهنـاك يقضين كل أسبوع ساعات حلوة لذيذة يعرضن ترفهن وعطورهن ويسلمن

شعورهن لتضفر وتصفف فيها صفائح ذهبية أو فضية وفى الحمام يأكلن وينمن وينفقن نهارهن بأكمله وكثيرا ما يدخلن بعض المطربين المكفوفين ليشنفوا أسماعهن ، وتعلق ستارة تدل على باب الحمام انه مغلق دون الرجال واذ ذاك يترك جميع خدم الحمام مكانهم للخادمات(٢٥٠) .

من طبائع المصريين :

واخيرا عند ختام الحديث عن الحياة الاجتماعية ينبغى علينا أن نذكر بعض ملاحظات الرحالة عن طبائع المصريين فقد كتب « بريس دافين » يغلب على المصريين المرح والكرم ولن تجد فى أى مكان أرق من كرم الضيافة الذى تلقاه فى الشرق ، لقد بهر حسن الاستقبال هذا كل رحالة جاب هذه البلاد ، وليس فيما يقدمه لك الشرقى أى مباهاة فهو يعتبرذلك واجبا يفرضه عليه الدين ، وأنك لتصبح واحدا من أفراد العائلة منذ تسكن سقف رجل مسلم ، وهو لا يهتم أبدا بشخصيتك ومن تكون ومن أين أتيت وعلى الرغم من أن الطبقة العاملة ترتدى الأسمال فهى ليست من الانحطاط وفساد الأخلاق بالقدر الذى تجده فى مثيلاتها التى تؤلف حثالة المجتمع الأوروبى فان دينا حازما يؤثر فى الشعب تأثيرا كبيرا يمنعه من الانحراف المنفر الذى تصادفه لدينا(٢٥١) .

والشعب المصرى موهوب بصفة المرح التى لم يستطع البؤس أن يغلبها ولم تستطع المظالم ان تقضى عليها وأن جميع ما كتبه عن القدماء عن طبع المصريين الهادىء نجده فى اهل مصر الحديثة كان المناخ الثابت الذى لا يتغير فى هذا البلد يضفى عليهم شيئا من طبيعته والمصرى ملازم لداره يكره الرحلات التى تبعده عن ضفاف النيل(٢٥٢) .

ويلاحظ أن ما كتبه وسجله « بريس دافين » يتفق الى حد كبير مع ما دونه ادوارد لين عن المصريين « يشتهرون بحب الضيافة والكرم ، ويميلون الى الهجاء ، ويظهرون سرعة بديهـة فى دعاباتهم وملاحظاتهم الساخرة »(٢٥٣) .

ونفى « جيرار دى نرفال » فكرة التواكل عن المصريين واكد أن مصر اكثر تسامحا لأن تسامحها نابع من عمق ايمانها .

هوامش الفصل الرابع

(١) فولني : ثلاثة اعوام فى مصر وبر الشام نقلها الى العربية ادوارد البستانى ١٩٤٩ ج ١ ص ٦٢ .

(٢) Gobineau : Op. Cit., L'inegalité t 1 P. 329.

(٣) Scholcher : Op. Cit., P. 113.

(٤) Montulé : Op. Cit., P. 325.

(٥) Camp : Op. Cit., P. 45.

(٦) Scholcher : Op. Cit., PP. 125 — 135.

(٧) الجبرتى : المرجع السابق ج ٢ ص ٤٨٠

Chateaubriand : Op. Cit., P. 124.

(٩) St. John: Op Cit., PP. 589 — 590.

(١٠) Poitou : Op. Cit., P. 408.

(١١) Ibid. P. 409.

(١٢) الهام ذهنى : المرجع السابق ص ٢٧٢ ، ص ٢٧٤ .

(١٣) Nerval : Op. Cit., P. 152.

(١٤) Du Camp : Op. Cit., P. 33.

(١٥) El Abassy : Op. Cit., P. 13.

(١٦) الهام ذهنى : المرجع السابق ص ٢٧٤ .

(١٧) ادريس افندى : المرجع السابق ص ٦٩ .

(١٨) Scholcher: Op. Cit., P. 81.

(١٩) ثروت عكاشة ، المرجع السابق ج ٢ ص ٣٧٩ .

(٢٠) ادريس افندى : المرجع السابق ص ٧١ .

(٢١) Scholcher : Op. Cit., P. 84.

(٢٢) Ibid. P. 84.

(٢٣) Montulé : Op. Cit., PP. 129 — 130.

(٢٤) Schlocher : Op. Cit., P. 92.

(٢٥) Bussiere : Op. Cit., t 2 P. 24.

(٢٦) Scholcher : Op. Cit., P. 228.

(٢٧) Cadalvene : Op. Cit. t 1 P. P 342.

(٢٨) ادريس افندى : المرجع السابق ص ٢١ — ص ٢٤ .

(٢٩) Scholcher : Op. Cit., PP. 5 — 12.

(٣٠) شامبيليون فى مصر : المرجع السابق ص ٤٠ .

(٣١) المرجع السابق ص ٢١ .

(٣٢) ادريس افندى : المرجع السابق ص ٨١ ، ص ٨٢ .

(٣٣) Scholcher : Op. Cit., P. 151.

(٣٤) ثروت عكاشة : المرجع السابق جـ ١ ص ٢٤٤ .

(٣٥) Saint Hilaire, B. : Op. Cit., P. 151.

(٣٦) Blanc, Ch. : Op. Cit., P. 46.

(٣٧) Ampère : Op. Cit., P. 255.

(٣٨) Scholcher : Op Cit., P. 68.

(٣٩) ادريس افندى : المرجع السابق ص ٦٢ .

(٤٠) Scholcher : Op. Cit., P. 84.

(٤١) Michaud : Op. Cit., P. 77.

(٤٢) Scholcher : Op. Cit., P. 87.

(٤٣) ادريس افندى : المرجع السابق ص ٧٠ .

(٤٤) Scholcher : Op. Cit., PP. 87 — 91.

(٤٥) Caldalvene : Op. Cit., t 1 P. 353.

(٤٦) Michaud : Op. Cit., PP. 71 — 75.

(٤٧) Montulé : Op. Cit., P. 130.

(٤٨) Blanc, Ch. : Op. Cit., P. 44.

(٤٩) انظر الهام ذهنى : المرجع السابق ص ٢٧٥ ، ٢٧٦ .

(٥٠) Michaud : Op. Cit., t 6 PP. 72 — 78.

(٥١) De Bussiere : Op. Cit., t 2 PP. 33 — 43.

(٥٢) Forbin : Op. Cit., P. 64.

(٥٣) الهام ذهنى : المرجع السابق ص ٢٧٧ ، ص ٢٧٨ .

(٥٤) Cadalvene : Op Cit., t 1. P. 274.

(٥٥) De Bussiere : Op. Cit., t 2 PP. 42 — 43.

(٥٦) ادريس افندى : المرجع السابق ص ١٢١ .

(٥٧) Montulé : Op. Cit., PP. 360 — 361.

(٥٨) Rifaud : Op. Cit. P. 102.

(٥٩) Ibid. P. 98.

(٦٠) Linant : Op. Cit., P. 28.

(٦١) Rifaut : Op. Cit., P. 103.

(٦٢) Cadalvene : Op. Cit., t 1 PP. 275 — 276.

(٦٣) Edmond, Ch : Op. Cit., P. 285. 5

(٦٤) Du Camp, M. : Op. Cit., P. 45.

(٦٥) Linant, : Op. Cit., PP. 128 — 138.

(٦٦) Scholcher : Op. Cit., PP. 270 — 272.

(٦٧) Cadalvene : Op. Cit., t 2. P. 258.

(٦٨) Ibid. t 2 PP. 260 — 265.

(٦٩) Edmond, Ch. : Op. Cit., 256 — 258.

(٧٠) انظر وصف مصر ج ٣ « دراسة عن النوبة والنوبيين » ص ١٩٣ .

(٧١) المرجع السابق ص ١٦٩ .

(٧٢) Cadalvene : Op. Cit., t 2. PP. 16 — 17.

(٧٣) Ibid. t 2 P. 19.

(٧٤) Ibid t 2. P. 147.

(٧٥) Scholcher : Op. Cit., PP. 197 — 198.

(٧٦) Ibid P. 198.

(٧٧) De Bussiere : Op. Cit., t 2. P. 46.

(٧٨) ادوارد لين : المرجع السابق ص ٥٤٨ ، ص ٥٤٩ .

(٧٩) الهام ذهنى : المرجع السابق ص ٢٧٩ .

(٨٠) Edmond, Ch. : Op. Cit., P. 231.
(٨١) Ampère : Op. Cit., P. 188.
(٨٢) Scholcher : Op. Cit., PP. 199 — 200.
(٨٣) Rifaud : Op. Cit., P. 114.
(٨٤) Pardieu : Op. Cit., P. 122.
(٨٥) Ampère : Op. Cit., P. 188.
(٨٦) Edmond, Ch. : Op. Cit., P. 240.
(٨٧) Garcy : Op,. Cit. P. 67.
(٨٨) Scholcher : Op. Cit., P. 199.
(٨٩) Monluté : Op. Cit., P. 360.
(٩٠) الهام ذهنى : المرجع السابق ص ٢٧٩ — ص ٢٨١ .
(٩١) Scholcher : Op. Cit., P. 297.
(٩٢) ادوارد لين : المرجع السابق ص ٥٥٨ .
(٩٣) Michaud : Op. Cit., P. 240.
(٩٤) Cadalvene : Op. Cit., P. 103.
(٩٥) Maront : Op. Cit., P. 65.
(٩٦) Bussiere : Op. Ci, t 2. P. 50.
(٩٧) Cadalvene : Op. Cit., t1 P. 270.
(٩٨) Poitou : Op. Cit., P. 431.
(٩٩) Nerval : Op. Cit., P. 160.
(١٠٠) Marcellus : Op. Cit., P. 388.
(١٠١) Nerval : Op. Cit., PP. 174 — 180.
(١٠٢) Marcellus : Op. Cit., PP. 388 — 389.
(١٠٣) Rifaud : Op. Cit., P. 108.
(١٠٤) Cadalvene : Op. Cit., t 1 P. 182.
(١٠٥) كلوت بك : المرجع السابق جـ ١ ص ٦٣٣ .
(١٠٦) ثروت عكاشة : المرجع السابق جـ ١ ص ٢١٩ .
(١٠٧) كلوت بك : المرجع السابق جـ ١ ص ٥٣٢ .
(١٠٨) الهام ذهنى : المرجع السابق ص ٢٨٤ .

(١٠٩) Poitou : Op. Cit., P. 422.
(١١٠) Ibid. P. 122.
(١١١) St. John : Op. Cit., P. 397.
(١١٢) About, E. : Op. Cit., P. 314.
(١١٣) ادريس أفندى : المرجع السابق ص ٣٣ .
(١١٤) المرجع السابق ص ٤٠ .
(١١٥) About, E. : Op Cit., P .119.
(١١٦) Blanc, Ch. : Op. Cit., P. 34.
(١١٧) Monluté : Op Cit., P. 155.
(١١٨) Scholcher : Op. Cit., P. 162.
(١١٩) Nerval : Op. Cit., P. 87.
(١٢٠) Ibid. :
(١٢١) ادريس أفندى : المرجع السابق ص ١٤١ .
(١٢٢) Ampère : Op. Cit., P. 185.
(١٢٣) ثروت عكاشة : المرجع السابق ص ٢١٩ .
(١٢٤) Scholcher : Op. Cit., P. 163.
(١٢٥) Cadalvene ; Op. Cit., t 1 P. 360.
(١٢٦) Poitou : Op. Cit., P. 425.
(١٢٧) Michaud : Op. Cit., t 7 P. 78.
(١٢٨) Ibid. P. 83.
(١٢٩) ادريس أفندى : المرجع السابق ص ٦٩ .
(١٣٠) Fromentin, E. Op. Cit., P. 5.
(١٣١) ادريس أفندى : المرجع السابق ص ٤٠ .
(١٣٢) ثروت عكاشة : المرجع السابق جـ ١ ص ٣١٨ ، ص ٣١٩ .
(١٣٣) Nerval : Op. Cit., PP. 118 — 119.
(١٣٤) Saint Hilaire, B : Op. Cit., P. 148.
(١٣٥) الهام ذهنى : المرجع السابق ص ٢٨٥ ، ص ٢٨٦ .
(١٣٦) الظر وصف مصر جـ ٦ المرجع السابق جـ ٣ص ٩٢ .
(١٣٧) ادوارد وليم لين : المرجع السابق ص ٣٨٧ — ص ٣٩١ .

(١٣٨) Cadalvene : Op. Cit., t 1 P. 249.

(١٣٩) Fromentin : Op. Cit., P. 78.

(١٤٠) Scholcher : Op. Cit., P. 82.

(١٤١) About, : Op. Cit., P. 294.

(١٤٢) Du Camp : Op. Cit., P. 86.

(١٤٣) Cadalvene : Op. Cit., P. 360.

(١٤٤) Scholcher : Op. Cit., P. 170.

(١٤٥) Cadalvene : Op. Cit., t 1 P. 360.

(١٤٦) Fromentin : Op. Cit., P. 78.

(١٤٧) De Bussiere : Op .Cit., t 2 P. 3.

(١٤٨) Nerval : Op. Cit., PP. 90 — 95.

(١٤٩) Blanc, Ch. : Op. Cit., P. 54.

(١٥٠) Ibid. P. 137.

(١٥١) Pardieu : Op. Cit., P. 89.

(١٥٢) Du Camp : Op. Cit., P. 186.

(١٥٣) Ibid. PP 116 — 121.

(١٥٤) ادريس الندى : المرجع السابق ص ٤٢ .

(١٥٥) المرجع السابق ص ٤٣ ـ ص ٤٤ .

(١٥٦) Michaud : Op. Cit., P. 237.

(١٥٧) Forbin : Op. Cit., P. 76.

(١٥٨) De Bussiere : Op. Cit,, t2 P. 50.

(١٥٩) ادريس الندى : المرجع السابق ص ٨١ .

(١٦٠) Carré, J. : Op. Cit., t 1 PP. 175 — 177.

(١٦١) Nerval : Op. Cit., P. 135.

(١٦٢) Scholcher : Op. Cit., P. 78.

(١٦٣) Marmnot : Op. Cit., t2. P. 60.

(١٦٤) Ibid P. 29.

(١٦٥) Pardieu : Op. Cit., P. 40.

(١٦٦) Marmont: Op. Cit., PP. 181 — 182.

(١٦٧) D'estournel : Op. Cit., P. 497.

(١٦٨) Pardieu : Op. Cit., P. 144.

(١٦٩) Scholcher : Op. Cit., P. 78.

(١٧٠) Ampère : Op. Cit., P. 127.

(١٧١) Poitou : Op. Cit., P. 68.

(١٧٢) Scholcher : Op. Cit., P. 79.

(١٧٣) Goupil : Op. Cit., P. 124.

(١٧٤) حلمى شلبى : الموظفون فى مصر فى عصر محمد على القاهرة ١٩٨٩ ص ٩٤ .

(١٧٥) المرجع السابق ص ٩٥ .

(١٧٦) المرجع السابق ص ٩٥ .

(١٧٧) Marmont : Op. Cit., PP. 215 — 217.

(١٧٨) Xavier : Op. Cit., P. 178.

(١٧٩) De Garcy : Op. Cit., P. 56.

(١٨٠) Ibid. PP. 58 — 62.

(١٨١) Montulé : Op. Cit., P. 199.

(١٨٢) Du Camp : Op. Cit., P. 87.

(١٨٣) Michaud : Op. Cit.,

(١٨٤) Marmont : Op. Cit., P. 225.

(١٨٥) Marcellus : Op. Cit., P. 383.

(١٨٦) شامبيليون فى مصر : المرجع السابق ص ٢٠

(١٨٧) Forbin : Op. Cit., P. 78.

(١٨٨) Montulé : Op. Cit., P. 288.

(١٨٩) شامبيليون فى مصر : المرجع السابق ص ٤٣ .

(١٩٠) Forbin : Op. Cit., PP. 67 — 78.

(١٩١) Nerval : Op. Cit., PP. 121 — 125.

(١٩٢) انظر الهام ذهنى : المرجع السابق .

(١٩٣) ثروت عكاشة : المرجع السابق جـ ١ ص ٢١٦ .

(١٩٤) المرجع السابق : جـ ١ ص ٢١٦ .
(١٩٥) المرجع السابق ، جـ ١ ص ١٣٥ .
(١٩٦) شامبليون فى مصر : المرجع السابق ص ١٩ .
(١٩٧) Nerval : Op. Cit., P. 167
(١٩٨)
(١٩٩) الهام ذهنى : المرجع السابق ص ٣٢١ .
(٢٠٠) Nerval : Op. Cit.. PP. 90 — 95.
(٢٠١) ادريس الندى : المرجع السابق ص ٢٠٤ .
(٢٠٢)
(٢٠٣) ثروت عكاشة : المرجع السابق جـ ١ ص ٢٣٦ .
(٢٠٤) Xavier : Op. Cit., P, 428.
(٢٠٥) Cadalvene : Op. Cit., t2 PP. 308 — 324.
(٢٠٦) Fesquet, : Op. Cit., P. 50.
(٢٠٧) ادريس الندى : المرجع السابق ص ٢٧ .
(٢٠٨) المفـــات .
(٢٠٩) Nerval : Op. Cit., t 3 PP. 250 — 258.
(٢١٠) Scholcher : Op. Cit., P. 162.
(٢١١) Nerval : Op. Cit., P. 374.
(٢١٢) Ibid. PP. 375 — 380.
(٢١٣) Fromentni · Op. Cit., PP. 27 — 29.
(٢١٤) Carré : Op. Cit., t2 PP. 205 — 206.
(٢١٥) Du Camp : Op. Cit., P. 83.
(٢١٦) Ibid P. 33.
(٢١٧) Ibid. P. 34.
(٢١٨) El Abassy : Op. Cit.. P. 18.
(٢١٩) Forbin : Op. Cit., P. 71.
(٢٢٠) Du Camp : Op. Cit., P. 34.
(٢٢١) Xavier : Op. Cit., P. 418.
(٢٢٢) Ibid. : P. 419.
(٢٢٣) Michaud : Op. Cit., t 6 PP. 4 — 8.

(٢٢٤) D'estourmel : Op. Cit., t 2 P. 269.
(٢٢٥) El Abassy : Op. Cit., PP. 13 — 14.
(٢٢٦) Scholcher : Op. Cit., P. 195.
(٢٢٧) الهام ذهني : المرجع السابق ص ٢٧٤ .
(٢٢٨) Scholcher : Op. Cit., P. 186.
(٢٢٩) شامبليون في مصر : المرجع السابق ص ١٩ .
(٢٣٠) Xavier : Op. Cit., P. 417.
(٢٣١) Poitou : Op. Cit., P. 110.
(٢٣٢) Xavier : Op. Cit., P. 418.
(٢٣٣) D'estourmel · Op. Cit., P. 270.
(٢٣٤) Michaud : Op. Cit., t 6 PP. 4 — 8.
(٢٣٥) Marcellus : Op. Cti., P. 387.
(٢٣٦)
(٢٣٧) Forbin : Op. Cit., P. 80.
(٢٣٨) Michaud : Op. Cit., t 2 P. 12.
(٢٣٩) Scholcher : Op. Cit., P. 35.
(٢٤٠) Du Camp : Op. Cit., P. 42.
(٢٤١) Xavier : Op. Cit., P. 420
(٢٤٢) كلوت بك : المرجع السابق جـ ١ ص ٥٨٤ ، ص٥٩٨ .
(٢٤٣) ادريس افندى : المرجع السابق ص ٤٤ .
(٢٤٤) المرجع السابق : ص ٤٥
(٢٤٥) ادريس افندى : المرجع السابق ص٤٨٠ .
(٢٤٦) المرجع السابق : ص ٤٨١ .
(٢٤٧) ادوارد لين : المرجع السابق ص٣١٥ .
(٢٤٨) ثروت عكاشة : المرجع السابق جـ ١ ص ٢١٨ .
(٢٤٩) المرجع السابق ص٢٢٠ .
(٢٥٠) ادوارد لين : المرجع السابق ص ٢٨٤ .
(٢٥١) Scholcher : Op. Cit., P. 248.
(٢٥٢) ادريس افندى : المرجع السابق ص ٣٨ .
(٢٥٣) ادوارد لين : المرجع السابق ص ٣٤٦ .

الفصل الخامس

وصف مدن مصر

- وصف لمدن مصر السفلى .
- وصف لمدن البحر الأحمر .
- وصف لمدن مصر الوسطى والعليا .

قدم الرحالة الفرنسيون وصفا للمدن المصرية بقسميهـا الشمالى والجنوبى ، وقد حرصـوا عند حديثهم عن هذه المدن على التعريف بموقع مصر الجغرافى ومناخها .

استهل ريفو حديثه عن موقع مصر « تقع مصر شـمال شرق أفريقيا يحدها البحر المتوسط من الشمال والبحر الأحمر من الشرق ، والنوبة من الجنوب والصحراء الليبية من الغرب »(١).

واتفق الرحالة مع ما ذكره زمـلاؤه فى القرن الثامن عشر وعلماء الحملة الفرنسية فى وصف امتداد الأراضى المصريـة على شـكل حرف Y . يمثل الجزء العلوى من هذا الحرف فرعى رشيد ودميـاط . وقد أكد تلك الحقيقـة العالمـان الفرنسيان « دى بو » و « أيميه » المرافقان للحملة فسجلا « الدلتا على شكل مثلث وسميت بالدلتا لأنه الاسم الذى أطلقه الاغريق على هذه الأراضى ، وذلك لأنه اسم حرف من أبجديتهم ، كانوا يرسمونه على شكل مثلث قاعدته ترتكز عند البحر المتوسط وتنتهى قمته عند منف »(٢) . وقد سجل ريفو هـذا المعنى أيضا فى القرن التاسع عشر فكتب « ذراعى النيل يشكلان مثلث قاعدته فى البحر المتوسط وأضـلاعه فرعى رشيد ودمياط »(٣) . وتعتبر منطقـة « بطن البقرة » هى نقطة تفرع فرعى رشيد ودميـاط ، وهى من أخصب مناطق مصر على حد وصف أمبير(٤) .

نلمس من خلال كتابات الرحالة مدى انبهارهم واعجابهم بدلتا النيل وأراضي مصر فنجد شولشيه عندما يرى سواحل مصر لا يتمالك نفسه عن التعبير عن جمال المكان وروعته فيسجل « اننا لا نتعرف على مصر الا عندما نصل اليها انها محيط من الرمال يحيط به البحر المتوسط والنيل ، ولكنها لها وقع جميل على زوارها فأكثرهم قسوة لا يتمالك نفسه عن الدفاع عنها ، والدلتا أجمل ما فيها »(٥) ونلمس هذا الاعجاب أيضا من بين علماء الآثار الذين وفدوا على مصر لدراسة آثارها فكتب أوجست ماريت « مصر تجذب الناس اليها بسمائها الجميلة التي لا تقارن ونجوم ليلها المشعة ورقة هوائها وأراضيها الخضراء الشاسعة بلا حدود ، وألوان حقولها ، ان مصر تستحق الانتباه لا شيء يضارعها »(٦) .

أما شارل ادمون فقد سجل اعجابه بمصر « منحت مصر النيل وخصوبة الدلتا ان مصر هي عين العالم وأجمل واعجب ما فيها الدلتا »(٧) .

وعقد « شاتوبريان » مقارنة بين شواطيء الدلتا خاصة رشيد وشواطيء فلوريدا في أمريكا بمروجها الخضراء الساحرة(٨) ولما كان « شاتوبريان » كاتبا وفنانا فقد لمسنا في كتاباته تأثر وسحر الدلتا عليه ويذكرنا ذلك بما سجله « سافاري » من قبل في القرن الثامن عشر وقد اتسمت كتاباته بالرقة . فقد وصف الدلتا « بأنها حديقة جميلة لا تكف عن العطاء »(٩) .

ونلمس هذا الاعجاب أيضا من علماء الحملة الفرنسية خاصة « جولو » في دراسته عن مدينة رشيد(١٠) الذي ذكر فيها « الدلتا في رشيد خضراء أخاذة ، العيون تستقر فيها باعجاب

وارتيـــاح فوق حقول يغطيهـــا الأرز فتشـــكل واحـــدا من أبهج المشـــاهد »(١١) .

ورغم اعجاب رحالة القرن التاســـع عشر بجمـــال الدلتـــا وكتاباتهم عنها الا أننا نجد أن هنـــاك أصـــواتا من بينهم ارتفعت محذرة من تآكلها فأشـــار المـــاريشال مارمون الى هذه الحقيقة « ان الدلتا تكونت فى مصر على مر العصور ، ولكنها الآن تتآكل بسبب طغيان البحر على الساحل ، فحركة المياه فى النيل والبحر غير ثابتة »(١٢) . وفى الحقيقة نجد تشابها بين تحذير مارمون فى القرن التاسع عشر وما تدعو اليه الآن الدراســـات الحديثـــة لحماية تآكل السواحل المصرية .

هذا وقد اختلفت كتابات الرحالة فى القرن التاسع عشر عن النيل عمن سبقوهم وذلك لأن منابع النيل لم تكن قد كشفت بعد وكانت كتاباتهم مستقاة من الرهبـــان البرتغال الذين عملوا فى الحبشـــة أما فى القرن التاســـع عشر فقد تحدث الرحـــالة عن البعثات الكشفية التى أرسلها محمد على لتتبع مجرى النيـــل خاصة بعثة دارنو Darnaud ، كذلك البعثات التى أرسلت الى النيل الأبيض والأزرق فى عهد سعيد باشا(١٣) ومر الرحالة سريعا عند التعريف بمنابع النيل وذلك لأن بروس فى أواخر القرن الثامن عشر كان قد كشف عن هـــذه المنابع ووضع مؤلفاته عنها ، وتوثقت المعرفة والمعلومات عنها فلم يدونوا المبالغات التى أوردها الرحالة السابقون فأشار شارل أدمون سريعـــا الى منابعـــه من الحبشـــة ومن البحيرات الاستوائيـــة(١٤) . وأكد أمبير انه على من كشف المنابع الا أن هنـــاك مناطق ما زالت مجهولة لابد من اكتشافها ، كما نبه الى خلط المكتشفين والجغرافيين قديما بين نهرى النيل والنيجر فى افريقيا حتى أن الادريسى وقع فى هـــذا

الخطأ وأورد المبالغات التى ذكرت عن منابع النيل وانه ينبع من جمال القمر ، ويمر فى أراضى كلها مناجم ذهب وزمرد ونحـاس . كما أشار الى أن العامة فى مصر يرددون دائما أن أوراق أشجار الجنة تسقط فى النيل(١٥) .

أما ميشـو مؤرخ الحروب الصليبيـة فكان من الطبيعى أن يتحدث عن محاولات تحويل مجرى النيـل خاصـة فى الحروب الصليبية ثم كذلك محاولات الجزويت البرتغـال فى هذا المجـال ولكن رغم ذكرياته عن الحروب الصليبية الا انه لم يملك الا أن يسجل « أن النيل هو الحياة لمصر ، وقد عرف المصريون القدماء قدره فاحترموه وقدسوه ، كما عرف المصريون المحدثون قيمتـه فأشادوا به فى أشعارهم وأزجالهم »(١٦) .

ولعل أجمل تشبيه لفيضان النيل ما كتبه كادلفين « النيل العجوز يخرج كل عام من سريره فى الجنوب ، ليغمر البـلاد ، ويحدث فيضانه التغييرات فتكتسى ضفافه باللون الذهبى »(١٧) فهو الذى يضفى الخصـوبة للأراضى المصرية وطميـه يكسـب الفاكهـة مذاقا طيبـا قلمـا نجده فى اى مكان على حـد تعبير مارسيليوس(١٨) . هذا وقد اتفق الرحالة حول خصوبة اراضى مصر فكتب شولشيه « لا يوجد فى العالم أراضى تعطى باقل جهد مثل ارض مصر انها تحوى الكنوز وكل ذلك بفضـل النيل(١٩) كما سجل ميشو رغم ما يمر على مصر من أوقات عصيبة الا أن أراضى الدلتـا لا تكف عن العطـاء واننـا نعجـز عن وصـف خصوبتها »(٢٠) .

ويعتبر النيل من اهم واطول انهار العالم وقد كتب مونتوليه عندما رآه « انه يذكرنى بنهر المسيسيبى العظيم »(٢١) .

هذا وقد أهتم الرحـالة خاصة العلماء منهم بتحليل مياه النيل فسجل أمبير ملاحظاته عنه « اثبت التحليل الكيميائى نقاء مياه النيل الى حد كبير ، انها أنقى من مياه نهر السين ، وقـد اكد لى هذه الحقيقة الدكتور بوسنجول Bousingault الذى أجرى العديد من الدراسـات عنه ويكفى أن نضع مياهـه فى الأوانى الفخارية حتى تصبح رائقة تماما ، انه الحياة بالنسبة لمصر »وانتقد أمبير بعض الكتابات المبالغ فيها عن النيل خاصـة ما كتبه كلوديو Claudieu بأن أشـعة الشمس تبخر مياه جميع الأنهار ثم تردها الى النيل ، واكد امبير ان غزارة مياه النيل ترجع الى الفيضان القادم من الحبشة(٢٢) .

وجدير بالذكر أن أبحاث أمبير عن نقاء مياه النيل لم تكن الأولى من نوعها فقد سبقه غيره من الرحالة فى هـذا المجـال ونذكر هنا بعض التجـارب المبكرة للعالم والرحـالة الفرنسى مونكونى Balthazar De Monconys الذى زار مصر فى عام ١٦٤٦ وأجرى تجاربه على مياه النيل ودون ملاحظاتـه عن كثافتها ومدى ارتفاعها وقت الفيضان ثم أكد نقاءها(٢٣) .

ورغم ما سجله الرحالة عن جمال النيل وعظمته وروعتـه الا أن مونتوليه لم يتمالك نفسه من الدهشة والأسى عندما رأى القرى الفقيرة حول ضفافه « أن النيل العظيم لم ينجح فى رفع البؤس والشقاء عن سكان مصر ، ضفافه حزينة ، والقرى فيها بائسة ، ان النيل ثروة كان لابد وأن يسعد بها أبناء مصر »(٢٤) .

ولم يتمالك المـاريشـال مارمون بصفته رجلا عسكريا أن ينبه الى أن النيل رغم عظمته وجماله الا أنه يسهل عمليـة غزو مصر فهو وسيلة انتقال سهلة وميسرة ويستطيع أى أسطول مكون من

عدة سفن حربيـــة أن يستولى على مصر وعلى ضفاف النيــل ، بعكس الحال فى سورية حيث الجبال العالية الوعرة التى تعوق أى حملة عسكرية(٢٥) .

ومناخ مصر مناخ مثالى لنمو النباتات ولذلك لا يحتــاج السكان الى جهد كبير فى الزراعة ، ويساعدهم على ذلك وجود نهر النيل العظيم(٢٦) .

يلاحظ مما سبق أن الرحالة مروا سريعا فى وصفهم لموقع مصر ويمكن تحليل ذلك بأن علماء الحملة كانت أبحاثهم ودراساتهم القيمة فى هذا المجــال قد نشرت بالفعل فلم تعد مصر مجهولة لأنها كشفت بالفعل كشفا علميا دقيقا .

وصف لمدن مصر السفلى :

القـــاهرة :

اعتبر الرحالة مدينة القاهرة من اجمل واعظم مدن الشرق ولا يفوقها مدينـــة أخرى حتى مدينتى الاستانة ودمشق لا تملكان سحر القاهرة على حد وصف بواتو(٢٧) وقد اعطت القــاهرة لشاتوبريان احساسا بأنها مدينة الف ليلة وليلة وانهــا عاصــمة العالم فهى المدينة الوحيدة التى أعطتنى فكرة وطابع الشرق(٢٨) ولم يستطع شامبيليون أن يخفى اعجــابه بالقاهرة فى رســائله وملاحظاته « اننى اعشق تأمل مدينة الألف مئذنة » لقد حازت القاهرة على اعجــابى بالرغم من الانتقادات التى وجهت اليها(٢٩) . أما ميشو فكتب من الصعب الكتابة عن القاهرة لأن المرء يخشى أن ينسى أشياء كثيرة عنها فهى مدينة كبيرة تجارية ، تحمل اسم المنتصر الظــافر ويطلق عليها أم الدنيا(٣٠) .

أعطى فوربان وصفا لموقع القاهرة فهى تبعد عن النيل بنحو فرسخ ونصف بنيت على الضفة الشرقيـة يحدها جبل المقطم والقلعة وتحيط بها الرمال من كل مكان(٣١) وملاحظـات فوربان عن موقع القاهرة تتفق مع ما ذكره فولنى فى القرن الثامن عشر منتقدا مكان تشييدها ، لأنها شيدت فى مكان منخفض أسـفل المقطم مما يعرضها لهبوب الرياح والأتربة ، كما أنها تبعد عن النيل وبذلك حرمت من ميزة الحصـول على مياهه بسهولة ولذلك فموقعها سيىء وموقع الفسطاط كان أفضل منها بكثير(٣٢) .

وقد اختلفت آراء الرحـالة حول شـوارع القـاهرة فاكد جوبينو أنها تفتقر الى النظام(٣٣) . وكتب شولشيه بأنها ضيقة ومظلمة(٣٤) ووجدها فوربان سيئة ومتربة(٣٥) أما بواتو فعقد مقارنة بينها وبين قصر التيه ووجد بينهما تشابها كبيرا الأن كليهما يصعب السير فيه(٣٦) واتفق معه فى هـذا الراى جيرار دى نرفال واننا نشعر بأننا نسير فى اللابرانس(٣٧) بينما كتب أدمون أبو « لقد بنيت بالصدفة »(٣٨) أما بريس دافين فقد ضـاق بشوارع القاهرة الضيقة التى تحيط بها الدكاكين من كل جانب وكتب أن السبب فى ازدحام شوارع المدينة « يرجع الى عدم الاتصـال بين الأحيـاء الرئيسية حيث يتالف نصف مجموع الشـوارع من ممرات مسدودة ، وكثيرا ما تسد هذه الشوارع الضيقة قوافل جرارة من الجمال فيضطر المـارة الى أن يقفوا حتى يفسحوا لها مكانا وهى بمشيتها الكسـلى وأقدامها العريضـة ورقابهـا التى تنحنى تارة نحو الأرض وترتفع تارة أخرى يتأرجح عليهـا من كل جانب الى جانب رؤوسها التى تنظر فى توان الى ما يحيط بها مشهد بالغ الطرافة »(٣٩) .

أما اكزافيه فقد كتب « قد تبدو شوارع القاهرة مبهجـة من الخارج ولكنها تحوى مشـاهد البؤس والكآبة من الداخل ،

والحركة لا تتوقف فيها منذ السابعة صباحا وحتى مغيب الشمس انها من أكثر المدن ازدحاما فى الشرق »(٤٠) .

ومن التعليقات الطريفة على شوارع القاهرة ما ذكره امبير « ان انجازات نابليون العظيمة كانت أقل صعوبة من اجتياز شوارع القاهرة بعربة تجرها ستة جياد نظرا لضيق الشوارع »(٤١) .

وتزدحم الشوارع بالباعة وأعداد هائلة من الحمير والجمال(٤٢) وقد شعر مونتوليه أثناء سيره أن الجماهير تدفعه من شدة الزحام وتحثه على الاسراع بخطاه أثناء السير حتى أخذ يلهث لشدة التعب(٤٣) . واتفق معه شولشيه فى أنه كان يجد صعوبة بالغة فى السير فى شوارع القاهرة .فالكل يندفع سريعا ولا نسمع سوى صراخ وكلمة « حاسب » « شمالك » « طريق »(٤٤) . وعبر بريس دافين عن ازعاج الباعة الجائلين ولا سيما بائعى الفاكهة الذين لا تنقطع نداءاتهم طوال اليوم ولكنه وجد فى هذا النداء صور شعرية قد يتعذر على الأوروبيين فهمها مثل هتافات بائعة اللبن « صباحك لبن » ونداء بائع القصب « أبيض وعالى والثمن غالى » و « اللى يزور حماته بالنبوت يا أبيض » واخذ دافين يشرح النداء الأخير وأن المقصود به أن المصريين يعتقدون أن الحماة تسدى لابنتها دائما النصائح ضد زوجها ولذلك فمن المستحسن أن يزور الرجل أهل زوجته ومعه القصب وكأنه نبوت قد يستخدمه ضدهم . ويكون نداء الباعة أحيانا باسم المكان الذى زرعت فيه الثمار مثل « قوة الرمان » ونداء بائعات الترمس « مدد يا انبابى مدد » و « الترمس يغلب اللوز » وأحيانا يكون النداء عن نوع من انواع النسيج خاصة نسيج القطن وكان يصنع بآلة تجرها الثيران فتنادى البائعة « شغل الطور يا بنات »(٤٥) .

وإذا كان بعض الرحالة قد عبروا عن ضيقهم واستيائهم من ازدحام شوارع القاهرة فان فريقا آخر لم يجدها بهذا السوء فكتب على العباسى « بالغ العديد من الرحالة » ووصفوا شوارع القاهرة بانها سيئة ولكنى أؤكد اننى رأيت قليلا جدا من الشوارع فى أوروبا أكثر نظافة منها ، فشوارع القاهرة ليست ضيقة وقذرة بالصورة التى كتبت عنها فهى مرصوفة بالأحجار الناعمة ويسهل السير فيها »(٤٦) . واتفق « برديو » مع على العباسى فى الرأى فرأى « ان شوارع القاهرة انظف من شوارع الاستانة وان كانت ليست كلها مرصوفة ولكن يكفى أن يتم رشها بالماء لمنع الأتربة »(٤٧) .

أما شامبيليون فقد سجل اعجابه بكل شىء فى القاهرة حتى شوارعها « لقد حازت مدينة القاهرة على اعجابى بالرغم من الانتقادات العديدة التى وجهت اليها ، ويبدو لى عرض الشوارع ذات الثمانية أو العشرة أقدام محسوبا بدقة للاحتماء من الحرارة المرتفعة جدا ، ان القاهرة مدينة هائلةمترامية الأطراف ، ولذلك فضيق شوارعها يساعد على الاحتفاظ بالبرودة بالرغم من الارتفاع الكبير فى درجة الحرارة ، وهكذا يتضح لنا حماقة الأوروبيين الذين يعيبون على القاهرة ضيق شوارعها دون ان ينتبهوا الى أن شوارع عريضة واسعة مثل تلك الموجودة فى باريس ولندن ستكون أتونا وسعيرا طوال السنة ، ومن ناحية أخرى فان شوارع القاهرة نظيفة من أى نوع من الأقذار على الرغم من كونها غير مرصوفة »(٤٨) .

وأكد اكزافيه جهود « محمد على لتوسيع الشوارع وحرصه على تنظيم الأحياء فقد قام بهدم العديد من الشوارع ، واهتم بفتح شوارع جديدة خاصة فى الموسكى وحرص على تخطيط

الشــوارع بحيث تتســم بالطول والاستقامة والعرض وانزعج اكزافيه من عمليات التوسعة والهدم » فلا نسمع اثناء السير سوى أصوات الهدم والعربات التى تحمل الأنقاض ولا نرى سوى العمال الذين يعملون على ازالة الأتربة ولا يتوقفون عن العمل(٤٩) .

اما منازل القــاهرة فهى تشبه منــازل استانبول ، ولكن الأخيرة أجمل وأرق على حد قول دى كان(٥٠) ورأى مونتوليه أن منازل القاهرة قد تبدو من الخـارج مقززة بلا زينة ولكنها من الداخل ولا سيما منازل الأتراك تتسم بالعظمة والفخامة والنظافة فهى مبنية من الأحجار ابوابها مزينــة بأجمل الرسومات وقد نجد فى هذه المنازل العديد من الأعمدة الأثرية معظمها انتزع من الآثار القديمة خاصــة فى منف وعبر مونتوليه عن أسفه لهذه الظـاهرة حتى أن محمــد على وأولاده انتزعوا الأعمــدة الأثريــة لتزيين قصــورهم »(٥١) .

وتتسم منازل القاهرة بالاتساع ويوجد بداخلهــا حدائق جميلة ، ويحرص السكان على تزيين منازلهم حتى الأبواب والنوافذ مزينة بالأصــداف والعــاج والحجرات متسعة ويوجــد ديوان لاستقبال الزوار وهو بمثابة غرف للاســتقبال ، ويزين مدخل المنزل نافــورة كبــيرة من المرمر ، والفنــاء الداخــلى ســقفه مفتوح يسمح بدخول الهواء والضــوء ويحرص الأتراك وكبــار القوم والأثرياء على تزيين منازلهم بالمفروشات الرائعة والثمينة(٥٢) وتتكون المنازل من عدة طوابق وتغطى الواجهــات بمشربيات جميلة الصنع مزينة وتخصص الأدوار العليا لسكنى النساء(٥٣) .

وأسواق القاهرة مزدحمــة يختلط فيهــا القبطى والعربى والسورى والتركى ، وزنوج دارفور وسنار والمغربى والحبشى

والفارسى والهنـــدى واليونانى والأوروبى الكل يعدو ويتدافــع بالمناكب لانهـــاء أعماله(٥٤) وتقع الدكاكين على جانبى الطريق ، يتراوح ارتفاعها من أربعة الى خمسة أمتار ويتم عرض المنتجات على الأرض(٥٥).

ويعتبر خان الخليلى من أشهر الأسواق وهو يحوى مختلف البضائع الجميلة والثمينة ولكن جوبينو لم يشعر بمتعـة الشراء فى أســواق القاهرة نظرا لصـــغر حجم المحــلات ، حتى اننـــا لا نستطيع أن نتنفس بداخلها(٥٦) .

وعدد فرومونتان انواع البضـــائع المختلفة فى الأســـواق مثل المسك ومنتجات السودان المختلفــة والعطور والبلسم والعقاقير والسجاجيد والأقمشة(٥٧) ورأى اكزافيه ان أســـواق القـــاهرة أكثر جمالا من اسواق استانبول فهى تحوى منتجــات آســـيا وأوربا وافريقيا والهند والجزيرة العربية (٥٨) .

ومن أشهر الأسواق التى ورد ذكرها الموسكى ، فهو شارع حيوى يقطنه التجار من مختلف الجنسيات ، لهم محلات صغيرة ، تعرض فيها كل المنتجات الشرقية والأوروبية ، وترد الأقمشـــة والملابس من دمشق وريش النعام والعاج من السودان ، والبهـــار من الهند ويزدحم سوق الموسكى بالمــارة وقد تم زراعة مجموعة من الأشجار على جانبى الطريق لكى تعطى ظـــلا جميـــلا لرواد المنطقة ، وقام السكان بالتغلب على مشـــكلة الأتربـــة ، فحرص السقاءون على رش الشوارع بالمياه بواسطة قربهم المصـــنوعة من الجلد ، ولكن تتحول هذه الأتربة الى طين فيصعب السير فى السوق ، ويصبح المكان وكأنه تعرض للأمطار الصناعية على حد قول دى جارسى ، وتتجول فى الموسكى عربات تجرها الخيول لها

طابع فرنسى رغم الزحـام الا ان السير والتجول فى سوق الموسكى يعتبر امرا مسليا للغاية ، كذلك الجلوس على موائد المحـلات وتجاذب الحديث مع التجار ويتسم المصريون بالكرم والحفاوة فكلما سرنا فى الطريق دعانا التجار لتناول القهوة العربية فكنـا نضطر للتوقف أمام كل محل لكى نتلقى عبارات الترحيب وكأننـا فى البلاط الملكى(٥٩) .

وقد تجمع الأوروبيون فى الموسكى لأهميته كسـوق تجارى هام وافتتح الكثيرون المحلات لصنع الأثاث وتصـديره الى ايطاليا خاصـة البندقية ، كما افتتحوا ورشـا لصناعة المناضد المطعمة بالنحاس والصدف والعاج(٦٠) وافتتح البعض الآخر محـلات لبيع اللحوم المدخنـة ومحـلات أخرى لبيـع الحرير الذى يتم استيراده من بروسيا ، والبروكار الذى يستورد من دمشـق ، ومحلات للفواكه والأسلحة والعطور(٦١) وافتتح الأوروبيون أيضا المكتبات ومحلات لبيع الساعات(٦٢) .

واوضح جيرار ان هناك تنافسا كبيرا بين التجار الأوروبيين حول تجـارة الأقمشة وترويجها فى مصر وان سوق الموسـكى يشهد جانبا كبيرا من هذا التنافس فيعرض فيه الأقمشة المصنوعة فى المـانيا وفى فرنسـا وفى مارسـيليا والموسلين المسـتورد من الاستانة(٦٣) .

ونظرا لتركيز الأوروبيين فى الموسكى فقد تم افتتاح بوستة أوروبية فيه لتسهيل وسائل الاتصال مع اوروبا(٦٤) .

ولا تقتصر أسواق القاهرة على الموسكى فقط وانما توجد أسواق أخرى تخصصت فى بيع الأقمشـة مثل سوق الحمزاوى

والأسلحة فى سوق السلاح ، والبن والطباق فى الجمالية ، والعطارة فى اليكنية ، والنحاس فى حى النحاسين(٦٥) فالقاهرة غنية بتجارتها واسواقها العامرة ، ومنذ العصور وتجارتها لا تنقطع مع العرب والشرق والهند والبحر الأحمر(٦٦) .

وتكثر المقاهى فى القاهرة وقدر بريس دافين وادوارد لين عددها بنحو ألف مقهى ، والمقهى يتكون من حجرة صغيرة تكون واجهتها على الشارع ومصنوعة من الخشب المفتوح . وتمتد على طول الواجهة ما عدا الباب ، وتوجد مصطبة من الحجر أو الآجر يبلغ ارتفاعها نحو قدمين وتغطى الأرضية بالحصر ويتم اضافة مقاعد مشابهة فى داخل المقهى ، وتشهد المقاهى ازدحاما كبيرا بعد الظهر وفى المساء وروادها من الطبقات الدنيا والتجار وهم يفضلون الجلوس على المصطبة الخارجية ، ويحمل رواد المقاهى تبغهم ويتولى القهوجى تقديم القهوة لهم بسعر خمس فضات للفنجان الواحد(٦٧) .

هذا وقد قدم مونتوليه وصفا للشيشة فهى وعاء زجاجى يملأ نصفه بالماء ويخرج منه أنبوبة أو خرطوم طوله من ١٦ الى ١٩ قدم ويوضع عند رأس الوعاء قطعتان من الفحم وعليها الطباق المستورد من مكة ، ولكن الاستنشاق الطويل يضر الرئتين على المدى البعيد(٦٨) . وفى المقاهى يتم سرد الروايات والقصص والتى يقاطعها المستمعون بين لحظة وأخرى بصيحات التعجب(٦٩) .

اهتم الرحالة بالقاء الضوء على أحياء القاهرة المختلفة خاصة الأزبكية فلم تخل كتابات الرحالة عنها خاصة وأن لها طابعا أوروبيا خاصا على حد وصف جوبينو ، فقد أقيمت فيها مجموعة من الفنادق خصصت لاقامة الأوروبيين(٧٠) ، ويعتبر

ميدان الأزبكية من اكبر الميادين الذى تحيط به المنازل المرتفعة والمشيدة باتقان ومن أهم هذه المنازل منزل محمد على بك الدفتردار صهر محمد على فقد كانت الأزبكية سكنى علية القوم والأثرياء(٧١) وكل منزل فيها شيد بحيث يحوى حديقة كبيرة بها نافورة من الرخام وذلك لكى تستمتع النساء بالتنزه فيها(٧٢) .

وتستحق حديقة الأزبكية والمقامة فى الميدان المشاهدة فهى تزخر بنوافير المياه التى وضعت فيها وهى مصنوعة من المرمر والبرونز(٧٣) ويذكر دى جارس بأنه اقيمت بركة صناعية وحولها النباتات والزهور المختلفة أضفت على المكان جوا من الانتعاش، وتعزف الموسيقى العسكرية فى الحديقة فى الفترة ما بين الرابعة والتاسعة مساء ، وقد أقيمت فى الحديقة مبانى جميلة ونباتات واشجار أعرب دى جارس عن اعجابه بها بقوله « تذكرت حدائق التويلرى فى باريس والشانزليه » وقد تم وضع صخور واحجار صناعية بعضها على شكل كهف واسع ، كما يوجد فى الحديقة مقهى صغير يجلس المصريون فيه لتدخين النرجيلة « لقد تذكرت غابة بولونى وانا فى الأزبكية واعتقد انه لا يوجد مكان فى القاهرة يضارعها جمالا » وقد اقيم على مقربة منها دار الأوبرا ومسرح فرنسى ، بالقرب منه مرسم المصور الفرنسى الشهير دوليه ، وقد راع المسئولون أن تكون شوارع الأزبكية متسعة لكى تسمح بسير العربات وحتى يشعر الأوربيون فيها بالراحة(٧٤) ولذلك فان الأزبكية هى المكان المفضل للفرنسيين على حد قول اكزافيه(٧٥) .

وفنادق الأزبكية لها طابعها الأوروبى فهى تحوى العديد من الغرف التى تملأ بالنزلاء عند وصول البواخر الى الاسكندرية أو السويس ومن اشهر هذه الفنادق فندق الشرق وهو المكان

المفضل للتجار الانجليز القادمين من بومباى الى السـويس(٧٦) كما أنه أيضـا المكان المفضل للتجار القادمين من أوروبا فهو نقطة التقاء هامة بين تجـار آسيا وأوروبا ، وقد حرصت ادارة الفندق على توفير الخدم والطهـاة لراحة المسافرين(٧٧) كما يوجد فى الأزبكية أيضـا فندق نيو أوتيل وهو يطل على حديقـة كبيرة وجميلة مزروعة بمختلف أنواع النباتات والزهور والفنـدق به عدة صالات للطعام وصالات كبيرة للاستقبال وهو يشبه فندق جراند أوتيل فى فرنسا وهو مؤثث بأفخر أنواع الأثاث(٧٨) .

ومن وجهة نظر فرومونتان يرى أن الفنادق الفرنسية فى الأزبكية تفوق الفنادق البريطانية من حيث الاتساع والنظافة(٧٩) ولمـا كانت الأزبكيـة تمثل أهمية كبيرة للأوروبيين فقد حرصت الحكومة على تيسير سبل الاتصال بينها وبين محطـة باب الحديد فتم تمهيد الطريق الممتد بينهما وزرعت الأشجار على جانبيـه خاصة أشجار الطلح والجميز حتى أصبح السير فى هـذا الطريق متعة كبيرة على حد قول برديو(٨٠) .

شـــبرا :

هى شانزليه القاهرة(٨١) بها حدائق خلابة اهتم محمد على بزراعة أشجار النباتات واقام فيها النوافير الجميلة(٨٢) وقـد ساعد على تنوع النباتات فى شبرا تربتها الخصـبة وقربها من النيل وجوها المنعش فتم زراعة أشجار الموز والعنب والتين وكتب مارسيليوس عنها « أثناء سيرى فيها تذكرت جزيرة رودس فهى تشبههـا فى نظامهـا وأنـواع النباتات فيها(٨٣) أما دى جارسى فقد تذكر الشانزليه أثناء سيره فيها « فممراتها تشبه ممرات

الشانزليه وقد زرع حولها اشجار الطلح والورد فعبقت الجو برائحتها العطرية الجميلة(٨٤) . أما جوبينو فقد كتب « أعجز عن وصف حدائق شبرا فلهـا طابع آسيوى وطابع أوروبى »(٨٥) والنباتات فيها تنمو طبيعيا ففيها تجمعـات لزهور من الهند واشجار البرتقال والياسمين والبلح والليمون(٨٦) .

هذا وقد اقام محمد على القصـور فى شبرا وحرص على الاهتمام بالطريق المؤدى الى قصره الذى بناه على ضفاف النيل واحاط القصر بحديقـة كبيرة فيها مختلف انواع الأشجار كمـا زينت نافورة ضخمة الحديقة وقد بنيت من المرمر وزينت بتماثيل على شـكل أسـماك تقذف مياهها فى النافورة(٨٧) وقد زينت حدائق القصور بمجموعة من التماثيل بعضها على شكل أسود(٨٨) وفى وسط الحديقة كشك كبير مربع مفتوح من الوسط به أعمدة رخامية وحوض مفصـول عن البناء برصيف من المرمر عرضـه ثلاثون قدما وقد اعتاد الباشا الجلوس فى هـذا الكشـك ليلا وسط حريمه يستمع الى الأغانى وقد زار المـاريشال مارمون محمد على أثناء تواجده فى شـبرا فكتب « لقد شعرت وكأننى أعيش ليلة من ليالى ألف ليلة وليلة »(٨٩) . ونظرا لوجود الحدائق المتعددة النباتات فى شبرا اعتادت الأميرات على التنزه بالعربات الملكية فيها(٩٠) .

وبالقرب من شـبرا أقيمت اصطبلات الخيول والتى كان يشرف عليها المسيو هامون وقد منع عبـاس باشـا الغرباء من الاقتراب منها خوفا من « العين الشريرة »(٩١) .

بـــولاق :

بولاق هى ميناء القاهرة النهرى بها العديد من المنازل الجميلة والتى استخدمت الأحجار فى تشييدها وقد زينت أبوابها ونوافذها

بأجمل النقوش على الطراز العربى القديم(٩٢) . ونظرا لأهمية بولاق فقد تم توسعة الشوارع المؤدية اليها لكى تصبح الحركة فيها أسهل(٩٣) .

استمرت بولاق تؤدى دورها كميناء نهرى كما كانت فى القرن الثامن عشر فهى ميناء الدلتا كما وصفها سونينى ماهولة بالتجار الوافدين من أوروبا وآسيا فيها يتم تجميع سلع ومنتجات مصر السفلى وبها العديد من الوكالات التجارية(٩٤) وقد أضاف رحالة القرن التاسع عشر ما شاهدوه فى بولاق من انجازات محمد على خاصة تأسيس المعامل والمصانع مثل مسبك الحديد ومصنع الجوخ والبركاه كذلك اسست فى بولاق ترسانة للسفن أثناء الحملة الوهابية وذلك قبل تأسيس ترسانة الاسكندرية(٩٥) .

ولم تشهد بولاق تطورا صناعيا فحسب وانما شهدت تطورا حضاريا كبيرا الا وهو تأسيس متحف بولاق الذى أسسه ماريبت لوضع آثار سقارة ومخلفات المقابر فيه . فحوى هذا المتحف العديد من التماثيل والعملات البرونزية والميداليات والأساور والتماثيل منها تماثيل للالهة مثل الأبقار وتماثيل الاله هاتور وقد أعجب الرحالة بهذا المتحف اعجابا شديدا . فكتب شارل بلان عنه « قلما نجد مثله فى أوروبا ، انه يحوى العديد من القطع الأثرية الهامة والنادرة منها تعرفنا على الفن المصرى المميز »(٩٦) .

مصر القديمة :

تقع جنوب القاهرة وسميت بالقديمة لأن فيها عاصمة مصر القديمة مثل الفسطاط ، ويرى الأوروبيون بأن موقعها أفضل بكثير من موقع القاهرة لقربها من النيل(٩٧)

وقد نالت الفسطاط اهتماما كبيرا من الرحالة فلا تذكر الا ويذكر معها عمرو بن العاص وتاريخ بناء المدينة ومعنى اسمها ويرى الأوروبيون بأن موقعها افضل بكثير من موقع القاهرة لقربها من النيل .

وتمثل مصر القديمة مزارا هاما للرحالة ففيها العديد من الكنائس خاصة كنيسة العذراء ، وأبى سرجة ، وبها أيضا دير للفتيات اليونانيات وغيرها من المزارات المسيحية(٩٩) وفى عهد محمد على اصبحت مصر القديمة سكنى للأثرياء وكبار الشخصيات الذين اهتموا باقامة الحدائق الجميلة فيها(١٠٠) هذا وقد اتسمت شوارعها بالهدوء والنظافة(١٠١) .

طـرة :

تقع على مقربة من مصر القديمة ، أقام فيها محمد على العديد من المصانع وبها أيضا مدرسة المدفعية التى تولى ادارتها الكولونيل الأسبانى دى سيجيرا والحق بها مستشفى للطلبة(١٠٢) .

وقد مثلت طرة أهمية كبيرة بالنسبة لشامبيليون فقد وصفها بأنها تمثل محجر القاهرة ، وقد قام فيها العديد من الاستكشافات نظرا لانتشار الكهوف فيها خاصة فى المحجر الرئيسى ، وقد وجد بالفعل عددا من النصوص المدونة بالخط الديموطيقى وبالمداد الأحمر فى المحاجر المتتالية التى تقع الى يسار المحجر الرئيسى ومثلت أهمية كبيرة نظرا لاحتوائها على تواريخ واسماء ملكية يرجع عصرها الى ملوك البطالمة فوجد نقشا يشير الى العام السابع من حكم سوتير الأول ونقش آخر يشير الى العام الرابع من حكم الامبراطور أغسطس(١٠٣) .

والى يمين المحجر الرئيسى وجدت نصوص هيروغليفية بعضها يشير الى عهد الملك أحمس مؤسس الأسرة الثامنة عشر ووجد خرطوش لزوجة أحمس نفرتارى وجد عليه القابها مثل الزوجة الملكية العظيمة ـ الملكة الأم ـ سيدة العالم ثم وجد خرطوش يمثل أحمس واحدة بناته وكان أحمس ينعت أثير الاله بتاح لاقتراب منف من تلك المنطقة كذلك أثير الاله آتوم الذى كان راعيا وحاميا للمحاجر ووجد لوح بالهيروغليفية نحت فيه انه افتتاح المحاجر فى العام الثانى والعشرين فى ظل كهنوت الملك أحمس ابن الشمس . كما عثر شامبيليون على ألواح تمثل الاله بتاح اله منف . كذلك وجد بين طرة والمعصرة عدة لوحات تمثل المعبود تحوت ووجد خراطيش خاصة بالملك بسماتيك الأول محاط بالحيتين المقدستين اللتين ترمزان الى القطرين(١٠٤) .

هذا وقد أشار شامبيليون الى أن المحاجر الممتدة من طرة الى المعصرة خلال الحقبة التاريخية المختلفة وقربها من عواصم مصر المختلفة منف والفسطاط ثم القاهرة قد أدى الى استغلال الأحجار المربعة فى تبليط منازل القاهرة ، كما استخدمت فى تشييد منف واستغلها الفراعنة من قبل(١٠٥) .

اذا ابتعدنا عن القاهرة شرقا سنجد أن الرحالة اهتموا بوصف منطقتين على جانب كبير من الأهمية الا وهما عين شمس والمطرية .

عين شمس هى مدينة أون القديمة مركز العلم والحضارة كانت أعرق المدن فى الشرق رصد المصريون فيها أفلاك السماء وتعلموا عدد السنين والحساب ، حوت العديد من معابد الشمس ومدرسة للكهنة(١٠٦) بها أقدم وأشهر جامعة فى العالم وفد عليها العلماء من كل مكان ومن مختلف البلاد(١٠٧) .

اقام فيها تحتمس نصبين جعلهما فى ساحة الشمس فى ذكرى السنة الثلاثين من توليه الحكم(١٠٨) .

اما فى الوقت الحاضر فقد امتلك ابراهيم باشا المزارع فيها فزرع القطن والزيتون والفول والشعير(١٠٩) .

المطريـــة :

ما زالت تمثل اهمية كبيرة للفرنسيين فى القرن التاسع عشر بسبب وجـود بستان مريم فيها وكنيســة العـذراء وقد أعجب اكزافيه بالتسامح الدينى فى مصر واحترام المسلمين لهذه المزارات المسيحية وقد حرص معظم الرحـالة على زيارة بستان مريم حيث توجد شجرة البلسم الضخمة التى قيل أن العذراء اختبأت داخل جزعها عند مطـاردة الجنود الرومان لها . كذلك قدموا وصفـا لبئر مريم الذى قيل ان السيدة مريم كانت تغسل ملابس المسيح فيه وهو طفل(١١٠) .

الاسـكندرية :

سجل شامبيليون انطباعه عن مدينة الاسكندرية فور وصوله اليها « كلما اقتربنا من الاسكندرية تزايد احساسنا بالهيبـة ، فنرى غابة من الصـوارى الكثيرة التى تغطى كل مساحة الميناء القديم ، ثم تبرز أمامنا المدينة الحديثة بمبانيها المـائلة الى البياض والقليلة الارتفاع والمشيدة بدون نظام »(١١١) .

وللمدينة ميناءان الأول هو الميناء الجديد وهو يقع فى الشرق مما يجعله فى مواجهة رياح الشرق والشـمال وهو قليل العمق لا يصلح لاستقبال السفن الكبيرة أما الميناء القديم فهو أكثر أمنا

فهو عميق يسهل رسو السفن فيه وهو الميناء الوحيد فى سواحل مصر القادر على استقبال السفن الكبيرة(١١٢) .

وقد قدر مارمون عدد سكان المدينة بعشرة آلاف نسمة وهم خيط من المغاربة والأتراك والأقباط واليونان والسوريين(١١٣) ومعظمهم من الصناع والنجارين ولهم خبرة فى التعامل مع الأوروبيين(١١٤) . وحينما تسير فى شوارع المدينة نسمع خليطا من اللغات الأوروبية والآسيوية والافريقيه(١١٥) .

ويبدو أن امبير لم يعجب بسكان الاسكندرية فكتب « ان الاسكندرية مدينة تجارية صناعية يتحدث المؤرخون دوما عن أسواقها العامرة وتجارتها الرائعة وصناعتها المتعددة ، ولكنهم لا يتحدثون كثيرا عن سكانها الذين يتصفون باللؤم وذلك لأن طبائعهم افريقية أكثر منها مصرية انهم خليط من اثينا وبيزنطة »(١١٦) .

والعجيب أن رحالة القرن الثامن عشر اتهموا سكان الاسكندرية ببعض الاتهامات المماثلة فنجد جرانجيه يصفهم « أنهم لصوص بالفطرة » ويصفهم أوليفيه بأنهم « تغلب عليهم الوحشية »(١١٧) .

هذا وقد القى الرحالة الضوء على أهم منشآت المدينة خاصة قصر محمد على الذى احاطه بسور ضخم لا يستطيع أحد دخوله الا باذن خاص ، وقد وجد مارمون تشابها بين أسوار القصر العالية بأسوار الأديرة ، ويوجد فى القصر ديوان لاستقبال الأوروبيين ، كذلك يوجد جناح خاص لحريم محمد على ، وحول القصر حدائق جميلة مزروعة بمختلف انواع الأشجار والنباتات وقد سجل الرحالة عمليات التوسعة التى تمت فى القصر على يد محمد على(١١٨) .

وقد حرص الخديوى اسماعيل على بناء القصور فنجد فى المدينة قصرا رائعا أثار اعجاب الرحالة عرف بسراى الرمل ، كما جدد سراى رأس إلتين(١١٩) .

ونجد فى الاسكندرية كل الخدمات ففيها مستشفى جميل وترسانة بحرية وشوارع متسعة تسير فيها العربات بسهولة ، كما أقيم فى المدينة حجر صحى لمنع تسرب الأوبئة وكانت الحكومة تقوم باحتجاز السفن القادمة من سورية خوفا من تعرض البلاد للأوبئة وقد ساعدت هذه الرقابة على اختفاء الطاعون ، كما تحوى المدينة العديد من المحلات العامرة بالبضائع المتنوعة(١٢٠).

وتتسم منازل المدينة بالجمال فهى مبنية من الطوب الأحمر تزين واجهاتها مشربيات جميلة الصنع خصصت هذه المنازل لسكنى الأثرياء والأتراك وكبار الشخصيات(١٢١) .

كما يوجد حى خاص للأوروبيين أشهر ما فيه ميدان القناصل الذى اهتمت الحكومة بتطويره فشوارعه عريضة مستقيمة ، والمنازل على جانبيه لا تزيد على ثلاثة طوابق ، بها عدة محلات ، ومستشفى وقد رأى مارمون أن عملية الامتداد العمرانى للحى الأوروبى مستمرة وأن الحكومة لا تعارض هذا التوسع(١٢٢) كذلك لم تعارض اقامة المنشآت الأوروبية خاصة المدارس مثل مدرسة سان فنسان ومدارس العازريون والفرير ، والكنائس وعلق بواتو على ذلك « نشعر وكأننا فى فرنسا »(١٢٣) .

وقد تمتعت النساء الأوروبيات بالحرية فى الاسكندرية « وهن يجدن سعادة كبيرة فى السكنى فيها ، فمعظم مبانى الحى الأوروبى بنيت على الطراز الفرنسى ولذلك فقد اعتبر شولشيه أن مدينة الاسكندرية « مدينة نصف أوروبية »(١٢٤) . كما

اعتبرها ريفو بأنها مثل أوروبا بها العديد من الفنادق التى تتسم بتوفير وسائل الراحة(١٢٥) .

واذا كان معظم الرحالة قد اثنوا على مدينة الاسكندرية فطابعها ليس مصريا ولا تركيا ، انها مدينة فرنسية ، معظم مبانيها على النمط الأوروبى ، انها كرنفال ، يتكلم فيه الناس مختلف اللغات ويرتدون ملابس متنوعة ، حتى سكانها خليط فنجد من بينهم فرس وهنود وزنوج ونوبيين وشوام »(١٢٦) .

أما جوبينو فقد ذكر بأنه اذا كان الحى الأوروبى قد توفرت فيه كل الخدمات ونعم الأوروبيون فيه بالراحة الا أن للمدينة وجه كئيب آخر يتمثل فى المنطقة التى يسكنها العرب حيث يخيم البؤس والفاقة فى المكان(١٢٧) .

ويرى ويفو أن أى أجنبى لكى ينعم بالاقامة فى البلاد فلابد له أن يتعرف فور وصوله على قنصل لكى يمنحه الحماية والرعاية(١٢٨) وذلك « لأن القناصل فى الشرق لهم معرفة تامة بأحوال البلاد » على نحو قوله(١٢٩) . وقد أتيح لكثير من الرحالة وبفضل قوة علاقتهم بالقناصل حضور بعض جلسات الديوان فى الاسكندرية حيث أتيح لهم رؤيةمحمد على وكبار الشخصيات عن قرب(١٣٠) .

وشوارع المدينة مزدحمة بالمارة تبدو فى غاية الغرابة بالنسبة للسائح القادم لتوه من أوروبا فهى خليط من مصريين ، بشرتهم سمراء وبرابرة أكثر سمرة وبدو يرتدون الملابس البيضاء وزنوج واحباش يتدافعون لتجنب الحمير والجياد والجمال البطيئة والمنتظمة فى صفوف طويلة . وحزينة والمربوطة الواحدة منها فى ذيل الآخر كل ذلك كان طريفا أعطانى الانطباع بمشهد من

مشاهد الأوبرا والمنازل قليلة الارتفاع نادرة النوافذ ولكنها مشيدة دون مراعاة أو تخطيط على حد وصف شامبيليون(١٣١) .

وشعر ميشو بالضيق فى المدينة فأول ما يقابل السائح كلمة البقشيش فى هذه المدينة حيث يمد السكان أيديهم الى السائحين مطالبين به دون وجه حق(١٣٢) .

لقد سجل معظم الرحالة انجازات محمد على فى الاسكندرية حتى أن أمبير اعتبره المؤسس الثانى للمدينة بعد الاسكندر مؤسسها الأول نظرا للاصلاحات العديدة التى قام بها(١٣٣) ولعل أهم ما لفت النظر من تلك الانجازات هو حفر ترعة المحمودية من أجل انعاش تجارة المدينة وتحقيق أفضل وسائل للاتصال بينها وبين القاهرة وسائر المدن وكان لحفر هذه الترعة نتائج هامة بالنسبة للاسكندرية(١٣٤) .

وكان انشاء ترسانة الاسكندرية من أهم الأعمال العظيمة التى لفتت نظر الرحالة ونلمس فى كتاباتهم الفخر والاعتزاز لعمل العديد من الفرنسيين فيها ومعظمهم ألقى الضوء على جهود سريزى وغيره من الفرنسيين خاصة بيسون وكريتان Cretin (١٣٥) .

ورغم تسجيل الرحالة اعجابهم بترسانة الاسكندرية الا أن مارمون انتقد وجود بعض السفن غير المتطورة فيها خاصة وأن هناك سفن أوروبية أسمى تطورا فسجل رأيه بقوله « ان المدافع التى يمتلكها محمد على تناسب أمة خرجت لتوها من البربرية » والسفن المتواجدة فى الاسكندرية تناسب الدفاع عنها . واثنى مارمون على عمل الضباط الفرنسيين والايطاليين فى الترسانة

ولكنـــه انتقد العقوبات الصـــارمة التي فرضها محمد على على المصريين من الملاحين فقد حدث أن تحطمت احدى السفن اثنـــاء دخول الميناء فحوكم الضـــابط محاكمة عسكرية وحكم عليه بالموت ثم عفا عنه الوالى بعد عدة التماســات وتوسط عـــدد كبير من الشخصيات ولكن منذ ذلك اليوم لم تغرق سفينة واحدة(١٣٦).

عدد مارمون أسماء السفن التى أنشئت فى الاسكندرية فقد تم بناء بارجتين هما مصر وعكا يحملان ٦٨ مدفعا عيار ٣٠ واربعـــة بوارج ذات مائة مدفع عرضت باسم المحلة الكبرى ، والمنصـــورة والاسكندرية وحمص وفى كل منها ٣٢ مدفعـــا طويلا من عيـــار ٣٠ و ٣٤ مدفعا قصيرا و ٣٤ مدفعا من الزهر . كذلك تم انشاء البارجة أبى قير ولها ٧٨ مدفعا(١٣٧) .

وبانشاء ترسانة الاسكندرية وحفر ترعة المحمودية ازدهرت الاسكندرية ازدهارا كبيرا ولم تتوقف فيها الحركة التجـــارية ، فقد أعاد محمد على للمدينة مكانتها التجارية العظيمة التى كانت قد فقدتها بعد اكتشاف راس الرجاء الصالح(١٣٨) .

لم يهتم الرحالة بالحديث عن تطور مدينـــة الاسكندريـــة فحسب وانجازات الدولة فيها وانما اهتموا أيضا بالحديث عن ماضيها العريق فالاسكندر شـــيدها ولكنهـــا جعلته ســـيدا على العالم بعد أن فرغ من بنائها على حد قول مونتوليه(١٣٩) وبلغت المدينة فى عهد البطالمـــة درجة كبيرة من التقدم وذاعت شـــهرة مكتبتها التى كانت تضم أربعمائة ألف مجلد تتضمن جميع العلوم والمعارف وسائر أنواع الأدب التى كان قد وصـــل اليها عقول الأمـــم المـــاضية وكانت الاســـكندرية أول مدرســـة للعـــلوم والمعـــارف(١٤٠) وفيهـــا تطورت العـــلوم الفلكيـــة والجغرافيـــة

والرياضية ، ثم جاء حكم الرومان ثم الفتح الاسلامى ونفى امبير الاتهام الذى الصقه الأوروبيون لعمرو بن العاص بحرق مكتبة الاسكندرية فأكد : « أن هذا الاتهام البربرى الهمجى انتقل من جيل الى جيل ، وأن الأوروبيين يشعرون بالضيق والمرارة عندما ثبت لهم براءة عمرو بن العاص من هـذا الاتهام لأنهم لا يريدون الاعتراف بالحقيقة »(١٤١) .

أما عن أهم آثار المدينة فقد تركز الحـديث على مسلتى كليوباترة وشعر شولشيه بالأسف لأن هواء البحر المـالح يضر بهما يوميا فيفسد كل يوم جزء من الجرانيت الجميل الذى يزينهما(١٤٢) أما شامبيليون وهو عام الآثار فقد كتب عن مسـلتى كليوباترة « مسلتا كليوباترة يفصلهما عن البحر بضعة أقدام فقط ، ولاتزال المسلة الأولى منهما منتصبة فى مكانها ، فى حين تهاوت المسـلة الأخرى على الأرض ويبلغ ارتفـاع كل منهما نحو ستين قدما بما فى ذلك القمة الهرمية وهما من الجرانيت الوردى مثل المسلات الموجودة فى روما والأعمدة الهيروغليفية الثلاث المنقوشـة على كل جانب من الجوانب هدتنى الى أن الملك تحتمس الثالث هو الذى أمر بتكريس هاتين المسلتين المنحوتتين من كتلة حجرية واحدة ونصبهما أمام معبد الشمس فى هليوبوليس ثم أضيفت النقوش الحالية الجانبية فى عهد رمسيس السادس أما الكتابة الملكية التى أضافها خليفتـه المباشر رمسيس السـابع فقد نقشت بأحرف هيروغليفية صغيرة على الجانبين ، والمسلتان تم نحتهما فى عهد الأسرة الثامنة عشرة ، وقد أطلق الأوروبيون الأوائل من الرحالة والمقيمين فى الاسكندرية اسم مسلتى كليوباترة خطأ »(١٤٣) .

أما عمود بومبى فارتفاعه مائة وأربعة عشر قدما ، وأوسطوانته حجر واحد من الجرانيت ارتفاعها تسعون قدما وقطره تسع أقدام

وينتهى أعلاه بتاج ارتفاعه عشرة أقدام والعمود نسبه العامة والرحالة خطأ الى بومبى بينما هو ينتسب الى سيفير الذى أمر بتشييده (١٤٤) واكد شولشيه أن الأحجار اللازمة لصناعة العمود قد تم جلبها من أسوان كما أكد أن من وجهة نظره لا يوجد للرومان اى اثر هام فى مصر مثل هذا العمود »(١٤٥) .

وجدير بالذكر أن القنصل الفرنسى ميليه تقدم فى أوائل القرن الثامن عشر بطلب الى السفير الفرنسى فى استانبول لنقل « عمود بومبى الى فرنسا وذلك لأن هذا العمود اثر جميل ولاشك انه سوف يلقى العناية فى فرنسا بدلا من اهمال الأتراك له »(١٤٦) .

كذلك وجد الرحالة فى الاسكندرية مجموعة من المقابر على مقربة من عمود بومبى وتشمل غرف فسيحة محفورة فى الأرض تتألف منها دهاليز مرفوعة السقوف على أبعاد متفاوتة بأعمدة ضخمة وهذه الغرف مملوءة بالانقاض . وفيما بين هذه المقابر والساحل نرى بقايا حمامات اثرية سميت خطأ بحمامات كليوباترة(١٤٧) .

هذا وقد أجرى علماء الآثار الذين زاروا مصر عدة محاولات للتعرف على قبر الاسكندر ولكنها فشلت ، ويرى أمبير أن كل ما روى عن قبره روايات واساطير لأنه لم يتم العثورة عليه حتى الآن ، ورغم ما سجله العرب عن مكان القبر خاصة الاوريسى الا أن أحدا لم يعثر عليه(١٤٨) .

وقد شعر شامبيليون بالأسف عندما تجول فى المدينة فوجد انقاض المبانى الاغريقية والرومانية القديمة وقد اوشكت على الاندثار فكتب « توجد العديد من التلال والكثبان الرملية القاحلة

لناتجة عن تراكم انقاض الفخار والرخـام والزجـاج وغيرها من لمواد المسحوقة والمخلوطة بالرمال التى تغمرها أطلال المبـانى لاغريقية والرومانية التى كانت تكون مدينة الاسكندرية العتيقـة لذلك نرى فى أماكن كثيرة وسط الرمال أطلالا غير ذات أهميـة لا تزال بعض اروقة هـذه الأبنية القديمة المشيدة فى معظمهـا ن الطوب والمدفونة تحت الرمال ماثلة للعيان على مستوى الأرض تشبه فى ذلك فوهـة الأفران ويقطن تلك الجحور التى يتعذر دخولها الا زحفا على البطون عائلات من الفلاحين المعدمين الذين يعيشون وسط الحشرات السامة(١٤٩) .

اما جزيرة فاروس ففيها فنار الاسكندرية الذى كتب عنه الادريسى وابو الفدا وهو يعتبر احد العجـائب ، وحسب ما يذكر فى الروايات القديمة كان يوجد فى أعلى الفنار مرآة كبيرة من الفضة تشتعل فيها النيران لارشاد السفن ، كما يوجد فى الجزيرة حصن يضم برجا مربع الشكل بنيت على جوانبه اربعة أبراج صغيرة تعلو سطحها منـارة بها فانوس يوقد ليـلا ويوجد فى حجرات الحصن أكواما من الأسلحة وقد أصابها الصدأ(١٥٠) .

وقد اثارت أبو قير الواقعة شرق الاسكندرية ذكريات أليمة للفرنسيين فتذكر مارمون معركة أبى قير البحرية وتحطم الأسطول الفرنسى على يد نيلسون وكتب « لقد شهدت أبو قير انتكاسات وانتصارات الفرنسيين » كما أشـار الى وجود حصن مسلح فيها هاجمه نابليون عند مجيء الحملة الفرنسية لكى يؤمن خطوطـه الخلفية عند الزحف على مصر ولكن هـذا الحصـن أهمـل ، لأن رغم أهميته كمركز دفاعى هام مطـالب بضرورة اعادة بنائه للافادة منه(١٥١) ولكن محمد على كان قد أدرك بالفعل أهميـة موقع أبى قير فأنشأ فيها عدة حصـون واستحكامات جعلتهـا « أمنع من عقاب الجو » على حد وصف كلوت بك (١٥٢) .

أما شامبيليون فلم يهتم عند زيارته لأبى قير سوى الآثار التى يرجع بعضها الى العصر البطلمى فوجد عدة تماثيل لأبى الهول وبقايا حمام محفور من الحجر الجيرى(١٥٣) .

يلاحظ مما سبق ان كتابات الرحالة عن مدينة الاسكندرية فى القرن التاسع عشر اختلفت عمن سبقوهم ، فقد سجلوا التغييرات التى طرات عليها بحفر ترعة المحمودية ، وانشاء ترسانة الاسكندرية حتى أن المدينة استردت مكانتها التجارية القديمة . كذلك يلاحظ عند الحديث عن الآثار نجد كتابات علمية دقيقة خاصة من قبل علماء الآثار فلو قارنا على سبيل المثال ما دونه علماء الحملة ويجعله شامبيليون سنجد ان الأخير اتسمت كتاباته بالدقة لأنه كان قادرا على قراءة النصوص الهيروغليفية خاصة وان حجر رشيد كانت رموزه قد كشفت أما علماء الحملة فاقتصر حديثهم عن الآثار بالوصف فقط فلو تأملنا ما سجلوه عن مسلتى كليوباترة للمسنا الفارق « يلاحظ المرء من بين هذه الكتابة الرمزية رسوما مقلدة بشكل بالغ الدقة ، ومنقوشة بحروف بارزة لوجوه بعض الحيوانات منها الثور والثعبان والجعران والبومة الصلعاء، والسحالى وطائر أبى منجل وطائر اللقلق والبط وطيور اخرى وحشرات ذات اجنحة لا نعرف عنها الكثير »(١٥٤) .

رشيد :

هى بوابة مصر الشمالية التى تقع على الضفة اليسرى من الفرع الغربى للنيل وتبعد عن البحر بحوالى فرسخ ونصف(١٥٥) وللوصول اليها لابد من عبور بوغاز شديد الخطورة ولكن بعد ذلك يجد المرء بساط طبيعى من سندس اخضر نثرت عليه الحاصلات الذهبية اللون(١٥٦) .

وكانت رشـــيد مستودعا للبضـــائع القادمة من القـــاهرة والوجه القبلى وقد ورثت مكانة فوه منذ القرن السادس عشر وازدهرت تجارتها ازدهـــارا كبيرا ولذلك كانت مقرا للقناصـــل الأوروبيين ونوابهم(١٥٧) .

وتمتاز رشـــيد بخصـــوبة أراضيها فهى تحوى العديد من الغابات على حد وصـف شاتوبريان(١٥٨) واجود أنواع النخيـــل نجده فيها بعد أسوان ، كما أنها تشتهر بأجود أنواع الفاكهـــة خاصة الموز والليمون والجميز . وقد انبهر مونتوليـــه بجمـــال رشيد ومزارعها مثلما انبهر سافارى من قبل فى القرن الثامن عشر فسجل مونتوليه اعجابه قائلا « ان الفنان والرسام ليجد متعة كبيرة عند رسم رشيد الجميلة بمزارعها الخضراء والصحراء التى تحيط بها ان طبيعة رشـــيد الساحرة تفوق فى جمالها جبـــال ومراعى سويسرا الخضراء وشـــواطىء نهر اللوار المزهرة وتلال وهايو المزروعة »(١٥٩) .

وسجل ميشو اعجابه بالمدينة قائلا « لقد كان سافارى محقا فى وصف جمال رشيد وحشائشها العطرية الخلابة واشجارها الجميلة وفواكهها انها من اخصب واغنى الأراضى لقد تذكرت جنة عدن وأنا فى رشيد ، ويكفى رشيد فخرا أن حجر رشيد اكتشف فيها ليعرف العالم اللغة الهيروغليفية »(١٦٠) .

ومنازل رشـــيد جميلة بنيت من الطوب الأحمر حولها غابة من أشجار النخيل ان رشيد بوابة الشـــمال ولذلك كانت دائما قوية التحصين ولكنها الآن مخربة وغير معتنى بها فشوارعها سيئة وقذرة(١٦١) لقد تراجعت تجـــارة المدينة خاصة بعد حفر ترعة المحمودية ففقدت مكانتها وثراءهـــا وانتقل المركز التجـــارى الى

الاسكندرية وتشعر فى كتابات ميشو بالأسف على تراجع مكانة رشيد التى يفضلها على جميع مدن مصر « لو خيرت فى الاقـامة بمدن مصر لاخترت رشيد »(١٦٢) .

ورغم تراجع مكانة رشـيد الا أن الرحـالة سجـلوا بعض التغييرات الصناعيـة بها مثل اقامة معامل لضرب الأرز وبعض مصـانع للقطن كمـا لا يزال بها أعـداد من الأوروبيين خاصـة الفرنسـيين »(١٦٣) .

نلاحظ مما سبق أن كتابات الرحالة عن رشـيد فى القرن التاسع عشر لم تختلف كثيرا عمن سبقوهم فقد وصفها سونينى فى القرن الثامن عشر « انها من أجمل مدن مصر ، انتزعت المنافسة من فوه ، تشتهر بهدوئها فلم يشعر الفرنسيون فيها بالاضطرابات ولا الفوضى المعهودة فى المدن المصريـة ، سكانها يتصفون بالود وهم أقل بربرية من سكان باقى المدن المصرية » أما سافارى العاشق لرشيد فقـد كتب « ان الدلتـا فى رشـيد لا تكف ولا تكل عن العطاء »(١٦٤) كما سجل جواو وهو من علماء الحملة « ان الدلتا فى رشيد تغطيها الخضرة دائما وتنتج أجود أنواع المحاصيل »(١٦٥) .

دميـــاط :

وصف بريس دافين دمياط بأنها هلالا متسعا على ضفـة النيل اليمين ويمتد أمامها سـهل فسيح تحده شمالا غابات من النخيل بينما تنمو وراء المدينة بسـاتين عديدة مزدهرة بأغنى أنواع النباتات(١٦٦) .

وترتفع فى دمياط مآذن المساجد الأنيقة التى ترتفع فوق النخيل ومختلف أعلام الدول التى عينت قناصـل بها وساريات

السفن التجارية تخلع على دمياط من بعيد اونا من العظمة والثراء(١٦٧) .

وبينما وصف رحالة القرن الثامن عشر دمياط بأنها من أكبر مدن مصر بها ميناء كبير نجد أن هذا الوصف اختلف فى القرن التاسع عشر فنقرأ لأول مرة فى كتابات الرحالة ان ميناء دمياط « ميناء صغير » ويرجع السبب فى تراجع مكانة دمياط التجارية الى حفر ترعة المحمودية مما أدى الى ازدهار الاسكندرية على حساب دمياط(١٦٨) . ولكن رغم هذا التدهور فما زالت دمياط تمثل مستودعا لأرز الدلتا ففيها يتم ضربه وتبييضه ، كذلك أقيم فيها معامل لغزل القطن ومصانع للنسيج وما زالت لها تجارتها النشطة مع سورية وبلاد الشام(١٦٩) .

وتشتهر دمياط بانتاج الأسماك وهناك اقبال فى أوروبا على أسماك دمياط المملحة ، كما تشتهر بزراعة قصب السكر والأرز والقمح والشعير(١٧٠) .

ويعرض فى أسواق دمياط مختلف أنواع الفاكهة الكمثرى والتفاح من دمشق ، والتبغ من صور واللاذقية ، والمشمش المجفف من لبنان أضف الى ذلك منتجات دمياط من موز وتين وبطيخ وشمام وقلقاس وقمح وشعير وأرز وسمك مملح وما يزال سكان دمياط يلجأون أحيانا الى المقايضة ويستخدمون الخبز بدلا من النقود من أجل شراء المنتجات الغذائية(١٧١) كما يعرض الرقيق أيضا فى أسواق دمياط ومن اشهر الجلابة أبى القاسم وله نفوذ كبيرة فى المدينة ولديه أعداد كبيرة من رقيق دارفور والحبشة(١٧٢) .

وشوارع المدينة غير مرصوفة ــ مستطيلة ــ المنازل فيها

بنيت من الطوب الأحمر المساجد بلا ابواب المحلات ضيقة لقد أصاب المدينة التدهور انها تتدهور سريعا(١٧٣) .

ونشعر من خلال كتابات ميشو بالأسى والأسف على هذه المدينة التجارية العظيمة التى تراجعت تجارتها بعد أن كان لها شهرتها العظيمة فى أسواق الشرق وفى أسواق أوروبا وكان لها معاملاتها التجارية مع مارسيليا وقبرص فعرفت أوروبا الأرز المنزلاوى والمنتجات الذهبية والمفارش اليدوية والسمك المملح واقبل الناس عليها(١٧٤) .

تركزت كتابات الرحالة فى القرن التاسع عشر تراجع ومكانة مدينة دمياط التجارية بينما لو أطلعنا على ما دونه رحالة القرن الثامن عشر سنجد صورة أكثر اشراقا للمدينة فهى « من أكبر مدن مصر بعد القاهرة ، بها اجمل المزارع ، قراها مكسوة بالخضرة ، تكثر فيها أشجار البرتقال التى تعبق الجو ، كما تنتشر فيها الحدائق الجميلة » ، وقد كتب عنها القنصل الفرنسي فنتور « لا يوجد فى الامبراطورية العثمانية شعب ودود ورقيق مثل شعب دمياط والمدينة لها تجارتها المزدهرة مع أوروبا ولها العديد من الوكالات التجارية »(١٧٥) .

ولكن رغم ما أصاب دمياط من تدهور فى القرن التاسع عشر الا أن الرحالة لم يكفوا عن الكتابة والحديث عن جمال طبيعتها ومزارعها الجميلة فكتب فوربان « ان أجمل ما فيها مصبات النيل ، وحركة الاتصالات المستمرة بينها وبين بحيرة المنزلة ، ان دمياط وضواحيها تشبه هولندا فالنيل يحيط بها من كل جهة والمزارع الجميلة الخضراء حولها »(١٧٦) .

وتعتبر فارسكور ميناء ايضا وهى تتبع دمياط وتبعد عنهـا بنحو اربعة أو خمسة فراسخ وفيها هزم لويس التاسع ولذلك فهى تحمل الذكريات الحزينة للفرنسيين(١٧٧) .

وقرب بحيرة المنزلة توجد قريـةللصيادين من المسيحيين تعرف بكفر النصارى ليس لسكانها مصـدر رزق سـوى صيد الأسـماك وقد تفننوا فى عمل الأسـماك المملحة وتصـديرها الى افريقيا وسورية ، كمـا كانوا يزرعون النخيـل على الشـواطىء ويستخدمون الأشجار فى صنع مراكبهم(١٧٨) .

واشهر أولياء دمياط هو ابو المعاطى وله مسجد يحمل اسمه ولكنه أهمل الآن ومن دلائل الوحـدة الوطنية احترام المسيحيين فى دمياط لأبى المعـاطى فهم ينسبون اليه قـدرات كبيرة . وقد شعر بريس دافين بالأسف عندما راى مسجد ابى المعاطى وقـد امتدت اليه يد الاهمال فتم انتزاع الأعمدة منه ، كما أن ضريح الشيخ مغطى باتسمال بالية(١٧٩) .

ومن أهم الشخصيات التى ورد ذكرها فى كتابات الرحـالة القنصل الفرنسى باسيلى فخر وهو مسيحى سـورى كان أبوه حنا فخر ملتزم جمرك دميـاط فى عهد على بك الكبير وسرعـان ما اثرى وأصبحت له مكانة كبيرة وقد ورث باسيلى تلك الوظيفة من أبيه واحسن القيام بها بل وزادت ثروته وقد عينه القناصـل وكيلا لهم فى دمياط ، وفى أثناء الحملة الفرنسية اسـدى الخدمات لقوات الحملة وأنقذ حياة العديد من الجنود الفرنسيين أثنـاء انسحابهم من مصر ، وبعد رحيل الحمـلة ارتفع نجمـه فى عهد محمد على حتى امتلك السفن وراجت تجارته رواجا كبيرا ولكن عندما نشبت ثورة المورة تعرضت سفنه للاحتراق فأصيب بخسائر فادحـة(١٨٠) .

وكان باسيلى يتقن الى جانب العربية التركية واليونانية والايطالية ولذلك عين قنصلا لفرنسا فى دمياط وامتلك منزلا خارج المدينة كان أقرب الى القصر أسسه بأضخم وافخر أنواع الأثاث(١٨١) وقد حرص على تثقيف نفسه فاقتنى مكتبة ضخمة زودها بالمؤلفات الفرنسية والعربية والتركية واليونانية ، كذلك امتلك بعض المخطوطات وقد اتيح لبريس دافين الاطلاع على مكتبة باسيلى فوجد فيها أيضا عدة رسائل تتناول موضوعات دينية مختلفة ارسلها باسيلى الى أساقفة الشام لمناقشتها(١٨٢) .

ولما كان باسيلى على درجة كبيرة من الثراء فقد امتلك العديد من الخدم وتعجب ميشو من أن وظيفة واحد منهم كان طرد الذباب فقط(١٨٣) وكان باسيلى يحسن استقبال ضيوفه من الرحالة والتجار فيخصص لهم سهرات يستمعون فيها الى الألحان الشرقية واحيانا كان يتسنى للبعض منهم مشاهدة رقص العوالم(١٨٤) .

وقد عمل باسيلى فى أواخر أيامه بالتنجيم خاصة بعد أن فقد جزءا كبيرا من ثورته وذكر ميشو أنه توفى فى عام ١٨٣٠ وآلت ما بقى من ثروته الى محمد على(١٨٥) .

واخيرا رغم تدهور دمياط الا انه بقى فيها أعداد من الأجانب قطنوا فى الحى الأوروبى فوجد فوربان أعدادا من التجار الفرنسيين ومن جنوة ومن البندقية ووكل محمد على الى المسيو بيوزان Piozin الاشراف على الحى والتجار(١٨٦) .

المنصورة :

انها المدينة المنتصرة المبتسمة بها العديد من أشجار النخيل، النيل اجمل ما فيها ، تقع على مقربة من دمياط وذلك فحركة

السفن لا تتوقف فيها وقد أعجب فوربان بجمال الطبيعة فى المنصورة فكتب آسفا « رأيت عددا من الأتراك يجلسون وحولهم العبيد وهم لا يشعرون بجمال الطبيعة حولهم »(١٨٧) .

وقد أثارت المنصورة ذكريات حملة لويس التاسع لدى ميشو فحرص على مشاهدة وزيارة دار ابن لقمان فيها وكتب ملاحظاته عنه «.ما يزال المنزل الذى سجن فيه لويس التاسع موجودا وفى هذا المكان خان الحظ لويس التاسع »(١٨٨) .

لم تختلف كتابات رحالة القرن التاسع عشر عن المنصورة عمن سبقوهم . فقد وصف سكان المنصورة بأن أكثر سكان مصر أدبا يعملون بتجارة الأقمشة والجلود والأرز والملح(١٨٩) .

ميت غمر وزفتى :

بلدتان صغيرتان ، لا أهمية لهما ، تواجه احداها الأخرى على ضفتى النيل المتقابلتين بهما مصانع لغزل القطن ولتحضير التيلة ويبدو أن هاتين البلدتين حديثتا الانشاء فلا يلقى السائر فيها أى جزء قديم ، وقد لاحظت سافارى فى ميت غمر مسجدا يعلوه برج مربع فاعتقد انه استخدم كنيسة للمسيحيين قبل الفتح الاسلامى غير أن السائر فى أرجاء مصر يستطيع ان يرى عدة منابر مماثلة وليس طراز المسجد فى جملته مما عرفه مسيحيو الدولة الرومانية . وعلى امتداد ضفة النيل توجد أضرحة جميلة أنيقة الشكل يناقض بياضها الناصع مع سواد اللبن والطين اللذين بنيت بهما البيوت وأبراج الحمام العالية فى جميع القرى(١٩٠) .

بنها العسل وتل اتريب :

اشتهرت بنها العسل فى الماضى بحلاوة عسلها وجمال حدائقها(١٩١) .

اما تل اتريب فيقع وراء بنها العسل والى الشمال منها بقليل يرى الناظر تلالا من الأطوال تبين مكان مدينة قديمة تلك آثار اتريبيس التى ما زالت تحفظ اسمها قرية واقعة الى الشمال الشرقى تسمى اتريب وقد روى أحد العمال انه اثناء التنقية فيها بحثا عن أحجار ، وجد وجه أسد من الجرانيت الوردى وعدة اعمدة من المرمر الأبيض وبقايا حمام وقد استخدمت جميع هذه الآثار فى بناء مصنع غزل القطن بنها العسل غير أن الأسد بفضل صلابته نجا واصبح يزين مدخل ذلك المصنع حاملا معه خرطوشة يزين مدخل ذلك المصنع حاملا خرطوشة رمسيس الأكبر الذى ورد من بين القابه هذا التمثال لقب « منظم مصر ومروض البلاد الأجنبية »(١٩٢) .

بهبيت :

تقع على بعد ثلاثة فراسخ من سمنود ومازال الناظر يستطيع ان يرى بالقرب من قرية بهبيت على بعد نصف فرسخ داخل الأرض سورا كبيرا من اللبن يحوط الأطلال الباقية من معبد لايزيس يمكن للمرء أن يتخيل أبهته وان كان من المحال أن يتعرف على أساسه لقد كان مشيدا بأكمله من كتل جرانيتيه ضخمة الأحجام(١٩٣) .

وقد اخذ بريس دافين فى رسم النقوش التى وجدها حتى اقبل احد العمال تتبعه امرأتان ليريهما الحجر الشهير بحجر العرايس والذى يعتقد اهل القرى المجاورة أن له القدرة على ازالة عقم النساء وكانت العروس الشابة التى لم ترزق منذ سنين ولذا تخشى العار الذى يلتصق هنا بالعقم فقبلت التمثال ثم خطت عليه سبع مرات وانتقد بريس مثل هذه الخرافات وعلق

على ذلك « رغم ايمان المصريين بالقرآن وحرصهم على أداء الفروض اليوميـــة الا انهم ما زالـوا يتـــأثرون ببعض الخرافـــات والأساطير »(١٩٤) .

طنطـــا :

تعتبر طنطا من المدن التى اهتم الرحـالة بالحديث عنهـا وذلك لانتعاش تجارتها فى القرن التاسع عشر وامتداد المشروعات العمرانية فيها فكتب بواتو « انها مدينة هامة فهى مركز تجارة الدلتا »(١٩٥) وأضـاف ميشو « يرد الى أسواقها جميع منتجات الهند من روائح وأقمشة كذلك منتجات أوروبا »(١٩٦) .

هذا وقد حرص الرحـالة على تسجيل أهم ما تشتهر به المدينة من احتفالات خاصة الاحتفال بمولد السيد البدوى ويعلق ميشو على أهميته « لا يستطيع اى زوج أن يرفض طلب زوجتـه لزيارة السيد البدوى » ويعتقد المصريون فى كراماته وقدرته على شفاء الأمراض ولذلك نجد مسجده محـاط بالعامة دائما ويضاء بالأنوار طوال الليل . وقد بنى المسجد على الطراز القوطى كما يغلب عليها الطابع المغربى وهو مزين بالأعمدة الرخامية والمصابيح الملونة »(١٩٧) وأضاف ريفو أن الضريح مغطى بالسجاجيد الحمراء الحريرية أما الأرض فمغطاه بالسجاجيد الخضراء ولمـا كان ريفو اثريا فقد لاحظ أن أعمدة المسجد أخذت من بعض الآثار الافريقية فأبدى أسـفه لانتزاع هـذه الأعمـدة الجرانتينية الحمراء من أماكنهـا »(١٩٨) .

وتزدحم طنطا فى مولد السيد البدوى بالزائرين من تركيـا والمغرب والهند وأفريقيا وتضرب الخيام حول المدينـة ويستمر الاحتفال عدة أيام وتخصص الحكومة اربعة الاف جندى لحفظ النظام والأمن وبعدانتهاء المولد تنحسر الأضواء عن المدينة(١٩٩).

المحلة الكبرى :

عاصمة الغربية اقيمت فيها المصانع خاصة مصانع الغزل والنسيج والحرير بها أعداد من الأقباط واليهود واليونان(٢٠٠). وقد اختلف وضعها عن زمن الحملة الفرنسية فقد كتب عنها علماء الحملة « كانت المحلة ملتقى كل بغايا الدلتا يتجمعن فيها خوفا من ملاحقة الشرطة لهن »(٢٠١) .

الزقازيق :

من اهم المدن التى ورد ذكرها خاصة فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر وبعد وصول الخط الحديدى اليها مما أدى الى انتعاشها ورواج تجارتها وأشار ريفو الى أهمية موقعها فهى تقع شرق السويس ومنها تتجه الى البحر الأحمر والسويس وسورية ومن أهم مدنها بلبيس والصالحية(٢٠٢). وأما فرومونتان فقد لاحظ انها مدينة كبيرة بها أعداد كبيرة من المصانع ، ومنازلها جيدة البناء وهى مدينة شيدت حديثا نظيفة « لم استنشق فيها رائحة التراب كغيرها من المدن المصرية وانما شممت فيها رائحة الشرق »(٢٠٣) .

واكد دى جارس على جمال مدينة الزقازيق وحدائقها ومزارعها الواسعة التى تروى بواسطة مجموعة من القنوات وهى بصفة عامة مدينة يتوفر فيها كل وسائل الخدمات فيوجد بها خط حديدى ومحطة وجهود الدولة فيها واضحة لتحديثها وتطويرها(٢٠٤) .

وتقع صان أو تانيس شمال الزقازيق وكانت عاصمة الهكسوس قديما وتقع شرق الدلتا وقد ظلت عاصمتهم حتى قضى عليهم رمسيس ، وتشتهر صان بآثارها فيوجد بها أعداد كبيرة

من المسلات ومن المنشآت الأثرية الهامــة التى ترجع الى عهــد الأسرتين السابعة عشرة والتاسعة عشرة . وكان من الطبيعى ان تلفت هذه المنطقة انتباه الأثريين خاصة ماربين(٢٠٥) .

وعلى مقربة من الزقازيق يوجد تل بسطة وهو مدينة بوباست القديمة وتبدو كجبل صغير يحيط به سـياج على شـكل دائرة وتوجد قطع حجرية اثرية تحتوى على نقوش هيروغليفية(٢٠٦) .

كفـر الزيـات :

مستودع كبير لتخزين القطن والقمح فى مصر هــذا وقد مر الرحالة فى الطريق ما بين القـاهرة والاسكندرية على عدد من القرى جاء وصفها وذكرها سريعا مثل سنابادة وجباريس والسالمية وكوم شباس وغيرها من القرى(٢٠٧) .

فــــوة :

تقع على النيل ما بين الرحمانية ورشيد تجاه فم ترعــة المحمودية كان للمدينة اهمية تجارية كبيرة فى القرن السادس عشر ثم انتزعت منها رشيد هــذه المكانة ولكن بعد حفر ترعة المحمودية استعادت المدينة اهميتها التجارية فاقيمت فيها عدة مصــانع للطرابيش ومعمل لغزل القطن ومعامل لضرب الأرز(٢٠٨) وذكر مارمون أن مصنع الطرابيش فى فوة ينتج ٢٤ الف طربوش شهريا ويتم الحصـول على الصـوف من اوروبا وهو صوف درجــة ثانية ، كذلك يتم استيراد الأصواف من سورية خاصــة أصواف الأغنـام(٢٠٩) .

ومنازل فوة جميلة مشيدة من الطوب الأحمر كما ان بهــا بعض المساجد الجيدة البناء(٢١٠) .

اما ميشو فقد تذكر حادثة ابان فترة الحروب الصليبية عندما استولى الصليبيون على دمياط خرجت مجموعة من الفرسان وتوغلت فى الدلتا حتى وصلت فوة وعادوا مرة ثانية الى معسكرهم فى دمياط وبعض من النساء فوة تم أسرهم وعلق ميشو على هذه الحادثة بان هؤلاء النسوة كن من العوالم(٢١١) .

يتضح لنا من كتابات الرحالة ازدهار فوة من جديد خاصة بعد اقامة المصانع فيها وحفر ترعة المحمودية وبذلك اختلفت كتاباتهم عما دونه الرحالة فى القرن الثامن عشر عنها فقد سجلوا تدهور المدينة بعد أن كانت مستودعا لتجارة الاسكندرية والقاهرة وقد عزى الرحالة هذا التدهور الى عدم صلاحية القناة التى كانت تجرى فى المدينة ففقدت المدينة مكانتها بعد أن كانت مأهولة بالتجار(٢١٢) .

مطـــوبس :

مدينة صغيرة على الضفة الشرقية منازلها صغيرة وجد فيها الرحالة بعض الآلات الهيدروليكية وبها عدد من العوالم والغوازى(٢١٣) . وتلاحظ نفس الملاحظة علماء الحملة « تعرف هذه القرية بتقاليدها الغريبة والمتساهلة فهى مقر لعدد كبير من العوالم »(٢١٤) .

المحموديـــة :

افاض الرحالة فى وصف الآثار المترتبة على حفر ترعة المحمودية حيث تبدلت شواطئها وعمرت بالفلاحين وتحول ضفاف الترعة الى مساحات خضراء كما انتشرت حولها القرى الصغيرة الخضراء حيث زرع السكان اشجار النخيل والسطح(٢١٥) .

كما انتشرت السواقى التى تديرها الأبقار . فازدهرت المنطقة ازدهارا كبيرا ولكن رغم ان حفر ترعة المحمودية يعتبر من الأعمال العظمية والهامة الا ان « برديو » انتقد بعض نقاط الضعف فى هذا المشروع الكبير ، فقد وقع المخططون له فى بعض الأخطاء عند حفر الترعة : منها ان المراكب كانت تضطر لتغيير حمولتها ونقلها الى مراكب أخرى لتستطيع اكمال المسيرة كذلك كان النوتية يضطرون الى النزول فى النيل لجذب المراكب بالحبال عندما يقل هبوط الرياح(٢١٦) .

وقد ادى حفر ترعة المحمودية الى ازدهار العطف واصبحت قرية هامة لأنها مخرج للترعة ولم يعد يصل اليها المراكب فقط وانما السفن التجارية والصنادل ومنها كان يتم نقل البضائع والمسافرين الى الاسكندرية(٢١٧) .

وتعتبر دمنهور عاصمة البحيرة وقد اشتهرت بمزارعها الفنية بالقطن وقد اقيم بها العديد من معامل غزل القطن . وقد أشار الرحالة الى احتفالات الأهالى بمولد أبى مندور هذا الاحتفال الذى يحضره المسلمون واليهود على السواء ويستمر لعدة أيام(٢١٨) . وتعتبر طرانة من اهم مناطق البحيرة فقد اشتهرت بملح النطرون وقد أفاض الرحالة فى وصف الطرق والأساليب المتبعة فى استخراج النطرون الذى يتم تخزينه فى قرية طرانسة(٢١٩) أما صالحجر فهم سايس القديمة وفى صالحجر خرائب هائلة لا تزال موجودة وكانت سايس مقرا للفراعنة اهتم بها ملوك مصر وكانت عاصمة نخاو وبسمانيك ويرجع اغلب حطام الفخار فى صالحجر الى العصور المتأخرة وقد وجد شامبيليون بها تمثال جنائزى صغير من الطين الملون والمنقوش بالأحرف الهيروغليفية كذلك بعض القطع الفخارية على شكل رأس اسد

كما عثر على أحد الجبانات الصغيرة وقد شعر شامبيليون بالأسف لأنه وجد أن محتوياتها بعثرت بحيث يصعب التعرف على شكلها العام كما عثر على مقبرة الملك ابريس كذلك مقابر أجداده من الصاويين وفيها مقبرة أحمس واكد شامبيليون بأنه سوف يبذل مجهودا لاكتشاف آثار جنائزية فى سايس ترجع الى عصر الملك الصاوى بسماتيك الثانى مؤكدا أن منطقة صالحجر كانت جبانة للعائلات الثرية ، كذلك نجح فى اكتشاف معبد الاله نيت اله صالحجر . وقد عبر شامبيليون فى رسائله عن أهمية المنطقة فكتب « كانت لهفتى لزيارة أطلال تلك المدينة العريقة فهى عاصمة نخاو بسماتيك عثرت فيها على كميات هائلة من حطام الفخار يرجع الى العصور المتأخرة (٢٢٠) .

والى المغرب من البحيرة توجد واحة سيوة وقد قدم كايو وصفا عنها خاصة وانه رافق حملة محمد على على المنطقة لاقرار الأوضاع فيها وقاد الحملة حاكم البحيرة حسن بك ونشعر فى كتابات بالأسف على سيوة حيث كانت الرمال تشكل الحصن المنيع لهم ضد الأجانب والاغراب أما الآن وبعد اخضاعها فقد شهدت تدفق الأوروبيين عليها فقد سكانها الأمن والسلام والطمأنينة الذى كانوا يشعرون به(٢٢١) .

قدم كايو وصفا لواحة سيوة فذكر ان أهم ما يميزها وجود معبد جوبيتر وآمون وان معظم السكان مسلمون والواحة لها تجارة نشطة مع القوافل القادمة من القاهرة ومن الفيوم والاسكندرية ، كما تفد عليها القوافل القادمة من المغرب وليبيا وفزان ، ويحصل سكان الواحة من القاهرة على كل ما يحتاجون اليه من الخضر واللحوم المجففة والمنسوجات والملايات ويحصلون من المغرب على الأحذية والبرانس والطرابيش ويبادل سكان الواحة محصولهم الرئيسي وهو التمر بهذه المنتجات(٢٢٢) .

وفى وسط سيوة توجد بحيرات وأماكن جميلة تسر العين لرؤيتها حيث تتواجد الغزلان بكميات كبيرة وفى غرب الواحة جبل يطلق عليه السكان جبل الكفار وقد حفرت بيوته فى الجبل وسمى بهذا الاسم لأن النساء فيه يكشفن وجوهن(٢٢٣) .

كذلك تجول كايو فى واحة الفرافرة والخارجة وأكد ان الاتصال مستمر بين هذه المناطق ودارفور وأسيوط وأن السكان يبادلون التمر بما يحتاجونه من سلع مختلفة ويتوفر فى هذه الواحات الفواكه والخضروات واللحوم والأبقار وزيت القطن والذرة وزيت النخيل كما يقوم السكان بزراعة الخضروات والفواكه خاصة البامية والذرة والتين والدخن والقطن(٢٢٤) .

مدن البحر الأحمر :

قدم الرحالة وصفا لمدن البحر الأحمر خاصة مدينتى السويس والقصير .

السويس :

يتضح من كتابات الرحالة مدى التطور الذى طرأ على مدينة السويس كما كانت عليه فى القرن الثامن عشر حيث انتقد فولنى اهمال السلطات المصرية لميناء السويس فسجل انتقاداته « ان المدينة تحيط بها الرمال ، وهى أشد البلاد قحطا ، فلا يوجد بها ماء صالح للشرب ومياهها غير مستساغة الطعم » أما حالة الميناء فهى سيئة رديئة يصعب اقتراب السفن منها الا عند المد « وأضاف فولنى من السهل الاستيلاء على السفن الراسية فى ميناء السويس وذلك لأن تحصينات المدينة ضعيفة كما أن المدافع يعلوها الصدأ ، ومعمل السويس فى حاجة الى ترميم وأضاف

فولني لو كان فى مصر حكومة صالحة لشيدت مدينة جميلة على الخليج ولاهتمت بترميم قناة النيل واعادة حفرها »(٢٢٥) .

وفى بداية القرن التاسع عشر لم تكن يد العناية والتعمير قد امتدت الى السويس ولذلك كتب على العباسى عند زيارتها «ن السويس مفتاح مصر السفلى لابد من العناية بها ، السفن تعجز عن دخول الميناء ، شوارع المدينة ليست مستقيمة واسوارها سيئة كما أن المدينة تفتقر الى وجود الصناع والعمال »(٢٢٦) .

أما جوبينو فقد وصف السويس بأنها بائسة صغيرة الحجم رغم انها باب العالم الجديد ، ويوجد بها ثلاث طرق رئيسية طريق يؤدى الى الميناء والطريق الثانى الى وسط المدينة والطريق الثالث الى مصر العليا(٢٢٧) كما سجل بارتيملى سانت هيلار بأن المدينة تفتقر الى الرعاية الصحية والخدمات كذلك تعانى من نقص المياه فلا يوجد بها شجرة واحدة ولا زهرة « انها مدينة تقاوم عوامل فنائها »(٢٢٨) .

هذا وقد أشاد كادلفين بجهود محمد على للنهوض بالسويس خاصة وأن سليمان باشا أمر بالبحث عن البترول فى الجبال المحيطة بخليج السويس ، ولكنه أشار أيضا الى المتاعب التى تعانى منها المدينة فهى تعانى من البؤس والفقر وترتفع الحرارة فى ضواحيها كما أن الصحراء تحيط بها من كل جانب ، وتفتقر المدينة عن المياه ولذلك تندر فيها المساحات الخضراء ولا يوجد فى المدينة حديقة واحدة حتى أن السكان لا يعرفون كل أنواع الخضروات والفواكه(٢٢٩) .

واذا كان معظم الرحالة قد انتقدوا الأوضاع التى تعانى منها مدينة السويس الا أن ذلك لم يمنع الاشادة بموقعها وأهميتها

التجارية فتصلها منتجات افريقيا ومن الصمغ والسنامكى والعاج وريش النعام والجلود خاصة من الحبشة ومصوع وزنجبار ، كذلك يصلها منتجات الجزيرة العربية ومخا والحديدة . وبذلك يلاحظ ان المدينة لها اتصالاتها الخارجية مع الموانى الواقعة على سواحل البحر الأحمر ولذلك نجد فيها وكلاء التجار وعدد من الأوروبيين(٢٣٠) .

وللنهوض بالمدينة سمحت الدولة للشركات الأجنبية بالعمل فيها ، فخصصت شركة الجزيرة عربات تجرها الخيول عملت بين القاهرة والسويس ، كما اقيمت الاستراحات والمحطات فى الصحراء وذلك بهدف توفير الراحة للمسافرين وان كانت متباعدة على حد وصف جوبينو . كما خصص لقيادة العربات عدد من السائحين كان لهم زيا خاصا بهم وكان معظمهم من النوبيين(٢٣١) واشار بارتليمى بجهود عباس باشا من أجل رصف وتمهيد الطريق بين القاهرة والسويس كذلك اعجب بمشروع السكة الحديدية لربط السويس بالاسكندرية(٢٣٢) .

هذا وقد حرص الرحالة على القاء الضوء على أعداد السفن التى تفد الى ميناء السويس فذكر بارتليمى انه فى عام ١٨٥٥ وصل الى ميناء السويس خمسون باخرة بريطانية من كلكتا وبومباى كما مر على المدينة حوالى الف وثمانمائة مسافر بين آسيا وأوروبا وقد حرصت الحكومة المصرية على توفير الأمن والحماية لهم(٢٣٣) .

أما دى جارسى فقد أكد أن أعداد السفن التى وفدت الى السويس خاصة بعد افتتاح القناة فقدم لنا بيانا بأعداد السفن التى وصلت الى السويس(٢٣٤) فى عام ١٨٧٢ على النحو التالى :

بريطـــانيا	٧٥٨	سفينة
فرنســـــا	٨١	سفية
ايطاليــــا	٦٧	سفينة
الدولة العثمانية	٣٢	سفينة
المانيـــــا	١٦	سفينة
هولنـــــدا	١٣	سفينة
البرتغـــــال	١٠	سفينة
روســــيا	١٠	سفينة
اسبانيـــــا	١٠	سفينة
الســـويد	٧	سفينة

اما شـــارل أدمون فقد القى الضوء على جهود الخـديوى اسماعيل لتحسين وسائل الاتصال فى السويس واهتمامه بادخال ومد الخطوط التلغرافية ، وتحســين وســائل الاتصـــال وقدم شارل ادمون(٢٣٥) بيانا بين أعداد السفن الوافدة الى السويس خاصة الانجليزية والفرنسية على النحو التالى :

السنة	السفن المصرية	العثمانية	البريطانية	الفرنسية
١٨٦٠	٢٢	٢٧٢	٦٨	٥
١٨٦١	٣٠	٢٨٤	٧٣	١٤
١٨٦٢	٢٧	٢٥٤	٧٤	٢٢
١٨٦٣	٣٣	٢٣٨	٥	٢٠
١٨٦٤	٤٧	٢٣٧	٧٤	٥
١٨٦٥	٧١	٢٠٩	١٣٠	٢٥

القصــــير :

تقع جنوب السويس كانت مستودعا لتجارة مصر العليـا فى القرن الثامن عشر ارتبطت بطريق تجارى مع قوص وقنا وأبنوب كما كانت القصير مركزا لتجميع قوافل البن(٢٣٦) .

وقد أوضح الرحالة أن الحكومة المصرية لم تهتم بالقصـير فى القرن التاسع عشر قدر اهتمامها بالسويس فقد كتب دى كان « لا يوجد بها سـوى أربع شوارع رئيسية نظيفة ، المنازل معظمها بنى من الطوب ، وميناء القصير يتعرض لهبوب رياح الغرب والجبال والصحراء تحيط به من كل جانب والمحلات والمتاجر فيها قليلة » . وقد وجد فى القصير أعدادا من « التجار الوهابين » بقصد تجارة الجزيرة العربيـة وكانت لهم تجارة نشطة مع المدينة ولم يجد دى كان شيئا ملفتا النظر فى القصير باستثناء ميـاه البحر الجميلة الشفافة(٢٣٧) .

ويلاحظ مما سبق أن الرحالة فى القرن التاسع عشر تحدثوا عن مدن جديدة ظهرت ونمت خـلال الفترة خاصـة الزقـازيق أما بورسعيد والاسماعيلية فقد جاء الحديث عنهما فى سـياق الحديث عن افتتاح قناة السويس كما لاحظ الرحالة نمو بعض المدن وانزواء البعض الآخر فقد تراجعت مكانة رشيد ودمياط بينما نمت وازدهرت الاسكندرية ، كذلك من بين مدن الدلتا التى تزايدت أهميتها طنطا فقد أصبحت مركزا تجاريا هاما فى وسط الدلتا . أما القاهرة فما زالت هى المدينة الأم والعاصمة تتزايد أهميتها فى كل زمان ومكان .

* لم نتعرض لكتابات الرحالة عن وصف بحيرات مصر لأن هذه الكتابات لم تختلف كثيرا عما ذكره رحالة القرن الثامن عشر(٢٣٨)

وعلمــاء الحمــلة الفرنسية خاصــة عن بحيرات المنزلة والمدية ومريوط وبحيرتا وادى النطرون فى الصحراء الغربية ، وما ذكر عن الصحراء الشرقية ودير سانت كاترين(٢٣٩) .

وصف لمدن مصر الوسطى والعليا :

مثلت الجيزة اهمية كبيرة بالنسبة للرحالة الفرنسيين وذلك لأنها ضمت اهم الآثار التى حرص الرحالة على زيارتها والكتابة عنها الا وهى منطقة الأهرامات الثلاث وابى الهول . ورغم تعدد وتنوع الكتابات عن هــذه الآثار العظيمــة من قبل رحالة القرن الثامن عشر وعلماء الحملة الفرنسية الا أن معظم الرحالة اندفعوا لمشــاهدة هذه الآثار مدفوعين بالفضــول الشديد والرغبــة فى الدراسة العلمية .

وقد عبر جوبينو عن اعجابه بالأهرامات فكتب « انها دليل العظمة والمجد الملك يمثل الحــاكم الذى يمتلك القوة والسلطان أراد لنفسه الخلود ولذلك شيد مقبرة هائلة وضخمة بينما عامــة الشعب بؤساء عاشوا فى اكواخ بالسة »(٢٤٠) أما ماريبيت وهو الأثرى المحنك فقد سجل أن أهرام الجيزة ان دلت على شىء فانها تدل على درجة عاليــة من التمدن والتقدم وهى مثال للمقــابر الفــاخرة(٢٤١) .

وقد اضطر فوربان عند وصف الأهرامات الى التنويه بعدم تخصصه فى الآثار ولكنه رغم ذلك يريد أن يعبر عن اجابة بأهرامات الجيزة فكتب « من الصعب أن أكتب بالتفصيل عن الأهرامات مثلمــا كتب بــو Paw ، ونيبــور Neibuhr ، ونوردن Norden ، ســافارى وســيكار ، وفولنى ودينون لأن هــذه الأحجار لها رموز » كما تقدم تجربته داخل الهرم الأكبر حيث

خيم الظلام ، واضطرنا للانحناء لنتمكن من مواصلة السير وعانينا من هجوم الخفافيش ووجدت أن الهرم من الداخل يشبه قصر التيه من الصعب السير فيه(٢٤٢) .

وعقد امبير مقارنة بين الأهرامات وكاتدرائيــة نوتردام فى باريس فوجد أن الأهرامات تفوقها ارتفاعها . وان كنا نجد أن هذه المقارنة ليست فى موضعها ولكن ربما أراد أن يشحذ ذهن القارىء الفرنسي ويعطيه فكرة عن مدى ضخامة وعظمة الأهرامات(٢٤٣) .

وعندما راى شاتوبريان هرم خوفو تذكر عبارات ديودور الصقلى « بأن المصريين ينظرون الى الحياة على أنها قليلة الأهمية قصيرة ، ولذلك فهم يعتنون بالآخرة ويهتمون بها ولذلكلم يجملوا المنــازل التى عاشوا فيهــا قدر تجميلهم واهتمــامهم بمقــابرهم باعتبارها دارا للخلود »(٢٤٤) .

وتعتبر أهرامات الجيزة هى الآثار الهامة والرئيسية الجديرة بالزيارة والمشاهدة على حد وصف كادلفين . والذى أشار الى أن البناء الداخلى لها على نمط واحد حيث توجـد الممرات الطويلة التى تنتهى بصالات كبيرة ، كما أشاد كادلفين بجهود الايطــالى بلزونى فى اكتشاف مدخل الهرم الأوسط فى عام ١٨١٨ وكان يعمل فى مجــال التنقيب عن الآثــار لصــالح القنصــل البريطــانى صولت(٢٤٥) .

هذا وقد تأثر كلوت بك فى كتاباته بما ذكره هيرودوت عن الطريقة التى اتبعت فى تشييد الأهرامات وطريقــة كسوة الهرم بالطبة الملســة ، كذلك اتفق مع هيرودوت فى أن الملك خوفــو استخدم القسوة والعنف فى جمع العمال من أجل اقامة وتشييد هذا العمل العظيم(٢٤٦) .

والعجيب أن شامبيليون وهو الأثرى المتخصص لم يجد وقتا كافيا لرؤية الأهرامات لفترة طويلة تمكنه من دراستها فكتب « يتعين علينا دراسة هذه الأهرامات العظيمة عن كثب لكى نقدرها حق قدرها وكلما اقتربنا كلما اخذ حجمها فى التناقص ووجب علينا ملامسة الكتل الحجرية المشيدة منها للوقوف على مدى ضخامتها ولا اجد أمامى الكثير لأفعله فى هذا المكان لأننى سأتوجه الى مصر العليا »(٢٤٧) .

اما أبى الهول فقد نحت من الصخور الليبية ، أنفه مملثم ولكن عيونه وفمه سليم الى حد ما ، له مسحة زنجية فى وجه قام البندقى كافيجليا Caviglia بعدة حفائر عند التمثال واكتشف الجزء الداخلى منه والأقدام الأمامية كما وجد معبد لاوزوريس على عمق أربعين قدما ، كذلك عثر على معبد يرجع الى عهد البطالمة وبعض المخطوطات ترجع الى عهد الامبراطور سيفير(٢٤٨) وأكد أمبير ان عند أقدام أبى الهول وجد معبد صغير مغطى بكتابات تمثل تحتمس الرابع الذى قام بتجديد التمثال وترميمه(٢٤٩) وربما يعتبر هذا الترميم من أقدم الترميمات التى أجريت على التمثال .

وأشار فوربان الى أن القنصل البريطانى ومعاونه الايطالى بلزونى قد اكتشف سلالم تؤدى الى معبد صغير اسفل أقدام أبى الهول(٢٥٠) .

أما نستورلوت فقد كتب مذكرة عن أبى الهول ذكر فيها « قبرا خاصا له أو مقصورة مجاورة لتلك المقبرة ومتصلة بها حيث يقصدها الناس فى بعض المناسبات لتلاوة الصلوات واذا صعدنا فوق رأس أبى الهول لرأينا ثقبا يبلغ قطره نحو قدم يرجح

ان يكون القصـــد منه تثبيت ساق تحمل تاجا رمزيا ، كما نجد ثقبا آخر أكبر قطرا على ظهر التمثال كان يستخدم على حد قول العديد من المعنيين بدراســة الآثار المصرية كمخبأ للكهنة الذين يزعمون استطلاع الغيب والاتيان بالمعجزات ويعتقد أيضــا أن هذا الثقب كان يستخدم فى تثبيت اجنحة مشابهة لتلك التى تزين أبى الهول المعروض فى متحف تورينو ، وقد احتفظ وجه أبى الهول فى الأجزاء الملاصقة للأذنين باللون الأحمر الداكن الذى كان قدماء المصريين يستخدمونه فى تكوين بشرة الرجال وقد ثار جدل بشأن الطابع الزنجى والذى يغلب على قسمات ذلك الوجه اذ يتميز بالفعــل بطـــابع افريقى ولكنـــه يختلف كثـيرا عن ســـمات الزنوج »(٢٥١) .

ويمثل جسد أبى الهول جســم اســد وراس انسان وكان التمثال مدفونا حتى كتفيه فى الرمال وكانت الرقبــة وجزء من أعلى الصدر فقط ظاهرين للعيان من اثر الحفائر التى أجراهــا الأثريون خاصة كافيجليا والذى عثر على واجهة ومدخل معبد صغير أسفل التمثال على شكل تجويف من كتلة حجرية واحــدة كما قام بازاحة الرمال التى كانت تغطى التمثـــال ، ولمـا كان الفراعنة ينحتون تماثيلهم بصفتهم التجسيد الحى للمعبودات على الأرض والذا فقد اتخذ وجه التمثـــال ملامح الاله أى ملامح الملك الذى أمر بنحته(٢٥٢) .

ويلاحظ أن كتابـــات الرحـــالة فى القرن التاســـع عشر عن الأهرامات وأبى الهول اتسمت الى حد كبير بالدقة وذلك بفضل المذكرات والرســـائل التى كتبها الأثريون أمثـال نســـتورلوت ، وشامبيليون وبذلك اختلفت الى حد كبير كما سجلة رحالة القرن الثامن عشر ملك الكتابات التى نقل أصحابها الروايات والأساطير

المختلفة فذكر « أوليفيه » يعتقد المصريون أن تمثال أبى الهول قادر على تحقيق المعجزات ، وانه يعمل على ايقاف زحف رمال ليبيا على الأراضى الزراعية أما بول لوكا فقد كتب « يعتقد أن من يمتطى ظهر أبو الهول لابد أن تحدث له كارثة »(٢٥٣) .

وفى سقارة يوجد سهل المومیات به جبانة فسيحة تحوى رفات اجيال متعاقبة من سكان منف وقد دخل شامبيليون مقبرة الكاتب الملكى امينيموف فراى المتوفى فى وضع المتعبد أمام الالهة أوزوريس وبتاح وحتحور الهه منف ، وسجل شامبيليون ملاحظاته « لابد أن نضع فى اعتبارنا أن الصحراء تحوى العديد من المقابر ومن الخطأ الاعتقاد أن جميع الآبار دفن الموتى تؤدى الى حجرات دفن » فقد جرت العادة على تشييد حجرة أو عدد من الحجرات المزدانة بالنقوش والزخارف فوق فتحة البئر نفسه أو على مقربة منه لتستخدم كمقاصير للآبار والسراديب التى تحوى موميات أسرة بأكملها عثر شامبيليون على واحدة من تلك المقابر من الزاوية الشمالية الشرقية للهرم المدرج الى الجنوب بالقرب من هرم صغير آخر متهدم وفى مقبرة تحمل اسم رب الأسرة ويدعى منوفيه ويحمل لقب ضابط ونعت نفسه المحب لسيده والمتعلق بمولاه(٢٥٤) .

وتحوى آبار سقارة عدد من الموميات المحنطة للحيوانات والعصافير فتوجد آبار للعصافير المقدسة يتم صفها فى أوانى وقد اكتشف مار بين البعض منها وقام بجهود كبيرة فى هذا المجال(٢٥٥) كما أكد بواتو أن الموميات يتم لفها فى الكتان وليس القطن كما كان يعتقد من قبل(٢٥٦) .

على أن أهم ما يميز منطقة سقارة هو هرم سوزسر المدرج وقد أشار اليه شامبيليون كذلك أشار الى اكتشاف عدد من

التماثيل بجواره منذ أربعين عاما نقلت الى فرنسا ، كما نقل لبسيوس الألماني تمثال لرجل من الأسرة الثالثة الى برلين(٢٥٧).

وبين البدرشين ومنف وجد شامبيليون تلين كبيرين يبدوان كأنقاض وهرم هائل مشيد من الطوب اللبن كان يضم قديما العمائر المقدسة الرئيسية فى منف ، ووجد تمثال صخم عثر عليه كافيجليا وهو يخص الملك سنوسرت وهو يمثل قطعة فنية رائعة لفن النحت المصرى ، ولا يقل طوله عن خمسة وثلاثين قدم ونصف. ولكى يحث شامبيلون الحكومة الفرنسية على ارسال الأموال له كتب واذا نجحت فى الحصول على اعتمادات مالية خاصة لاجراء حفائر واسعة فى منف فأنا اتعهد بملء متحف اللوفر بتماثيل على قدر عظيم من الروعة والأهمية فى أقل من ثلاثة أشهر »(٢٥٨) .

والى شمال التماثيل وجد معبد للالهه حتحور مشيد من الحجر الجيرى الأبيض ومعبد آخر مزين بأعمدة مستطيلة مترابطة من الجرانيت الوردى قام رمسيس الأكبر بتكريسه الى بتاح وحتحور آله منف(٢٥٩) .

الفيوم :

وصفت الفيوم فى القرن الثامن عشر بأنها « حديقة مصر » فهى من أغنى وأجمل وأخصب أراضى مصر ، تشتهر بانتاج الحبوب والفواكه وكتب عنها سافارى « تنمو الخضروات فيها تلقائيا ودون مجهود ، وكلما سرنا فيها نشم الهواء المعطر برائحة أزهار البرتقال فهواؤها معطر مثل هواء فرنسا فى الربيع » ونجد أن هذا الوصف ينطبق أيضا على ما ذكره القدماء فى العصور القديمة فلقد وصفها سترابون « انها من أغنى أقاليم مصر »(٢٦٠) .

وظلت الفيوم تتمتع بهذه المكانة فى القرن التاسع عشر فرغم أن ريفو كان أثريا الا أن خصوبة الاقليم لفت نظره فسجل اعجابه « انها من اجمل المحافظات ومن أغنى المناطق يزرع فيها قصب السكر والقطن كما تزرع فيها الفواكه خاصة التين والعنب والليمون والتفاح والنخيل(٢٦١) هذا وتشتهر أيضا بانتاج الزهور والتى تزايد الطلب عليها فى القرن التاسع عشر(٢٦٢) .

وتعتبر قرية فيدمين من أجمل القرى وهى غنية بمزارع الزيتون والفاكهه والنخيل وهى مقسمة الى قسمين قسم يقطنه المسلمون والثانى الأقباط(٢٦٣) ويزعم سكان فيدمين أن لديهم شجرة زيتون يقدر عمرها بعشرة قرون ويعتقدون بانها ام أشجار الزيتون(٢٦٤) .

هذا وقد أقيم فى الفيوم العديد من المصانع خاصة مصانع الغزل والنسيج ومصانع للصباغة ، والى جانب المنشآت الجديدة التى شهدتها المدينة الا انها ما زالت تحتفظ بآثار الماضى القديم فمازال بها منازل المماليك الجميلة الثرية التى تتسم بالاتساع والعظمة والفخامة(٢٦٥) .

وقد حاولت الحكومة المصرية الافادة من مياه بحر موريس فقام لينان دى بلفون بالعديد من الدراسات والأبحاث فى المنطقة(٢٦٧) .

والفيوم هى ارسنيوى القديمة أطلق هذا الاسم عليها بطليموس تكريما لذكرى أخته ، وقد عبدت التماسيح فيها قديما وخصصت لها البحيرات التى اعتبرها المصريون مقدسة . وقد صورت هذه التماسيح على جدران المعابد . كذلك وجد فى الفيوم هرم ميدوم والذى أسماه العرب الهرم الكاذب وهو يختلف فى

شكل بنيانه عن الأهرامات فهو عبارة عن جذع هرم أى هرم ناقص متخذ قاعدة لهرم صغير جدا . كذلك وجد بها قصر كبير أطلق عليه رحالة القرن الثامن عشر قصر التيه نظرا لاتساعة . وقد صحح امبير ما اورده شامبيليون بأن هذا القصر شيده تحتمس الثالث وأكد ان اكتشافات الألمانى لبسيوس أثبتت أن النقوش فى هذا القصر ترجع لعصر امنحات الثالث وقد أقام هذا المعبد الجنائزى بجوار هومه عند مدخل الفيوم (٢٦٨) .

ولم يكتف الرحالة بتقديم للآثار القديمة فى الفيوم وانما اشاروا الى الآثار المسيحية خاصة الكنائس والكهوف التى أقام فيها المسيحيون الأوائل فرارا من اضطهاد الرومان(٢٦٩) .

يتضح لنا مما سبق أن الرحالة قدموا وصفا للآثار القديمة والآثار المسيحية ساعدهم على ذلك ان أسرار اللغة الهيروغليفية قد كشفت وبذلك كشف الأثريون منهم الغموض الذى كان يكتنف قصر امنحمات والذى اطلق عليه الرحالة من قبل قصر التيه واكتفوا بترديد ما سبق وان ذكره هيرودوت عنه او المؤرخون القدامى فقد كتب هيرودوت عنه « انه شاهد الليبرنت وهو فى عمارته لا يكاد يدانيه فى الروعة ما رأى من عمائر الدنيا جميعا وهو لا يفضل عليه عمارة الهرم وهو يشتمل على اثنى عشر بهوا متقابلة بعضها ينفتح الى الجنوب وبعضها الآخر الى الشمال وقد بلغت عدد غرفات البناء ثلاثة الاف وخمسمائة نصفها فوق الأرض والنصف الآخر أسفل الأرض »(٢٧٠) .

بنى سويف :

ميناء على الضفة الغربية من النيل وصفها فرومنتان بأنها مدينة هامة رغم أن منازلها منخفضة وشوارعها ضيقة الا أن

معظم السفن المتجهة الى مصر العليا لابد وأن تمر عليها وتمتاز المدينة بخصوبة أراضيها وتحيط بها الأشجار من كل جانب فتوجد بها اعداد كبيرة من أشجار الجميز والطلح وتتركز الزراعة فى المناطق الشمالية حيث الأراضى الصالحة للزراعة وكلما اتجهنا جنوبا قلت المزارع(٢٧١) . وقد نجحت زراعة الزيتون فيها فانتجت مزارعها كميات كبيرة منه(٢٧٢) .

وتمتاز المدينة بجمال مساجدها ذات المنارات العالية والتى تبدو عالية متماسكة فى وسط المزارع . هذا وقد اقيم فى بنى سويف مغازل ومعامل للقطن تدار بواسطة آلات يتم استيرادها من أوروبا ولكن القطن الذى يصنع فيه انتاجيته سنين كما تشتهر المدينة بصناعة السجاجيد والصوف والأغطية(٢٧٣) .

ولما كان لبنى سويف شهرة قديمة فى صناعة تفريغ البيض فقد احتفظت هذه الصناعة بأهميتها فى القرن التاسع عشر(٢٧٤).

ويحكم بنى سويف بك وهى تعتبر من أكبر مدن مصر الوسطى وعدد سكانها يقارب عدد سكان الفيوم اى حوالى ستة آلاف لكن بنى سويف من وجهة نظر ريفو أجمل وذلك لسهولة التجول فيها ولاتصالها السريع مع مدن مصر السفلى والعليا(٢٧٥) .

أما شولشيه فلم يجد فيها سوى مدينة بائسة فى مبانيها فلا يوجد بها أية منشآت تستحق الذكر(٢٧٦) .

وتعتبر البهنسا من أهم مدن بنى سويف وهى تحوى أعدادا من المسلمين والمسيحيين وعندما زارها كادلفين كتب بانها تذكره بالمعارك التى دارت بين قوات الحملة الفرنسية والمماليك فيها(٢٧٧) .

وقد اشار فوربان ان محمد على اتخذ من بنى سويف فى بداية حكمه منفى للجنود الالبان الذين أثاروا الاضطرابات فى القاهرة ولذلك وجد فوربان أن المدينة تعيسه حزينة خاصة وأن الالبان غير مهذبين ومعظمهم من البوسنة لا يعرفون النظام ولا التربية العسكرية يقضون أوقاتهم فى مشاهدة رقص العوالم على النيل »(٢٧٨) .

المنيـــا :

بنيت المنيا على أطلال هرمو بوليس القديمة ، وهى مدينة هادئة ، منازلها من الطوب الأحمر وشوارعها منتظمة(٢٧٩) قدر كادلفين عدد سكانها بنحو ثلاثة آلاف(٢٨٠) ويحكم المنيا بك تركى أحسن استقبال الرحالة خاصة مونتوليه الذى أشاد بحسن معاملته وحفاوته وقدم وصفا لقصره الفاخر المشيد على الطراز الأوروبى والمؤثث بأفخر الأثاث ، وقد قدم التسهيلات لمونتوليه فلم يعانى من أية متاعب تذكر أثناء رحلته فى صعيد مصر الا انه « اضطر للجلوس على الأرض لمجاملة البك فلم أشعر بالراحة مطلقا »(٢٨١) .

ووصف فرومونتان المنيا بأنها تشبه المدن الاغريقية القديمة فهى مدينة جميلة هواؤها منعش تحيط بها المزارع من كل مكان(٢٨٢) .

هذا وقد لقيت المنيا اهتماما من الحكومة فتم بناء مصنع للقطن فيها على نمط مصنع بنى سويف(٢٨٣) . كذلك اقيم فيها مصنع السكر(٢٨٤) زاره بارديو فى عهد عباس فذكر ان الباشا عهد الى مونييه بادارته وأن معظم الآلات المستخدمة تم استيرادها من فرنسا ، وكان مونييه قد أسس من قبل مصنعا للسكر فى

فرشوط كان يمتلكه ابراهيم باشا فأراد عباس الافادة من خبرته في ادارة مصنعه(٢٨٥) . كذلك أنشىء لعباس مصنع آخر للسكر في الريرمون(٢٨٦) .

ومن مظاهر التطوير والتحديث في المنيا التي شاهدها الرحالة اقامة الماكينات البخارية لرفع مياه النيل فحلت محل السواقى في كثير من المناطق(٢٨٧) .

لفتت آثار المنيا انتباه الرحالة خاصة آثار الكوم الأحمر إفزار نستورلوت المنطقة وقدم وصفا عنها ومن أهم المعابد فيها(٢٨٨) . أما أجمل آثار المنيا من وجهة نظر الرحالة فكانت آثار بني حسن وقد ذكر كادلفين أن شامبيليون عثر في المنطقة على رسوم تفصيلية على الجدران تتعلق بالحياة المدنية والحرف والفنون وطبقة العسكريين ، ووجد مقبرتين ترجع الى عهد سركون ثاني ملوك الأسرة الثالثة والعشرين ومقبرة أخرى ترجع الى عهد نيوتيف تحتوى على نقوش جميلة ورسمت على جدرانها صور للحيوانات والأسماك والطيور كما وجدت لوحة تمثل نيوتيف وابنه وهو يسوق الأسرى الذين تبدو على وجوههم الملامح الآسيوية . ومعظم مقابر بني حسن محفورة في الصخر وأبوابها مزينة بالرسوم الهيروغليفية الجميلة وتوجد بها صالات وأعمدة من الرخام ، وفي الصالات الداخلية توجد الموميات . كما اكتشف شامبيليون معبد يرجع الى عهد تحتمس الرابع . هذا ولم ينقب شامبيليون فقط عن الآثار في بني حسن وانما عمل في المنطقة الأثرى البريطاني هاى بمصاحبة زوجته(٢٨٩) . واضاف فرومونتان عند زيارته للمنطقة بأن المصريين القدماء أفادوا من الجبال المحيطة بها في نحت معابدهم من « أحجارها الجميلة »(٢٩٠) .

أما شامبيليون فقد سجل ما اكتشفه في بني حسن مذكرات الخمسة عشر يوما التي قضيتها في بني حسن مثمرة للغاية ،

أسفرت رحلته عن انجاز ما يزيد على ثلاثمائة رسم فى منتهى الدقة والاتقان فهناك :

١ ـ رسوم تمثل الزراعة ، وتصور الأدوات المستخدمة فى الحرث ، وبذر البذور ، سير الأغنام على الأرض لغرس الحبوب فيها ، ونحو ستة عشر نوعا من المحاريث وتقليب الأرض بالفئوس وحصد القمح والكتان وفصل الحب عن السنابل ، كما ظهرت مخازن الغلال وزراعة الكروم وقطف العنب وفرط عناقيده ، وتحضير النبيذ وزراعة الحدائق وجنى الثمار ومع هذه الرسوم شرح بالهيروغليفية .

٢ ـ وجدت صور تمثل الفنون والحرف وتتألف من مجموعة من المناظر الملونة من أجل تحديد نوع الأشياء المرسومة والمادة التى تتكون منها ونرى فى هذه الرسومات الأثاث والمصنوعات الخشبية والقطع المعمارية والنحات ومزين التماثيل والرسامين وعمال المحاجر .

٣ ـ رسومات تمثل طبقة العسكريين نرى تنشئة الطبقة وكل تمارينها الرياضية بالاضافة الى مائتى لوحة تصور كافة الأوضاع والهيئات البدنية ، ورسومات توضح صورا للجنود من كل الرتب ومن كل فرق الجيش والأسلحة المتقدمة .

٤ ـ لوحات تمثل الغناء والرقص والموسيقى ولوحة تمثل حفلة موسيقية وغنائية ونرى عازف القيثارة ومغنى يصحبه كوراس يتألف من أربعة رجال ومن نساء يصفقن وعلق شامبيليون على هذه اللوحة « يشكل هذا المنظر أوبرا كاملة » .

٥ ـ لوحات تمثل الحيوانات وكيفية تربيتها ، ونرى فيها أعدادا هائلة من الأبقار ، والثيران ، والعجول ، وحلب اللبن

وتحضير الجبن والزبد ورعــاة الماعز وحراس الحمير ، ورعــاة الغنم ، ومناظر متعلقة بالطب البيطرى .

٦ ــ مجموعة ايقونات تمثل صور الملوك المصريين ووجهــاء القــوم .

٨ ــ العدل المنزلى صور ونقوش بارزة لخدم اقترفوا جرائم وتم القبض عليهم والحكم عليهم بواســطة المشرفين على المنزل .

كما وجدت رسوم تتعلق بالحياة المنزلية وآثار تاريخيــة تحوى اسماء ملكية وآثار دينية وصور للزواحف والأسماك(٢٩١).

كما عثر شامبيليون فى قرية بنى حسن العمــار على معبد منحوت فى الصخر بدأت زخرفته فى عهد « تحتمس الرابع » ثم واصــل العمل فيه « مندوى » أحد ملوك الأسرة الثامنة عشرة ،

وقد كرس المعبد لعبادة الالهــة باسنت التى اتخذت من تل بسطة أو بوبا ستيس مراكز لعبادتها ، والمعبد يحوى العديد من مقابر القطط المقدســة وبعضها منحوت فى الصخر وقد شيدت واحدة منها فى عهد الاسكندر ابن الاسكندر الأكبر(٢٩٢) .

ولم تقتصر جولات الرحالة على منطقة بنى حسن فحسب وانما لفتت منطقة تل العمارنة انتباههم فوجد فيها نستورلوت آثارا نحتت فى الجبــال ومعــابد خصصت لعبــادة الشــمس ، وخراطيش رسم عليها صور للشمس وأشعتها . كمــا عثر على رسومات تمثل انتصارات رمسيس الثانى على الشعوب الآسيوية فتبدو صور الأسرى وقد تم اختيارهم ويبدو على وجوههم الملامح الآســيوية(٢٩٣) .

وشهدت الأشمونين (٢٩٤) أو هرموبوليس ماجنا تنافســا بين القنصل البريطــانى صولت وشامبيليون فى مجال التنقيب عن

الآثار فوجد الأخير معبد صغير نحت فى الصخر يرجع الى عهد تحتمس الرابع . ولفت نظره التدمير المروع الذى لحق بآثار المنطقة فكتب « انفطر قلبى حزنا على رواقها الرائع الذى شيد فى عهد فيلادولفوس الذى قامت الأيدى الهمجية بتقويضه مؤخرا بأمر الباشا على الرغم من احتجاج صولت ولينان »(٢٩٥) .

وصف شامبيليون قرية زاوية الميتين بأنها تضم عددا من المقابر العتيقة لا يزال المسلمون يدفنون موتاهم فيها على الضفة اليمنى للنيل ، أما الضفة اليسرى فهى مهجورة يصعب الزراعة فيها ويوجد بها مجموعة من المقابر على مساحة واسعة بين بلدة سوارة واسفل قرية تونة الجبل وبصفة عامة يمكن القول أن المقابر فى هذه المناطق منحوتة فى الصخر ومزينة بنقوش بارزة وكل اللوحات فيها تتعلق بالحياة اليومية والمدينة والمنزلية (٢٩٦) .

وتعتبر ملوى من أجمل مدن المنيا وكانت مركزا لتجمع القوافل المتجهة الى الجزيرة العربية ، وهى تشتهر بالقمح . كما يوجد بها عدد من الآثار الهامة(٢٩٧) .

ولم يكتف الرحالة بتسجيل مشاهداتهم عن المنيا وانما نقلوا ما يردده السكان من غرائب وطرائف فقد أكدوا لأمبير عند زيارته للمنيا بأنه يوجد فى بلادهم ضريح لأحد الأولياء وجوده يمنع التماسيح من عبور النيل أو الاقتراب من المدينة (٢٩٨) .

منفلوط :

تشتهر منفلوط بانتاج الأقمشة ، ومعظم سكانها يعملون فى صناعة النسيج ، وقد قدر كادلفين عدد سكانها بخمسة آلاف نسمة توجد من بينهم نسبة كبيرة من الأقباط . وقد اتخذت

منفلوط منفى للعوالم كما اتخذت اسـنا أيضـا ولذلك فالزائر للمدينة من الأجانب أول ما يصادفه هو مشهد استقبال العوالم للمراكب المـارة بالرقص والغناء .

وقد صادف كادلفين بعض الأوروبيين العاملين فيها وارتبط بصداقة مع الطبيب الفرنسى شيدوفو Chédufaut (٢٩٩) .

ويتسع النهر جنوب منفلوط فتبدو المدينـة أكثر هدوءا وجمالا خاصة وأن المزارع تحيط بها من كل جانب(٣٠٠) .

وتحوي المدينة العديد من الآثار القبطية القديمة وقد شيدت الأديرة المسيحية فى الكهوف المحيطة بها(٣٠١) . كذلك عثر كادلفين فى هـذه الكهوف على موميات قديمة وقد ساعده فى دخول بعض من هـذه الكهوف على بك كاشف منفلوط الذى سمح له باصطحاب أحد الأولاد من الفلاحين الذين لهم خبرة بهذه المسـالك وقـد وافق الكاشف بعد الحـاح شديد لأن الفلاح المكلف بالمهمة لم يكن قد وقع الميرى فوعده كادلفين بتدبير المبلغ فى مقـابل اصطحابه معه . وقد وصف كادلفين تجربته فى الدخول فى هـذه المناطق حيث وجد ممرات عميقة فيها وأخذ ينزلق من ممر الى آخر ثم عبر عدة صالات تفاوتت فى اتساعها وارتفاعها ، وعانى من وجود الخفافيش ثم وجد بقايا موميات وقد تم لفها فى الكتـان وضمت ورصت على هيئة صفوف منها موميـات لتماسيح من جميـع الأحجـام ولمجموعات من العصـافير والضفـادع وقد لفت نظر كادلفين وجود آثار لرماد قديم وقد أكد له الفلاح المصاحب له بان أحد المغاربة جاء الى الكهف منذ عدة سنوات وصحبته سـتة من الفلاحين ثم عثروا على كنز فى هذا الجبل فوعدهم المغربى بتوزيعه عليهم ، وبعد ان أخرجوا له الكنز وحملوه على الجمـال انتهز

الرجل فرصة وجودهم فى داخل الكهف فأشعل النيران عند مدخله وفر بالكنز ويردد العامة بعض الرويات المبالغ فيها فيذكروا انه بعد أربعة أعوام من هذه الحادثة وجد السكان عامود نار يشتعل داخل الكهف وعندما ذهب السكان لاستطلاع الأمر وجدوا جثث الفلاحين خارج الكهف « وكأنها تدين المغربى [illegible] بهم »(٣٠٢) .

اســـيوط :

هى ليكوبوليس القديمة عاصمة الصعيد قدر بوالو عدد سكانها بثلاثين الف نسمة(٣٠٣) وهى تعتبر من أهم المدن بعد القاهرة والاسكندرية ، ونظرا لبعدها عن العاصمة اتخذها البكوات المماليك مقرا لهم(٣٠٤) . وتتميز المدينة بانها ملتقى للقوافل القادمة من السودان وأفريقيا الداخلية وهى محطة للقوافل القادمة من سنار ، وفيها يتم تجميع البضائع الافريقية ، كذلك تتجه اليها القوافل القادمة من دارفور ودنقلة وكخط سير معروف فهناك اتصال بين غرب السودان وأسيوط .

هذا وقد اكتسبت أسيوط أهمية كبيرة لكونها مركزا لتجميع الرقيق القادم من الحبشة ودنقلة ودعا شولشيه الى ضرورة محاربة هذه التجارة فى أسيوط وانه لابد للحكومة فى مصر أن تتخذ الاجراءات لتوجيه ضربة لهذه التجارة كما فعلت فرنسا فى الجزائر من قبل(٣٠٦) .

وقد عدد فوربان أنواع البضائع التى يتم تجميعها فى أسيوط فذكر أن أهمها تراب الذهب والتمر هندى والصمغ العربى والعاج وريش النعام والششم المستخدم لعلاج العيون ومن أشهر تجار أسيوط هنا شمس وله تجارة نشطة مع الحبشة وجوندار(٣٠٧) .

ورغم تجارة أسيوط مع أفريقيا الا أن فرومونتان وجد أن للمدينة طابعا شرقيا أكثر منه أفريقيا فملامح المدينة آسيوية وهى أقل توحشا من المدن الافريقية(٣٠٨) .

وتتسم شوارع المدينة بالضيق وهى متربة وترتفع الحرارة فيها بسبب محاصرة الجبال لها من كل مكان ومنازل المدينة من الطين وسكانها خليط من المسلمين والأقباط واليهود(٣٠٩) .

وضواحى أسيوط جميلة فالحدائق تحيط بها من كل مكان كما أن أراضيها خصبة مثمرة ومزارعها وريفها ساحر وقد شيد الباشا مصنعا للقطن ويوجد فى المدينة منزل الدفتردار محمد بك وهو منزل جميل على الطراز الأوروبى تم احضار أعمدته الداخلية من معابد دندرة ويوجد فى المدينة عدة مساجد وحمام عام(٣١٠) كما أن المدينة كانت مقرا لابراهيم باشا عندما كان حاكما على الصعيد ويحسن بالدفتردار معاملة الأجانب والأوروبيين ويعمل فى خدمته طبيب ايطالى يدعى ماروخ(٣١١) .

ويكثر تواجد العوالم فى أسيوط كذلك يوجد العديد من بنات الهوى فيها خاصة من الحبشيات شاهدهم كادلفين وهن يتجولن فى المدينة وقد ارتدين الملابس الجميلة وكانت وجوههن بمختلف أنواع الزينة ، وذكر أن هؤلاء النسوة كن يدفعن الى الجلابة مبلغا شهريا لقاء تركهن العمل فى هذه المهنة(٣١٢) .

وفى زاوية الدير فى اسيوط يقوم الرهبان بعمليات جب العبيد القادمين من السودان وقد ندد شولشيه بهذه العملية كذلك معظم الرحالة الذين زاروا أسيوط(٣١٣) .

أما عن أهم آثار أسيوط فهو النكروبول وهو يشغل مساحة كبيرة عند جبال ليبيا وبه عدد من المقابر عند أقدام الجبال كما

يوجد عدة مسلات وكهوف للدفن يتسم بعضها بالاتساع والبعض الآخر بالضيق(٣١٤) .

وقد كتب كلوت بك ان كل ما يستحق المشاهدة والنظر فى اسيوط من الآثار هو الأغوار والكهوف المنقورة فى الصخر منذ عهد بعيد وبعضها ناله التلف والاندثار(٣١٥) .

وجدير بالذكر انه فى عهد الحملة الفرنسية قدم الفرنسيان ديفلية وجولوا وصفا لمقابر اسيوط المنحوتة فى الصخور ولكهوفها ولكن شامبيليون عندما جاء الى مصر وجد العديد منها قد دمر بالفعل فاكتفى بنسخ ما وجده من صور على الحوائط(٣١٦) .

ويوجد فى ابى تيج دير للفرنسسكان وبها العديد من الآثار وتشتهر بزراعة الأفيون الذى تجمع أوراقه فى الصباح الباكر ونوعيته ممتازة ، وقد ازداد الاقبال على الأفيون المزروع فى ابى تيج خاصة فى الأسواق الأوربية وفى أمريكا(٣١٧) .

اخميم :

هى بانوبوليس القديمة عندما كتب عنها رحالة القرن الثامن عشر امتزجت كتاباتهم ببعض الأساطير التى سمعوها وتناقلها أهالى البلاد فقد كتب بول لوكا « تشتهر أخميم بانتاج السكر وبها أجود أنواع الفاكهة كما تمتاز بثروتها السمكية وتحوى المدينة أعدادا كبيرة من الأقباط وقد فر العديد منهم اليها فى زمن الامبراطورية الرومانية فطاردهم الرومان الى أخميم التى شهدت العديد من المذابح ولذلك يغلب على تربتها اللون الأحمر لون دم القتلى(٣١٨) .

أما أهم ما لفت نظر الرحالة اليها فى القرن التاسع عشر هو تزايد أهمية المدينة خاصة وقد اقيمت فيها مصانع للغزل والنسيج كما نشطت التجارة فيها والصناعة خاصة صناعة الحرير التى اشتهرت المدينة بانتاج أجود أنواعه(٣١٩) . ويقيم القنصل الفرنسى فى أخميم فى منزل كبير على النيل ومازال فيها أعداد من الأوروبيين ودير للفرنسسكان وتغلق المدينة أبوابها ليلا(٣٢٠) .

أما أهم الآثار التى لفتت أنظار الرحالة فهو معبد مقدس شيده بطليموس فيلوباتور وقد نقشت على جدرانه صورته وهو يتعبد لأمون(٣٢١) وقد شعر كادلين بالأسف لأن أعمدة وانقاض المعبد انتزعت لاقامة بعض المنشآت فى المدينة(٣٢٢) وفى الشمال الشرقى من المعبد عثر شامبليون على كتلتين هائلتين تحمل أحداهما تدوينا يونانيا قام لاترون بنشره وهى تمثل أنقاض باب شيد فى عهد تراجان(٣٢٣) .

سوهاج :

واحة صغيرة بها العديد من الأشجار خاصة أشجار النخيل وتعتبر البلينا من أهم قراها سكانها يعملون بالزراعة(٣٢٤) والرى وتزداد كميات أشجار الدوم والفواكه كلما تقدمنا جنوب سوهاج وقد حرص دى كان عند زيارته لسوهاج على زيارة قبر مراد بك الذى مات متأثرا بالطاعون فقد أثار فيه ذكريات مقاومته للفرنسيين فى الوجه القبلى .

ويوجد فى طهطا دير للايطاليين امتدت اليه يد الاهمال .

وبعيدا عن النهر وحول الجبال يعمل أعضاء البعثات التنصيرية الكاثوليكية لتحويل الأقباط الى المذهب الكاثوليكو

وأمام طهطا مباشرة وعلى الضفة المقابلة للنهر قرية الشيخ هريدى وقد رسمها لابى Lapie فى خريطتـــه باسم نزلة هريدى وتقع القرية عند أقدام الجبل وبها عدد من المقابر(٣٢٦) .

جرجـــا :

كانت جرجا فى القرن الثامن عشر عاصـــمة للصعيد وكان للعرب نفوذ كبير فيها (٣١٧) وأصبحت فى القرن التاســع عشر مأوى للأمراء المماليك الفارين من مصر أثر مذبحـــة القلعة(٣٢٨) وقد أعجب شولشيه بجرجا ففيها ينحنى النهر فى منظر جميل لا مثيل له ، ويزين المدينـــة عـــدد من القنوات « من الصـــعب احصاؤها » وقارن شولشيه بين مكانة المدينة فى القرن الثامن عشر وحالها الآن « فسكانها فقراء ملابسهم ممزقـــة » . وقد وجـــد شولشيه بقايا دير للفرنسيسكان هدمه الانكشارية فى القرن الماضى ولم يعد به ســـوى الأب توماس وهو فرنسى مارس نشـــاطه على أطلال الدير وكان بصحبته ماشتى من الكاثوليك وهم من أهـــل جرجا تحولوا من المذهب الأرثوذكس الى المذهب الكاثوليكى(٣٢٩) وعندما زار كادلفين الأب توماس وجده يتاجر فى بيع الموميات فعلق على ذلك « يبدو ان هذه التجارة رائجة فى جرجا ، حتى أن رجال الدين اشتركوا فيها »(٣٣٠) .

وتحوى مدينة جرجا على عدد من المحلات تباع فيها منتجات عرب الصحراء ، كما تكثر فيها المقاهى ولم يجد شولشيهمبنى أكثر فخامة من منزل ايتام بك الذى أحاطه بمظاهر الثراء والفخامة « فالقصر فى معظمه مكسو بالرخام الجميل »(٣٣١) .

وتشتهر جرجا بانتاج المـــاشية والأغنام ، وأجود انواعهـــا تلك التى تربى على الضفة اليسرى من المدينة ، كما أن لجرجـــا

تجارة مع سنار حيث كان يتم مبادلة الأغنام المذبوحة فى مقابل العبد الواحد(٣٣٢) .

ورغم ما ذكره عن تجارة جرجا خاصة نستورلوت الذى أكد رواج التجارة ، فى قرية شنشور القبطية الملامح(٣٣٣) الا أن فوربان أكد تدهور هذه التجارة عما كانت عليه فى القرن الماضى فقد « ورثت أسيوط مكانتها فى القرن التاسع عشر(٣٣٤) .

هذا وقد ضمت المدينة أعدادا كبيرة من البدو ، وقد اضطر محمد على لشن الهجمات عليهم لاقرار الأمن فى البلاد ، ولما كانت مقاومة البدو عنيفة فى جرجا فقد لجأت السلطات لارهاب القبائل الى مصنع جثث البدو على حافة نهر النيل وعلق بواتو على ذلك « انها طريقة تركية قد تبدو قاسية ، ولكنها نافعة ومفيدة »(٣٣٥) .

قنـــا :

مدينة صحراوية افريقية الملامح ذكرتنى بمدن شمال افريقيا هكذا وصف فرومنتان قنا فى القرن التاسع عشر (٣٣٦) وهى تعتبر من أهم مدن الوجه القبلى ومن وجهة نظر مونتوليه انها حيث الأهمية تأتى بعد القاهرة والاسكندرية ودمياط(٣٣٧) وقدر بواتو عدد سكانها بخمسة آلاف نسمة(٣٣٨) بينما قدرهم شولشيه بسبعة آلاف نسمة(٣٣٩) .

والمدينة قريبة من البحر الأحمر ولها علاقتها المباشرة مع القصير ، فمنها تخرج القوافل المحمله بالبضائع متجهة الى البحر الأحمر(٣٤٠) ويرد على قنا منتجات الهند والحجاز عبر

القصير(٣٤١) ولذلك فهى تعتبر مدخـلا لوادى النيل من جهـة البحر الأحمر ، وهى مخزن طبيعى لتجارة بين جده والقـاهرة كما انها ملتقى لقوافل الحج والتجارة(٣٤٢) .

وقد جذبت قنا انتباه تجار شركة الهند الشرقية البريطانية نظرا لصلاتها بالقصير والبحر الأحمر فخرجوا على التجارة معها وأتيح لكادلفين مقابلة أحد التجـار العرب وكان يعمـل مندوبا للشركة ويدعى سعيد حسين كانت له صلاته الوطيدة مع تجـار قنا كذلك مع مأمورها حسن بك وقد علم كادلفين ان هـذا التاجر كانت له خبرة فى التعامل مع الأوروبيين من قبل فقد تعـاون مع القوات الفرنسية ابان الحملة الفرنسية على مصر ، وكانت له صلاته الوطيدة مع الجنرال بليار وقد ادعى كادلفين بأن سعيد حسين صرح له بأنه يتمنى عودة الفرنسيين الى البلاد « لأن مصر لم تسعد قدر سعادتها زمن حكم الفرنسيين » وأنه أثنى على الجنود الفرنسيين بقوله « يا لهم من رجال وجنود ، لو مكث الفرنسيون مدة أطول لكان طعامنا من السكر بدلا من الخبز »(٣٤٣) .

وشوارع قنا مستقيمة ، ولكن منازلها منخفضـة ، ويوجد فى المدينة حمام تركى جميل ، ولم يسترع انتباه فرومونتان سوى منزل القنصل الفرنسى فله منزل مزين جميل يبدو كقصر صغير يقع فى مواجهة النهر ويغلب عليه الطابع الفرنسى(٣٤٤) .

سجل الرحالة اهتمـام السلطات بالخـدمات الصحية فى المدينة فوجدوا عددا من الأطباء تخص بالذكر منهم فولفى Folfi والصيدلى فيورامى Fiorami ورأى شولشيه بأن هـؤلاء الأطباء أدوا خدمات جليلة الى السكان وان وجودهم كان ضروريا فى المدينة « لأنهم تولوا حمايا سكانها البؤسـاء من الهواء المحمل

بالأتربة والامراض المنتشرة بينهم حيث تحيط الجبال والصحراء بالمدينـة »(٣٤٥) .

وقد تم استجلاب نباتات من الهند لتجربة زراعتها فى قنا واحضر الضابط البريطـانى بريجز Briggs كميـات كبيرة منها ولكن لم تنجح زراعتهـا فى قنـا وعلل كادلفين ذلك الى عدم ملاءمة المناخ والى الاهمال وعدم العنايـة بها مما أدى الى تلفها كذلك الى فيضان النيل الذى يغمر الأراضى بالمياه . فاقتلع العديد منها(٣٤٦) .

ولعل أهم ما تشتهر بالمدينة « تلك الأوانى الفخارية الرائعة ويرجع سر شهرتها ان السكان يخلطونها أثناء صناعتها بالروائح العطريـة مما يكسب الميـاه نكهـة جميـلة » على حد وصـف كادلفين(٣٤٧) .

واخيرا وقد أعجب معظم الرحالة بمأمور قنـا « حسن بك » فوصفوه بأنه « صديق للفرنسيين » له منزل واسـع كان يحسن استقبال الأوروبيين ، وكان حاكما عسكرية فى مكة ابان الحملات على الدرعية ثم حدث نزاع بينه وبين رئيس الأغوات الذى شكاه للسلطان العثمـانى الذى أمر بأن يحـل رئيس الأغوات محـل حسن بك ويتولى مهام منصبه ، ولكن حسن بك رفض فأخذ رئيس الأغوات يؤلب عليه السلطان ويكيد له مما دفع حسن بك الى ضربه بالعصى فى أحد المناقشات فأمر السلطان العثمانى محمد على نقل حسن بك لأنه أهان مبعوثه . ولكن محمد على بذل الرشـاوى فى الاستانة للعفو عن حسن بك الذى اضطر للاختبـاء حتى هدأت الأوضاع فعينه محمد على فى قنا(٣٤٨) .

دنــــدرة :

لفتت دندرة انظار الرحالة بمعابدها القديمة المذهبــة باللون الأزرق وقد قدم سوننى دى مانتكور وصفا عنها فى القرن الثامن عشر فذكر « بنيت على اطلاع مدينة تنتيريس القديمة ، بها معبدين لايزيس وهما من اجمل المعابد ، كما تحوى دندرة عددا من المعابد الافريقية وقد قام سونينى بتصحيح موقعها وأوضح خطأ كل من بروس وفوردن فى تحديد هذا الموقع »(٣٤٩) .

وقد تزايدت اهمية دندرة فى القرن التاسع عشر وقد وصفها فرومونتان بانها ميناء نهرى لها تجارتها مع مدن الوجه القبلى ، شوارعها مستقيمة ، حولها بعض القرى الصغيرة ، وتشتهر بانتاج الدوم(٣٥٠) كما اكد كادلفين ان المدينــة لها تجارة نشطة ليس مع مدن مصر فحسب وانما مع غرب السودان خاصــة كردفان وبعض مناطق افريقيا الداخلية(٣٥١) .

بهرت آثار دندرة عيون الرحالة فأشاد بواتو بعظمة المعابد فيها حيث تجلى عظمة الفن المصرى(٣٥٢) رمز القوة والانتعاش(٣٥٣) والفن الراقى(٣٥٤) .

وقد عثر كادلفين على هيكل شــيد خصيصا لايزيس يرجع الى عهــد كليوباترة وقيصرون وان هنــاك نقوشــا فى الجــزء الخــارجى تتضــمن نقوشــا ترمز الى حــوادث فى عهــد نيرون تيبيريوس وكاليجولا ، وهنــاك هيــكل صغير مجــاور له شــيد اولادة تيفون فى عهد تراجان ، كما وجد معبد لهاتور(٣٥٥) .

وجاءت كتابات شامبيليون عن معبد دندرة مختلفة الى حد ما عما سجله الرحالة وذلك بحكم تخصصه فرغم انه اشــاد بروعة

وجمال الطابع المعمارى فى معبد دندرة الا انه وجد النقوش « تمثل الاضمحلال والانحطاط » وعلل ذلك ان الفن المصرى ورسوماته تدهورت فى عهد اليونان والرومان والدلك وجد الفخامــة والفن فى معمار المعبد أو النقوش فقد وجدها ركيكة ترجع الى مصر الاضمحلال وقد وجد صــور حول أطراف المعبد تمثل كليوباترة وبطليموس وصور أخرى لأوغسطس ، وعند الأسوار الخارجيــة عند قدس الأقداس لوحات تمثل نيرون وفى مقــدمة الهيــكل نصوص للأباطرة تيبيريوس وكلود ونيرون وخلف المعبد الكبير معبد لايزيس وقد كرس المعبد لعبادة حتحور . وقد وصف شامبيليون المعبد بانه تحفة معمارية مغطاه بنقوش فى غاية الركاكة ترجع الى عهد الاضمحلال فالانحطاط فى فن النحت فيما صمدت العمارة وهى اقل خضــوعا للتغيرات فحافظت على مكانتها الرفيعة التى تليق بمصر القديمة وعظمتها على امتداد القرن ، ووجد أن الأبراج السماوية لمعبد دندرة قد سرقت مما ادى الى أن الحجرة غير المسقوفة فهددت باقى ابراج السقف بالتدمير الكامل وقد وجــه شامبليون اللوم الى علماء الفرنسية سولينيه ولو لوران لانهما نقلا أسقف الأبراج الى فرنسا(٣٥٦) .

واخيرا لقد سجل أمبير اعجابه بما كتبه الرحالة عن معبد دنــدرة الذى يستحــق كل ما بذله شــامبيليون وبــلزدنى من جهــد(٣٥٧) .

قفـــط :

اسمها القديم كوبتوس أو قبط ثم حرف الى قفط ، تقع جنوب قنــا ، بنيت عند مدخل الوادى ، تمتد شرقا فى الصحراء وهى مدينة قديمــة كانت مخزنا لتجارة الهند وكان لها شهرتها ولكنها اهملت فى القرن التاسع عشر(٣٥٨) .

عشر شامبيليون فيها على أنقاض معبد قام الأقباط بهدمه واستخدموا حجارته فى بناء كنيسة صغيرة ، ولكنه تمكن من قراءة بعض النقوش التى وجد بانها ترجع الى عهد الملك نختبو واوغسطس وكلود وتراجان وعبر شامبيليون عن أسفه « لأن أقباط قفط قاموا بهدم معظم المعابد من أجل تشييد كنائسهم ولذلك فهى لا تحتوى الآن الا على القدر اليسير من عمائر العصور الفرعونية القديمة(٣٥٩).

قـــــوص :

هى مدينة ابولينو بوليس Apollinopolis القديمة ، يسكنها الأقباط الآن ، بها قرى فقيرة بائسة ، لا توجد بها صناعة هامة ســوى صناعــة تفريخ البيض(٣٦٠) وكان للمدينــة تجارة مزدهرة مع الحبشة والنوبـة واليمن ولكنهــا أهملت فى القرن التاسع عشر . واصبحت قوص الآن من أكثر مدن مصر بؤســا وتعاسة حتى اننا لا نلمح فيها ســوى الفئران بعد أن تراجعت مكانتهــا(٣٦١) .

الأقصـــــر :

اهتم الرحالة بالحديث عن الأقصر أو طيبة(٣٦٢) وانصب هذا الحديث عن آثارها العظيمــة ، خاصة وان هنــاك عددا من الرحالة الأثريين زاروا المنطقة فى القرن التاسع عشر نخص بالذكر منهم شــامبيليون وبلزوني الايطــالى وبريس دافين وويلكنــون البريطانى ولبسيوس الألمــانى .

وقد سجل بريس دافين محاولات فرنسا نقل مسلة الأقصر الى باريس حيث بنى الفرنسيون منزلا من الطوب اللبن من أجل

واحتهم والنوم فيه ورغم تواضع هـذا المنزل الا أن بريس دافين شعر فيه بالراحة وتمتع بأجمل المناظر وبنسمات النهر الجميلة فبدت له « البسط والحصر أفخر الأثاث » كما سجل الخطوات التى اتبعت من أجل نقل المسلة سليمة الى فرنسا وقد استقرت فى نهاية الأمر فى ميدان الكونكورد بباريس(٣٦٣) .

كما شاهد بريس دافين القنصـل البريطانى صولت وهو يقوم بعمليـات التنقيب عن الآثـار لحسـابه الخـاص يعاونـه الايطالى بلزونى ، وجذبت تجارة الآثار والتنقيب عنهـا مختلف الجنسيات ولعل أشهر الشخصيات التى قابلها الرحالة فى الأقصر هو اليونانى « ترياندافيلو » الذى أقام بين المقابر المصرية وعاش على تجارة الآثـار ومن غلة قطعـة أرض استخدم الفلاحين فى زراعتها ، وقد واصل التنقيب عن الآثار لحسابه الخاص واكتسب خبرة تؤهله أن يحدد مكان جميع الآثار التى بيعت فى أوروبا منذ اربعين عاما .

ونظرا لاقامته الطويلة فى البلاد وتجاربه الطويلة فقد أتيح له أن يؤدى من الخدمات للرحالة وكان « ترياندافيلو » يعيش وحيدا كالراهب يحيك ثيابه ويعد طعامه بنفسه(٣٦٤) .

وقد تحدث معظم الرحالة عن بيع الآثار والاتجـار فيها وتورط البدو فى هذه التجارة وشعر مونوليه بالحزن لأن العديد من المقابر تم نهبها بواسطة العرب ونقلت محتوياتها الى فرنســا وبريطانيا(٣٦٥) .

وقد اتفق معظم الرحـالة على عظمـة وروعة آثار طيبـة بمعابدها الجميلة ومسلاتها الضخمة وتماثيلها ولمسنا فى كتاباتهم الحزن والأسى مع هذه الآثار التى تتعرض للتآكل والدمار بفعل العوامل الجوية كذلك بسبب السلب والنهب(٣٦٦) .

وقد الهبت هذه الآثار خيال الرحالة وأثارت فيهم ذكريات مصر الفرعونية فكتب امبير « عند السير فى طيبة وعلى ضفتى النيل نشعر باننا نسير على ضفاف نهر السين » وغالى وبالغ امبير فى تشبيهاته ، فعقد مقارنة بين معبد الكرنك وميدان لاتوال فى باريس ، كذلك انعش طريق الكباش ذاكرته فخيل اليه انه يسير فى ممرات الشانزليه . والحقيقة أجد أن هذه المقارنة غير موفقة جانبه الصواب فيها لأن آثار الأقصر لا تقارن بأى منطقة اخرى فى العالم ولكن ربما أراد أن يبسط ويوضح للقارىء الفرنسى جمال المشاهد التى رآها واستمتاعه بها(٣٦٧) .

هذا وقد عمل الأثريون فى طيبة فوضح ريفو العديد من الرسومات عن المعابد والمسلات فيها قبل مجىء شامبيليون الى مصر وعبر ريفو عن اعجابه فكتب « أعتقد أن أهل طيبة أرق سكان العالم فهم أول من عرف الزراعة والفلك »(٣٦٨) .

وقارن امبير بين جهود شامبيليون الفرنسى وولنكسون البريطانى فجاءت المقارنة لصالح شامبيليون فعبر عن رأيه قائلا « ان الأول فهم الحضارة المصرية ، أما الثانى فقد وقع فى العديد من الأخطاء عند وصفه لمعابد طيبة »(٣٦٩) .

قدم الرحالة الفرنسيون وصفا لآثار طيبة بضفتيها اليسرى واليمنى وان كنا نفضل تركيز الحديث على ما ذكره شامبيليون بصفته أكثرهم تحققا فى هذا المجال . شملت آثار الضفة اليسرى لطيبة وادى الملوك ، ومقبرة مرينبتاح الأول ، ووادى الملكات ، والقرية والرامسيوم وتمثال ممنون ، ومدينة هابو

وادى الملوك او بيبان الملوك :

كان به معظم المواصفات ليكون جبانة ملكية اذ يقع فى وادى مجدب تحاصره صخور عمودية شاهقة وجبال عالية ، وهو فى

منطقة جدباء لا زرع فيها ولا مياه سواء على المنحدرات الجبلية أو فى الوادى ، ونلمح فى سفح الجبال أبوابا مريحة الشكل مسدودة فى معظمها حتى أنه يتعين علينا الاقتراب منها لتبين زخارفها ، وتفضى تلك الأبواب الى المقابر الملكية وتحتوى على موميات ملوك الأسرات الطيبية الثامنة عشرة والتاسعة عشرة والعشرين وفيها مقابر رمسيس الأول ومرينبتاح الأول ورمسيس الأكبر ومرينبتاح الثانى ومرينبتاح الثالث ، وكلهم من ملوك الأسرة الثامنة عشرة ، وأخيرا أقدمهم أمينوفيس ممنون الذى دفن على حده فى الوادى الغربى المنعزل ، كما عثر على مقبرة رمسيس ميتامرن مؤسس الأسرة التاسعة عشرة ، فضلا عن ستة من مقابر الملوك الرعامسة من خلفاء ميامون وينتسبون الى الأسرة التاسعة عشرة والعشرين . وعند اجتياز الباب نجد ممرات ودهاليز طويلة تغطيها نقوش متقنة للغاية وتحتفظ فى معظمها برونق ألوانها الزاهية وتقودنا على التوالى داخل حجرات تستند على اعمدة غنية بالزخارف حتى بلغ الحجرة الرئيسية المذهبة وهي أوسع الحجرات وترقد فى وسطها مومياء داخل تابوت ضخم من الجرانيت ، ولاشك أن مقبرة رمسيس كانت تعد من أكبر واروع المقابر التى لاتزال موجودة فى وادى الملك ، أما اليوم فقد بهتت الألوان الزاهية بسبب العوامل الزمنية والدخان والأبخرة ، وتتفرع هذه المقبرة الى ثمان حجرات صغيرة جانبية وتزدان الجدران بلوحات لها أهمية كبيرة تمثل مراحل اعداد الطعام وأنواع الأسلحة والاشارات الخاصة بالجيش المصرى(٣٧٠) .

وتعتبر مقبرة مرينبتاح الأول من أجمل المقابر ، وهى قطعة جوهرية تساوى بمفردها من حيث القيمة مجموعة كاملة من القطع ، وقد حدث نزاع فى الاسكندرية مع الانجليز لانهم ادعوا انهم الملاك الشرعيون للمقبرة وان بلوزنى قام باكتشافها لحساب

صولت ولكن شامبيليون عند رحيله هدد باغراق القطع الأثريــة التى فى حوزته لو صمم البريطانيون على أخذها(٣٧١) .

ومن الملاحظات الطريفة التى ذكرها الرحالة عند زيارتهم لوادى الملوك انهم استخدموا العديد من هــذه المقــابر للاقامة وتخزين المعدات حتى أن شامبيليون احتفل بعيد ميلاد ابنته فى مقبرة سيتى الأول(٣٧٢) كما أشار الرحالة الى اكتشافات بلزونى فى وادى الملوك فقد تمكن من كشف مقبرة سيتى الأول . كذلك اشاروا الى كتابات علمــاء الحملة والرحــالة البريطــانى بوكوك ويعتبر الأخير هو أول من سجل ونبه لأهميــة هــذه المقــابر فى القرن الثامن عشر(٣٧٣) .

وتعتبر المســلات من أهم ما لفت نظر الرحــالة وقد راى فوربان « بانها تبدو فى ارتفاعها وكأنها ستصل الى الشمس »(٣٧٤) وقد صحح شامبيليون بعض المعتقدات عن المســلات بأنها كانت تحوى أسرارا دينية أو مضــاربات فلسفية وأسرار علوم السحر والتنجيم أو حتى دروسا فى الفلك واكد أن الغرض من اقامــة المسلات هو اهداؤها للأبنيــة التى تقف أمامها وهى بذلك تمثل أهداءات دينية(٣٧٥) .

أما الرامسيوم : فهو من أضخم الآثار فى طيبة وقد وصفــه ديودور الصقلى بانه أكثر الأبنية ضخامة وفخامة ، كمــا كتب ولكنسون البريطانى بأن هــذا الأثر « قادر على مضاهــة ومنافسة كل الآثار المصرية ، انه باريثينون طيبة ، توجد به صــالة ضخمة سجل عليها اسماء أبناء رمسيس »(٣٧٦) .

وقد سجل شامبيليون عن الرامسيوم بأنه بنــاه رمسيس الأكبر ، ويستخدم الرحالة خطــأ اسم مقبرة أوسيمندياس عليه

فصحح ذلك ، واكد ان الرامسيوم خاص برمسيس الأكبر وكتب عنه « ويتملكنى احساس حقيقى بالهيبة عندما نتجول داخل تلك الأروقة » ندرك أنها كانت مسكنا لواحد من أشهر وأفضل الأمراء الذين انجبتهم مصر القديمة على امتداد تاريخها الطويل ولم يحتفظ الرامسيوم بأى جزء من أجزائه كاملا(٣٧٧) الا عندما نجا منه من همجية الفرس ، وتأثير العوامل الزمنية ويعد الرامسيوم من أرفع وأعظم الآثار الضخمة فى طيبة وقد تسبب انهيار الصرح الأول المشيد من الحجر الرملى فى اختفاء كافة النقوش التى كانت تغطى واجهتها الخارجية ، وتوجد لوحات تصور الفرعون وهو يقدم القرابين الى الهة طيبة وآمون والمعبودة موت والالهة الشاب خنو وبتاح ومنتو ، وهناك لوحات تصور الفرعون وهو يتقبل الهبات والعطايا التى تغدقها عليه الالهة . وهناك لوحات تصور الالهة أتوم يقدم الى الالهة منتو الفرعون رمسيس ، ويظهر الاله آمون رع الذى يسكن الرامسيوم بطيبة موجها حديثه الى رمسيس ويناديه « يا ولدى الحبيب يبتهج قلبى لرؤية أعمالك الصالحة » . كذلك تشغل واجهة الصرح ناحية الفناء الأول للقصر مجموعة من اللوحات العسكرية تصور غزوات رمسيس خاصة ضد الشعوب الآسيوية التى يستدل من ثيابها على المنطقة الواقعة بين دجلة والفرات وفارس والجزء الأيمن للوح لوحة تصور استقبال تلك الشعوب فى معسكر الملك اذ تراهم يمثلون فى حضرة رمسيس الذى يشجعهم تعنيفا ، ويوجد تمثال لرمسيس الأول لايقل ارتفاعه عن ثلاثة وخمسين قدما بخلاف قاعدته المنحوتة من كتلة حجرية أخرى يبلغ طولها نحو ثلاث وثلاثين قدما ويقدر ارتفاعها بستة أقدام ، كذلك فى الصرح الأيمن للوح الثانى توجد لوحة تمثل رمسيس وهو يقود معركة

فى احد المدن وهو فوق عجلته الحربيــة المندفعة وسط ساحــة المعركة حيث تتاثر جثث القتلى ، ويتعقب الملك أعداءه الهــاربين ويرميهم بالسهام . وتعتبر مشاهد هــذه المعارك من أجمل ما صور من معارك . وفى أعلى الجدار نقش يصور احتفال رمسيس الأكبر بأعياد اله طيبة العظيم حورس ويوجد فى احتفال مماثل فى مدينة هابو . وهنــاك أسماء الملوك المشاركين فى الاحتفال على الترتيب نعرم ثم اسم مجهول كما وجد أسماء الأسرة السابعــة عشرة احمس وامنحتب الأول وتحتمس الأول وتحتمس الثانى وامنحتب الثانىوتحتمس الرابع وامنحتب الثالث وحورس ورمسيس الأول ومرينبتاح ورمسبس الأكبر وهنــاك لوحات تضم صــور كاملة لأبناء رمسيس الأكبر الذكور مرتبــة زمنيا حسب أعمارهم ويرتدى هؤلاء الأمراء ثيابا تدل على مكانتهم العالية كما يمسكون بشارات تعكس منزلتهم الزمنية ويبلغ عددهم ثلاثة وعشرين أميرا(٣٧٨) .

وادى العسساسيف :

يقع شمال الرامسيوم ويوجد به مقابر محفورة فى الجبال . قام ولكنسون البريطــانى بعدة اكتشــافات فيه ، ولكن شامبيليون صحح الكثير من المعلومات عنه(٣٧٩) .

وقــد ذكر شامبيليون أن هــذا الوادى تبرهن نصــوص معبده انه تم تشييدها فى ظل وصاية امننتى باسمالمكة « امنسى » وابنها الشاب « تحتيمس الثالث .» ولذلك فهو يعود الى تاريخ سابق لعام ١٧٣٦ ق.م والذى يوافق بالتقريب السنوات الأولى لاستئثار تحتيمس الثالث بالسلطة . وهكذا يناهز عمر تلك النقوش ثلاثة آلاف وخمسمائة عام وتشير نصــوص الاهــداء التى تزين الحجرات إن البناء الداخلى كان لمعبد تم تكريسه الى آمون رع

اله طيبة العظيم رب الأرباب وهـذا المعبد تزينه نقوش وتمـاثيل على قدر عظيم من الروعة والاتقان كما كان مسبوقا بحرم وطريق طويل ترتمى على جانبيه تماثيل أبو الهول كما نحت قدس أقداسه تقريبا فى الصخور العمودية التى تتكون منها سلسلة الجبـال الليبية . وقد تسبب وقوع المعبد وسط المقـابر والأسقف المقببة لبعض حجراته فى تضليل عدد الرحالة مؤخرا وايهامهم بأن ذلك البناء كان قبرا لتحتمس الثالث ، ويحتوى المعبد على لوحات تمثل تقديم القرابين . وهـذه اللوحات لها اهمية كبيرة لأن منهـا علمنا التفاصيل الهامة حول ملوك الأسرة الثامنة عشرة . كمـا توجد لوحة تمثل تحتمس الثالث وهو يقدم القرابين الى والدة تحتمس الثانى ورسم يصور الوصى « امنلتى » يتعبد لآمون رع كما توجد رسوم توضح أسماء بعض الأميرات مثل .« رانوفريد » ابنة الملك كذلك الأميرة « سوتنو نريه » ابنة احمس(٣٨٠) .

وقد تعرض هذا المعبد للعديد من عمليات الترميم التى تمت فى عهد ملوك الأسرة الثامنـة عشر خاصـة حورس ـ رمسيس الأكبر وابنـه مرينبتاح الثـانى ، كذلك تعرض للترميم فى فترة متـأخرة فى عهد بطليموس يورجتيس الثـانى وزوجتـه الأولى كليوباترة(٣٨١) .

ويبدو هنا حماس شامبيليون للفن المصرى فهو يرى أن الرسـومات الرائعـة فى هـذا المعبد كانت فى عهـد الفراعنـة اما ما أضيف فى عهد يورجتيس فهو اقل من حيث الدقة والجمال ويسجل رأيه قائلا « أنا اغتنم هذه الفرصة لتكرار أن الفن المصرى لا يدين الا لنفسه بكل ما تمخض عنه من أعمال عظيمـة وظاهرة ورائعة ، ومهما كانت وجهة نظر العلماء الذين يؤمنون ايمانا راسخا بالتوالد الذاتى للفنون اليونانيـة فانا مقتنع مثل جميع الرحالة

الذين زاروا مصر جيدا والذين الموا المـاما حقيقيا بالآثار المصرية المنتشرة فى أوروبا بأن الفنون قد بدأت فى اليونان بتقليد الفنون المصرية تقليدا اعمى »(٣٨٢) .

ومن أهم التماثيل التى حرص الرحالة على الكتابة عنهـا **تمثـال ممنون** وهو تمثـال ضخم نحت من صخرة واحـدة من الجرانيت الوردى عبر مونتوليه عن اعجابه فسجل « لا يملك المرء سوى الانبهار أمامه خاصـة وأنه نحت بأيدى بشرية »(٣٨٣) .

وهو ما أكد شامبيليون عن التمثال « يوجد فى سهل طيبة تمثالان عملاقان شهيران يبلغ ارتفاع كل واحد منهما نحو ستين قدم » وقد نال التمثال الشمالى المعروف باسم تمثـال ممنون شهرة واسـعة ، وقد نحت كل تمثال من كتلة واحدة من الحجر الرملى والرخـام الذى اقتلع من محاجر جبال طيبـة العليـا ونصب فوق قاعدة ضخمة من نقش الحجر ، وهما يصـوران فرعون جالسا يضـع يديه فوق ركبتيه فى وضع استرخاء ، ونفى شامبيليون أن التمثالين يصـوران أميرين مصريتين كمـا كان يعتقد دينوى عند مجىء الحملة الفرنسية . وأكد شامبيليون أن النقوش التى وجـدت على التمثـالين اثبتت أن صاحبهمـا هو أمنحتب(٣٨٤) .

مدينـة هابـو :

عندما زار أمبير مدينة هابو استاء لوجود العديد من القرى حولها مما يفسد آثار هذه المدينة الرائعة (٣٨٥) وقد رأى بواتو بأن هـذه المدينة تلخص كل آثار مصر(٣٨٦) هـذا وقد قام لبيسوس الألمـانى ببعض الحفـائر فيهـا ووجد لوحات تمثـل انتصارات الملك رمسيس(٣٨٧) .

وقد وجد شامبيليون بها العديد من الآثار فهناك معبد يرجع الى عهد الأسرة الثامنة عشرة ، وقصر هائل يعود الى عصر الاضمحلال الأول ابان الغزو الأثيوبى ومقصورة قام بتشييدها احد الأمراء الدين أطاحوا بنفوذ الفرس ، وباب يعود الى العصر الافريقى واروقة من العصر الرومانى(٣٨٨) .

أما الحرم الشائع المشيد من الحجر الرملى فيمثل بطليموس سوتر وهو يقدم القرابين الى الهة طيبة . وبعد صرح سوتير يوجد بناء صغير لصور نقوشه « نختنبو » أحد ملوك الأسرة الثلاثين وهو يقدم الهدايا الى آمون . وقد لاحظ شامبيليون ان المقصورة بها كشف لبعض الكتابات ، وبالفحص الدقيق تأكد ان الملك الأثيوبى طهرق أمر ببناء المقصورة ثم جاء الكوشيون وأمروا بكشط اسمه ثم جاء بطليموس سويتر الثانى ونسب الصرح الى نفسه(٣٨٩) .

ويوجد قصر فى مدينة هابو يحتوى على لوحات رائعة ترجع الى عصر رمسيس ميامون ولم يضف خلفاؤه سوى بعض الأشياء البسيطة ، كما وجدت لوحات مثلت أمجاد رمسيس الحربية وحررت معظم الحروب التى خاضها(٣٩٠) .

ولعل اهم ما عثر عليه شامبيليون هو لوح ملكى به قائمة بتسلسل أسماء الملوك ابتداء من امينوفيس وانتهاء بسادس خلفاء رمسيس ، كذلك حوى اللوح تسجيل لأسماء الملوك الفرس الدين حكموا مصر(٣٩١) كذلك وجد معبد خصصه واهداه يورجتيس الثانى واخته كليوباترة للمعبود تحوت وهو اله راعى العلوم ومبتكر الكتابة وكافة الفنون، وقد رسمت صورة الأخير وحصص هذا المعبد لعبادة الهة اخرى مثل بوجيمور على هيئة

النسر ، وهنـاك لوحات تمثل بطليموس وهو يقدم القرابين الثمينة الى آلهة طيبة الرئيسية آمور وموت وخنو ، كمـا توجد لوحات تصور الملك وهو يطلق البخور تكريما للالهـة ، ولوحات تمثل بطليموس يورجيتيس وهو يقدم البخور لبطليموس سوتير الأول وزوجتـه برنيكى ، كذلك يوجد نقشـان يوضحـان بطليمـوس يورجيتيس الثاني وهو يقدم الابتهالات لمصور أجداده وخلفائه . ورأى شامبليون أن نقوش المعبد يغلب عليها الخشونة خاصـة فى رسم الأحرف الهيروغليفية مما يدل على أن المتسـارع خـلال العهود الأخيرة للاحتلال اليونانى(٣٩٢) .

القرنـــة :

وجد كادلفين فى القرنة مبنيان أوروبيان خصصا لاستقبال الأثريين والرحـالة ووجد ان معظم سـكان المنطقـة يعملون فى تجارة الآثار وفى التنقيب عنها وتشعر من خلال كتاباته أنه يشعر بالأسف لأن سكان هـذه المناطق كانوا يتميزون بالهدوء والقناعة فلمـا عرفـوا تجـارة الآثـار ، غيرت هـذه المهنـة من أخلاقهم الفطريـة(٣٩٣) .

ولعل أهم ما لفت النظر فى القرنة هو الأثر المشهور باسـم « قصر القرنة » وهو يرجع الى العصور الفرعونيـة وهو يتميز بروعة نقوشه والعناية الفائقة فى بنائه وتوجد بالقرب منه بعض الأنقـاض قد تكون أبنيه كانت ملحقـة به وقد وجد شامبيليون أشارات الى الأسرة الثامنة عشرة والتاسعة عشرة ووجد رواق يناهز طوله مائة وخمسين قدما ويبلغ ارتفاعه ثلاثين قدما ويستند على عشرة أعمدة تتكون جذوعها من حزم وقد نحتت على الواجهات الأربعة اسماء منفتاح الأول ورمسيس الكبير ، ويبدو أن منفتاح

الأول وهو الذى قام ببناء القصر ثم أتمه ابنه رمسيس الأكبر وحرص على تزيينه وأضاف بعض الزخارف الى المحفل المقدس واهدى هذا القصر الى آمون رع وسمى القصر بيت منفتاح الأول وهو مهدى العطور أى ثالوث طيبة المقدس وتتميز نقوش قصر القرنة بالرقة والأناقة(٣٩٤) .

أما عن الضفة اليمنى للنهر فتوجد آثار الكرنك التي وصفها أمبير بانها غابة من الأبراج العالية المغطاة بالكتابات الهيروغليفية والتى لم ينجح احد فى العالم فى تقليدها(٣٩٥) وقد وجد الرحالة ان آثار الكرنك ونقوشها تضارع نقوش أبو سمبل من حيث روعة النمط والتنفيذ وقد ارتبطت كافة النقوش بالغزوات التى شنها مرينبتاح الأول فى آسيا وقد أقام هيكل الكرنك ملوك الأسرة الثامنة عشرة ثم قام بعمليات التوسعة خلفاؤهم خاصة تحتمس الرابع ورمسيس الثانى والثالث وينسب الى الأخير بهو الأعمدة(٣٩٦) .

والحقيقة ان شامبيليون لم يكتب بافاضة عن الكرنك بسبب مرض أفراد البعثة المصاحبين له ولكنه عبر عن اعجابه بما وجده من الآثار بقوله « ان آثار طيبة يعجز لسانى عن وصفها ، لا يسعنى سوى الاعتراف باننا فى أوروبا لسنا سوى أقزام وانه ما من شعب قديما كان أو حديثا بلغ فى فهم وتصور فن العمارة يمثل هذه الدرجة الرفيعة العظيمة التى بلغها المصريون القدماء »(٣٩٧) .

ارمنت :

هى هرمونتوبوليس القديمة والتى عبدت فيها التماسيح(٣٨٩) ذكر نستور لوت عنها بأن اهم ما يلفت النظر فيها هو معبد شيد احتفالات بذكرى ولادة قيصرون ابن كليوباترة(٣٩٩) وقد

قدم شامبيليون وصفا لهذا المعبد بأنه يحتوى على حجرة تمثل قدس الأقداس وعلى الجدران نقش يصور المعبودة ريتو زوجة الاله منتو وهى تضع المعبود جربقراط ولذا سميت هـذه الغرفـة بمكان الولادة فنرى القابلة الالهية تجذب الطفـل من رحم أمه والمرضعة الالهية تمد يدها لاستقباله وقد وقف آمون رع يشرف على الولادة(٤٠٠) .

هذا وقد لاحظ مونتوليه بأنه كلمـا تقدمنا جنوب الأقصر يتناقص عـدد القرى حتى تصـبح نادرة رغم وجـود الأراضى الصالحة للزراعة كذلك لاحظ وجود اسوار حول هـذه القرى محصنة بعدد من الأبراج فتبدو القرية وكأنها قلعة وعلل مونتوليه ذلك « نظرا لكثرة اغارات البدو على هذه القرى فينزلون من الجبال المحيطة بها ويقومون بالاغارة على السكان »(٤٠١) .

اســـنا :

هى لاتوبوليس القديمة بها أسواق متعدد جميلة ، وهى مركز البك وبها ثكنات للجنود يمر بها أعداد كبيرة من الفرنسيين فى طريقهم الى أسوان ، منازلها من الطوب الأحمر ، شوارعها عريضة، وان كانت متربة وقد قدر كادلفين عدد سكانها بنحو ثلاثة آلاف . وقد فر اليها المماليك بعد مذبحة القلعة وقد انتعشت المدينة فى عهد محمد على فيوجد مصانع للقطن والملايات ويأسف كادلفين لتراجع تجارة اسنا وعلل ذلك لأن القوافل القادمة من سـنار لم تعد تتوقف بها(٤٠٢) . ولكن فى عهد اسماعيل استردت المدينة مكانتها التجارية وقد ذكر دى جارسى أن قوافل شمال السودان أصبحت تتوقف الآن فى اسنا كما تزايد عدد سـكانها بشـكل ملحوظ(٤٠٣) .

وقد أشار الرحالة الى اهتمام علمـاء الحملة باسـنا فقد أقام فيها الجنرال بليار أثناء محاولته لتدعيم السيطرة الفرنسية فى جنوب الوادى كمـا أنشـئوا مصنعـا لاستخراج الزيوت من الخس(٤٠٤) .

كذلك أشار الرحالة الىأهم آثار اسنا وهو معبد يرجع عهده الى الامبراطور تراجان وسيفير كرسى لعبادة الاله خنوم ، كذلك وجد كادلفين معبد شيده بطليموس يشـبه الى حد كبير معبد دندرة خاصة فى نقوشه ورسوماته ولكن شعر بالأسف لأن هـذا المعبد تحول الى مخزن للقطن(٤٠٥) .

ادفـــو :

هى أبولينوبوليس القديمة ، معظم سكانها من الأقباط قدر كادلفين أعدادهم بنحو الفين ، وتعتبر صناعة الأقمشة الزرقـاء الملونة هى الصناعة الوحيدة المزدهرة فى المدينة(٤٠٦) .

ويعتبر معبد أدفو من أهم الآثار فقد أعجب معظم الرحالة به وسجل مونتوليه هـذا الاعجاب بقوله « انه أجمل من معبد دندرة »(٤٠٧) ولكن كادلفين ورغم اعجابه بهذا المعبد الا انه لم يشاركه فى الرأى فقد وجد أن آثار أدفو أقل كبثير من آثار الكرنك ولكن معبدها جدير بالمشاهـدة رغم قدمه وقد خصص للالهـة أبولون فى عهد البطالمـة(٤٠٨) .

ويقع جبل السلسلة من أدفو وقد استخدمت أحجاره لبناء المعابد والآثار ليس فى أدفو وحدها وانما فى اسـنا وطيبة(٤٠٩) ويحوى الجبل العديد من التماثيل والمعابد التى ترجع الى عهد الأسرتين الثامنة والتاسعة عشرة هـذا وقد قام لبسيوس بعدة

حفائر ومن أشهر المعابد معبد نحت فى الصخر خصص لعبادة آمون رع ثم اله النيل وهو اله محلى ثم الاله شيك وتحوى معابد جبل السلسلة فى مجملها على لوحات تدل على العبادات فى ذلك الوقت كذلك لوحات خاصة بالأسرتين السابقتين وتشير اللوحات الى استغلال محاجر الجبل فى تشييد المعابد واقتلاع الأحجار(٤١٠) .

كوم امبو :

أشهر ما يميز كوم امبو هو معبد يرجع الى عهد بطليموس السادس والثامن خصص الجزء الأيمن منه لعبادة الاله سبك والاله حتحور وحنتو بينما خصص الجزء الأيسر لعبادة الثالوث أرواريس وتونينوفريه ابنهما بينتو ، وكما وجد عند المعبد باب مشيد باتقان يرجع الى عهد تحتمس الثالث ، وقد اكتشف شامبيليون معبد كوم امبو الحالى· قد شيد فوق انقاض معبد كرسى لعبادة الاله سبك رع .

وقد سجل شامبيليون رايه فى معابد أدفو واسنا وكوم امبو فذكر أن علماء الحملة قاموا بتغطيتها اكثر من اللازم على حساب معالد طيبة التى لم تسحوذ على اعجابهم(٤١١) .

اسوان :

ميناء نهرى ، سكانها خليط من الفلاحين والقبائل العربية والنوبيين ، أى انها تضم سلالات متعددة على حد قول كادلفين (٤١٢) وقد وصف لنيان دى بلفون سكان اسوان بانهم يتصفون بالهدوء والسكينة والدعة من اى مدينة أخرى فى العالم. غذاؤهم وتجارتهم من البلح يرحبون بالزوار ويرافقونهم فى جولاتهم ولا يجد المرء صعوبة فى التعامل معهم(٤١٢) .

وتشتهر المدينة بخصوبة اراضيها ويكسوها النخيل من كل مكان كما تنتشر فيها أشجار الدوم التى تتزايد كثافتها كلما توغلنا جنوبا والمنازل قليلة فى أسوان كذلك المساجد ، والضفة اليسرى للنهر شبه مهجورة(٤١٤) .

هذا وقد اتخذت الحكومة من أسوان مركزا لحملاتها العسكرية عند ضم السودان وظلت تمثل اهمية كبيرة ولذلك تم وضع قوة عسكرية فيها باعتبارها مدخل النوبة(٤١٥) . كما قامت بجهود من اجل تحسين الملاحة عند الشلال الأول فنسفت بعض الصخور لتيسير وسائل الاتصال(٤١٦) .

ويوجد طريقان من أسوان الى فيلة الأول عبر الصحراء والثانى بواسطة النيل وتعترضه الأحجار والجنادل وعلى مقربة من أسوان توجد قرية الشلال وقد بنيت وسط الصخور وحولها أعداد كبيرة من أشجار النخيل كما يوجد ميناء يعرف باسم القصر(٤١٧) .

وتشتهر أسوان بآثارها ومعابدها وقد ذاعت شهرة المدينة قديما بسبب براعة كهنتها فى الحسابات الفلكية(٤١٨) وقد وجد شامبيليون معبدا يرجع الى عهد الامبراطور نرفا خصص لعبادة خنوم كما وجدت لوحات تمثل الملك أمنحتب الثالث وزوجته الملكة تى ومائل امامهم أمير اثيوبى يقدم له ولزوجته فروض الولاء والطاعة(٤١٩) .

ويتألف سكان جزيرةالفنتين من ثلاثين عائلة من النوبيين وهى جزيرة مكسوة بالنخيل(٤٢٠) ومن أهم آثارها معبدين تم تدميرهما خصص احدهما لعبادة خنوم اله الفنتين شيده الاسكندر ابن الاسكندر الأكبر وقد وجد أمبير فيه باب عليه كتابة توضح

ان الاسكندر قد شيد هـذا المعبد فنقش عليه « سـيد العالم فازى الشمال والجنوب والشرق وسيد التيجان »(٤٢١) كما عثر كادلفين على آثار لمقيـاس النيـل الذى تحـدث عنـه شرابون قديمـا(٤٢٢) .

فيـــلة :

يحيط بها الجبال من كل جانب والجزيرة يبدو فيها الطابع النوبى حيث الجبال السـوداء والسهول الرملية وقد عقد أمبير مقارنة بين جبال فيلة وجبال الألب فى أوروبا فوجد تشابهـا خاصة فى تكوينات الصحور وان كانت جبال فيلة يسكنها العرب النوبيون(٤٢٣) .

وتعتبر فيلة « مفتاح النوبة » على حد وصف دى كان(٤٢٤) وقد اشار ديديه الى أهميتها العسكرية(٤٢٥) أما بواتو فقد وصفها بانها جزيرة تستحق المشاهدة(٤٢٦) .

ويقطن فيلة بعض العائلات النوبية التى تفد اليها كل عـام وعند انخفاض مياه النيل يزرع النوبيون فى شرق الجزيرة الخضار والذرة(٤٢٧) .

وتحمـل الجزيرة ذكريات للفرنسيين ففيهـا تعقب ديريه المماليك ابان الحملة الفرنسية على مصر ، كذلك عثر علماء الحملة على بعض الآثار فيها(٤٢٨) . وقد أدرك الأثريون فى القرن التاسع عشر اهمية فيلة فعمل ليسيوس للتنقيب عن الآثار فيها وعثر بالفعـل على العـديد من اللوحـات والخـراطيش والكتابـات الهيروغليفية والديموطيقية(٤٢٩) .

واكد شامبليون أن معابد فيلة لا تمثل آثار مصر القديمـة فحسب وانما ترجع أيضا الى العصرين اليونانى والرومانى وبها

معبد كرسي لعبادة ايزيس وحتمور فى عهد نختنبو الأول وشـيد قـدس الأقـداس فيه فى عهـد بطليمـوس فيـلادفلرس ، وعثر شامبيليون على لوحات تمثل انتصـارات تحتمس الرابـع على الليبيين كذلك لوحة تمثل ذكرى قيام أمنحتب الثالث باخضـاع الأثيوبيين ولوحـة أخرى تمثل دعـاء موجـه الى المعبودين نيت ومنتو(٤٣٠) .

بيـت الـوالى :

وجد فيه امبير بعض الآثار المنحوتة فى الصخر ، وتماثيـل لرمسيس تمثل انتصاراته على الأثيوبيين(٤٣١) كما عثر شامبيليون على لوحات تصـور الغزوات التى شنها الملك ضد العرب وبعض الشعوب الافريقية والكوشيين وقبـائل شارى المعروفـة اليوم باسم البشارية ، ولوحات تمثل سيزوستريس وهو يقدم لنا القادة العسكريين وحشداً من الأسرى وينطلق الملك فوق عجلتـه الحربية الملاحقة أعدائه أما الجدار الأيمن فيصـور لنا تفاصيل الحملة العسكرية ضد الأثيوبيين والبشارية وفى اللوحة الأولى الأسرى يفرون الى الغابات والجبال واللوحة الثانيـة صـورة القادة العسـكريين والأسرى أمامهم ويغلب الطـابع الدينى على النقوش وقد كرس المعبد لعبادة آمون والاله خنوم ومن وجهة نظر شـامبيليون ان آثـار الوالى آخر الآثـار الرائعـة بين طيبـة وكلابشـة(٤٣٢) .

دبـــود :

بها آثار ترجع الى العصر الرومـانى وخراطيش ترجع الى الامبراطور تيبيزيوس(٤٣٣) .

كلابشـــــة :

قرية يتسع فيها السهل ، بها عدد من الأكواخ البائسة وترجع اهمية كلابشة الى كونها ميناء بين أسوان ودندور وعدد سـكانها اربعمائة ومعظمهم من النوبيين(٤٣٤) .

وقد عثر فيها شامبيليون على معبدين فى عهد أمنحتب الثانى ثم أضيف له بعض الاضافات فىعهد البطالمة والرومان وقد خصص لعبادة آمون(٤٣٥) .

دنـــــدور :

لا تحوى سوى أكواخ بائسة(٤٣٦) ولها معبد عند سفح الجبل أفاد مهندسـه من طبيعة الأرض فيه وصلابتها فشيده فى هـذه المنطقة وهو واحد من أكبر واعظم المعابد الهندسية ويحوى المعبد صالات واسعة وقد خصصت للكهان وفى العصر الرومانى اتخذه الرومان لعبادة هرمس كما يوجد معبد يرجع الى عهد أوغسطس ورغم صغر حجمه وعدم اكتماله الا انه يتعلق بتجسيد أوزوريس فى هيئة أدمية على الأرض(٤٣٧) .

جـرف حسـين :

بها مجموعة من المعابد محفورة فى الصخور وبه رسـومات توضح الكهنـة وهم يؤدون الطقوس الدينيـة(٤٣٨) وقد اشـار شامبيليون الى عدم تمكن الفرس من تدمير معبد جرف حسـين كما فعلوا فى غيره من المعابد وذلك لأنه منحوت فى الجبل وقد ترك فيه رمسيس الأكبر اثرا عظيما مثلما فعل فى أبى سمبل وكرسـه للاله بتاح(٤٣٩) .

دكــــا :

تعتبر آثار للبطالمــة والرومان وقد عثر فيها على معبد يشبه معبد دندرة وفيه وجد خرطوش يمثل الملك الأثيوبى ارجمنتيس احد ملوك أثيوبيا ، وقد قام باقامة معبد الاله تحوت ثم عمــل البطالمــة على استكمال البناء(٤٤٠) .

وادى السـبوع :

منطقــة وادى السبوع افريقيــة الملامح هكذا وصف ريفو المنطقة اثناء تفقده لآثارها وقد سميت المنطقة بهذا الاســم نظرا لوجود أعداد كبيرة من التماثيــل أعتقد الناس أنها على هيئــة الأســود .

وقد وجد شامبيليون فيها معبدا نحت نصفه فى الصخر ، بينما شيد النصف الآخر من الحجر ويمتد أمام العبد طريق به مجموعة من الكباش . ومن وجهة نظر شامبيليون ان معبد وادى السبوع يعتبر أردأ ما شيد فى عهد رمسيس الأكبر فقد قطعت أحجاره بلا اتقان . هذا وقد كرس سيزوستريس المعبد للالهين رع حور وبتاح ونصبت أمام المعبد أربعة تماثيل عملاقــة تصور سيزوستريس واقفا فى بداية ونهاية صفى الكبــاش ثم لوحــة تصور الملك وهو يفتك بقبائل الشمال والجنوب(٤٤٢) .

عمــدا :

تقع على الضفة اليسرى للنهر بها هيــكل يرجع الى عهد الأسرة الثانية شيده تحتمس الثانى لرع ثم أتمه تحتمس الرابع وتمثل نقوش المعبد ازهى عصور الفن المصرى القديم(٤٤٣) .

هذا وقد حول الأقباط المعبد الى كنيسة ولذلك نجد فيه صالات بها كتابات هيروغليفية الى جانب وجوه مسيحية(٤٤٤) .

كوروسكو :

ميناء يصل اليها القوافل القادمة من سنار تسير لمسافة عدة أيام ثم تعبر الصحراء الممتدة من كوروسكو فى جوقاس يفتقر الطريق الى المياه نظرا لطبيعته الصخرية ويتولى العبابدة شئون التجارة فى كوروسكو وقد أشاد بهم دى كان اثناء زيارته للمنطقة نظرا لأمانتهم وتعتبر كوروسكو سوقا للرقيق(٤٤٥) .

درو :

تتوقف فيها القوافل القادمة من افريقيا الداخلية تفصل اليها قوافل الحبشة حاملة ريش النعام وتراب الذهب(٤٤٦) ويسكن دور أمير أسود اللون يمتلك العديد من الأسلحة ومعظم سكان المنطقة من العبابدة والبشارية وهى أول محطة للجمرك من السودان(٤٤٧) .

وتمتاز درو باتساع شوارعها ومنازلها جميلة زرعت حولها الحدائق ويقوم السكان بزراعة النخيل والشعير والحنطة والطباق والقطن ويعتبر الذرة هو الغذاء الرئيسى لهم كما يقومون بشى الضفادع(٤٤٨) .

ابريم :

كان الجغرافيون القدماء يعتبرونها أبعد نقطة فى بلاد النوبة ، وهى تتكون من جبل شاهق مقام على مستوى النهر به بقايا حصن شيد فى عهد سليم الأول . وفى القرن التاسع عشر اتجه اليها المماليك بعد مذبحة القلعة(٤٢٩) ولذلك قام ابراهيم بك

بمهاجمة المنطقة مما اضطر السكان الى الفرار ومازال سكان المدينة يحتفظون بهذه الذكريات المؤلمة (٤٥٠) .

هذا وقد عثر أمبير على آثار هامة فى ابريم ترجع الى عهد امنحتب الثانى ، رمسيس الأكبر وقد نحتت معابدها فى الصخر كما انها تحتوى على آثار للملك طهراقا ملك اثيوبيا وآثار القلعة رومانية وكنيسة قديمة(٤٥١) .

ونظرا لأهمية موقع ابريم حيث انها أقرب المناطق الى دنقلة والسودان فقد عين بها كاشف لمراقبة الأوضاع(٤٥٢) .

ابو سمبل :

من أقرب المناطق الى ابريم ، بها معبد شيده رمسيس الأكبر وهو من أروع المعابد(٤٥٣) وقد انبهر أمبير لفخامة المعبد فسجل انطباعه عنه « شعرت باننى أمام بناء عملاق »(٤٥٤) .

أما شامبيليون فقد سجل اعجابه بهذا المعبد « انه يستحق بمفرده مشقة القدوم حتى النوبة انه لؤلؤة براقة لن تفقد رونقها » وتزدان واجهة المعبد بأربعة تماثيل ضخمة منحوته باتقان تصور رمسيس الأكبر جالسا ولا يقل ارتفاع كل منها عن واحد وستين قدما ان مدخل المعبد يخطف الالباب وقد قام شامبيليون بازاحة الرمال أمام المدخل ليهيىء ممرا للدخول الى الداخل ، وقد وصف شامبيليون معاناته وهو يعمل فى جو شديد الحرارة وقد اضطر الى الانزلاق الى داخل المعبد وهو يحمل شمعة بيده اليسرى وينسخ النقوش التى وجدها بيده اليمنى(٤٥٥) .

كما وجد معبد آخر كرسته نفرتارى زوجة رمسيس الأكبر للمعبودة حتحور وتوجد نقوش للفرعون وزوجته وأسفل أقدامها نجد أولادهم وبناتهما على التوالى باسمائهم والقابهم(٤٥٦) .

ولم يتمالك شامبيليون نفسه فى أبى سمبل فى التعبير عن اعجابه بالحضـــارة المصرية القديمة فكتب « فليسترجع كل منصف ونزيه فى ذاكرته شعور الرعب الممزوج بالاشمئزاز الذى لابد أن يكون قـد أحس به مثـلى فى رومـا أمـام بعض تلك الرؤوس الامبراطورية العقيمة المحفوظة فى الكابيتول وليقارن هـذا الشعور بالاحساس المنبعث من نظر رأس فرعوني ضخم عندئذ لن يساوره أدنى شك فى براعة قدما المصريين فى تشكيل قطع فنية كبيرة أى فى اعمال النحت الضخمة التى تشـكل الجـانب الأساسى لفن العمـارة(٤٥٧) .

ويمكن أن نجعل ما توصل اليه شامبليون فى أبى سمبل على النحو التـالى :

١ ـ ست لوحات لرمسيس الأكبر راكبا عجلته الحربيـة التى تجرها الخيول وهو يطارد جيشا آشوريا .

٢ ـ الملك مرتجلا يصارع أحد خصومه .

٣ ـ الملك جالسا وسط قادة جيشه يتلقى نبأ اغارة الأعداء على مقدمة صفوفـه ويقوم الخـدم بتجهيز عجلتـه الحربيـة .

٤ ـ لوحة رابطة قصور انتصارات الملك وحوله الهة طيبة .

٥ ـ لوحتـان كبيرتان تصـوران الملك يصرع الأسرى من مختلف الجنسيات تقربا لالهة طيبة وأبى سمبل .

وقد علق شامبيلبون على هذه الاثار الرائعة فى أبى سـمبل قوله لقد حول الملك رمسيس الأكبر الجبل الى قصر كبير ونصب أمام بوابته أربعة تماثيل عملاقة(٤٥٨) .

وجدير بالذكر ان بلزونى قدم العديد من الرسـومات عن معابد ابى سـمبل الا انها جاءت باهتـة لا تضـاهى ما سـجله وكتبه شامبيليون(٤٥٩) .

وادى حلفـــا :

سمى بهذا الاسم لوجود نبات الحلفا فيه ، وتمثل منطقـة وادى حلفا اهمية كبيرة حيث تتجمـع بها القوافل القادمـة من النوبة(٤٦٠) ويقوم سكان المنطقة بجمع نبات الحلفـا ويصنعون منه الجريد ، كما يقومون ببيع الجريد والنطرون الذى يحصلون عليه من الصحراء ومازال سكان المنطقة يعتمدون على المقايضـة خاصة مع القوافل القادمة من كردفان والسودان ويوجد طريق للقوافل يتجه من كردفان الى واحـة سليمة الى وادى حلفـا مباشرة وبذلك تتجمع فيه معظم بضـائع غرب السودان(٤٦١) .

هذا وقد اشاد معظم الرحالة بتوفر الأمن فى مصر كمـا ساعدهم على التجول بحرية فى البلاد فكتب بريس دافين « يندهش المرء لقلة الشرطة وقلة الاضطراب ومع ذلك لا يجد الأجنبى فى اى مكان آخر حرية اكثر مما يجد فى مصر فالرحالة يقبلون ويقيمون وينتقلون من اقليم الى اقليم دون أن تهتم أية سـلطة بحضورهم أو تتحرى وظائفهم ولأن سببه يقومون برحـلاتهم ولا يلزمهم أحد باستيفاء الأوراق فهى شىء مجهول هنا على ان عدم المراقبة هـذا لا يفسد الأمن الخاص واستتباب الحياة العامة فالطرق بوجه عام مأمونة على الرغم ما قلة طارقيها ولا يبلغ عدد حوادث السرقـة والقتل ذلك القدر الملحوظ الذى يبلغه فى الدول الأوروبية(٤٦٣).

ولم يكتف الرحالة الفرنسيون بتقديم وصف للمدن المصرية وانما قدموا أيضـا وصف لبعض مدن السـودان التى زاروهـا

ونخص بالذكر منهم كايو وكادلفين . وقد حظى اقليم دنقلة بالاهتمام من قبل الرحالة باعتباره بوابة السودان الشمالى وان جاء وصف المدن موجزا .

سمنة :

ميناء صغير يسكنه النوبيون ، يوجد به شلال ينسب اليه يعرف بشلال سمنة(٤٦٤) وذكر كادلفين ان شلالات المنطقة اقل قوة من وادى حلفا وبدت المنطقة له افريقية خالصة فالشلالات والصخور والغزلان تمرح الى جانب النهر أعطته هذا الانطباع(٤٦٥) .

عكاشة :

سميت بهذا الاسم نسبة الى احد المشايخ وكان يوجد به معبد أوسرتن الثالث حوله المسيحيون الى كنيسة وقد وصف كادلفين المنطقة بانها لا تحوى بسوى مجموعة من الأكواخ البائسة ولا تنتعش الا بمرور الحجاج القادمين من افريقيا عليها(٤٦٦) .

بطن الحجر :

بها آثار مسيحية(٤٦٧) .

سكوت :

من أهم مناطق النوبة بها اعداد كبيرة من النوبيين والقبائل العربية ويعمل السكان بالزراعة ومعظم مساكنهم من القش والجريد والصناعة بدائية ولعل أشهر ما تشتهر به سكوت هو صناعة العتجريب أى الأسرة(٤٦٨) .

دنقلة الجديدة :

هى عاصمة دنقلة اتخذها اسماعيل العاصمة وأطلق عليها لفظ الجديد تميزا لها عن دنقلة العجوز والتى كانت عاصمة النوبة السفلى كذلك أطلق عليها دنقلة الأوردى لانه وضع فيه اردديا عسكرية(٤٦٩) .

دنقلة العجوز :

كانت عاصمة النوبة السفلى بموقعها الحصين فهى تقع فى منطقة مرتفعة ، بنيت حولها الأسوار العالية هجرها الدناقلة بسبب اغارات الشايقية فاتجهوا الى شندى وبربر وكردفان ودارفور(٤٧٠) ثم أعطى كادلفين لمحة تاريخية عنها بأن الفاطميين كانت لهم اتصالاتهم مع حكام المنطقة كذلك حكام الدولة الأيوبية وفى عهد بيبرس أرسل جيشا لغزو النوبة وعين شكنده حاكما على دنقلة من قبله وعندما فتح العثمانيون مصر عينوا عليها الكشاف من أبناء المحروسة(٤٧١) .

الدبة :

تقع على الضفة اليسرى قدر كادلفين عدد سكانها نحو الفين وهى تعتبر نقطة تجارية هامة ساعد على ذلك ان النيل ينحنى عندها نحو الجنوب ولذلك تعتبر أقرب نقطة الى القوافل القادمة من كردفان وترتبط الدبة بطريق تجارى ويربطها بكل من دنقلة العجوز فى النوبة وطريق يصلها بالأبيض والفاشر فى غرب السودان(٤٧٢) .

الدفـار وامبقـول :

تشتهران بآثارهمـا وترتبطـان بطريق تجـارى مع غرب السـودان(٤٧٣) .

الحفـير وحنـك :

اراضيهما خصبة ، ويعتبر حنك من الموانى الهامة فى المنطقة، كما تمر القوافل القادمة من غرب أفريقيا بهما خاصـة قوافل العيد(٤٧٤) .

البرقـــل :

تقع على الضفة اليمنى للنهر بها جبل البرقل الشهير بآثاره وهيـاكله كمـا انها بها أهـرامات تشـبه أهرامـات دهشـور وسـقارة(٤٧٥) .

مـــروى :

من أشهر المناطق التى يتجلى فيها الفن الأثيوبى القديم بها العديد من الآثار والتماثيل الجميلة كذلك لوحات رسمت عليهـا أنواع مختلفة من الزراف والثعابين ووصف كادلفين الفن الأثيوبى بأنه أقل مرتبة من الفن المصرى القديم ولذلك فقد بدت له آثار مروى أقل عظمة وجمالا من آثار طيبة « ولا يمكن عقد مقارنـة بينهمـا »(٤٧٦) .

وتشتهر مروى بسوقها الكبير المخصص لبيع الحيوانـات كذلك بها سوق للعبيد يباع فيه العبد مثلما تباع الدواب كمـا تشتهر المنطقة بانتاج الذرة والقمح والزبد والبيض(٤٧٧) .

ابو حمد :

بها اعداد كبيرة من مقابر الأولياء الصالحين ويسكن المنطقة القبائل العربية وتعتبر أبو حمد محطة هامة للقوافل التجارية(٤٧٨) .

يتضح مما سبق أن الرحالة عندما تحدثوا عن مدن مصر العليا ركزوا حديثهم عن الآثار التى وجدوها وانبهروا بها بينما جاء الحديث عن مدن مصر السفلى أكثر شمولا فاستعرضوا مظاهر التحديث والتطوير مع القاء الضوء على أهم الآثار فى كل مدينة .

هوامش الفصل الخامس

(١) Rifaud : Op. Cit., PP. 1 — 3.

(٢) الهام ذهنى : المرجع السابق ص ١٩٨ . انظر وصف مصر جـ ٣ ص ٦٣ دراسة دى بو وايمية جولو .

(٣) Rifaud : Op. Cit., P. 3.

(٤) Amperé : Op. Cit., P. 133.

(٥) Scholcher : Op. Cit., P. 157.

(٦) ماربيت : المرجع السابق ص ٩ .

(٧) Edmond, Ch. : Op. Cit., PP. 25 — 29.

(٨) Chateaubriand : Op. Cit.,

(٩) الهام ذهنى : المرجع السابق ص ٢٢٠ .

(١٠) دراسة جولو (دراسة موجزة عن مدينة رشيد) : وصف مصر جـ ٣ ص ٢١١ .

(١١) المرجع السابق : ص ٢١١ .

(١٢) Marmont : Op. Cit., PP. 118 — 119.

(١٣) Saint Hilaire : Op. Cit., P. 181.

(١٤) Edmond, Ch. : Op. Cit., P. 22.

(١٥) Amperé : Op. Cit., P. 310.

(١٦) Michaud : Op. Cit., P. 45.

(١٧) Cadalvene : Op. Cit., t 1 P. 219.

(١٨) Marcellus : Op. Cit., P. 378.

(١٩) Sholcher : Op. Cit., P. 92

(٢٠) Michaud : Op. Cit., P. 66.

(٢١) Montulé : Op. Cit., P. 129.

(٢٢) Dmperè : Op. Cit., PP. 300 — 309.

(٢٣) انظر الهام ذهنى : مصر فى كتابات الرحالة الفرنسيين فى القرنين السادس عشر والسابع عشر .

(٢٤) Montulé : Op. Cit., P. 129.

(٢٥) Marmont : Op. Cit., P. 167.

(٢٦) Ibid. : P. 148.

(٢٧) Poitou : Op. Cit., P. 72

(٢٨) Chateaubriand : Op. Cit., PP. 135 — 136.

(٢٩) شامبليون فى مصر : المرجع السابق ص ١٨ .

(٣٠) Michaud : Op. Cit., t 5. P. 233.

(٣١) Forbin : Op. Cit., P. 71.

(٣٢) الهام ذهنى : المرجع السابق ص ٢٨٠ .

(٣٣) Gobineau : Op. Cit., P. 19.

(٣٤) Scholcher : Op. Cit., P. 17.

(٣٥) Forbin : Op. Cit., P. 171.

(٣٦) Poitou : Op. Cit., P. 88.

(٣٧) Nerval : Op. Cit., P. 90.

(٣٨) ادريس افندى : المرجع السابق ص ٢٩ .

About : Op. Cit., P. 158.

(٤٠) Xavier : Op. Cit., PP. 425 — 428.

(٤١) ثروت عكاشة : المرجع السابق جـ ١ ص ٢٢٦ .

(٤٢) Pardieu : Op. Cit., P. 55.

(٤٣) Montulé : Op. Cit., P. 185.

(٤٤) Scholcher : Op. Cit., P. 175.

(٤٥) ادريس افندى : المرجع السابق ص ٣١ .

(٤٦) El Abassy : Op. Cit., P. 14.

(٤٧) Pardieu : Op. Cit., P. 72.

(٤٨) شامبليون فى مصر : المرجع السابق ص ١٠١ .

(٤٩) Xavier : Op. Cit., P. 428.

(٥٠) Du Camp : Op. Cit., P. 33

(٥١) Montulé : Op. Cit., P. 325.

(٥٢) Poitou : Op. Cit.,

(٥٣) Nerval : Op. Cit., P. 369.

(٥٤) ادريس افندى : المرجع السابق ص ٣١

(٥٥) Scholcher : Op. Cit., P. 159.

(٥٦) Gobineau : Op. Cit., P. 23.

(٥٧) Fromentin : Op. Cit., P. 163.

(٥٨) Xavier : Op. Cit., P. 419.

(٥٩) De Garcy : Op. Cit., PP. 56 — 63.

(٦٠) Ibid. : P. 614.

(٦١) Blanc : Op. Cit., P. 32.

(٦٢) Pardieu : Op. Cit., P. 77.

(٦٣) Nerval : Op. Cit., P. 110.

(٦٤) Pardieu : Op. Cit., P. 19.

(٦٥) Garcy : Op. Cit., P. 67.

(٦٦) Lmperè : Op. Cit., P. 219.

(٦٧) ادوارد لين : المرجع السابق ص ٣٤٤ .

(٦٨) Montulé : Op. Cit., P. 156.

(٦٩) ادريس افندى : المرجع السابق ص ٣٢ .

(٧٠) Gobineau : Op. Cit., P. 20.

(٧١) شامبيليون فى مصر : المرجع السابق ص ١٠١ .

(٧٢) Scholcher : Op. Cit., P. 175.

(٧٣) Du Camp. : Op. Cit., P. 35.

(٧٤) De Garcy : Op. Ci., PP. 51 — 56.

(٧٥) Xavier : Op. Cit., P. 414.

(٧٦) Ibid. : P 414.

(٧٧) Pardieu : Op. Cit., P. 38.

(٧٨) De Garcy : Op. Cit.. PP. 49 — 51.

(٧٩) Fromentin : Op. Cit., P. 147.

(٨٠) Pardieu : Op. Cit., P. 54.
(٨١) Ibid. : P. 54.
(٨٢) Marmont : Op. Cit., P. 519.
(٨٣) Marcellus : Op. Cit., PP. 416 — 418.
(٨٤) De Garcy : Op. Cit., P. 70.
(٨٥) Gobineau : Op. Cit., P. 36.
(٨٦) Xavier : Op. Cit., P. 442.
(٨٧) Scholcher : Op. Cit., P. 92.
(٨٨) De Bussierè : Op. Cit., P. 4.
(٨٩) Marmont : Op. Cit., P. 519.
(٩٠) De Garcy : Op. Cit., P. 70.
(٩١) Ibid : P. 70.
(٩٢) شامبيليون فى مصر : المرجع السابق ص ١٠٠ .
(٩٣) Fromentin : Op. Cit., P. 146.
(٩٤) انظر الهام ذهنى : مصر فى كتابات الرحالة والقناصل .
(٩٥) Cadalvene : Op. Cit. t 1.
(٩٦) Blanc : Op. Cit., PP. 324 — 325.
(٩٧) Fromentin : Op. Cit., P. 135.
(٩٨) Cadalvene : Op. Cit., t 6 P. 15.
(٩٩) Fromentin : Op. Cit., P. 135.
(١٠٠) Cadalvene : Op. Cit., t 6. P. 16.
(١٠١) Fromentin : Op. Cit., P. 136.
(١٠٢) Marmont : Op. Cit., P. 280.
(١٠٣) شامبيليون فى مصر : المرجع السابق ص ١١٦ .
(١٠٤)
(١٠٥) المرجع السابق ص ١١٨ .
(١٠٦) Frobin : Op. Cit., P. 76.
(١٠٧) Poitou : Op. Cit., P. 437.
(١٠٨) Ibid. : P. 438.

(١٠٩) Cadalvene : Op. Cit., t 1. P. 182.
(١١٠) Xavier : Op. Cit., P. 447.
(١١١) شامبليون فى مصر : المرجع السابق ص ٥٧ .
(١١٢) Poitou : Op. Cit., P. 27.
(١١٣)
(١١٤)
(١١٥) Ibid. : P. 28.
(١١٦) Amperè : Op. Cit., PP. 65 — 71.
(١١٧) الهام ذهنى : المرجع السابق ص ٢٢١ .
(١١٨) Marmont : Op. Cit., P. 212.
(١١٩) De Garcy : Op. Cit., P. 37.
(١٢٠) شامبليون فى مصر : المرجع السابق ص ٥٨ .
(١٢١) Poitou : Op. Cit., P. 448.
(١٢٢) Marmont : Op. Cit., P. 138.
(١٢٣) Poitou : Op. Cit., P. 448.
(١٢٤) Scholcher : Op. Cit., P. 159.
(١٢٥) Rifaud : Op. Cit., P. 42.
(١٢٦) Poitou : Op. Cit., PP. 27 — 32.
(١٢٧) Gobineau : Op. Cit., PP. 7 — 9.
(١٢٨) Rifaud : Op. Cit., P. 43.
(١٢٩) Poitou : Op. Cit., P. 32.
(١٣٠) Marmont : Op. Cit., P. 45.
(١٣١) شامبليون فى مصر : المرجع السابق ص ٢٩٠ .
(١٣٢) Michaud : Op. Cit., P. 65.
(١٣٣) Amperè: Op. Cit., P. 111.
(١٣٤) Xavier : Op. Cit., P. 487.
(١٣٥) Ibid. : P. 487.
(١٣٦) Marmont : Op. Cit., P. 184.

(١٣٧) Ibid : P. 184 — 188.

(١٣٨) Poitou : Op. Cit., P. 44.

(١٣٩) Montulé : Op. Cit., P. 118.

(١٤٠) ماريت : المرجع السابق ص ١٠٦ ، ص ١٠٧ .

(١٤١) Amperè : Op. Cit., PP. 65 — 71.

(١٤٢) Schlocher : Op. Cit., P. 146.

(١٤٣) شامبيليون فى مصر : ص ٦٤ ، ص ٧٠ .

(١٤٤) المرجع السابق : ص ٧٠ .

(١٤٥) Schelcher : Op. Cit., P. 162.

(١٤٦) الهام ذهنى : المرجع السابق ص ٢٢٢ .

(١٤٧) Amperè : Op. Cit., P. 52.

(١٤٨) Ibid. : P. 60

(١٤٩) شامبيليون فى مصر : المرجع السابق ص ٦٣ .

(١٥٠) Amperè : Op. Cit., P. 17.

(١٥١) Murmont : Op. Cit., P. 19.

(١٥٢) كلوت بك : المرجع السابق ص ٢٣٣ .

(١٥٣) شامبيليون فى مصر : المرجع السابق ص ٥٦ .

(١٥٤) انظر وصف مصر دراسات عن المدن والاقاليم المصرية . دراسة عن مدينة الاسكندرية — جرايتان لوبير ج ٣ ، ص ٣٠١ .

(١٥٥) ذكر علماء الحملة بأنها تبعد عن البحر ثلاثة فراسخ .

(١٥٦) Michaud : Op. Cit., P. 27.

(١٥٧) Montulé : Op. Cit., P. 327.

(١٥٨) Chateaubriaud : Op. Cit.,

(١٥٩) Montulé : Op. Cit., P. 328.

(١٦٠) Michaud : Op. Cit., P. 36.

(١٦١) Ibid. : P. 31.

(١٦٢) Ibid. : P. 32.

(١٦٣) Du Camp : Op. Cit., P. 9.

(١٦٤) الهام ذهني : المرجع السابق ص ٢٢٠ .
(١٦٥) وصف مصر جـ ٣ ص ٢١١ جولو (دراسة موجزة عن مدينة رشيد) .
(١٦٦) ادريس افندى : المرجع السابق ص ٥٥٠ .
(١٦٧) المرجع السابق ص ٥٥١ .
(١٦٨) Forbin : Op. Cit., P. 66.
(١٦٩) ادريس افندى : المرجع السابق ص ٦١ .
(١٧٠) Forbin : Op. Cit., P. 67.
(١٧١) ادريس افندى : المرجع السابق ص ٥٥٠ .
(١٧٢) Forbin : Op. Cit., P. 68.
(١٧٣) Ibid : P. 69.
(١٧٤) Michaud : Op. Cit., t 6. P. 357.
(١٧٥) الهام ذهني : المرجع السابق ص ١٦٢ .
(١٧٦) Forbin : Op. Cit. P. 69.
(١٧٧) Michaud : Op. Cit., t 6. P. 380.
(١٧٨) Ibid : P. 364.
(١٧٩) ادريس افندى : المرجع السابق ص ٥٧ ، ص ٥٩ .
(١٨٠) المرجع السابق ص ٦١ .
(١٨١) Forbin : Op. Cit., P. 67.
(١٨٢) Michaud : Op. Cit., t 6. P. 357.
(١٨٣) Ibid : P. 358.
(١٨٤) Forbin : Op. Cit., P. 68.
(١٨٥) Michaud : Op. Cit., t 6. P. 357 — 358.
(١٨٦) Forbin : Op. Cit., P. 68.
(١٨٧) Forbin : P. 70.
(١٨٨) Michaud : Op. Cit., t 6. P. 365.
(١٨٩) الهام ذهني : المرجع السابق ص ٢٢٩ .
(١٩٠) ادريس افندى : المرجع السابق ص ٥٣ .
(١٩١) ادريس افندى : المرجع السابق ص ٥٢ .

(١٩٢) المرجع السابق : ص ٥٣ .
(١٩٣) المرجع السابق : ص ٥٤ .
(١٩٤) المرجع السابق : ص ٥٤ .
(١٩٥) Poitou : Op. Cit., P. 63.
(١٩٦) Michaud : Op. Cit., P. 85.
(١٩٧) Ibid : P. 86.
(١٩٨) Rifaud : Op. Cit., PP. 135 — 136.
(١٩٩) كلوت بك : المرجع السابق جـ ١ ص ٤٢٩ .
(٢٠٠) Michaud : Op. Cit., t. 7. P. 31.
(٢٠١) انظر وصف مصر ص ٩١٠ .
(٢٠٢) Rifaud : Op. Cit., P. 19.
(٢٠٣) Fromentin : Op. Cit., P. 134.
(٢٠٤) De Garcy : Op. Cit., P. 409.
(٢٠٥) ماريت : المرجع السابق ص ٥٣ .
(٢٠٦) المرجع السابق ص ٥٤٠ .
(٢٠٧) شامبيليون فى مصر : المرجع السابق ص ٨٧ .
(٢٠٨) كلوت بك : المرجع السابق ص ٤٢٧ .
(٢٠٩) Marmont : Op. Cit., PP. 223 — 226.
(٢١٠) شامبيليون فى مصر : المرجع السابق ص ٨٧ .
(٢١١) Michaud : Op. Cit., PP. 50 — 51.
(٢١٢) الهام ذهنى : المرجع السابق ص ٢٢٨ .
(٢١٣) Michaud : Op. Cit., P. 47.
(٢١٤) انظر وصف مصر : جـ ٢٣ ص ١٠٥ رحلة الى أعماق الدلتا دراسة دى بو وايميه جولو .
(٢١٥) De Bussieré : Op. Cit., P. 298.
(٢١٦) Pardieu : Op. Cit., PP. 29 — 30.
(٢١٧) Amperè : Op. Cit., P. 120.
(٢١٨) Michaud : Op. Cit., P. 31.
(٢١٩) شامبيليون فى مصر : ص ٩٦ .

(٢٢٠) شامبيليون في مصر : المرجع السابق ص ٨٩ — ص ١٠٧ .

(٢٢١) Caillaud : Op. Cit., PP 248 — 249.

(٢٢٢) Ibid. : P. 250.

(٢٢٣) Ibid. : P. 249.

(٢٢٤) Ibid. : PP. 250 — 255.

(٢٢٥) الهام ذهنى : المرجع السابق

(٢٢٦) El Abassy : Op. Cit., PP. 30 — 32.

(٢٢٧) Gobineau : Op. Cit., P. 38.

(٢٢٨) Saint Hilaire : Op. Cit., P. 341.

(٢٢٩) Cadalvene : Op. Cit., t 2. PP. 467 — 473.

(٢٣٠) Saint Hilaire : Op. Cit. ,PP. 350 — 360.

(٢٣١) Gobineau : Op. Cit., PP. 36 — 38.

(٢٣٢) Saint Hilairè : Op. Cit., PP. 360 — 362.

(٢٣٣) Ibid. : P. 362.

(٢٣٤) De Garcy : Op. Cit., P. 446.

(٢٣٥) Edmond, Charles : Op. Cit., P. 300.

(٢٣٦) الهام ذهنى : المرجع السابق ص ٢٣١ .

(٢٣٧) Du Camp : Op. Cit., PP. 277 — 282.

(٢٣٨) انظر الهام ذهنى : المرجع السابق ص ٢٣٠ .

(٢٣٩) انظر وصف مصر طبوغرافية البحر الفارغ الدريويس ج ٢ ص ٤١٠ ووصف بحيرات وادي النطرون ج ٣ ص ١٢٤ .

(٢٤٠) Gobineau : Op. Cit., t 1. P. 320.

(٢٤١) ماريت : المرجع السابق ص ١٤٢ .

(٢٤٢) Forbin : Op. Cit., P 75.

(٢٤٣) Amperè : Op. Cit., PP. 173 — 174.

(٢٤٤) Chateaubriaud : Op. Cit., P. 129.

(٢٤٥) Cadalvene : Op. Cit., t 1. P. 200.

(٢٤٦) كلوت بك : المرجع السابق ص ٤٠٥ .

(٢٤٧) شامبليون فى مصر : المرجع السابق ص ١٤٢ .

(٢٤٨) Cadalvene : Op. Cit., P. 102.

(٢٤٩) Amperè : Op. Cit., P. 169.

(٢٥٠) Forbin : Op. Cit., P. 75.

(٢٥١) شامبليون فى مصر : المرجع السابق ص ١٤٠ .

(٢٥٢) المرجع السابق : ص ١٤١ .

(٢٥٣) الهام ذهنى : المرجع السابق ص ٢٤٦ ، ص ٢٤٧ .

(٢٥٤) شامبليون فى مصر : المرجع السابق ص ١٢٦ .

(٢٥٥) Amperè : Op. Cit., P. 201.

(٢٥٦) Poitou : Op. Cit., P. 361.

(٢٥٧) ماريت : المرجع السابق ص ١٤٠ .

(٢٥٨) شامبليون فى مصر : المرجع السابق ص ١٣٣ .

(٢٥٩) المرجع السابق ص ١٣٤ .

(٢٦٠) الهام ذهنى : المرجع السابق ص ٢٤٨ .

(٢٦١) Rifaud : Op. Cit., P. 191.

(٢٦٢) Cadalvene : Op. Cit., t 1. P. 224.

(٢٦٣) Rifaud : Op. Cit., P. 183.

(٢٦٤) كلوت بك : المرجع السابق ص ٤٤٥ .

(٢٦٥) Rifaud : Op. Cit., P. 183.

(٢٦٦) Linant : Memoire sur La Lac Moeris.

(٢٦٧) Amperè W Op. Cit., P. 294.

(٢٦٨) Ibid. P. 295.

(٢٦٩) Ibid. P. 296.

(٢٧٠) لمزيد من التفاصيل انظر احمد البدوى فى موكب الشمس القاهرة ١٩٥٠ جـ ٢ ص ١٤٧ .

(٢٧١) Fromentin : Op. Cit., P. 77.

(٢٧٢) Cadalvene : Op. Cit., P. 222.

(٢٧٣) Ibid. P. 224.

(٢٧٤) Scholcher : Op. Cit., P. 260.

(٢٧٥) Rifaud : Op. Cit., P. 260.

(٢٧٦) Scholcher : Op. Cit., P. 260.

(٢٧٧) Cadalvene : Op. Cit., t 1 PP. 221 — 224.

(٢٧٨) Forbin : Op. Cit., P. 78.

(٢٧٩) Pardieu : Op. Cit., P. 131.

(٢٨٠) Cadalvene : Op. Cit., P. 131.

(٢٨١) Montulé : Op. Cit., P. 165.

(٢٨٢) Fromentin : Op. Cit., P. 65.

(٢٨٣) Cadalvene : Op. Cit., t 1. P. 234.

(٢٨٤) Blanc : Op Cit., P. 97.

(٢٨٥) Pardieu : Op. Cit., P. 131.

(٢٨٦)

(٢٨٧)

(٢٨٨) L'hôtes N. : Op. Cit., P. 85.

(٢٨٩) Cadalvene : Op. Cit., t 1. PP. 237 — 238.

(٢٩٠) Fromentin : Op. Cit., P. 166.

(٢٩١) شامبليون فى مصر : المرجع السابق ص ١٥١ ، ص ١٥٦ .

(٢٩٢) المرجع السابق ص ١٥٦ ، ص ١٥٧ .

(٢٩٣) L'hôte : Op. Cit., P. 82.

(٢٩٤) سميت بالاشمونين نسبة الى شمون ومعناها العربى ثمان فغلب اللفظ على المدينة ورقم ثمان يرمز عناصر الخلف الثمان الى خلف منها الكون حسب نظريات الفراعنة الدينية وفى القسم العربى منها مدينة الأموات (تونة الجبل) والشرقى هى مدينة الأحياء ، احمد بدوى : المرجع السابق ص ١٥٥ .

(٢٩٥) شامبليون فى مصر : المرجع السابق ص ١٥٥ .

(٢٩٦) المرجع السابق ص ١٤٣ ، ١٤٩ .

(٢٩٧) المرجع السابق ص ١٥٦ .

(٢٩٨) Amperè : Op. Cit., P. 324.

(٢٩٩) Cadalvene : Op. Cit., t 1. P. 249.
(٣٠٠) Fromentin : Op Cit., P. 72.
(٣٠١) Cadalvene : Op. Cit., t 1. P. 249.
(٣٠٢) Ibid. t 1. PP. 261 — 268.
(٧٤) Poitou : Op. Cit., P. 345.
(٣٠٤) Cadalvene : Op. Cit., t 1 P. 270
(٣٠٥) About, : Op. Cit., P. 295.
(٣٠٦) Scholcher : Op. Cit., P. 295.
(٣٠٧) Forbin : Op. Cit., PP. 84 — 85.
(٣٠٨) Fromentin : Op. Cit., P. 76.
(٣٠٩) Ibid. P. 77.
(٣١٠) Cadalvene : Op. Cit., t 1. P. 270
(٣١١) Forbin : Op. Cit., P. 84.
(٣١٢) Cadalvene : Op. Cit., t 1. P. 270
(٣١٣) Scholcher : Op. Cit., P. 295.
(٣١٤) Cadalvene : Op Cit., t 1. P. 279.
(٣١٥) كلوت بك : المرجع السابق ص ٨٠١ .
(٣١٦) شامبيليون فى مصر : المرجع السابق ص ١٦٠ ، ص ١٦٥ .
(٣٤٦) Cadalvene : Op. Cit., t 1. P. 303.
(٣٤٧) Ibid. P. 302.
(٣٤٨) Ibid P. 307.
(٣٤٩) الهام ذهنى : المرجع السابق ص ٢٥٦ .
(٣٥٠) Fromentin : Op. Cit., P. 86.
(٣٥١) Cadalvene : Op. Cit., P. 304.
(٣٥٢) Poitou : Op. Cit., P. 396.
(٣٥٣) Amperè : Op. Cit., P. 336.
(٣٥٤) Montulé : Op. Cit., P. 190.
(٣٥٥) Cadalvene : Op. Cit., t 1. P. 304.

(٣٥٦)

(٣٥٧) Amperè : Op. Cit., P. 336.

(٣٥٨) Cadalvene : Op. Cit., t 1. P. 308.

(٣٥٩) شامبيليون فى مصر : المرجع السابق ص ١٧٢ .

(٣٦٠) Scholcher : Op Cit., P. 307.

(٣٦١) Forbin : Op. Cit., P. 88.

(٣٦٢) سميت طيبة مدينة آمون ـ والمدينة الجنوبية تميزا عن منف ومن اسمائها سيدة المدائن ـ وكلمة ابه معناها المقدسة وتى للتعريف وهم أطلق عليها الاغريق مدينة الالهة .

(٣٦٣)

(٣٦٤)

(٣٦٥) Montulé : Op. Cit., P. 240.

(٣٦٦) Amperè : Op. Cit., P. 356.

(٣٦٧) Ibid. P. 358.

(٣٦٨) Rifaud : Op. Cit.,

(٣٦٩) Amperè : Op. Cit., P. 382.

(٣٧٠) شامبيليون فى مصر : المرجع السابق ص ٢٧٦ ـ ص ٢٩٦ .

(٣٧١) المرجع السابق ص ٣٨٢ .

(٣٧٢)

(٣٧٣) Amperè : Op. Cit., P. 290.

(٣٧٤) Forbin : Op. Cit., P. 88.

(٣٧٥) شامبيليون فى مصر : المرجع السابق ص ٢١٨ .

(٣٧٦) Ampere : Op. Cit., P. 395.

(٣٧٧) المرجع السابق ص ٢٩٨ .

(٣٧٨) المرجع السابق ص ٢٩٩ ـ ص ٣٠٨ .

(٣٧٩) Apmeré : Op. Cit., P. 395.

(٣٨٠) شامبيليون فى مصر : المرجع السابق ص ٣١٨ ـ ٣٢٠ .

(٣٨١) المرجع السابق ص ٣١٩ .

(٣٨٢) المرجع السابق ص ٣٢٠ .

(٣٨٣) Montulé : Op. Cit., P. 248.

(٣٨٤) شامبليون فى مصر : المرجع السابق ص ٣٣٠ .

(٣٨٥) Amperè : Op. Cit., P. 438.

(٣٨٦) Poitou : Op. Cit., P. 306.

(٣٨٧) Amperè : Op. Cit., P. 438.

(٣٨٨) شامبيليون فى مصر : المرجع السابق ص ٣٣١ — ص ٣٣٢ .

(٣٨٩) المرجع السابق ص ٣٤٥ .

(٣٩٠) المرجع السابق ص ٣٤٥ .

(٣٩١) المرجع السابق ص ١٧٧ — ص ١٨٠ .

(٣٩٢) المرجع السابق ص ٢٥٧ .

(٣٩٣) Cadalvene : Op. Cit., t 1. P. 315.

(٣٩٤) شامبيليون فى مصر : المرجع السابق ص ٣٦٨ — ص ٣٧٢ .

(٣٩٥) Amperè : Op. Cit., P. 387.

(٣٩٦) كلوت بك : المرجع السابق ص ٧٠٣ .

(٣٩٧) شامبيليون فى مصر : المرجع السابق ص ١٧٥ — ص ١٧٧ .

(٣٩٨) Montulé : Op Cit., P. 128.

(٣٩٩) L'hôte : Op. Cit., P. 103.

(٤٠٠) شامبيليون فى مصر : المرجع السابق ص ١٨٠ ، ص ١٨ .

(٤٠١) Montulé : Op. Cit., PP. 198 — 199.

(٤٠٢) Cadalvene : Op. Cit., PP. 406 — 414.

(٤٠٣) De Garcy : Op. Cit., P. 246.

(٤٠٤) Cadalvene : Op. Cit., t 2. P. 414.

(٤٠٥) Ibid. P. 414.

(٤٠٦) Ibid t 2. P. 352.

(٤٠٧) Montulé : Op. Cit., P. 228.

(٤٠٨) Cadalvene : Op. Cit., t 2. P. 352 .

(٤٠٩) Ibid. P. 306.

(٤١٠) شامبيليون فى مصر : المرجع السابق ص ٢٥٢ — ص ٢٦٢ .

(٤١١) المرجع السابق ص ١٨٣ — ص ١٩٣ .

(٤١٢) Cadalvene : Op. Cit., t 1. P. 317.

(٤١٣) Linant : Op. Cit., P. 39.

(٤١٤) Montulé : Op Cit., P. 206.

(٤١٥) Cadalvene : Op. Cit., t 2. P. 5.

(٤١٦) Du Camp : Op. Cit., P. 123.

(٤١٧) Cadalvene : Op. Cit., t 1. P. 5.

(٤١٨) Ibid. P. 367.

(٤١٩) شامبليون فى مصر : المرجع السابق صـ ٢٤١ ، ص ٢٤٤ .

(٤٢٠) Cadalvene : Op. Cit., P. 186.

(٤٢١) Amperè : Op. Cit., P. 458.

(٤٢٢) Cadalvene : Op. Cit., t 1. P. 367.

(٤٢٣) Amperè : Op Cti., P. 476.

(٤٢٤) Du Camp : Op. Cit., P. 124.

(٤٢٥) Didier : Op. Cit., P. 255.

(٤٢٦) Poitou : Op. Cit., P. 366.

(٤٢٧) Cadalvene : Op. Cit., t 2. PP. 8 — 15.

(٤٢٨) Amperè : Op Cit., P. 476.

(٤٢٩) Ibid. P. 478.

(٤٣٠) شامبليون فى مصر : المرجع السابق ص ٢٣٨ ، ص ٢٤٠ .

(٤٣١) شامبليون فى مصر : المرجع السابق ص ٢٣٥ ص ٢٣٨ .

(٤٣٢) Amperè : Op. Cit., P. 472.

(٤٣٣) Cadalvene : Op. Cit., t 2. P. 25.

(٤٣٤) Ibid. t 2. PP. 32 — 36.

(٤٣٥) شامبليون فى مصر : المرجع السابق ص ٢٣٢ — ٢٣٣ .

(٤٣٦) Cadalvene : Op. Cit., t 2. PP. 40 — 42.

(٤٣٧) شامبليون فى مصر : المرجع السابق ص ٢٣٢ .

(٤٣٨) Amperè : Op. Cit., P. 480.

(٤٣٩) شامبليون فى مصر : المرجع السابق ص ٢٣١ .

(٤٤٠) Rifaud : Op. Cit., P. 257.
(٤٤١) Ibid. P. 257.
(٤٤٢) شامبليون فى مصر : المرجع السابق ص ٢٢٩ .
(٤٤٣) المرجع السابق ص ٢٧٧ .
(٤٤٤) Du Camp : Op. Cit., P. 127.
(٤٤٥) Amperè : Op. Cit., P. 498.
(٤٤٦) Montulé : Op. Cit., P. 201.
(٤٤٧) De Bellefonds : Op. Cit., P. 43.
(٤٤٨) Cadalvene : Op. Cit., t 2. P. 397.
(٤٤٩) شامبليون فى مصر : المرجع السابق ص ٢١٢ .
(٤٥٠) Cadalvene : Op. Cit., t 2. PP. 83 — 85.
(٤٥١) Ibid P. 85.
(٤٥٢) Rifaud : Op. Cit., P. 259.
(٤٥٣) Didier : Op. Cit., P. 296.
(٤٥٤) Amperè : Op Cit., P. 499.
(٤٥٥) شامبليون فى مصر : المرجع السابق ص ٢١ .
(٤٥٦) المرجع السابق ص ١٨٨ .
(٤٥٧) المرجع السابق ص ١٢٥ .
(٤٥٨) المرجع السابق ص ٢١٩ ـ ص ٢٢٢ .
(٤٥٩) المرجع السابق ص ٢٢٢ .
(٤٦٠) Du Camp : Op. Cit., P. 360.
(٤٦١) Cadalvene : Op. Cit., t 2. P. 97
(٤٦٢) شامبليون فى مصر : المرجع السابق ص ١٩٦ .
(٤٦٣) ادريس افندى : المرجع السابق ص ٣٤ ، ص ٣٥ .
(٤٦٤) Cadalvene : Op. Cit., t 1. P. 327.
(٤٦٥) Ibid t 2. P. 160
(٤٦٦) Ibid P. 369.
(٤٦٧) Caillaud : Op. Cit., P. 289.

(٤٦٨)	Cadalvene : Op. Cit., t 2. P. 360
(٤٦٩)	Caillaud : Op. Cit., P. 2.
(٤٧٠)	Cadalvene : Op. Cit., t 2. P. 197.
(٤٧١)	Ibid. P. 198.
(٤٧٢)	
(٤٧٣)	Ibid. t 2. P. 198.
(٤٧٤)	Ibid. t 2. P. 248.
(٤٧٥)	Ibid. t 2. P. 282.
(٤٧٦)	Didier : Op. Cit., PP. 179 — 180.
(٤٧٧)	Cadalvene : Op. Cit., t 2. PP. 200 — 300.
(٤٧٨)	Didier : Op. Cit., P. 170.
(٤٧٩)	De Bellefonds : Op Cit., P. 34.

الخاتمــــة

يتضح مما ســـبق ان الرحـــالة الفرنسيين اهتموا برصـــد احداث مصر السياسية وتسجيل توســـعات محمد على فى القرن التاسع عشر ، وقد اختلفت كتاباتهم عن الأسرة الحاكمة الجديدة من بين مؤيد ومعارض وناقـــد حسب اهواء أصحابهـــا وان كان معظمهم قد اتفق على أن محمـــد على وخلفاءه قاموا بالعديد من الاصـــلاحات فى البـــلاد لبناء مصر الحديثـــة فعقد البعض منهم المقارنات بين محمد على وبين العظماء أمثال بطرس الأكبر ونابليون والاسكندر ، ويكفى وصف « بارديو » له بأنه الشعلة التى اضاءت البلاد بينما بالغ نقاد محمد على فى توجيه سهام نقدهم الى حد ان وصفه « شولشيه وحش الروملى » . أما عباس فقد نال نصيبه ايضا من النقد واتهم بالطغيان والجهل ، ولم يمتدح سعيد باشـــا سوى صديقه دى لسبس ، بينما شن بعض الرحالة سلسلة من الحملات على الخديو اسماعيل واتهموه بالاسراف والتبذير .

وفى الحقيقة أن نقاد محمد على وخلفاءه لم يتفهموا دورهم الحقيقى وهدفهم الرئيسى فى مصر الا وهو بنـــاء دولة مستقلة

تأخذ بأسباب الحضارة الحديثة فاتهموا محمد على بانشاء امبراطورية شخصية تدار لحسابه كما ألقوا اللوم على الخديو اسماعيل لاسرافه فى تقديم الرشاوى والهدايا فى استانبول من أجل تعديل فرمانات وراثة الحكم ، ولم يتفهموا ان سياسة هؤلاء الحكام تلخصت فى رغبتهم فى استقلال مصر والتخلص من شروط معاهدة لندن ١٨٤٠ وفرمان ١٨٤١ .

رافق بعض الرحالة القوات المصرية خلال فترة توسعها فى السودان وبلاد الشام فقدموا وصفا دقيقا للمعارك الحربية ونخص بالذكر منهم كايو وكادلفين ، واثنى معظم الرحالة على انجازات واصلاحات محمد على فى السودان أما المعارضون أمثال شولشيه فلم يروا فيه سوى تاجر للرقيق ، وقد لفت الانتباه كتابات الفرنسيين عن الدولة السعودية الأولى فوقفوا منها موقف المدافع عنها وعن دعوة محمد بن عبد الوهاب وائمة الدولة نخص بالذكر على العباسى وكادلفين وجاءت كتاباتهم مطابقة الى حد كبير لدفاع الجبرتى عنهم فكتب كادلفين « جاءت الدعوة لتنبه المسلمين الى نقاء الاسلام وتخلصه من البدع والخرافات ، والعجيب ان هذا الدفاع امتد ليشمل « ميشو » مؤرخ الحروب الصليبية فذكر ان الوهابى مجدد وان اتباعه يتبعون الطريق السليم وانتقدت حملات محمد على على الجزيرة العربية .

اهتم الرحالة الفرنسيون فى القرن التاسع عشر بالحياة الاجتماعية ورغم ظهور كتاب ادوارد وليم لين « عادات المصريين المحدثين وتقاليدهم » الا ان هذا لم يمنع من خوض هؤلاء الرحالة فى الجانب الاجتماعى خاصة جيرار دى نرفال وبريس دافين وأدمون أبو ووجدنا اهتماما كبيرا بطبقة الفلاحين تلك الطبقة التى استرعت الانتباه بمعاناتها وفقرها فشعر من خلال تلك الكتابات

بالشفقة عنها حتى انهم عبروا عن أسفهم لأن « خير مصر ليس لمن يفلحها » وبينما اتهم البعض الفلاح المصرى بالسلبية نجد كتابات أخرى دافعت عنه وأكدت ان التجنيد ابرز ذكاء الفلاح وشجاعته . تعاطف الرحالة مع المصريين فلا تخلو كتاباتهم عنهم من أوصاف مثل الذكاء وخفة الظل والكرم والود والتسامح ، بينما وجدنا نفورا من طبقة الأتراك والالبان أما اقباط مصر فقد تغيرت لهجة الحديث عنهم فى القرن التاسع عشر بعد سلسلة الهجمات التى تعرضوا لها خلال القرون السابقة من قبل الرحالة الفرنسيين وكان هذا النقد بسبب رفضهم اعتناق المذهب الكاثوليكى وتمسكهم بالمذهب الأرثوذكسى كما أكد الرحالة على تمتع الأقباط بسياسة التسامح الدينى والقوا الضوء على مظاهر الوحدة الوطنية بينهم وبين المسلمين .

وجذبت طبقة الرقيق انتباه الرحالة خاصة جيرار دى نرفال الذى وجه النقد الى الانجيل لانه لم يعالج بوضوح موضوع الرق أما القرآن الكريم فقد عالجه بشجاعة وانسانية .

أثنى الرحالة الفرنسيون على طبقة العلماء خاصة علماء الأزهر فلهم دور قيادى ليس فى مصر فحسب وانما فى العالم الاسلامى وقد اتيح لبعض الرحالة مقابلة بعض العلماء أمثال عمر مكرم والشيخ الشرقاوى والجبرتى وغيرهم كما اثنوا على الأزهر ودوره الحضارى فى مصر والعالم الاسلامى .

نالت المرأة نصيبا وافرا فى كتابات الرحالة والهبت مقالات جيرار دى نرفال عن المرأة المصرية خيال الفرنسيين وقد أكد أن أهم ما يميزها هو تمسكها بالفضائل والأخلاق وهى تحظى بالاحترام وأكد ان القرآن الكريم أنصف المرأة واعطاها كافة الحقوق .

وبينما سجل الرحالة محاولات التحديث والتطوير فى مصر، وأهم المشروعات العمرانية فيها الا اننا نجد ايجازا فى كتاباتهم عند الحديث عن ثروة مصر الزراعيـة وذلك لأن رحالة القرن الثامن عشر قدموا من قبل وصفا شاملا عنها وتبعهم علماء الحملة الفرنسية ولذلك القوا الضوء فى كتاباتهم على أهم المحاصيل التى أدخلها محمد على فى البلاد خاصة القطن والتوت .

اهتم الرحالة بتقديم وصف للمدن المصرية وأن كانوا قد ركزوا الحديث عن الآثار المصرية فى مدن مصر العليا كما القوا الضوء على نمو بعض المدن وتعاظم مكانتها وتراجع البعض الآخر فسجلوا ملاحظاتهم عن تطور مدينة الاسكندرية وتراجع مكانة دمياط ورشيد التجارية . أما ما دونوه عن البحيرات والصحارى فى مصر فلم يختلف كثيرا عما سجله من قبل رحالة القرن الثامن عشر .

هذا وقد تنوعت وظائف الرحالة فمنهم الأثريون أمثال ريفو وشامبيليون ونستورلوت وبريس وافين ومنهم العلماء مثل أمبير والأدباء مثل شارتوبريان وجوتبيه وأدمون والقادة مثل الماريشال مارمون وأصحاب الدعوات الانسانية وأعضاء جمعيات مكافحة الرقيق مثل شولشيه ، الى جانب مجموعة من الرسامين والمصورين أبرزت رسوماتهم وصورهم عظمة الحضارة المصرية القديمة والعمائر الاسلامية الضخمة تلك الصور والرسومات التى فتنت عيون الفرنسيين وزينت بها المتاحف خاصة متحف اللوفر والقصور .

يقابلنا فى القرن التاسع عشر وجود مجموعة من النساء الرحالة نخص بالذكر منهن الكونتيسة دى جسباران والممثلة

راشيل والكونتيسة دى روبرسا ، ولويز كوليه ومدام أولمب ولكن للأسف الشديد لم ترق كتاباتهم الى مستوى الرحالة من الذكور فقد غلبت عليها المبالغة ونقل الروايات المشكوك فيها .

صحح الأثريون من الرحالة الكثير من المعلومات ، واكتشفوا العديد من الآثار ، ويكفى جهود شامبيليون فى هذا المجال ودراسته عن المعابد الواقعة بين الشلالين الأول والثانى ، واكتشاف بريس دافين لمعبد خونو ، أضف الى ذلك جهود مارييت ومؤلفاته عن الحضارة المصرية القديمة ، هذا وقد شهدت مصر تنافسا كبيرا بين الأثريين الفرنسيين وغيرهم من الجنسيات خاصة بلزونى الايطالى الذى عمل فى خدمة القنصل البريطانى صولت ، وليبسوس الألمانى ولكن كان التفوق للفرنسيين واضحا وان كان البعض منهم قد وقع فى بعض الأخطاء وذلك لأن علم التنقيب كان لايزال بسبب طمس تحتمس الثالث لها ، ولكنه صحح اسم مقبرة أوسيمانديس الذى أطلقته لجنة المجتمع العلمى وسماها الحقيقى الرامسيوم وقدم وصفا تفصيليا عن النقوش التاريخية فيها ولكن يكفى شامبيليون انه نجح فى حل اللغز المستحكم واعادة وضع واحدة من أعظم الحضارات فى المكانة الجديرة بها ، كما أنه أرسى دعائم على الآثار المصرية على أسس علمية وبفضل جهود لم تعد آثار مصر بكماء وخرساء اذ جعل الأحجار العريقة تتكلم كما بعث نبض الحياة فى النصوص المدونة على الأسوار والجدران ويكفى عشق شامبليون للحضارة المصرية وتأكيده على براعة قدماء المصريين فى تشكيل القطع الفنية الضخمة الكبيرة وقدرتهم ومنهم العظيم فى أعمال النحت وفن العمارة حتى انه سجل انه عندما شاهد الآثار الرومانية القديمة ينتابه شعور بالاشمئزاز كما أكد أن المصرى أقدم من الفن الاغريقى وأن الأخير تأثر به تأثيرا كبيرا .

لا نلمس فى كتابات الرحالة خلال القرن التاسع عشر العبارات التى تكررت فى القرن الثامن عشر عن غزو مصر وانما عبارات اخرى بديلة أكثر خطورة مثل فرنسة مصر ـ اقامة مستعمرة بلا نفقات ـ مد نفوذها الحضارى فحلت تلك العبارات محل العبارات السابقة .

وأخيرا ينبغى علينا الا نغفل ان أحوال فرنسا الداخلية قد لعبت دورا هاما فى العلاقة بين الدولتين فقد توثقت الصلات فى عهد حكومة تير حتى أن اسم محمد على اخذ يتردد فى البرلمان والصحف الفرنسية والأوروبية ثم جاء انشغال فرنسا باضطراب أحوالها الداخلية وقيام وثورة ١٨٤٨ ثم عهد الجمهورية الثانية فانعكس ذلك على العلاقة بين البلدين ولكن بتولى نابليون الثالث الحكم وقيام الامبراطورية الثانية توثقت العلاقة من جديد فقد اهتمت حكومة نابليون الثانى بالتوسع والاستعمار ونشر النفوذ السياسى وبلغت تلك العلاقات الذروة فى عهد سعيد وتغلغل الفرنسيون فى مختلف الادارات وانتشر استخدام اللغة الفرنسية وجاءت زيارة اسماعيل لفرنسا عام ١٨٦٨ تتويجا لتلك العلاقات ثم جاء افتتاح قناة السويس وحضور نابليون الثالث واوجينى الى مصر على رأس فوج علمى ضخم حتى أن كاريه وصف البعثة الفرنسية المصاحبة للامبراطور بأنها البعثة العلمية الثانية الى مصر بعد البعثة الأولى التى جاءت مع الحملة الفرنسية كما عبر عن اعجابه بانتشار النفوذ الفرنسى فى مصر لقد سجلت فرنسا مجدها وفخرها على القناة .

وفى الحقيقة ان فرنسا لم تراع سوى مصالحها فى مصر فقد اشتركت فى مؤامرة خلع الخديوى اسماعيل والدس له لدى السلطان العثمانى .

المصـــادر والمراجع

اولا ـ المصـــادر الأجنبية :

Public Record :

Foreign Office :

F.O. 78/842

F.O. 78/875

F.O. 78/816

F.O. 78/966

ثانيا ـ المراجع العربيـــة :

١ ـ احمـــد بـــدوى : فى موكب الشمس ، القاهرة ١٩٥٠ جـ ٢ .

٢ ـ احمد عبد الرحيم مصطفى : مصـــر حككيـــان . القـــاهرة ١٩٦٠ .

٣ ـ ــــــــــــــــــ : علاقات مصر بتركيا فى عهد الخديوى اسماعيل ١٨٦٣ ـ ١٨٧٩ القاهرة ١٩٦٧ .

٤ ـ احمد عزت عبد الكريم : تاريخ التعليم فى مصر من نهاية حكم محمد على الى أوائل حكم توفيق ـ عصر عباس وسعيد ، القاهرة ١٩٤٥ ط .

٥ ـ ادريس افندى : ادريس أفندى فى مصر مذكرات الفنان والمستشرق الفرنسى بريس دافين فى مصر (١٨٠٧ ـ ١٨٧٩) جمعها وترجمها الدكتور انور لوقا ، القاهرة ١٩٩١ .

٦ ـ ادوارد وليم لاين : عادات المصريين المحدثين وتقاليدهم . مصر ما بين ١٨٣٣ ـ ١٨٣٥ ترجمة سهير دسوم ، القاهرة ١٩٩١ .

٧ ـ الهام محمد على ذهنى : مصر فى كتابات الرحالة الفرنسيين فى القرنين السادس عشر والسابع عشر القاهرة ١٩٩١ .

٨ ـ ــــــــــــــــــ : مصر فى كتابات الرحالة والقناصل الفرنسيين فى القرن الثامن عشر . القاهرة ١٩٩٢ .

٩ ـ امين سامى : تقويم النيل عصر عباس حلمى باشا الأول ومحمد سعيد باشا القادة ١٩٣٦ ، المجلد الأول ص ٣ .

١٠ ـ تيودور روشتين : تاريخ المسألة المصرية ١٨٧٥ ـ ١٩١٠ . ترجمة كتاب خراب مصر ترجمة عبد الحميد العبادى ، ومحمد بدران ، بيروت ١٩٨١ .

١١ ـ ثــروت عكاشــة : مصر فى عيــون الرحــالة والفنــانين والأدبــاء (القــرن التاســع عشر) القــاهرة ج١٩٨ ج ٢ .

١٢ ـ جــلال يحــى : مصر الحديثة ١٨٠٥ ـ ١٨٤٠ .

١٣ ـ حــلمى شــلبى : الموظفون فى مصر فى عصر محمد على ، القاهرة ١٩٨٩ .

١٤ ـ شــامبليون : شــامبليون فى مصر الرســائل والمذكرات ترجمة عماد عدلى ومراجعــة د. طاهر عبد الحكيم ، القاهرة ١٩٩١ .

١٥ ـ شــوقى الجمــل : تاريخ ســودان وادى النيــل القاهرة ١٩٦٩ ـ ج ١ .

١٦ ـ عبد الرحمن الجبرتى : عجــائب الآثار فى التراجم والأخبــار ج ٤ .

١٧ ـ عبد الرحمن الرافعى : تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم فى مصر ، القاهرة ١٩٨١ ج ٢ .

١٨ ـ ــــــــــــ : عصــر محمــد عــلى ، القاهرة ، ١٩٨٢ .

١٩ ـ ــــــــــــ : عصــر اســماعيل . القــاهرة ١٩٨٢ ج ١ .

٢٠ ـ عبد العزيز الشــناوى : السخرة فى حفــر قنــاة السويس ، القاهرة ١٩٦٦ .

٢١ ـ عبــد العــزيز نــوار : التاريخ الحديث أوروبا من

الثورة الفرنسية حتى الحرب الفرنسية البروسية ١٧٨٩ ــ ١٨٧١ . القاهرة ١٩٨٧ .

٢٢ ــ ــــــــــــــ : مصر والعراق دراسة فى تاريخ العلاقات بينهما حتى نشوب الحرب العالمية الأولى ، القاهرة ١٩٦٨ .

٢٣ ــ **فاطمة علم الدين** : تطور النقل والمواصلات الداخلية فى عهد الاحتلال ١٨٨٢ ــ ١٩١٤ ، القاهرة ١٩٨٢ .

٢٤ ــ **فولنى** : ثلاثة اعوام فى مصر وبر الشام نقلها الى العربية ادوارد البستانى ١٩٤٩ .

٢٥ ــ **كلوت بك** : لمحة عامة الى مصر . القاهرة ج ١ ج ٢ .

٢٦ ــ **لينان دى بلفون** : مذكرات عن أعمال المنافع العامة الكبرى التى تمت فى مصر منذ اقدم العصور حتى عام ١٨٧٢ ، القاهرة ١٩٤٩ .

٢٧ ــ **ماربيت** : نظرة عامة عن مصر ترجمة عبد الله أبو السعود .

٢٨ ــ **محمد عمر التونسى** : تشحيذ الاذهان بسيرة بلاد العرب والسودان .

٢٩ ــ **محمد فؤاد شكرى** : مصر فى القرن التاسع عشر ١٨٠١ ــ ١٨١١ ، القاهرة ١٩٥٨ .

٣٠ ــ **محمود صالح منسى** : مشروع قناة السويس بين

اتبـــاع سان ســـيمون وفردنـــاند دى لسبس ، القاهرة ١٩٧١ .

٣١ ـ مصـطفى الحنـاوى : قناة السويس ومشـكلاتها المعاصرة ، القاهرة ١٩٥٢ .

٣٢ ـ هيلـين آن ريفـلين : الاقتصاد والادارة فى مصر فى مستهل القرن ١٩ ، القاهرة ١٩٦٨ .

ثالثا ـ المراجع الاجنبية :

1. About, Edmond : Le Fellah. Souvenirs d'Egypte. Paris. 1869.
2. Ampère, J.J. : Voyage eu Egypte et eu Nubie Paris 1868.
3. Audouard, Mme Olympe : L'orient et ses Peuplades Paris. 1867.
4. Belzoni : Le Jeune Voyage en Egypte et Nubie Paris. 1826.
5. Blanc, Charles : Voyage de La Haute Egypte. Paris 1876.
6. Brehier, Louis : L'Egypte de 1798 à 1900. Paris. 1900.
7. Browne, W. : Nouveau Voyage dans la haute la masse Egypte, La Syrie, Le Dar-four. Paris. 1798 t2.
8. Cadalvene, M. et J. De Brevery : L'Egypte et La Nubie. Paris. 1841 t 1 — 2.
9. Champollion, Figeac : Egypte Ancienne Paris 1829.
10. Caillaud, Frederic : Voyage à L'Orient et à L'occident de la theibaide fait par M. Caillaud pendant Les années 1815 — 1816— 1817 — 1818.

11. Caillaud, F. : Voyage à Meroé et au fleuve blanc au dellà de Fâzogl. Paris 1826 t 1 — 2 — 3.

12. Carré, Jean Marie : Voyageurs et écrivains Français en Egypte. Le Caire 1960 t 1 — 2.

13. Clement, R. Les Français d'Egypte au XVII et XVIII siecles. Le Caire 1960.

14. Cocheries, Jules : Situation interational de L'Egypte et de Soudan. Paris. 1903.

15. Cuny, Charles : Journal de Voyage de docteur Cuny de Siout à el Obeid de 22 Novembre 1857 à 5 Avril 1858. Parsi. 1863.

16. De Bellefonds, Linaut Bey : L'Etbaye Pays habité par les Arabes Bicharieh — Geographie Ethnologie. Mines d'or Paris. 1869.

17. De Carcy, E. : De Paris en Egypte. Souvenirs de Voyage. Paris. 1875.

18. De Chateaubriand, Le Vicomte : Itineraire de Paris à Jerusalem. Paris. 1963 t 2.

19. De Chateaubriand, Le Viscomte : Memoires D'outre — tobme. Paris 1911.

20. D'estourmel, Le Comte Joseph :Journal d'un Voyage en Orient. Paris. 1844 t 1 — 2.

21. De Forbin, Le Comte : Voyage dans le Levant en 1817 et 1818. Parsi 1818.

22. De Gobineau, Le Comte : Trois ans en Asie Paris 1859.

23. De Gobineau : Essai sur L'inegalité des races Humaines Paris 1938 t 1.

24. De Lature, Le Comte D'Escayrac : Memoires sur Le Soudan 1855 — 1856.

25. De Marcellus, le comte : Souvenirs de L'Orient Paris -861.

26. De Montulé : Voyage en Amerique en Italie Sicilie et en Egypte Pendant les années 1816 — 1817 — 1818 — 1819. Paris 1821 t 1.

27. De Nerval, Gerard : Voyage en Orient Paris 1869 t1.

28. De Pardieu, Le Comte : excursion en Orient L'Egypte, Le Mont Sinai, L'Arabie, Le Palestine, La Syrie, Le Libai Paris 1851.

29. De Vaujany, H. Histoire de L'Egypte Le Caire 1885.

30. Driault : Mohamed Aly et Napoleon 1807 — 1914. 1925.

31. Drovetti : Voyage à L'Oasis de Syouah Paris 1851.

32. Edmond, Charles : L'Egypte à L'exposition Universelle de 1867 Paris 1867.

33. El Abassi, Ali Bey : Travels of Ali Bey. in Morocco Tripoli, Cyrus, Egypte, Arabia. Syria, Turkey between the years 1803 and 1807 Londno 1816.

34. Fesquet, Goupil : Voyage D'Hora ce Vernet en Orient Paris 1843.

35. Flaubert, Gustave : La tentation de Saint Antoine Paris 1922.

36. Fromentin, Eugené : Voyage en Egypte. Paris 1869.

37. Hamont, M. : L'Egypte sous Mehemet Ali Paris 1845 t 2.

38. Hanotaux, Gabriel : Histoire de la Nation Egyptienne de 1801 à 1882 Paris 1936 t VI.

39. L'hôte, Nestor : Lettres écrites de L'Egypte en 1838 et 1839. Paris 1840.

40. Mariette, Auguste : Voyage dans la haute Egypte entre Le Caire et le premier cataracte. Paris 1903.

41. Marmier, Xavier : Du Rhin au Nil. Souvenirs de Voyage tome second.

42. Marmont : Voyage du Marechal Marmont Duc de Raguse en Hongrie en transylvanie dans La Russie meridional, en crimée et sur Les bords de La Mer d'Azoff à Contantinople dans quelques partis de L'Asie Mineure en Syrie en Palestine et en Egypte 1834 .. 1835 t 3.

43. Michaud, M, Poujoulat, M : Corespondance D'orient 1834. Paris 1835 t 6 — 7.

44. Poitou, Eugene, Un hiver en Egypte. Paris 1860.

45. Prisse d'Avennes Emile : Antique Egyptienne de musée Britanique. London 1841.

46. Prisse d'Avennes : Les Monuments du Kaire Paris 1877.

47. Prisse d'Avennes : characters costumes and mode of life in the Vally of the Nile London 1848.

48. Renan, Ernest : oeuvres completes de Ernest Renan par Henriette Psicharce Paris 1848.

49. Renouvin, P. : Histoire des relations internationales 1851 — 1872. Paris 1954.

50. Rifaud, J.J. : tableau de L'Egypte et La Nubie et les lieus Circonvoisins Paris 1830.

51. Scholcher, Victor : L'Egypte en 1845. Paris 1846.

52. St John, James Augustes : Egypt and Mohammed Ali or travells in the valy of the Nile Londno 1834 Vol. II.

رابعا ــ رسائل غير منشورة :

١ ــ اسماء احمد كحيل : العلاقات المصرية الفرنسية ١٨٥٤ ــ ١٩٠٤ رسالة ماجستير غير منشورة جامعة الأزهر ــ ١٩٨٧ اشراف أ.د. عبد الرحيم عبد الرحمن ــ أ.د. عبد الحميد البطريق .

٢ ــ عبد الفاضل الصافى : العلاقات الاقتصادية المصرية الفرنسية فى عهد محمد على حتى ١٨٤٠ جامعة القاهرة ١٩٨٨، اشراف أ.د. محمد جمال الدين المسدى .

٣ ــ Hachich, Rawia : Les écrivains voyageurs Français en Egypte 1870 — 1935· Université D'Ain Shams Faculté des Lettres· Janvier 1992.

الفهـــرس

الصفحة

الصفحة

الفصل الثالث :

الفصل الرابع :

الفصل الخامس :

صدر فى هــذه السلسلة

ـ الأصول التاريخية لمسالة طابا ـ دراسة وثائقية .
د. يونان لبيب رزق .

ـ مجمع اللغة العربية ـ دراسة تاريخية .
د. عبد المنعم الدسوقى الجميعى .

ـ التــيارات السيــاســـية والاجتماعيــــة بين المجــددين والمحافظين ـ دراسة فى فكر الشيخ محمد عبده .
د. زكريا سليمان بيومى .

ـ الجذور التاريخية لتحرير المرأة المصرية فى العصر الحديث.
د. محمد كمال يحيى .

ـ رؤية فى تحديث الفكر المصرى ـ « الشيخ حسن المرصفى وكتابه رسالة الكلم الثمان مع النص الكامل للكتاب » .
د. احمد زكريا الشلق .

ـ صياغة التعليم المصرى الحديث ـ دور القوى السياســية والاجتماعية والفكرية ١٩٢٣ ـ ١٩٥٢ .
د. سليمان نســيم .

ـ دور مصر فى أفريقيا فى العصر الحديث .
د. شوقى عطا الله الجمل .

ـ التطورات الاجتماعية فى الريف المصرى قبل ثورة ١٩١٩ .
د. فاطمة علم الدين عبد الواحد .

ـ المرأة المصرية والتغيرات الاجتماعية ١٩١٩ ـ ١٩٤٥ .
د. لطيفة محمد سالم .

١٠ ـ الأسس التاريخية للتكامل الاقتصادى بين مصر والسودان ـ دراسة فى العلاقات الاقتصادية السودانية ١٨٢١ ـ ١٨٤٨ .
د. نسيم مقبار .
١١ ـ حول الفكرة العربية فى مصر ـ « دراسة فى تاريخ الفكر السياسى المصرى المعاصر » .
د. فؤاد المرسى خاطر .
١٢ ـ صحافة الحزب الوطنى ١٩٠٧ ـ ١٩١٢ « دراسة تاريخية » .
د. يواقيق رزق مرقص .
١٣ ـ الجامعة الأهلية بين النشأة والتطور .
د. سامية حسن ابراهيم .
١٤ ـ العلاقات المصرية السودانية ١٩١٠ ـ ١٩٢٤ .
د. أحمد دياب .
١٥ ـ حركة الترجمة فى مصر فى القرن العشرين .
أحمد عصام الدين .
١٦ ـ مصر وحركات التحرر الوطنى فى شمال أفريقيا .
د. عبد الله عبد الرازق ابراهيم .
١٧ ـ رؤية فى تحديث الفكر المصرى ـ « دراسة فى فكر أحمد فتحى زغلول » .
د. أحمد زكريا الشلق .
١٨ ـ صناعة تاريخ مصر الحديث ـ « دراسة فى فكر عبد الرحمن الرافعى » .
د. حمادة محمود اسماعيل .
١٩ ـ الصحافة والحركة الوطنية المصرية ١٩٤٥ ـ ١٩٥٢ ـ من ملفات الخارجية البريطانية
د. لطيفة محمد سالم .

٢٠ ـ الدبلوماسية المصرية وقضية فلسطين ١٩٤٧ ، ١٩٤٨.
د. عادل حسين غنيم .
٢١ ـ الجمعية الوطنيـة المصرية سـنة ١٨٨٣ ـ « جمعيـة الانتقام » .
د. زين العابدين شمس الدين نجم .
٢٢ ـ قضية الفلاح فى البرلمـان المصرى ١٩٢٤ ـ ١٩٣٦ .
د. زكريا سليمان بيومى .
٢٣ ـ فصول فى تاريخ تحديث المدن فى مصر ١٨٢٠ ـ ١٩١٤
د. حلمى احمد شلبى .
٢٤ ـ الأزهر ودوره السياسى والحضارى فى افريقيا .
د. شـوقى الجمـل .
٢٥ ـ تطور النقل والمواصلات الداخلية فى مصر فى عهد الاحتلال البريطانى ١٨٨٢ ـ ١٩١٤ .
د. فاطمة علم الدين .
٢٦ ـ جمعية مصر الفتاة ١٨٧٩ ـ دراسة وثيقية .
د. على شـلش .
٢٧ ـ السودان فى البرلمـان المصرى ـ ١٩٢٤ ـ ١٩٢٦
د. يواقيم رزق مرقص .
٢٨ ـ عصـر حككيـان .
ا.د/ احمد عبد الرحيم مصطفى .
٢٩ ـ صغار مـلاك الأراضى الزراعيـة فى مديريـة المنوفيـة . ١٨٩١ ـ ١٩١٣ .
د. حلمى احمد شلبى .
٣٠ ـ المجالس النيابية فى مصر فى عهد الاحتلال البريطانى .
د. سعبدة محمد حسنى .
٣١ ـ دور الطلبة فى ثورة ١٩١٩ ، ١٩١٩ ـ ١٩٢٢ .
د. عاصم محروس عبد المطلب .

٣٢ ـ الطليعة الوفدية والحركة الوطنية ١٩٤٥ ـ ١٩٥٢
د. اسماعيل محمد زين الدين .

٣٣ ـ دور الأقاليم فى تاريخ مصر السياسى
د. حمادة محمود اسماعيل .

٣٤ ـ المعتدلون فى السياسة المصرية
د. احمد الشربينى السيد .

٣٥ ـ اليهـود فى مصـر .
د. نبيل عبد الحميد سيد احمد .

٣٦ ـ مصر فى كتابات الرحالة الفرنسيين فى القرنين السـادس عشر والسابع عشر .
د. الهام محمد على ذهنى .

٣٧ ـ المعتدلون فى السياسة المصرية .
ماجدة محمد حمود .

٢٨ ـ مصر والحـركة الوطنيـة .
أ.د/ محمد عبد الرحمن برج .

٣٩ ـ مصر وبناء السودان الحديث .
د. نسـيم مقـار .

٤٠ ـ تطور الحركة النقابية للمعلمين المصريين ١٩٥١ ـ ١٩٨١ .
د. محمد ابو الاسعاد .

٤١ ـ المـاسونية فى مصـر .
د. على شـلش .

٤٢ ـ القطن فى العلاقات المصرية البريطانية ١٨٣٨ ـ ١٩٤٢
د. عاصم محروس عبد المطلب .

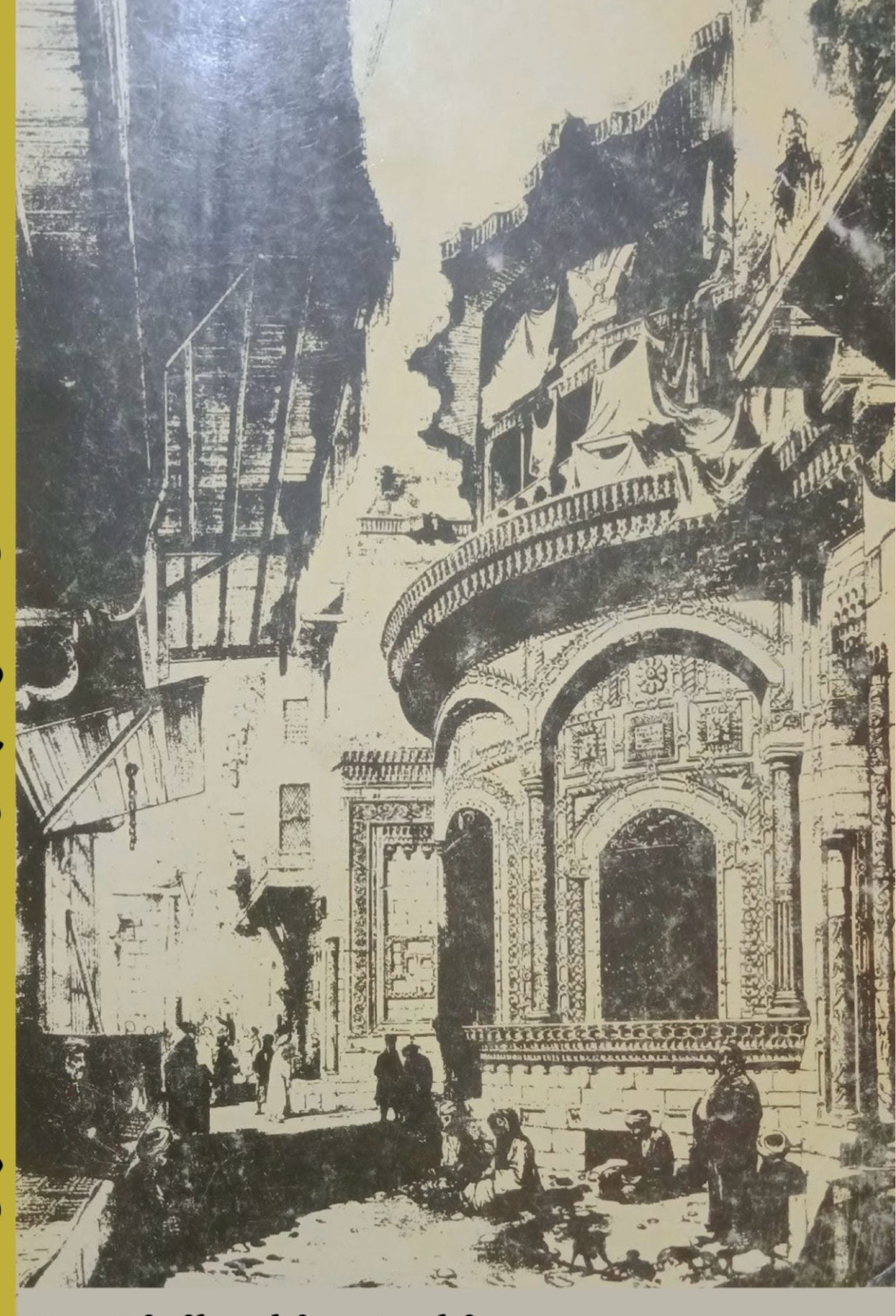
بين يديك :

مصر فى كتابات الرحالة الفرنسيين فى القرن التاسع عشر
١٨٠٥ ـ ١٨٧٩ .
د. الهام محمد على ذهنى .

رقم الايداع ١٩٩٤/١٠٩٥٨

الترقيم الدولى I.S.B.N. 977 — 01 — 4204 — 2

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب



الغلاف للفنان: محمود الهندى

٤٠٠ قرش